سعودي ولكن لقيط

سمير محمد



سمير محمد

سعودي
ولكن لقيط

اسم المؤلف اسم مستعار (ليس حقيقياً)، ولكن أحداث القصة كلها حقيقية،
والمؤلف هو صاحب القصة نفسه.

سعودي
ولكن لقيط

سمير محمد

الكتاب: **سعودي ولكن لقيط**

المؤلف: **سمير محمد**

التصنيف: **سيرة ذاتية**

الناشر: **دار مدارك للنشر**

الطبعة الأولى، أكتوبر (تشرين الأول) 2012

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN 978-9948-425-08-3

طبعت في مطابع المتحدة للطباعة والنشر United Printing & Publishing

صورة الغلاف: آلاء الغفيلي



www.mdrek.com - read@mdrek.com

مجمع الذهب والألماس، شارع الشيخ زايد، بناية رقم 3، مكتب رقم 3226، دبي - الإمارات العربية المتحدة
Gold and Diamond park, Sheikh Zayed Road, Bldg 3 Office 3226, Dubai - United Arab Emirates

P.O.Box: 333577, Dubai - UAE. Tel: +971 4 380 4774 Fax: +971 4 380 5977

المحتويات

إهـداء

- إهداء.. إلى كل (لقيط، ولقيطة) كان قدرهم أن يكونوا ضحية لنزوة عابرة.. وظلمهم المجتمع بنظرته الدونية.. وتصنيفه الطبقي البشع..

- إهداء.. إلى كل (مهموم، أو مضطهد، أو مظلوم) تعرض لقسوة الحياة.. أو مرارة الألم.. أو ندبات الزمن القاسية.

- إهداء.. إلى روح ذلك «الشيخ» المرحوم، الذي احتواني، وتبناني فترة قصيرة من الزمن لكنها كانت بمثابة أيام ربيع العمر، وجعل مني شخصا مختلفا.

- إهداء.. إلى كل من يقرأ سيرتي المتواضعة (رجالا ونساء) على مختلف جنسياتهم ومذاهبهم وأعمارهم وألوانهم، دون تصنيف أو تمييز أو طبقية، وبعيدا عن نمطية الحسب والنسب، أو تقاسيم الجسد، أو حدود وتضاريس الجغرافيا.

مقدمة

حقيقة لا أعلم ماذا أسمّي، بوحي وسردي لأسراري.. هل أسميها سيرة «لقيط»؟ أم بوح «لقيط»؟ أم ثورة «لقيط»؟ أم رواية لقيط؟ أم احتجاج وشكوى «لقيط»؟ أم ثورة «لقيط» ضد ظلم المجتمع؟

لا يهم.. سموا بوحي وأسراري وقصّتي ما شئتم، لا يهمني التصنيف بقدر ما يهمني وصول المضمون، فقصتي وأسراري أرى أنه حان الوقت لنشرها، بعدما كانتِ حبيسة في أدراج أسراري فترة من الزمن، وحان الوقت لأتمرد على سريتها وأبوح بها علنا لعلها تبدد عني شجون وهموم وحدتي المملة، وتذيب شيئا من ندبات مؤلمة ما زالت آثارها عالقة وواضحة على الجسد والروح.

وليس الهدف من بَوْحي الضعف أو استجداء مشاعر أحد أو طلب عطف أو شفقة من المجتمع، «ففاقد الشيء لا يعطيه»، والمجتمع فاقد للمشاعر الإنسانية الصادقة. لست بحاجة لعطفهم أو شفقتهم فقد وصلت بفضل الله إلى مكانة وقناعة تامة أنني تغلبت بفضل الله على كل المعضلات والمنغصات والمعوقات التي واجهتني، وساهمت في قيادة ذاتي باستقلالية تامة، وقمت بتحفيز نفسي بطموح، وإرادة، وعزيمة. أحمد الله الذي منحني تلك الإرادة والعزيمة.

لقد حان الوقت لكشف وتعرية الوجه القبيح والمزيف لمجتمع

طبقي تأصلت في نفوسهم العنصرية والطبقية، مجتمع مأزوم «بالنرجسية» حد الاعتقاد، وليست هذه المكاشفات انتقامًا، أو افتراءً، أو تجنيًا على المجتمع «حاش لله». إنما كما يقال في علم السلوك «لكل فعل ردة فعل»، وتجربتي الشخصية التي عشتها هي ردة فعل طبيعية لتلك الإقصائية التي مورست ضدي «بشوفينية» يستمتع بها المجتمع حد «السادية». وليس من عاش ذل الواقع، وذاق مرارة الألم كمن سمع بها..

من هذا المنطلق أروي لكم تجربتي وسيرتي التي أكتبها بحروف مثخنة بجراح مؤلمة من الإقصاء والوحدة والشتات والتقزيم والاحتقار، فقد عشت حياة شتات مُرّها كثير وحُلوها قليل، وقد تمخض عن هذه التجربة المُرّة «سيرة» أطرحها أمامكم بكل أسرارها وأبعادها وندباتها، فإن شئتم فاقبلوني بجميع أسراري، وبجميع تعرِيتي لسلوكيات وأنماط مجتمع طبقي إقصائي، وإن شئتم فارفضوني واتركوني لوحشة المكان، وغربة الروح، وشتات الوجدان.

لن أخسر بعد الآن شيئا أكثر مما خسرت، فقد تعرضت لكل أنواع الانكسارات، والذل، والمهانة، وعانيت من نظرة وتعامل وسلوكيات مجتمع متصحر المشاعر افتقدت فيه الاحتواء والنظرة العادلة، رغم أن طموحاتي ميسورة وبسيطة، فكل ما أحتاجه هو أحاسيس إنسانية نبيلة صادقة تحس بي كإنسان وتعي أن لا ذنب لي بتاتا بكوني (لقيطًا) لكنها حسبة المجتمع الذي يكيل بموازين لا يوجد فيها مسارات للعدل والمنطقية، فحساباتهم يُفَصّلونها على مقاساتهم، ومن لم تناسبه هذه

المقاسات فسيكون مصيره أرصفة النسيان وغياهب التشتت والضياع.

وبناء على تلك الممارسات الجمعية التي تريد إرغامي على الخضوع لقانون طبقي عنصري، لم يكن أمامي من فرصة احتجاج إلا تسجيلي مواقف مررت بها، دونتها على شكل سيرة وبوح أرى أنه حان الوقت أن ترى النور.

قد يتساءل (البعض) هل هذه الأسرار والسيرة نسجها خيال كاتبها فكانت بمثابة المحاكاة الافتراضية لقصة خيالية من قصص (اللقطاء)، أم أنها تجسد واقع كاتبها الحقيقي، وتفاصيلها الدقيقة تدل على واقعيتها؟

لن أفصح عن حقيقتها من عدمها، بل سأترك الاستنتاج والتحليل لكل «قارئ» ومطلع نبيه يملك فراسة ونظرة ثاقبة، ويقوم بتحليل تفاصيل هذه السيرة وتشريح أسرارها بعد قراءته لجميع فصولها، وبالتأكيد سيعرف القارئ النبيه، هل هذه الأسرار واقعية أم خيالية؟ هل أنا من عاش واقع هذه الأسرار؟ أم هل أنا من كتبها ونسجها خياله؟

كل تلك التساؤلات لن أفصح عنها بإجابة قاطعة، بل سأترك الأمر للتحليل والاستنتاج لمن يقرأها، وكلي ثقة بأن التدقيق والتمعن في جميع تفاصيل فصولها سيكفيني مؤونة إجابة تساؤلاتكم: هل هذه القصة حقيقة أم خيال؟

حياتي بدار الرعاية

لن أكون مبالغا لو اعتبرت أن الوحدة، والشتات، والحرمان، هم الأخوة التوائم، فقد ولدوا معي في يوم واحد، من رحم واحد، في زمن واحد منذ نعومة أظافري، في ظل مجتمع أحادي التعدد، لا يؤمن بإنسانية الإنسان بقدر ما يؤمن بحسبه ونسبه وبانتمائه القبلي.

لقد وجدت نفسي أعيش مرارة الواقع وحيدا دون أسرة أو عائلة فكانت حاضنتي عبارة عن دار رعاية مسوّرة ومسقوفة بجدران خراسانية سميكة لا تدلف إليها المشاعر والأحاسيس الأبوية الصادقة، فقد كانت مرضعتي بالدار «أُمًّا» تسمى الأم البديلة، ليست «أمي» بالمعنى الحقيقي بقدر ما هي موظفة تمارس مهامها الوظيفية، ليس بيني وبينها رابط وجداني، أو رابط أمومة عاطفي، أو رابط صلة قرابة، إنما الرابط بيني وبينها رابط نفعي (برجماتي) ينطبق عليه قول الشاعر (صلّى المصلي لأمر كان يقصده.. لما انقضى الأمر لا صلّى ولا صاما)، فعطفها واهتمامها ليس نابعًا من أجل المحافظة على إنسانيتي، إنما نابع من أجل المحافظة على استمرارية عملها المحدد بساعات معدودة تتقاضى مقابله أجرًا ماديًا، وليس من أجل هدف إنساني نبيل، كان هدفها الأسمى أن تستلم راتبها آخر الشهر جرّاء عملها بالدار. حتى لو تحلت بجلباب الرحمة والشفقة، واصطنعت في الظاهر إنسانية مزيفة، فإنها في داخلها ترى أنني أشكل لها حملاً

ثقيلاً ملقى على عاتقها، حتى لو كانت ترضعني وتهتم بي، لكن أظل في نظرها مجرد (لقيط) يشكل لها عبئًا وتذمراً، وينعكس هذا التذمر فيصبح واضحا على تصرفاتها الجافة معي ومن هم على شاكلتي من (أطفال الدار) فتمارس معنا جفافا لأنها أم مزيفة منزوعة منها عاطفة الأمومة الفطرية.

ما أقسى الألم النفسي عندما «يحسسونك» الآخرون بأنك عبء مفروض عليهم، وأنك شخص غير مرغوب فيه، كم هذا الشعور مؤلم ومزعج ينحت أخاديد من الألم النفسي والانكسار الوجداني لطفل وجد بالخطأ في زمن خطأ، وفي المكان الخطأ، وفي المجتمع الخطأ؟!

ما أصعب وما أبشع أن تعيش كطفل وكإنسان على الهامش تستجدي وتتوسل العطف والشفقة من مجتمع يرى أنك ثمن خطيئة، ويرون أن قيمتك كإنسان لا ترتقي إلى مستواهم الاجتماعي والبرجوازي؟!

هل هناك ألم نفسي أشد من ألم حرمانك كطفل وكإنسان من الحرية، بل محكوم عليك أن تكون أسيرا «معزولا» بدار رعاية محاطة بجدران أسمنتية صامتة تحيط بك «وتحسسك» بأنك في معتقل، مفروض عليك أن تنفذ عقوبة خطيئة لم تقترفها، وليس لك إرادة في التحرر منها، ويتضاعف ألمك وحزنك عندما ترى غيرك من الأطفال ينعمون بحنان ولطف وعطف محيطهم الأسري والاجتماعي واهتمامهم، وأنت كطفل (لقيط) تعاني مرارة الوحدة والحرمان

والتهميش في «دار رعاية» أسمنتية صامتة خالية من الأحاسيس الإنسانية الصادقة ومن الاحتواء، ومجردة من العواطف الإنسانية العفوية.

لقد ذقت وعشت مرارة الحرمان العاطفي الذي ما زالت مرارته تشكل لي هاجسا وعطشا روحيا مؤلما، وما زالت آثار ندباته النفسية المؤلمة عالقة بروحي حتى اللحظة، فقد كنت أعيش في (دار رعاية) متصحرة وجافة من العواطف الإنسانية الصادقة كمن يعيش في صحراء قاحلة لا ماء فيها ولا كلأ، بل مجرد صحراء جرداء خالية من المعالم الجميلة متصحرة وجافة تجعل الناظر إليها يصاب بالإحباط والحزن والتشاؤم.

كنت أحلم بالعواطف الإنسانية الصادقة التي تشكل لي خيالاً كخيال جزيرة حالمة فيها ينابيع عذبة وأشجار مثمرة ومناظر رائعة تسر الناظر وتمنح النفس الطمأنينة والسكينة والتفاؤل.

صحيح أن الدولة ورموزها مشكورين لم يقصروا بتاتا ووفروا للأيتام ومجهولي الأبوين عددًا من المميزات من توفير المسكن، وتوفير المال، والطعام وجميع وسائل الراحة، وكل ملذات الحياة الكريمة، لكن لا يمكن للدولة أن تشتري عواطف إنسانية صادقة؛ فالعواطف الإنسانية العفوية لا تباع في الأسواق أو في محلات الهدايا مغلفة بورق السلوفان، بل لا بد أن تكون صادرة من نفوس بشرية سويّة تؤمن إيمانا تاما بأهمية الاحتواء وبأهمية العواطف الإنسانية. فمهما قدم للإنسان

من متع الحياة مجردة من العاطفة، فلن يمثل ذلك شيئا أمام حرمانه من العاطفة الإنسانية العفوية الصادقة.

إن أقسى وسائل الحرمان عندما يحوّل «طفل» وكائن بشري وكائن عاطفي لديه أحاسيس ومشاعر فياضة، ويعامَل كإنسان متخشب، وينصبّ الاهتمام به على تقديم الأكل والشرب والملبس والمسكن له، وينسون أو يتناسون أنه قبل ذلك إنسان من لحم ودم ومن مشاعر وأحاسيس.

لن يعي مرارة (الجفاف العاطفي) إلا من عاش على هامش المشاعر الإنسانية «كاللقيط»، يستجدي المشاعر من مجتمع لا يؤمن بأهمية المشاعر، ولا يؤمن بالبوح أو بوجدانية وعواطف الإنسان التي تقتلها الجلافة، ويئدها الكبت، ويؤلمها الحرمان، وتكبحها نرجسية وطبقية المجتمع.

وبحكم (الحرمان العاطفي) الذي عشته وتجرّعت مرارته أصبحت أؤمن إيمانا تاما بأن الجوع والعطش العاطفي والنفسي والروحي، هو الجوع الحقيقي عند الإنسان وهو أشد ألما من الجوع الغذائي، لأن من جاع من الطعام ممكن أن يجد طعامًا في أي مكان أو يصنع لنفسه طعامًا أو يبحث له عن طعام، لكن من جاعت مشاعره وأحاسيسه لن يجد أحداً يسمع له أو يواسيه أو يحتوي همومه وشجونه، ويحتويه من الداخل روحيا ووجدانيا ويسمع منه همومه وشجونه، ويخفف عنه من جراح نفسية مؤلمة سببها الشتات الروحي، والحرمان العاطفي.

الغاية تبرر الوسيلة

من باب الأمانة في القول والنقل أعترف بأن الدولة «جزاها الله خيرا» لم تقصّر بتاتا معنا «كلقطاء»، فقد قامت بتهيئة مكان آمن مؤثث يسمى (دار الرعاية)، ووفّرت جميع وسائل وسبل الراحة من المسكن والمشرب والمأكل والمصروف والملبس لنا كأطفال (مجهولي الأبوين)، لكن تكمن المشكلة في التنفيذ، وليس في التشريع، فالمشكلة تتمثل في فريق العمل الذي يعمل بالدار وفي الأسلوب الذي تدار به الدار، فمعظم من يعمل في الدار لا يملكون معايير التعامل الإنساني الأمثل مع أطفال الدار، وأغلبهم غير متخصصين وغير مؤهلين سلوكيا، أو علميا، أو مهنيا، فهم لا يؤمنون بأن عملهم يجب أن يكون رسالة إنسانية قبل أن يكون وظيفة حكومية، فمعظمهم لم يأتوا للعمل بالدار كمتخصصين أو كمتطوعين بل أتوا لها كموظفين، كل همهم الحصول على وظيفة وراتب شهري على شاكلة القاعدة «الميكيافلية» التي تقول (الغاية تبرر الوسيلة)، فهناك فرق شاسع بين من يكون عمله في الدار من باب التخصص ومن باب أداء رسالة إنسانية تسمو فوق كل الأهداف المادية والوظيفية، وبين من يكون هدفه من العمل في الدار أن يكون موظفا حكوميا يستفيد من هذه الوظيفة كراتب ومزايا مادية ومعنوية، ولا يهمه من يسكن هذه الدار من أطفال «لقطاء» هم في نظره عبء ثقيل لايستحقون منه إلا أن يمضي معهم وقت عمله الذي ينص عليه عقد الوظيفة المكتوب بينه وبين الشئون الاجتماعية المشرفة على الدار.

كما أن الكثير من موظفي الدار، هم من نتاج ذلك المجتمع الطبقي القبلي، فهم يأتون للعمل بالدار وفي ذهنيتهم الاجتماعية والفكرية أنهم سيتعاملون مع (أبناء خطيئة/ وحرام) ينظرون (للقطاء) نظرة قاصرة فيها نوع من التمييز الطبقي. هذه النظرة تنعكس سلبا على تعاملهم مع أطفال الرعاية، فيعاملوننا على أننا مجرد أطفال تحتضنهم الدولة وتوفر لهم المسكن والمشرب والمطعم والملبس والمراقبين والمشرفين. هذا هو الأهم عندهم، لم يفكروا أننا نحتاج منهم العطف، والأحاسيس الإنسانية، فإن كنا نحس بالجوع الغذائي فإننا أيضا نحس بالجوع العاطفي فنحن بشر نملك نفوسًا بشرية، ونحتاج للأحاسيس والمشاعر العفوية الصادقة أكثر من حاجتنا للأكل والشرب، لكننا للأسف افتقدنا تلك الأحاسيس والمشاعر والاحتواء. كم تمنينا أن يسمعنا أحد، فنحن لا نحتاج لأحد يحرسنا، بقدر ما نحتاج لأحد يؤمن بإنسانيتنا ولا يصادر حريتنا. كنا نحتاج إلى متخصصين في علم النفس، ولأخصائيين اجتماعيين مهنيين يغلب عليهم الطابع الإنساني والمهني، لا إلى موظفين عاديين يعاملوننا كأننا معتقلون أو مجندون تنفذ بحقنا عقوبات إجرائية أو جزائية. كان هدف هؤلاء المراقبين والمشرفين أن يحرسونا لا أن يحتوونا، فيفرضون علينا أن نسمع منهم لا أن يسمعوا منا. كان الحوار بيننا وبينهم معدوما ومقطوعا تماما، فقد كانوا مأزومين ومفرمين حد الغلو بإلقاء الأوامر والنواهي، وتشديد القيود وتنفيذ التعليمات بشكل فيه فظاظة وصفاقة، فقد حوّلونا من أطفال نحتاج الحوار والحب والعطف، إلى أطفال مستمعين منفذين لأوامرهم ونواهيهم، هكذا

كانت حياتنا بالدار حياة رتيبة مملة بشعة فيها تصحر روحي، وعطش وجداني، وجفاف عاطفي مؤلم، لم نحس فيها بالطفولة البريئة أو بالأمان الأسري أو الأمان الروحي أو بالإشباع العاطفي.

كان الكثير من المشرفين والمراقبين نساء ورجالا بالدار مهووسين بحب الأوامر والنواهي، يتعاملون معنا كأننا في معتقل أو في عنابر عسكرية، وليس في ميتم أو دار رعاية، كانوا يعاملوننا بفظاظة تصل أحيانا حد القسوة، يلقون علينا عددا من الأوامر والنواهي اليومية التي تفرض علينا دون رحمة أو شفقة أو حوار، لم يسألونا يوما ما ماذا يزعجنا أو يكدر صفو نفوسنا، لم يكن في قاموسهم القمعي التسلطي هامش للحوار أو مساحة للنقاش معنا، أو أخذ آرائنا أو التساؤل عما يزعجنا أو يسعدنا. لا يوجد في قاموسهم سوى فرض أوامر وتعليمات صارمة لا تقبل الجدل أو التنازل مهما تأففنا أو مللنا منها، وظل الحال على هذا المنوال مما جعل الحياة بالدار تبدو مزعجة مملة حد الألم والسأم.

ورغم أنه مخصص لنا «فسحة» ووقت للهو واللعب اليومي الذي عادة ما يكون صباحا أو يكون بعد صلاة العصر، لكننا أحيانا كثيرة نفقد الاستمتاع بالرياضة أو بالترفيه لتسلط بعض المشرفين والمراقبين، لأن هذا «الوقت» يخضع لأوامرهم ونواهيهم، وأمزجتهم، فعندما يكون المشرف أو المراقب في مزاج غير مريح، وبينه وبين مديره أو أسرته مناكفات أو مشاكل فإن المجال الوحيد للتنفيس عن مزاجه وكبته هو أن يمارس ضدنا «شوفينية – وسادية» يفرغ عبرها كل همومه ورواسبه

النفسية والعملية والأسرية والاجتماعية بالاستبداد ضدنا، رغم أنه ليس لنا ذنب فيما يمر به هؤلاء المشرفون والمراقبون من مشاكل سواء في محيطهم العملي أو محيطهم الأسري والاجتماعي، إنما قدرنا أننا المتنفس الوحيد لهم، ونحن الجدار القصير الذي لا حول لنا ولا قوة إلا أن نسمع فننفذ، ونؤمر فنطيع، ليس أمامنا من حل إلا أن نلعق جروحنا دون احتجاج أو تمرد، فقد كنا في نظر هؤلاء المراقبين والمشرفين مجرد «قطيع» يسوقوننا متى ما شاءوا، نأكل متى ما يشاءون، وننام متى ما يشاءون، ونلعب متى ما يشاءون وليس كما نشاء، كل همهم أن يراقبونا ويحرسونا، لا أن يهتموا برغباتنا، أو مشاعرنا، كنا في نظرهم عبأ عليهم نأخذ من وقتهم ونحرمهم من البقاء مع أسرهم، كان فرط حركتنا كأطفال تستفز مشاعرهم، يريدوننا أن نكون أطفالاً متخشبين يحركوننا كيفما يشاءون دون أن نحتج أو نرفض، ومن يتجرأ منا على الاحتجاج أو الشكوى أو التمرد سيكون العقاب الجسدي والنفسي والحرمان من اللعب والحرمان مما نحب، عقابًا حاضرًا ينتظرنا، كانت حياتنا في «الدار» حياة قاسية بشعة ممزوجة بالأوامر والنواهي، مؤطرة بالكبت والتسلط، وحب السيطرة.

من أنا؟ تساؤل يقتلني

أحيانا عندما يكون قلق وظروف الطفل تتخطى عمره الزمني، فإن ذلك يشكل له هاجسًا يحرمه من متع الحياة، فلا يستمتع بمراحل الطفولة والمراهقة، وقد كان قدري أنني طفل حساس ومأزوم بالتفكير والتساؤلات منذ أن وصل عمري ثماني سنوات، مما شكل لي حرمانًا، وقلقًا وتساؤلات جعلتني أعيش حساسية مفرطة مع نفسي ومع المجتمع المحيط بي، خلاف معظم زملائي بالدار فقط كان معظمهم لديه تقبل للوضع، يعيشون حياتهم ويستمتعون بمراحل حياتهم بعيدا عن التفكير أو التساؤلات، كان كل تركيزهم منصبًا على اللعب، والمرح، والأكل، والنوم، والدراسة، لكن تساؤلاتي المبكرة حرمتني لذة ومتعة أيام الطفولة والمراهقة، فبدأ تفكيري الباطن يتساءل، لماذا نوجد بالدار وغيرنا ممن هم في مثل أعمارنا يعيشون في أحضان أسر ومجتمع يغدقون عليهم حنانًا واهتمامًا وعطفًا. ما هو ذنبنا لكي نعيش في (دار الرعاية) معزولين عن المجتمع بجدران أسمنتية صامتة دون أن يكون لنا أسرة أو مجتمع ننتمي إليهم.. ؟!

بدأت تحاصرني عدة تساؤلات مزعجة، وبدأت أقارن بيني وبين الأطفال الذين أختلط بهم كزملائي الطلاب في المرحلة الابتدائية الذين لهم أولياء أمور وآباء وأمهات معروفون، وعندهم مجتمع أسري، ومحيط اجتماعي ينتمون إليه، ويعتزون ويفتخرون بالانتساب إليه، كان أكثر سؤال يشكل لي هاجسا مزعجا حد الألم هو (من أنا؟ ومن

أكون؟).

كان هذا التساؤل يعيش معي كأنفاسي، يحاصرني ويقتلني ببطء، بدأت مشتت الذهن أطرح على نفسي بشكل يومي تساؤلات مزعجة تدور في مخيلتي من أنا؟ ومن أكون؟ من هو والدي؟ من هي أمي؟ ولماذا تخلوا عني؟ وأين هما الآن؟ ومن هي قبيلتي أو عائلتي التي أنتمي أليها؟ ولماذا زملائي في المدرسة عندهم آباء وأمهات وإخوان وأسر وقبيلة وأنا وحيد أذهب للدار نهاية اليوم الدراسي وزملائي يذهبون لبيوتهم وأسرهم؟

تساؤلات جمّة كانت تقتلني لم أجد إجابات مقنعة لها، بدأت تكبر هذه التساؤلات معي ككرة ثلج، وتشكل لي كابوسًا جاثمًا على روحي تخنقني وتجعلني مشتتًا سارح الذهن، بدأت أنزوي بعيدا عن الناس أحاول أن أجد إجابة تشفي غليل نفسي وأعرف (من أكون؟)، وعندما لم أجد إجابة على تساؤلاتي أصبحت محبطًا مهمومًا يائسًا.

بدأت تتشعب الأسئلة وتتسع دائرتها في رأسي، هل وجودي في هذه الحياة دون «أب وأم» سببه ضياع أبي وأمي عني؟ أم ضياعي عنهم؟ وكيف وصلت إلى الدار؟ ولماذا لم يصارحني القائمون على الدار عن جذوري؟ ومن جاء بي إلى الدار؟ وهل سأعيش طول العمر دون «أب وأم» ودون إخوة وأسرة وقبيلة؟

تساؤلات لا تعد ولا تحصى بدأت تعصف بي، وتحاصرني في نومي وفي يقظتي، وفي كل لحظاتي أصبحت أميل للعزلة الشعورية

والاجتماعية، وعدم الكلام، وأحس بأنني ضائع جسديًا وروحيًا، فاقد للأمان، لم أعد أشتهي الأكل أو أحب اللعب أو الترفيه. أهملت المذاكرة وحل الواجبات، أصبحت عدوانيًا وشرسًا مع من يزعجني أو يحاول اللعب معي من الأطفال، لاحظت إحدى المشرفات بالدار ذلك التغيير الذي اعتراني فجأة دون مقدمات، فقد كنت قبل فترة قصيرة هادئ الطباع، مُحِبًّا للعب والمرح، متفوقًا في دروسي، محافظًا على واجباتي. قامت تلك المشرفة بعرض حالتي على أخصّائية اجتماعية بالدار، جلست معي الأخصّائية على انفراد، كانت إنسانة ودودة ولطيفة، حاولت منذ البداية أن تكون مرحة وتختلق بعض المزاح لكي تبدد عني الإحباط والتوتر الذي كان باديا علي، سألتني عدة أسئلة عما يؤرقني، لكني لم أجب على أي سؤال من أسئلتها، لم أجد وسيلة أعبر بها لها إلا البكاء بدموع حارقة تسيل بغزارة على وجنتي وتنهدات مؤلمة خارجة من أعماق قلبي، حاولت بشتى الطرق أن تعرف ما سبب بكائي ونحيبي المؤلم، لكني كنت صامتا عازفا عن الإجابة، قامت بطلب المشرفات علي وسؤالهم عن أسباب التغيير المفاجئ الذي طرأ على حالتي، لكنهن جميعا لم يجدن لها إجابة مقنعة، فقد كانت المرضعات والمشرفات غير قريبات منا حتى نبوح لهن بهمومنا وشجوننا، كان بيننا كأطفال (لقطاء) وبينهن جدار وحاجز نفسي ووجداني عال وسميك، وهن السبب في وجود هذا الحاجز النفسي، فقد كان كل همهن أن يمضين ساعات دوامهن معنا كحارسات لنا ومراقبات، وليس كأمهات أو أخصائيات يتحاورن معنا ويحتويننا، ويعرفن ما يسعدنا وما يزعجنا، طلبت مني الأخصائية أن أذهب وبعدما تهدأ نفسي، وأصبح قادرا على

الحوار معها أن يكون بيننا جلسة أخرى.

في اليوم التالي حضرت الأخصائية ومعها مساعدة مديرة الدار وأخذوني لمكتب الأخصائية، وبعد محاولات استرضائية ودودة منهن وتقديم بعض الحلوى والعصائر والحوار الودود، قمت بالبوح لهن بالتساؤلات والهواجس التي تقتلني وكانت سببا في انطوائي وحدوث التغيير المفاجئ الذي اعتراني، اندهشن من طفل يسأل هذه التساؤلات، ويبدو أنها المرة الأولى التي يسألهن طفل في مثل هذا العمر هذه التساؤلات، كانت الأخصائية ومساعدة مديرة الدار تحاولان أن تهوّنا علي الأمر، وأن كثيرا مثلي شقوا طريقهم في الحياة، ولم يعِقهم عدم وجود آباء أو أسر، وأن والدي متوفيان وعلي الاحتساب والصبر، لم تقنعني تبريرات الأخصائية والمساعدة وتهوين الأمر.

بقيت فترة من الزمن تشكل لي هذه التساؤلات هاجسا وقلقا نفسيا، لكن مع الوقت ضمدت جروحي وآمنت بواقعي، فمهما شكيت (فإن الشكوى لغير الله مذلة)، ومهما بكيت فالبكاء ذل وانكسار، ولن يغير البكاء في واقعي شيئا، آمنت أنه (لا ينفع البكاء على اللبن المسكوب)، وعلي التكيّف مع قدري ومع وضعي دون تأفف أو تمرد، فحياتي عبارة عن طريق ويجب أن أمشي على هذا الطريق حتى النهاية، كما قال الشاعر «مشيناها خطى كتبت علينا... ومن كتبت عليه خطى مشاها».

مشاكساتي مع أطفال الأسر الحاضنة

قد تكون وحدتي وشتاتي الروحي والوجداني، وما مررت به من جفاف عاطفي انعكس سلبا على تركيبتي النفسية وقتها، وتمخضت عنها فسيولوجية مضطربة شرسة، فكنت في طفولتي حاد الطباع، لا أنصاع للتوجيهات، وأرفض التقيد بأي تعليمات، وأعتبرها نوعًا من التسلط والقمع لحريتي، كنت ثوريا ضد أي قيود متمردا على ذاتي وعلى المشرفين والمراقبين بالدار وعلى الأسر الحاضنة التي كانت تحتضننا أحيانا بشكل متقطع ومؤقت، حيث أن هناك بعض الأسر الطيبة تأتي للدار بإرادتها وتختار بعض الأطفال من الدار لتمضية نهاية الأسبوع أو أيام الأعياد مع أولادهم، والعطف والشفقة علينا وبث الحنان والألفة في نفوسنا، وهذه اللفتة الكريمة من الأسر الهدف منها هدف إنساني بحت، ودون طلب من الدار. رغم أن الأسر الحاضنة نادرا جدا ما تأتي للدار، إلا أن من المفارقات أن هذه الأسر لا تختار إلا الأطفال الوسيمين الذين بشرتهم صافية بيضاء وجميلة، ولا يعيرون اهتماما كثيرا للأطفال ذوي البشرة السوداء، فالأطفال أصحاب البشرة السوداء يمارس ضدهم تمييز عنصري مزدوج داخل الدار وخارج الدار، ونفضل عليهم نحن الأطفال أصحاب البشرة البيضاء، بل إن بعض المراقبين والمشرفين يطلقون على الأطفال ذوي البشرة السوداء «العبيد»، وكذلك الأسر الحاضنة والمستضيفة لا تستضيف الأطفال أصحاب البشرة السوداء إلا نادرا، فمن الصعب جدا أن

يأخذ أحد طفلا «أسود البشرة» إذا كانت الأسرة من أصحاب البشرة البيضاء، فقد يستنكرهم أبناؤهم وقد يطرح الجيران تساؤلات كيف يكون هناك أطفال أصحاب بشرة سوداء عند أسر بشرتهم بيضاء. من هذا المنطلق من الصعوبة أن تجد أحدًا يستضيفهم إلا أصحاب البشرة السوداء المماثلة لبشرتهم، وهؤلاء لا يأتون للدار إلا نادرا، ويبقى الأطفال المساكين «ذوو البشرة السوداء» ماكثين في الدار لا أحد يستضيفهم إلا نادرا.

كنت محظوظا أن أكون ذا بشرة بيضاء صافية، لذا كانت معظم الأسر تختارني لاستضافتي بشكل مستمر، قد يكون لبياض البشرة ولحسن الشكل الذي منحني الله جواز مرور، أكسب به ود الأسر التي تأتي للدار لاحتضاننا واستضافتنا في بيوتها وقت الإجازات الأسبوعية أو الأعياد، رغم أنني طفل مشاكس أسبب لهم صداعًا بكثرة مشاغبتي وضربي لأطفالهم أحيانا، فلم أكن أحترم طيبتهم ولا ضيافتهم لي في بيوتهم، رغم أن المسألة خيار لهم بشكل عفوي وإرادي منهم، ولم يرغمهم أحد على استضافة أطفال لا تربطهم بهم صلة قرابة إلا أحاسيسهم الإنسانية الصادقة، وأحيانا تكون لأطفالهم ردة فعل سلبية ضدي وغيرة بسبب عطف وشفقة والديهم وأسرتهم علي، ومعاملتهم لي بلطف، وفي أحيانا كثيرة تكون ردة فعل أطفالهم ضدي عنيفة وأدفع ضريبتها، إلا أنني رغم صغر عمري كنت أحاول أن أرد على أي طفل يغضبني أو يضربني حتى لو كان ذلك الطفل أكبر مني، بل إنني أحيانا كثيرة أستعمل أية أداة بيدي، وما زلت أتذكر الآن بألم وتأثر ردة فعلي العنيفة عندما قذفت طفل امرأة فاضلة كانت تستضيفني بمنزلها في

يوم عيد الفطر، فقد قذفت طفلها بكوب حليب ساخن كان بيدي؛ بسبب أنه أخذ لعبة كانت معي وقدر الله ولطف ولم يحدث له حروق عميقة بل حرق سطحي بسيط، ورغم ما صدر مني تجاه ابنها إلا أن تلك المرأة الفاضلة لم تحرك ساكنا، ولم تغضب مني بل حاولت بكل هدوء وسكينة أن تضمد حرق ابنها وتصفي الخواطر بيني وبين ابنها وتصلح بيننا، وما زالت تلك الحادثة تؤلم نفسي حتى الآن، كم تمنيت أنني أعرف عنوان تلك المرأة الفاضلة الآن، وأعرف عنوان ابنها؛ لأذهب لهما وأرد لهما شيئا من وفائهما وعطفهما وكرمهما معي، وأعتذر منها ومن ابنها عما بدر مني في لحظات كنت فيها لا أدرك معنى الضيافة، ولا معنى الوفاء، ولا معنى إنسانيتهم الطيبة.

بعد فترة انتقلت تلك «المرأة الفاضلة» إلى منطقة أخرى خارج الرياض بحكم ظروف عمل زوجها حيث كان زوجها يعمل «ضابطا» يتبوأ مركزا مرموقا، ورتبة عسكرية عالية، وتم نقل عمله لمنطقة القصيم، وانقطعت علاقتي مع تلك المرأة التي كانت تشكل لي ظلالاً وارفةً من العطف والحنان وتعاملني كأحد أبنائها ولا تميز بيني وبينهم، بل أحيانا كثيرة تجاملني على حساب أبنائها، وحبها لي كان يخلق غيرة في نفوس أبنائها ضدي وتحدث مشاكسات بيني وبين أبنائها رغم ذلك لم تتضايق مني أو تتخلّ عن استضافتي في بيتها يوما ما.

بعد ذهاب وانتقال تلك «المرأة الفاضلة» عوضني الله «بامرأة» فاضلة أخرى كانت جارة للمرأة الأولى التي كانت تستضيفني، وانتقلت بسبب انتقال عمل زوجها، فقبل انتقالها وسفرها عرضت على جارتها

أمر استضافتي «كأسرة بديلة» وقت الإجازات والأعياد، وافقت جارتها فورا ورحبت بالفكرة، وذهبت للدار وطلبت منهم أن تستضيفني في بيتها مع أولادها، وتمت الموافقة، كانت امرأة أرملة وثرية، تريد الأجر والثواب لديها ثلاث بنات وولد، زوجها متوفى، وقد وجدتها ينبوعًا لا ينضب من الحنان ومن اللطف ومن الأمومة الطاغية، كانت تشبه في مشاعرها النهر المعطاء في العطف والحب وفي الاحتواء، أحببتها وتعلقت بها سريعا، كانت عودتي من عندها للدار تسبب لي ألما، وفراقا يزعجني حد الألم، ومع تراكم الوقت صار الرابط بيني وبينها رابطًا وجدانيًا وروحيًا عميقًا، أصبحت أنظر لها كأم وهي تنظر لي كـ «ابن» لها، وقد وقفت معي وقفات لا تُنسى، وقفات رائعة غيرت مجرى حياتي وسأذكر وقفاتها بتفاصيل أكثر دقة وشمولية في الفصول القادمة.

مرحلة الفصل المؤلمة

يمر (اللقيط) أو اليتيم بثلاث مراحل أثناء احتضانه ورعايته من قبل الشئون الاجتماعية، المرحلة الأولى منذ سنته الأولى حتى يصل عمره ست سنوات وتسمى مرحلة (دار الحضانة الاجتماعية أو الإيوائية)، ومن ثم عندما يتخطى عمر الطفل ست سنوات يُنقل للمرحلة الثانية وتسمى (دور التربية الاجتماعية)، ويبقى فيها «الطفل» حتى يصل عمره اثنتي عشرة سنة، ثم ينتقل للمرحلة الثالثة وتسمى (مؤسسات التربية النموذجية). ولكل مرحلة مؤثرات نفسية ومكانية ووجودية يعتري (اللقيط أو اليتيم) فيها تغييرات في البيئة الإيوائية، والتربوية، وتؤثر بشكل مباشر على نفسيات (اللقطاء، والأيتام) ويكون لها أثر سلبي يتسبب في تقلبات نفسية وسلوكية في التصرفات وفي السلوك.

وعن (تجربة)، أعتبر أن أسوأ مراحل الفصل هي (مرحلة الفصل الثالثة) التي ينتقل منها الطفل الذكر من (دور التربية الاجتماعية) إلى (مؤسسات التربية النموجية)، بل أجزم أن قرار الفصل هذا غير منطقي وغير عادل، ولم يبنَ على معايير ودراسات نفسية فسيولوجية تربوية متخصصة، فعندما يصل عمر الطفل (اثنتي عشرة سنة) يتم فصل «اللقيط أو اليتيم» عن جميع النساء بحجة عدم الاختلاط، وهذا الفصل يؤثر بشكل سلبي على نفسية

الطفل الذكر لافتقاده حنان المرضعات والمشرفات النساء، رغم أنهن لم يكن يبثثن ذلك الحنان الكبير، لكنهن أقل جفافًا وقسوة من القسم الرجالي، فكما هو معروف «سلوكيا وفسيولوجيا» أن تركيبة (وكاريزما) وفسيولوجية المرأة عموما تتصف باللين والعطف والحنان واللطف، وتتحمل الأطفال أكثر من الرجل الذي يتصف بالجدية والجفاف وحب التسلط وعدم تحمل شقاوة الأطفال وفرط حركتهم، فيحس الطفل (اللقيط) عندما ينتقل من القسم النسائي إلى القسم الرجالي بفراغ روحي وجفاف عاطفي مزعج ينعكس سلبا على نفسيات ومعنويات الأطفال الذكور من جراء الحرمان العاطفي، ومن جراء التحول المفاجئ الذي جرى على حياتهم وانتقالهم من القسم النسائي الذي كان فيه شيء من اللطف والأمومة، ويتصف بالمرونة التي تتسم بها النساء في التعامل مع الأطفال اللقطاء، وفجأة يُنقل «اللقيط» إلى القسم الرجالي الذي يشوبه شيء من التسلط والقسوة والجدية التي لا تتوافق مع تركيبة الأطفال الذين ما زالوا يحتاجون للعاطفة، والتعامل بلين وللإحساس بالأمومة الذي يفتقده أطفال الدار بشكل مفاجئ مما يشكل فجوة نفسية مؤلمة عند الأطفال الذكور الذين ما زالوا أطفالاً في مقتبل العمر، لم يتعودوا على الاعتماد على أنفسهم بشكل كلي، حتى في لبسهم والاهتمام بأجسادهم وبحاجاتهم، وقد شكل لي شخصيا هذا الفصل ألمًا نفسيًا وجفافًا عاطفيًا ما زلت أحس بألمه حتى الآن، فقد تم اقتيادنا «كقطيع» دون إرادة منا، وتم نقلنا إلى القسم الرجالي دون تقديم تهيئة نفسية أو اتّباع سياسة التدرج في فصلنا حتى نتعود على الوضع الجديد، فكانت الفجائية في الفصل مؤلمة وجعلتنا نحس

بصدمة نفسية، وعاطفية، وبغربة مكان وغربة بشر، وكان لهذا الفصل الظالم عواقب وخيمة على نفوسنا، تولد عن ذلك عطش روحي وجفاف عاطفي مؤلم.

كان المبرر للفصل مبررًا هلاميًا غير منطقي، وهو عدم الاختلاط بين (الأولاد والنساء)! لا أعلم هل هذا مبرر منطقي مع أننا ما زلنا أطفالاً ولا يمكن أن يشطح تفكيرنا في أشياء لا نعلم عنها شيئًا، ولم تخطر على بالنا بتاتا، كان من المفترض على الأقل في حالة فصلنا أن نفصل بتدرّج، فالمشرفات والمراقبات النساء أفضل تعاملا معنا من الرجال، لكنها العشوائية، والارتجالية غير المبنية على دراسات علمية أو سلوكية أو تربية منهجية، بل اجتهادات من أناس يفكرون تفكيرًا سلبيًا، وتفكيرًا ممزوجًا بسوء الظن وبالتفكير في أشياء لا تتناسب مع أعمارنا أو تتخيلها أفكارنا في ذلك الزمن الذي لا نزال في أعمار أطفال صغار لم تتخطى أعمارهم اثنتي عشرة سنة، إنها إقصائية المجتمع وسوء ظن يجري في عروقه، فهم يظنون أن كل رجل يجتمع بامرأة «خطر محدق عليها» حتى لو كان هذا الخطر يتمثل في أطفال أعمارهم لا تسمح لهم بالنظر في عيون تلك النساء اللواتي في مكانة أمهاتهم؟!

هذا التنقل المرحلي للطفل «اللقيط» يفقده الحب والإحساس بالأمن الوجودي والمكاني والنفسي، فعندما يتعلق الطفل بحب حاضنة أو بمراقبة أو مشرفة ثم يتم فجأة حرمانه بحجة نقله إلى مكان آخر وأشخاص آخرين يُفقد الحب العاطفي.

كذلك من المشاكل التي تواجه «اللقيط» عدم وضوح فلسفة التربية والعقاب، فتجد الطفل «اللقيط» يخضع للعقاب على السلوك بحسب طبيعة شخصية من يعاقبه، فإن كانت الأم البديلة التي كانت تعمل معه ترفض سلوكًا معينًا بحكم التربية والتنشئة التى خضعت لها فإنه يعاقب عليه بطريقة أخرى تعودت عليها الأم البديلة التي تراها من وجهة نظرها صحيحة، ويمكن ألا يعاقب الطفل «اللقيط» على نفس هذا السلوك مع أم بديلة أخرى، ومع مراقب ومشرف آخر فيخضع لتربية مختلفة، وأسلوب عقاب مختلف، ناهيك أن نفس السلوك فى نفس الفترة قد تقبله الأم البديلة من طفل ولا تقبله من آخر، أو تقبله المديرة في وجود زيارة للدار ولا تقبله فى وقت آخر.

ومن المنغصات التي تواجه «اللقيط» التغيير المفاجئ لفريق العمل مع الطفل «اللقيط»، وهذا الأمر يلعب دورًا كبيرًا فى عدم استقرار الطفل فى دار الأيتام من الناحية النفسية والعاطفية وعدم شعوره بالأمان، فهو محاصر دائمًا بإحساس الفقد وعدم الاستقرار الوجودي والأمان النفسي، فقد تعود منذ نعومة أظافره أن العالم حوله متغير متحرك لا يخضع لأية درجة من الاستقرار والثبات، حتى التغيير لا يبلغ به، ولا تتم دراسته بطريقة علمية تدرجية، بل يجب عليه فى كل الأحوال أن يكون مستعدًا للفراق والبعد عن الآخرين، بعدما كوّن لغة حوار، وكوّن حالة من الاستقرار الداخلي مع الطرف الآخر الذي يتعامل معه مباشرة، ثم فجأة يغيب عنهم دون اعتبار لرغبته وتقبله، ويكون عليه فى كل الأحوال أن يسرع في التوافق مع المكان الجديد مرغمًا، فإن تمرد أو بكى أو اشتكى فإن العقاب سيكون حاضرًا ينتظره

دون رحمة أو شفقة.

ومن المشاكل أيضًا إحساس الطفل «اللقيط» بالجوع العاطفي، فهو لا يختلف عن أي طفل آخر، بل عن أي إنسان آخر فى احتياجاته الفسيولوجية الأساسية التى تضمن له طفولته وإنسانيته، ثم تظهر الاحتياجات الأخرى، مثل: الحاجة للحب، والحاجة لتقدير الآخرين، والحاجة إلى تقبله من الآخرين، والحاجة إلى إثبات الذات.

إلا أن أهم الحاجات التي يحتاج إليها الطفل «اللقيط» بدرجة كبيرة نظرًا لأهميتها كونها مطلبًا أساسيًا للطفل «اللقيط» هو حاجته الماسة للأمن، سواء كان الأمن المكاني أو الأمن النفسي، أو الأمن الوجودي، فالأمن من أهم الاحتياجات الفسيولوجية، فتخيل لو أن لديك كل شيء وينقصك الإحساس بالأمان، عندها سوف تفقد كل الأشياء مهما كانت جميلة قيمتها؛ لأنك ببساطة لا تحس بالأمان عندها ستفقد الاستمتاع بالحياة، ورغم أهمية الإحساس بالأمان والحاجة له إلا أن هناك عددًا من الأمور التي تتم في دور الأيتام وعلى يد من يقدمون الرعاية تؤثر على إحساس «اللقيط» بالأمان وتجعله مطلبًا عزيزًا، ويحدث ذلك بسبب العشوائية التي تؤثر على إحساس «اللقيط».

كذلك يؤثر على «اللقيط» تنوع وتعدد الأمهات البديلات والمربيات والمراقبات والمشرفات، وتعدد المراقبين والمشرفين فكل هذا العدد الكثير والفروق الفردية بينهم في الرؤى والتفكير والسلوك يسبب

تشتتًا ذهنيًا وسلوكيًا وفكريًا على نفسية «اللقيط»، فلا توجد أساليب أو ضوابط أو معايير محددة وواضحة لتربية الأطفال، بل كل شخص من فريق الدار يريد تشكيل عقلية وسلوك «اللقيط» كما يرى هو من وجهة نظره الخاصة، فترى «المتزمّت» دينيا يريد «اللقطاء» أن يحذوا حذوه في التّزمّت والغلو، وهناك الشخص المنحرف أو المتحرر الذي يريد من «اللقطاء» أن يحذوا حذوه، وهكذا «دواليك» كل يريد من المراقبين والمشرفين أن نبتعه ونتبع تفكيره ونمارس سلوكه، فأصبحنا نحن «اللقطاء» مشتتين لا نعرف مع من نكون؟ ومن هو الصح، ومن الخطأ من كل هؤلاء؟! تنطبق علينا الحكاية التي تقول أن هناك: «غرابًا يريد تقليد مشية الحمامة فضيع مشيته ومشية الحمامة».

هذه بعض السلبيات التى تؤثر على إحساس اللقيط وتفقده الإحساس بالأمان على جميع الأصعدة، وغيرها الكثير من التصرفات التي جعلت من الطفل «اللقيط»عجينة، الكل يشكلها حسب نوعيه مزاجه وسلوكه، وتوجهاته، فأصبح الأطفال «اللقطاء» حقل تجارب أو بالمعنى الأصح «كفئران التجارب» التي لا قيمة لها سواء جلبها للتجارب؟!

أطفال في دار رعاية يحتاجون لحماية

من المفترض بدار تسمى «دار الرعاية» أن تكون أيضا «دار حماية»، فمن واجبها أن تحمي الأطفال الساكنين بها من التشرد والضياع واحتواؤهم وبث الأمان النفسي والوجودي في نفوسهم، فمن واجباتها أن تقوم بحماية الأطفال من أي استغلال أو تحرش، وأن يتم اختيار العاملين فيها والمنتمين لها اختيارات منهجية ووفق معايير سلوكية وأخلاقية وإنسانية وتخصصية دقيقة بعيدا عن المجاملة والمحسوبية، لكن للأسف، لم تكن هناك معايير أو اختيارات منهجية بل كانت المحسوبية والمجاملة حاضرة في كثير ممن يعملون في الدار من أجل الوظيفة ليس إلا، بل إنه كان «بعض» أولئك الموظفين لديهم أمراض نفسية وسلوكيات أخلاقية شاذة!

فما زلت أتذكر بحرقة وألم عندما كنت «طفلا» في الدار التي كانت في نظري عبارة عن معتقل مسور بأسوار عالية أكثر من كونه دار رعاية وحماية، كنت في نظر نفسي مسجونًا أنفذ عقوبة لذنب لم أقترفه، ولم أسعَ إليه بأي شكل من الأشكال، ومما زاد الألم أن السواد الأعظم ممن يعملون بالدار من مشرفين ومراقبين ومناوبين وعاملين يعاملوننا على أننا دمى بشرية أو فازات أو بشر من خشب لا مشاعر لنا ولا أحاسيس، وغير مؤهلين أن يكون لنا رأي أو كلمة حتى على أنفسنا، كان كل همهم إيجاد الملبس والمسكن والمطعم لنا والمصروف ونسوا

أو تناسوا شيئًا مهما لا يقدر بثمن وهو الاحتواء العاطفي والحرية والاستقلالية الذاتية والأحاسيس الإنسانية الصادقة، بل إن بعض هؤلاء المشرفين والمراقبين والمناوبين تم توظيفهم في الشئون الاجتماعية جراء المحسوبية دون معايير تأهيلية أو أكاديمية خاصة تؤهلهم للعمل في ميتم فيه أطفال يحتاجون الاحتواء والعاطفة والأحاسيس الإنسانية الصادقة أكثر من حاجتهم للأكل والشرب والنوم والملبس، فمعظم هؤلاء الموظفين بالدار لم يحصلوا على دورات تؤهلهم كيف يتعاملون مع فئة محرومة من الحنان ومن الأمان الأسري، كان التحاقهم بالدار من أجل الوظيفة والراتب وبعضهم وصل للوظيفة ليس لكفاءته وإنسانيته وتخصصه، إنما بمحسوبية وبمجاملة، فكثير منهم لم يكن مؤهلا نفسيا ولا سلوكيا ولا أخلاقيا أن يعمل في دار يوجد بها أطفال صغار في السن لا حيلة لهم ولا قوة سوى دموعهم الحارقة، فما زلت أتذكر بحرقة وألم ذلك الزميل (اليتيم) الذي حاول التحرش فيه موظف بالدار يعمل بنظام الورديات، وما زلت أتذكر الرعب الذي اعترانا نحن اليتامى خاصة الوسيمين وذوي البشرة البيضاء، فقد أصبحنا نعيش في رعب عندما يناوب ذلك الموظف القبيح ليلا، فهو يحاول أن يتقرب ويعطي اهتماما خاصا لكل طفل وسيم، لم يكن قصده من ذلك الاهتمام عوامل إنسانية أو مهنية تحثه عليها وظيفته في دار أيتام، إنما كان يهدف من هذا التقرب أن يغرر بهذا الطفل ومن ثم يحاول التحرش به مما سبب لنا هاجسا مرعبا مخيفا، ونحاول الابتعاد عنه وعدم الجلوس معه ونتخفى بأية طريقة أثناء مناوبته «خاصة» أن معظم مناوباته كانت بالفترة الليلية. كنا لا ننام إلا ونترك واحدًا منا

مستيقظا يحرسنا ويراقب عنبر مضاجعنا ليوقظنا متى ما اتجه ذلك الموظف «الشاذ» لمضجعنا خوفا منا على أعراضنا وأنفسنا من وحش بشري مريض أخلاقيا، كنت أحمل معي داخل ملابسي سكينا تلازمني في كل مكان من أجل حماية نفسي.

بعد أسبوع من القلق النفسي والتوتر والخوف والتوجس والرعب جاء الفرج من الله حيث زارنا مدير الشئون الاجتماعية بالرياض، كان يسألنا أثناء الزيارة ماذا ينقصنا وما هي المشاكل والمعوقات التي تواجهنا ليقوم بحلها، كنا أطفالا صغارا تنقصنا الجرأة والشجاعة أن نبوح له بتحرشات ذلك الموظف وبقصور العاملين في الدار وجلافتهم وجفافهم ضدنا، كنا نخاف أن نشتكي له فنكون عرضة للعقاب من مدير الدار ومن المشرفين والمراقبين، وعرضة للانتقام من ذلك الموظف «الشاذ» الفاسد، لكني تشجعت وبطريقة عفوية عبرت لمدير الشئون الاجتماعية من خوفنا من ذلك الموظف وأن ذلك الموظف قام بمحاولة التحرش بأحد الزملاء، كنت أسرد له المشكلة ودموعي تنزف خوفا ووجلا وبصوت مبحوح متقطع يكاد لا يسمع خوفا مما سيحصل لي لو أن مدير الشئون الاجتماعية لم يتفاعل مع شكوانا لكن الله رحمنا حيث كان ذلك المدير إنسانًا طيبًا ومديرًا حازمًا، وشكل لجنة تحقيق عاجلة من خارج الدار وقام فورًا بتوقيف ذلك الموظف عن العمل بالدار أثناء التحقيق معه، وقد تبين للجنة صحة وصدق كلامي بعد اعتراف (اليتيم) الذي حاول الموظف التحرش به، ولم يبلغ خوفًا من العقاب، وبعد ضغط لجنة التحقيق على ذلك الموظف وشهادات كثيرة من أطفال الدار اعترف الموظف بتحرشاته ثم تم فصله وطرده من الدار

وزال عنا هم مؤرق كان يسبب لنا كابوسًا مرعبًا وهمًّا مزعجًا، ويسبب لنا خوفًا وقلقًا لا يوصف؟!

ولم تتوقف المنغصات حتى بعد طرد ذلك الموظف الفاسد، بل إننا كنا نعاني من مزاجية ونفسية بعض المشرفين والمراقبين، فعندما يأتون وهم في مزاج غير مريح أو لديهم مشاكل مع المسئولين عنهم، أو لديهم مشاكل في محيطهم الأسري أو الاجتماعي ينعكس ذلك على تصرفاتهم معنا، فنكون نحن مجالاً خصبًا لتفريغ كل أمراضهم النفسية ومنغصاتهم المكبوتة في تعاملهم معنا، فيقومون بتقريعنا لأتفه الأسباب بل أحيانا ضربنا، وحرماننا من اللعب أو من الترفيه وتحويلنا إلى مجرد دمى يجب أن لا تتحرك ولا تشتكي ولا نفرغ طاقاتنا باللعب أو المرح، كان قدرنا أن نخضع لمزاجية وظروف المراقبين والمشرفين ومزاجيتهم وما ينتاب نفسياتهم من منغصات، وهذا كله مرده عدم وضع معايير سليمة لاختيار من يعملون بالدار بعيدا عن المحسوبية والعنصرية والمجاملة.

مواقف مؤلمة تأثرت بها

بدأت تتشكل روحي ووجداني كـ «شاب» في بداية المراهقة، يحتاج إلى احتواء روحي ومتابعة أسرية، وإرشاد وتوجيه، فأصبحت وقتها أحس بفراغ روحي، وشتات وجداني مؤلم من جراء الوحدة، والغربة الروحية في مجتمع لا يؤمن بي كطفل ولا كإنسان أعيش وحيدًا في دار كل من فيها يؤدي عمله الوظيفي كتأدية واجب محدد الساعات والأيام، فقد مررت بعدة مواقف أثرت في نفسي حد الألم، خاصة أنني كنت من الأوائل في الدراسة، وعادة ما يكون هناك اجتماع فصلي لأولياء أمور الطلبة لتكريم الطلبة المتفوقين، كنت من ضمن المكرمين، كان يؤثر في نفسي حد الألم عندما أرى آباء وأولياء أمور الطلبة يفرحون بأبنائهم ويأتون بصحبتهم للفرح بتكريم أبنائهم. لم أحس يوما بطعم التكريم بل أستلم جائزتي وأجلس منطويًا وحيدًا في أحد الزوايا أذرف دموعًا حارقة ممزوجة بألم الوحدة وقهر الحرمان من الأبوين، ومن الأسرة، حتى وإن رافقني أحد المشرفين أو العاملين بالدار فإنه مجرد موظف يؤدي مهمة عمل مكلف بأدائها ليس إلا، فلو لا وظيفته التي هو مكلف بها لما ذهب معي.

كذلك كان من المؤثرات النفسية التي تزعجني وتزعج كل «اللقطاء» أن الدار تزج بنا «كالعمالة» في «أتوبيسات» مكتوب عليها شعار دار الرعاية والشئون الاجتماعية وهذه الأتوبيسات تقوم بتوصيلنا عند

ذهابنا للمدارس أو للأسواق أو للمنتزهات أو للمشاركة في مباريات المهرجانات فيعرف الكل أننا من دار الرعاية «مجهولي الأبوين» أو «اللقطاء» أو الأيتام، فيسبب لنا هذا التشهير هاجسا مقلقا في ظل قصور فهم الكثير من المجتمع ونظرتهم الدونية «للقطاء» ومجهولي الأبوين، فنسمع بعض الكلمات الجارحة، أو نحس بنظرات الشفقة والشك.

ومن مآسينا أيضا «كلقطاء» أن أسماءنا لم تكن مريحة لنا، فتتم تسميتنا من قبل وزارة الشئون الاجتماعية بالتفاهم مع وزارة الداخلية بأسماء مركبة شاذة غريبة على المجتمع وتدل دلالة واضحة أننا «مجهولو الأبوين». كانت هذه الأسماء تسبب لنا إحراجًا وتساؤلات في ظل مجتمع مأزوم بالتساؤلات والفضول ومغرم بالتساؤل عن الأحساب والأنساب والخلفيات القبلية والاجتماعية خاصة إذا كان الاسم غريبا فأنه محفز لتساؤلات المجتمع بشكل ملح، ومن جراء هذه الأسباب يقوم بعض «اللقطاء» بتعديل أسمائهم عندما يكبرون خاصة إذا تبناهم أحد من المجتمع، وقد كنت محظوظًا أن «الشيخ» الذي عملت بشركته لاحقا أثناء المرحلة الجامعية صار بيني وبينه ثقة وتآلف روحي و«كيمياء»، خاصة من الود والحب والتقدير، وعندما عرف «سري» وخلفيتي الاجتماعية وأنني من «اللقطاء» طلب مني أن يقوم بمساعدتي على تغيير اسمي بموافقة من الجهات الرسمية والشئون الاجتماعية.

وسأروي لكم لاحقا بالتفصيل قصتي مع ذلك «الشيخ» الجليل

في الفصول القادمة من هذا الكتاب.

كانت أيام الإجازات، وأيام الأعياد، والعطلات المدرسية تشكل لي ولكل (لقيط) همًّا وكابوسًا مؤرِّقًا، خاصة بعد اختلاطنا بزملائنا في المدارس من أبناء الأسر وأبناء المجتمع، كانوا يفرحون بقدوم الإجازات ويخبروننا أين سيذهبون مع أسرهم لقضاء إجازاتهم، كنا نسمع منهم ونرى الفرح والسعادة تشع من عيونهم، كانت رواياتهم وأحلامهم وفرحهم بالإجازات وكلامهم عن أسرهم وعن تخطيطهم للسفر يجعلنا نحن (اللقطاء) نصاب بإحباط وغصة حزن وألم، كنت أقول لنفسي ما هو الذنب الذي اقترفته، لأكون أسير دار أسمنتية يقتلني فيها روتين ممل، ووحدة مؤلمة، أنا وزملائي بالدار، ومن هم في مثل أعمارنا من أبناء الأسر يستمتعون مع أسرهم بحنان وعطف وتنزه وسفر.

كانت تلك التساؤلات والوحدة، ووجودنا بالدار وعدم خروجنا إلا لفترة زمنية تحدد بالساعات يرافقنا مشرفون ومراقبون، أو سفرنا لعدة أيام بسيطة نخضع فيها لسلسلة لا تنتهي من أوامر «المراقبين والمشرفين» ونواهيهم ومزاجيتهم وسيطرتهم، كانوا يذهبون بنا للأسواق والحدائق والمنتزهات يسوقوننا كالقطيع، يحبسون حريتنا بحزم من الأوامر والنواهي، والشيء المؤلم هو أننا عندما نذهب للأسواق كل أهل المحلات التجارية بالأسوق يعرفون أننا من (أطفال الدار). فعندما نريد أن نشتري لوازمًا أو أشياء خاصة من الأسواق أو نشتري أكلاً من المطاعم، يقوم بعض المشرفين والمراقبين بإخبار

البائعين أننا (أيتام ولقطاء) من الدار ويجب أن تتم مراعاتنا في السعر، كانت هذه الاستعطافات التي لا نحبها تشكل انكسارًا لكرامتنا وإنسانيتنا، ويشعروننا كأننا «نتسول أو نشحد» رغم أننا لسنا بحاجة لهذا الاستعطاف الذي يقوم به المشرفون والمراقبون، فلدينا من المال والمصروف الشخصي الذي توفره لنا الدولة مشكورة ما يكفينا ذل الاستعطاف والعطف من قبل الباعة، لكنها ثقافة مجتمع يحسسك (كلقيط) حتى في عطفه وشفقته بضعفك وأنك تستحق الشفقة والعطف وغيرك مميز عنك، كل هذه الممارسات والوحدة كانت تنعكس سلبًا على نفسيّتي ونفسيات زملائي بالدار، وتسبب لنا ردة فعل سلبية تؤثر على معنوياتنا، وتسبب لنا عنفًا نفسيًّا أليمًا لا تتحمله النفس البشرية السويه، فقد يتحمل الجسد البشري العنف الجسدي وينسى ألم الضرب مع تقادم الأيام، لكن ما لم تتحمله النفس البشرية هو العنف المعنوي، والنفسي.

كان بقاؤنا محبوسين بدار أسمنتية يشكل لنا هاجسا مقلقا، رغم ما فيها من وسائل ترفيه لكنها تبقى في نظرنا قفصًا يحبس حريتنا حتى لو كان هذا القفص مطلي بالذهب وفيه كل وسائل الراحة وملذات الحياة، لكنه يبقى قفصًا مظلمًا خاليًا من أضواء الحرية يشكل كبتًا لحركاتنا واستقلاليتنا، فالنفوس البشرية كالأزهار، لا يمكن أن تنمو في الغرف المظلمة، بل تحتاج للنسمة، وللشمس، وللحب، والاحتواء، والاهتمام. لكن للأسف، المشرفون والقائمون على الدار لا يعون أهمية ذلك.

ورغم أن أيام الأعياد تشكل للمجتمع أيامًا جميلة وسعيدة، لكنها تشكل لنا نحن «اللقطاء» أيامًا مزعجة تذكرنا بالوحدة والشتات، فعندما وصلت أعمارنا فوق «خمس عشرة سنة» كشباب في سن المراهقة، عزفت كثيرٌ من الأسر البديلة عن استضافتنا، لسبب قد يكون وجيهًا، وهو أننا «كشباب» في سن المراهقة قد نكون غرباء عن أسرهم، وقد نؤثر على سمعة الأسرة، خاصة إذا كان لهذه الأسر بنات مراهقات في سن الزواج، فقد يؤثر وجودنا على سمعة العائلة، وقد لا يتقدم أحد لخطبة بناتهن إن كانوا يستضيفون «شابًا» غريبًا عليهم. من هذا المنطلق تتجنب الأسر البديلة استضافة «اللقيط» عندما يصل سن المراهقة، تحاشيًا للإحراج والهمز واللمز، ومنعًا لتأويلات وشائعات المجتمع التي قد تطالهم أو تشوه سمعة أسرهم.

وما زلت حتى الآن أحس بحرقة وألم أيام العيد، فقد كانت تشكل لنا حرمانًا حقيقيًا مؤلمًا، فأصبح «العيد» بسبب الوحدة والحرمان مجرد من معانيه الجميلة، وتحول إلى يوم نمطي روتيني، يوم يتكرر كل عام مجرد من الحميمية، الجديد فيه مآكلاً ومشاربًا توفرها الدار، ونرتدي ملابسًا جديدة، ونمارس فيه فرحة مصطنعة غير صادرة من قلوبنا، ورغم أنه كان يزورنا بالدار مشرفون وأناس يريدون الأجر والثواب، لكن هناك فرقًا شاسعًا بين من يزورك زيارة عابرة لا تربطك به علاقة رحم أو علاقة حب، وبين من يعيش العيد بين أسرته ومجتمعه ويحس بلحظات العيد الصادقة، النابعة من القلب بعيدا عن العطف والمجاملة، هكذا حالنا «كلقطاء» في كل عيد يتكرر معنا النمط التقليدي وتتكرر معه قصيدة الشاعر العربي القائل:

بأي وجـه أتيت اليوم يـا عيدي	وكسوتي فيك أحزاني وتنكيدي؟!
يا عيد لم تـــدر ما أبعاد محنتنـــا	حتى تزينت في أيامنا السود
قد كان لي فيـــك أفراح ملـــونة	وتزدهي فيك أنغام الأناشيد
واليوم هذي عصافير الربا رزئت	تعلو غصون الأسى من غير تغريد
يا عيد ماذا أثرت اليوم من شجن	على فؤاد من الآلام مكبود؟!

بازار اجتماعي على حساب طفولة «اللقطاء»

النوايا الحسنة وحدها لا تكفي فالمشاعر الإنسانية جوهر ومظهر، وتفقد تلك المشاعر معناها الحقيقي وجوهرها إذا كان المقصد من تلك النوايا الحسنة النفاق الاجتماعي واستغلال مآسي ومعاناة الآخرين لصنع «برستيج» أو عمل دعاية الهدف منها استعراض أو «شو» على حساب كرامة وأحاسيس ومشاعر «اللقطاء والأيتام»، عندها يتحول العمل الإنساني إلى نفاق اجتماعي مبتذل.

هذا ما كان يفعله بعض الوجهاء وأعيان المجتمع ورجال وسيدات المجتمع الذين يقومون بتقديم دعوات للدار لحضور الأطفال اللقطاء إلى قصورهم ومزارعهم واستراحاتهم الخاصة، وعمل حفلات ومناسبات لهم. هذه الدعوات ظاهرة جميلة كإحساس إنساني بهؤلاء الأطفال وإدخال السرور على نفوسهم، لكن ما يعكر صفو هذه الأحاسيس أنهم لا يدعون الأطفال بسرية وخصوصية وحدهم من أجل إدخال السرور على نفوسهم بطريقة تحفظ كرامتهم ولا تجرح مشاعرهم، بل إن كثيرا من هؤلاء الأعيان ورجال الأعمال وسيدات المجتمع يستخدمون الأطفال (اللقطاء والأيتام) كمظهرة، وكنوع من (البرستيج) الاجتماعي، يستعرضونهم في بازار اجتماعي، فيقومون بدعوة كثير من الأعيان ورجال الأعمال ووجهاء المجتمع، مما يضعنا نحن الأطفال «اللقطاء» في حرج عندما نرى أنهم ينظرون لنا بشفقة

وعطف وبشيء من الاحتقار والفوقية أحيانا.

ومما يزيد ألمنا أن المشرفين أو المراقبين المرافقين لنا من الدار يقومون برصنا كأحجار «الدومينو» أو كفازات زينة، يحذروننا من الحركة واللعب ومن الاختلاط بأولاد الوجهاء وأصحاب الذوات خوفا أن نضرب أحدا من أولادهم أو يحصل بيننا وبينهم خلافات أو مشاحنات، فنجلس كأننا أطفال «محنطون» أو متخشبون بينما غيرنا من أطفال الأسر الحاضرة يلهون ويلعبون ويمارسون طفولتهم على طبيعتها بعفوية وحرية تامة دون قيود أو محاذير.

كنا نحس بغبن وحنق عندما نرى أولاد الذوات والوجهاء يلعبون ولديهم مساحة من الحرية في الحركة واللعب والكلام، ونحن كأننا حرس شرف مرصوص، لا نستطيع الحركة إلا بإذن وإيعاز من المراقبين؛ فيقتلنا الألم ويزداد كرهنا للمجتمع وللمراقبين والمشرفين الذين لا يحسون بأننا أطفال لدينا طاقة وحب فطرية للحركة واللعب، فنبقى محتقنين، يعتري نفوسنا الغبن والحقد عندما نرى الأطفال يلعبون ونحن ممنوعون بحجة أنهم يخافون أن نكسر شيئا أو نتشاكس مع أولاد الذوات والمضيفين.

وعندما يتم تحضير الأكل والسماح لنا بتناول الأكل فإن نظرات المراقبين والمشرفين المرافقين لنا تخترق قلوبنا وتصيبنا بالرعب، فهي مسلطة علينا كالأضواء الكاشفة تراقب كل واردة وشاردة من حركاتنا ومحاسبتنا عليها لاحقا، دون رحمة أو شفقة مما يجعلنا لا نستمتع

بحضور الحفل أو اللعب أو بالأكل بتاتا، ونعيش مدة مكوثنا في هذه الحفلات (فوبيا) وخوفا يحاصرنا لأننا نعلم أنه بعد العودة للدار أو أثناء ركوبنا الحافلات التي ستعيدنا للدار سنتعرض للمحاسبة والتقريع والإهانات وربما الضرب من قبل المراقبين والمشرفين الذين يحالون أن يرسموا لهم (برستيج) ومكانة عند الأعيان وأصحاب الذوات على حساب مشاعرنا، ويرون أننا نحرجهم إن صدر من أحدنا حركات عفوية أو شطحات طفولية عفوية، وأن المضيفين لنا والحضور سيقولون أن المراقبين والمشرفين لم يحسنوا تربيتنا أو يتقنوا تأديبنا، كان همهم أنفسهم، لم يفكروا في مشاعرنا وأحاسيسنا وبأننا ما زلنا أطفالا، لدينا طاقة وحب للعب، والمرح، وعشق للحرية في الحركة، كان همهم تلميع صورهم أمام والوجهاء والأعيان على حساب قمعنا والتسلط علينا.

كانت تلك الحفلات والمناسبات تتعسنا أكثر مما تسعدنا، وتعمق في نفوسنا جروح الألم، وتوضح لنا التمييز الطبقي بأبشع صوره، كنت أكره كرها شديدا تلك الحفلات والمناسبات، وعندما أذهب لها تسبب لي ردة فعل نفسية تبقى آثارها أشهر تخالج نفسي، ولو كان الأمر بيدي وقتها وأملك قراري لامتنعت عن حضور تلك الحفلات والمناسبات التي تحفر أخاديدا من الألم في نفوسنا. فبدلا من خروجنا للترفيه وللمتعة، نخرج وكأننا «قطيع» نُساق ليتم عرضنا في بازار اجتماعي طبقي دون مراعاة لإنسانيتنا ومشاعرنا، إنه قدرنا الذي جعلنا نُقاد «كالقطيع» دون إرادة منا، ما زلت حتى الآن أحس بألم وغصة عندما أتذكر تلك الحفلات والمناسبات التي تمتهن فيها مشاعرنا وتراق كراماتنا

وتكبت طاقاتنا، وتصادر حرياتنا، ويتم نعتنا من قبل الحضور وبصوت مسموع بأننا مساكين، ويُشعروننا بالضعف ويجب أن نكون مصدرا لعطفهم ولشفقتهم.

والأمرُّ من ذلك أن كثيرا من أبناء وأطفال هؤلاء الوجهاء وأعيان المجتمع المغرورين بأنفسهم وبحسبهم ومكانتهم يسألوننا أسئلة تستفز مشاعرنا، بل إن البعض منهم يتلذذ بإذلالنا وبأننا أقل قدرا ومكانة منهم، وأننا أبناء حرام وأطفال غير شرعيين. وسأحكي لكم موقفًا مؤلمًا ما زلت أتذكره حتى الآن، فقد أُحضِرنا مجبرين من قبل (مشرفي الدار) لحضور حفلة في مزرعة أحد الوجهاء، وقتها كنت في الصف الأول ثانوي، كنت رافضا الخروج إلى الحفلة، لكن تم إجباري من قبل المشرفين بحجة أنه لن يبقى في الدار أحد من «اللقطاء والأيتام» ولا بد أن أخرج مع زملائي.

وصلنا للمزرعة التي ستقام فيها الحفلة، كنت وقتها في حالة نفسية سيئة من جراء إرغامي على الحضور لتلك الحفلة التي لم أكن أرغب في الذهاب لها، وعند دخلونا للمزرعة تم توزيعنا على طاولات دائرية، كل طاولة تضم ستة مقاعد جلوس، كان قرب الطاولة التي كنت أجلس عليها أنا وخمسة من زملائي بالدار، طاولة أخرى لم تبعد عنا سوى مترين تقريبا، كان يجلس عليها مجموعة من أبناء الضيوف والذوات، كانوا يسألون زملائي (الأيتام) الذين معي على الطاولة ويتبادلون معهم الحديث عن لعب كرة القدم وهل للدار فريق كرة قدم، قالوا زملائي: «نعم لنا فريق وهذا (كابتن) فريق الدار»،

وأشاروا إلي، فقد كنت «كابتن» فريق الدار في كرة القدم، كنت حينها صامتا متجهما غير مرتاح لمجيئي للحفل، فجأة سألني أحد أبناء الضيوف كان أكبر مني، وكما يبدو أنه بالمرحلة الثانوية، قائلا لي: ما هو النادي الذي أشجعه وبعض الأسئلة التي لم أرد عليها، ولم ألقِ لها بالا، فقد كنت متعبا نفسيا وغاضبا من خروجي من الدار دون إرادتي، وعندما همّشته ولم أرد على أسئلته نعتني (باللقيط المغرور الغبي) مما أثار في نفسي ردة فعل سريعة من الغضب العارم الذي انتابني بشكل جنوني، كانت توجد أكواب عصير على الطاولة التي نحن جالسون عليها، أخذت أحد الأكواب وكان مملوءا بالعصير وقذفته في وجه ذلك «الشاب» الذي نعتني (باللقيط المغرورالغبي) مما جعل زملاؤه وزملائي يضحكون عليه بطريقة هستيرية من جراء منظر العصير المسكوب على وجهه وملابسه، قام ذلك «الشاب» غاضبا يريد ضربي مما جعلني أتعارك معه بشدة أمام جميع الضيوف وقد سبب ذلك إحراجا «للمراقبين والمشرفين» المرافقين لنا، وفجأة قام أحد «المشرفين» المرافقين لنا بصفعي على وجهي أمام الجميع مما جعلني أحس بمرارة الذل والمهانة التي ما زالت عالقة في ذهني حتى هذه اللحظة.

كانت مرارة تلك الصفعة كالعلقم المر التي ما زالت مرارتها عالقة في نفسي حتى الآن، ورغم أنها كانت صفعة قوية ومؤلمة إلا أن ألمها النفسي والمعنوي ومهانتها لي أمام الجميع شيء لا يُطاق، ومن جراء تلك «الصفعة» نزلت دموعي بحرقة وبكيت بكاء مرّا ممزوجا بنحيب صادر من أعماق قلبي، وأصبت بحالة هستيرية ونفسية، ولم أتناول

طعام العشاء أو أتكلم مع أحد، فقد كنت مستمرا في البكاء والنحيب، لم يواسني أحد من الحضور ولم يلوموا ذلك «المشرف» على ضربه لي ولم يسأل أو يعاقب أحد ذلك «الشاب» الذي بدأ بشتمي والذي كان قذفي له بالعصير ردة فعل طبيعية لإهانته لي بنعتي (باللقيط المغرور الغبي)، توقعت أن يملك أحد الحضور شجاعة وحسّا إنسانيا ويحاول مواساتي أو تهدئتي أو عتاب ذلك «المشرف» الذي صفعني، لكن لم يحرك أحد ساكنا، وكأنني إنسان لا قيمة له وضربي وإهانتي أمامهم لا يشكل لهم أي هاجس أو ردة فعل، كنت أحس بنظرات الشماتة من ذلك الشاب وزملائه الذي يستمتعون ببكائي ونحيبي ولم يقم أحد بمواساتي والتعاطف معي إلا زملائي (اللقطاء) الذين يشعرون بما تعرضت له من إهانة وذل وظلم وشماتة، لم يكن بأيدي زملائي شيئا يفعلونه سوى محاولتهم مواساتي وإعطائي شيئا من الماء والمناديل لمسح دموعي المنهمرة على وجنتي بشكل لم أستطع التحكم فيه، جلست ما يقارب أسبوع معقود اللسان لا أتكلم مع أحد، ورغم ذلك لم يفكر أحد في بكائي وما تجرعته من إهانة، ولم يحاسب ذلك «المشرف» أو يفتح معه تحقيق أو لفت نظر، ولم يعتذر مني أو يحاول أن يواسيني مما جعلني أحقد على ذلك «المشرف» حقدا كبيرا، كنت وقتها أتمنى الانتقام منه بأية طريقة كانت، لكن كما يقال «العين بصيرة واليد قصيرة».

توالت الأيام وتعاقبت السنين ونسيت الألم الجسدي من جراء صفعة ذلك «المشرف» الحقير لي، لكن لم تمح تعاقب السنين وتقادُم الأيام الألم النفسي والمعنوي ومرارة الإهانة التي منيت بها أمام ذلك الحشد الكبير من الناس الذين لم يحركوا ساكنا ولم يؤنبوا أو يلوموا

ذلك «المشرف» على ضربه وإهانته لي أمام حشد كبير من الناس، وحقيقة لم أحقد على بشر كما حقدت على ذلك المشرف، ولن أسامحه بتاتا على فعلته وسينصفني الله منه يوم لا ينفع مال ولا بنون.

الظلم المزدوج

من أسوأ ما يواجه «اللقيط» في عموم حياته منذ طفولته حتى نهاية عمره، النظرة الدونية والاحتقار الجمعي الذي يجعل «اللقيط» يعاني من نظرة قاصرة، ليس له علاقة في وجودها، فهو مجرد ضحية يدفع ضريبة فاتورة شهوة عابرة مارسها (ذكر وأنثى) من هذا المجتمع «الإقصائي» وأصبح ناتج هذه العلاقة العابرة إنسان كل ذنبه أنه نتيجة هذه العلاقة العابرة.

ورغم أنه ليس شرطا أن يكون «اللقيط» نتيجة علاقة محرمة، فقد يكون ضحية ظروف اجتماعية أو أسرية، أو اقتصادية معينة، جعلت منه كبش فداء، وأصبح يعاني الأمرّين، ما بين نظرة تتسم بالعطف والشفقة التي تجعل «اللقيط» ينظر لنفسه نظرة انكسار وضعف، أو من نظرة إقصائية فوقية قاصرة تحمله ذنبا وإزر علاقة لم يصرف فاتورتها، إنما هو من يسدد ثمن «عار» ليس له فيه «لا ناقة ولا جمل»، وكان قدره أن يحمل تبعاتها مدى الحياة، فهل هناك قسوة أو ظلم أو مأساة أكثر بشاعة من هذه «النظرة القاصرة»؟!

لا أعلم لماذا يصر المجتمع أن يمارس هذا الظلم الفادح ضد «كائن بشري» وإنسان مثله مثلهم يملك كرامة وأحاسيس ومشاعر إنسانية ككل البشر، ويعتريه ما يعتري البشر، ويظل طول عمره يعاني الأمرّين من جرح للكرامة، والإحساس بالذل والمهانة، فليس هناك

جرحٌ للكرامة وإحساسٌ بالذل أكثر بشاعة من أن ينظر المجتمع «للقيط» نظرة تتسم بالدونية والاحتقار، تقتل كرامته الإنسانية من الوريد إلى الوريد، فيكبر وينمو هذا الإحساس المؤلم مع «اللقيط»، ويصبح كالعمل الرديء أو «العار» الخفي الذي يلاحق «اللقيط» أينما حل أو ارتحل، ومهما حاول الاندماج أو نسيان هذا «العار» يبقى «لعنة» تطارده كظله لا يفارقه بتاتا.

ولم تتوقف إقصائية المجتمع (للقيط) عند الإقصاء والنظر له نظرة قاصرة، وفرض حياة فردية عليه يحس فيها بألم الوحدة، وشتات الوجدان، إنما زاد المجتمع على ذلك استخدامه مصطلحات ومسميات تحقيرية، وإسقاطات مهينة ومخجلة تذبح الروح الإنسانية (للقيط) من الوريد إلى الوريد؛ لما تمثله هذه المسميات من دونية واحتقار، فهي تحفر أخاديد من الألم النفسي، والمعنوي، والشعوري في نفس ووجدان (اللقيط) وهذه المسميات تتمثل في المصطلحات التالية:

(مجهول النسب).. (اللقيط).. (ابن حرام).. (ابن غير شرعي).. (مجهول الأبوين).. (ثمن الخطيئة).. (ابن الرعاية).. (ضايع النسب).. (ولد الساقطة).. (ابن زنا).. (النبتة الشيطانية).. (ابن العاهرة)!

كانت وما زالت تلك المسميات تزعجني جدا عندما أسمعها، وأحس بإهانة مخجلة تلاحقني كإنسان ليس لي ذنب في حدوث تلك المسميات التي تسقط وتحط من قدري أمام نفسي وأمام الآخرين،

كنت أتساءل، وأطرح على نفسي تساؤلات منطقية، وأتمنى أن يجيبني عليها المجتمع وأن يعتبروا أنفسهم مكاني ومن تلك التساؤلات:

هل عجزت اللغة العربية على ثرائها اللغوي وشموليتها، في إيجاد (مسميات) أفضل وألطف، من تلك المسميات التي بينها وبين الدونية والمهانة رابط لغوي وشعوري؟

- ما هي ردة الفعل لو أن أحدكم تم نعته بإحدى هذه (المسميات) فهل يتقبلها؟

- هل هذه (المسميات) عادية لا تؤثر في النفس البشرية، ولا تدل على الدونية، والاحتقار؟

- أليس من شرع وسن هذه (المسميات) مجتمع يؤمن بقول الله تعالى: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)؟

- هل هذه (المسميات) أحكام دينية وثوابت لا يوجد أفضل وأخف منها على النفس البشرية؟

- أليست هذه (مسميات) تعتبرعنفا نفسيا، وعنفا لفظيا، وعنفا روحيا مؤلما على النفس البشرية؟

- أليس مؤلماً أن هذه (المسميات) هي الميراث التي تركه لنا من كانوا سببا في وجودنا ونحمل نحن (كمجهولي الأبوين) إزر ودفع فاتورة لم نكن السبب فيها؟

متأكد أنني لن أجد إجابة، وستظل هذه الإسقاطات والمسميات الدونية، تمارس ضدي وضد كل «لقيط» بشكل سافر ورخيص.

كنت أحس بالذل والمهانة (وبالعنف النفسي) عندما أقف عاجزا لا أستطيع أن أفعل تجاه هذه الإهانات شيئا، قمة الذل عندما تحاصرك مسميات دونية عنيفة جافة متصحرة على النفس كجفاف وتصحر صحراء قاحلة في قيظ لاهب، أشخصها تحت مسمى (العنف اللفظي) و(العنف المعنوي)، إنها تقتلني معنويا ونفسيا بشكل بطيء وممل، ولا أستطيع مقاومتها، فهي تجلدني بأسواط من المهانة والذل الذي لا يوصف، فليس هناك ألم أبشع وأكثر ألما من أن يضرب الإنسان بأسواط لفظية، وتعبيرية مؤلمة، تحفر في النفس البشرية أخاديد من الألم النفسي والروحي، الذي لن تمحو ندباتها الأيام، أو الأشهر، أو السنون. إن هذه المسميات الأليمة تلازم اللقيط بشكل مستمر كما يلازمه ظله.

ما أقسى الألم عندما تذبح روحك الإنسانية كل يوم عبر مسميات وتعبيرات دونية «تحسّسك» أنك تتعرض لمذبحة روحية تقتلك نفسيا ومعنويا كل يوم!

لن أزيد في الإسهاب عن ألم هذه المسميات، لكن أترك الحكم لضمائركم فيما ترونه تجاه هذه (المسميات) التي هي من صنيعة المجتمع الذي تنتمون إليه، وتلمعونه بصفات إنسانية جمالية هو بريء منها براءة الذئب من دم يوسف، رغم ذلك ترونني هجوميًا، وصداميًا

مع المجتمع. لست كذلك إنما «أنا» ردة فعل لأفعالكم التي تنحت في النفس أخاديد من القسوة والألم.

معلوم الهوية الوطنية مجهول الهوية الاجتماعية

رغم أني أحمل «هوية وطنية» لو تم تصنيفها لصنفت من الدرجة الأولى كمواطن الجنسية والمنشأ كأي مواطن آخر، وبصفتي مواطنًا فقد استفدت تمامًا من جميع المميزات الخدمية والتعليمية، والصحية، والاجتماعية، التي تقدمها الدولة مشكورة للمواطنين. والدولة في دستورها حفظت لنا حقوقنا «كلقطاء» ولم تفرق بيننا وبين المواطنين الآخرين المنتمين للقبائل والعوائل في جميع الحقوق، ولم تخلق الدولة أي تمييز أو اختلاف بيننا وبين المواطنين الآخرين، وهذا إنصاف من دولة كريمة، وعادلة وتنظر «لأبنائها» جميعا بمسطرة واحدة، وبمسافة واحدة، بعيدا عن نمطية الحسب والنسب، فالدولة بكل تجرد وشفافية لها أفضال كثيرة على «اللقطاء»، ولها مكانة خاصة في قلبي، وأكن لها حبا، ووفاء، وانتماء جرّاء ما قدمت لي من مميزات منذ نعومة أظافري.

وهذا الاعتراف مني لا أقصد به التزلف أو المجاملة للدولة أو أحد رموزها «حاش لله» لكن من باب الأمانة في قول الحق أن أذكر لدولتي التي لها فضل علي هذا الوفاء تقديرا مني لدورها الذي ساهم في احتوائي منذ كنت طفلا، ومن ثم تعليمي حتى أصبحت «شابا» قادرا أن أعتمد على نفسي، وإن كنت أعري السلبيات فأقصد هنا سلبيات المجتمع الذي يقصي «اللقيط» فلا يمكن للدولة كنظام سياسي أو تنظيمي أن تفرض وجود «اللقيط» على مجتمع موروثاته التي يؤمن بها

تكرس فيه الطبقية والتفاخر بالأنساب والأحساب.

وما يؤرقني أن المجتمع لا ينظر لك كمواطن إيجابي صالح، يحمل هوية هذا الوطن الكريم، فالمجتمع لا يؤمن بصفاتك الإنسانية مهما كانت مثالية، إنما يؤمن بهوية أخرى اسمها «الهوية الاجتماعية» ومن لا يحمل هذه الهوية فهو في نظر المجتمع كمجهول الهوية الوطنية، يمارِسون ضده تمييزا طبقيا واجتماعيا.

إن الاعتزاز بالهوية الاجتماعية هو تمييز عنصري بغيض نتيجة لموروث طبقي جعل فئات من المجتمع يعيشون بأبراج عاجية عالية ينظرون منها بعلو لمن لا يملك حسبا ونسبا أنه أقل وأدنى منهم مكانة اجتماعية، بل إن «اللقيط» في نظرهم أقل منهم مكانة وقدرا وهوية، فهو إنسان «وضيع» يجب أن يحتقر حتى لو لم يصرحوا بذلك علانية. لكن نرجسيتهم تكشفهم وتعري عنصريتهم التي تكرس الطبقية والقبلية بأبشع صورها.

من المؤلم أنه عندما يريد «اللقيط» أن يندمج في المجتمع ويعيش استقرارا نفسيا وشعوريا يطل عليه «بعبع» مخيف اسمه قانون «تكافؤ النسب والحسب» ليس هناك ظلم جماعي أكثر بشاعة من أن تُقصى، ليس لأنك الأسوأ، بل لأنك لا تملك «امتياز» هوية اجتماعية تنتمي لشجرة الأصل والفصل.

ومن المفارقات العجيبة والعوامل المشتركة بين مجهول الهوية الوطنية وبين مجهول الهوية الاجتماعية، أن مجهول الهوية الوطنية

يعتبر في نظر السلطات الرسمية وافدا غير شرعي ولا يملك تأشيرة دخول للبلد تخول له العيش ويجب أن يبعد؛ لأنه وافد غير شرعي، كذلك مجهول الهوية الاجتماعية يعتبر في نظر المجتمع «ابن» غير شرعي ويجب أن يقصيه المجتمع وينبذه، فهو لا يملك هوية اجتماعية اسمها «الأصل والفصل».

لا أعلم لماذا يصنف أبناء وطن واحد، ومجتمع واحد حسب حسبهم ونسبهم، وأصلهم وفصلهم، ونسوا أو تناسوا أن لكل إنسان مشاعر وأحاسيس مثلهم، بعيدا عن نمطية الحسب والنسب التي يكرسها مجتمع عنصري قابع في الإقصائية يؤمن بالهوية الاجتماعية حد الغلو والتقديس.

فهل هناك عنصرية أكثر بشاعة وألما من أن يمارس المجتمع إقصائية ضدي «كلقيط»، وبناء حواجز عنصرية ومعنوية ونفسية بيني وبينهم، تتجسد هذه الحواجز على أشكال أنماط طبقية وعنصرية اجتماعية مؤلمة، تنحت أخاديد من الألم النفسي على روحي ونفسي، ويعتبرون وجودي بينهم (كلقيط) غير شرعي، وأنني «نبتة» شيطانية ونتاج خطيئة محرمة، وعلي أن أحمل إزر هذه الخطيئة مدى العمر، رغم علمهم الأكيد أن لا ذنب لي في اقتراف أو فعل تلك الخطيئة بل ضحيتها.

كيف يستطيع (لقيط) أن يعيش في ظل واقع جمعي يكرس الطبقية بأبشع صورها، ويعتبر من لا حسب له (وضيع) لا أصل ولا

فصل له، ولا يحق له أن يصاهرهم، أو يندمج معهم، فهم في نظر أنفسهم صفوة نخبوية دمهم أزرق مميز عن دم (لقيط) ضائع أصل يُعتبر في نظرهم درجة دونية، لا يصل إلى مستوى درجتهم البرجوازية!

كل تلك الإرهاصات، والموروثات والثقافة الجمعية الإقصائية تجعل (اللقيط) يعيش على هامش المجتمع، يعاني الأمرّين: من وحدة قاتلة، ومن صراع نفسي مرير من جراء نظرة وإقصائية مجتمع نمطي تقليدي يؤمن بالأحساب والأنساب أكثر من إيمانه بأن المعاييرالعادلة للإنسان هي ما يتحلى به من صفات سلوكية، وأخلاقية، وعلمية، وما يقدمه لوطنه، ومجتمعه من فكر ومن علم ومن تضحيات، وليس ما يحمل من حسب ونسب وصفات مورّثه ورِثها عن آبائه وأجداده، صفات لا تضيف شيئًا للشخص أو للوطن أو للمجتمع بقدر ما تكرس الطبقية، وتكون سببا في التمييز العنصري بين أبناء الوطن الواحد، والمجتمع الواحد.

الاستقطاب البشع

لم تقتصر معاناة، وإرهاصات (اللقطاء) على الإقصائية الجمعية التي تمارس ضدهم، وعدم الاعتراف بهم اجتماعيا، والنظر لهم بدونية، وتهميشهم، بل تجاوز الأمر ذلك إلى محاولة استغلالهم بطريقة أقل ما يقال عنها إنها بشعة وقذرة، فبعد خروج «اللقيط» من دور الرعاية للمجتمع الخارجي، لكي يشق طريقه في حياة عملية أو علمية جديدة، لا يترك يعيش بسلام بل يتم إغواؤه، واستغلال ظروفه، فيكون عرضة للانحرافات الأخلاقية، والسلوكية. فقد دأبت بعض الفئات الإجرامية من المجتمع باستغلال حاجة (اللقيط) للاحتواء والفراغ العاطفي الذي يمر فيه، وحبه للاندماج مع المجتمع، فتقوم تلك الفئات المجرمة بتصنّع مشاعر إنسانية مزيفة في ظاهرها الرحمة والاحتواء والعاطفة، وفي باطنها تحمل مآرب أخرى لتضليل (اللقيط) واستغلاله استغلالا بشعا؛ لتنفيذ أجندة وأهداف مشبوهة، فقد أصبح الانطباع السائد لدى تلك الفئات الإجرامية أن (اللقطاء وأطفال الرعاية) هم عجينة يسهل تشكيلها و«صيد» من السهل التأثير عليهم، وهم الأكثر تقبلاً وجاذبية لأي تقرب ولأي إغراءات، وانحرافات، ويتم استغلال ظروف «اللقطاء» وما يعانونه من وحدة قاتلة، ومن تهميش ومن عدم متابعة بعد خروجهم من الدار وعدم تهيئتهم التهيئة السليمة لاندماجهم في المجتمع.

وتتمحور أهداف كل جماعة حسب أجندتها، وتوجهاتها، وتنظيمها، وأفكارها التي تريد أن تستخدم (اللقطاء وأطفال الرعاية) لتنفيذها، فلديهم مبدأ بشع يؤمنون به دون الخوف من الله أو احترام إنسانية وكرامة هؤلاء (اللقطاء والأيتام)؛ فقانون تلك الجماعات بأن (الغاية تبرر الوسيلة) فليس مهما عندهم أن تكون وسائلهم سليمة مباحة لا تتعارض مع العقيدة والمبادئ الإنسانية، بل الأهم عندهم أن تحقق لهم هذه الوسائل أهدافهم وتزيد من ثرواتهم، أو أن تنشر أفكارهم ومبادئهم وتحقق رغباتهم.

وتتنوع هذه الجماعات بتنوع أجندتها وأهدافها، فتجد تجار ومروجي المخدرات يحاولون أن يبحثوا عن (اللقطاء وأطفال الرعاية) بشتى الطرق، واستقطابهم بطريقة بشعة لبيع وترويج واستعمال المخدرات، وهم بذلك يستغلون استغلالا بشعا ظروف (اللقطاء) وما يحسون به من وحدة، وفراغ وإحباط، ويدخلون لهم من باب الاحتواء والعاطفة المزيفة، ومن ثم يحاولون إغواءهم وجرهم إلى وحل ومستنقع الإدمان وبيع المخدرات وترويجها.

كذلك هناك أصحاب الأيديلوجيات الفكرية والإرهابية، يستقطبون المهمشين من (اللقطاء وأبناء الرعاية)؛ لكسبهم واحتوائهم بطريقة بشعة فيها خداع واصطناع مشاعر إنسانية مزيفة، القصد منها استمالة هؤلاء (اللقطاء من أبناء الرعاية)، وكسب ودهم والدخول إلى حياتهم، وغسل أدمغتهم، ومن ثم التغرير بهم والزج بهم كوقود لصراعات فكرية، وإرهابية، وإجرامية؛ من أجل تنفيذ خطط

تخدم مخططاتهم وأهدافهم البشعة دون رحمة أو إنسانية أو خوف من الله.

وينطبق الأمر كذلك على المجرمين وأصحاب السوابق والسرقات وقطّاع الطرق وتجار التسول، كل هؤلاء يحاولون استقطاب (اللقطاء) ليس حبا فيهم أو رحمة بهم أو عطفا عليهم، إنما ليكونوا جسورا ووسائل تحقق لهم مآربَ وأهدافا مشبوهة.

وتُركز تلك الجماعات على مختلف توجهات واختلاف أهدافها، على استقطاب (اللقطاء والأيتام) الذين فشلوا دراسيا، أو الذين لم يكملوا تعليمهم، وعلى الشخصيات الهلامية المحبطة غير القادرين على قيادة أنفسهم وشق طريقهم في الحياة، وعلى المحبطين والمهمشين الذين وصلوا إلى حد الانكسار والضياع والإحباط النفسي والمعنوي، فيستغل مجرمو هذه الجماعات إحباطات وسوء نفسيات (اللقطاء)؛ وذلك بمحاولة التودد لهم وإيهامهم بأنهم يتضامنون ويتفاعلون معهم حتى يكسبوا ثقتهم، ومن ثم يقومون بتعبئة نفوسهم بالحقد ضد المجتمع ويستغلونهم ويستغلون ظروفهم ووحدتهم استغلالا غير أخلاقي أو إنساني.

إن من أهم أسباب انحراف (اللقطاء) الوحدة القاتلة، والإحباطات المتجددة في حياتهم. فهي تشكل من «اللقيط» إنسانًا قابلاً للإغواء والإجرام؛ لأن معظم (اللقطاء) لا يتم تأسيسهم التأسيس السليم ودمجهم في المجتمع منذ الصغر، وبث الثقة فيهم للاعتماد

على أنفسهم، ومحاولة تحصينهم ليكونوا قادرين على مقاومة جميع المؤثرات التي ستواجههم في حياتهم بعد خروجهم من الدار لمجتمع سيواجهون فيه إقصائية وطبقية متأصلة.

فإن لم يكن لدى (اللقطاء) الثقة والقدرة على إدارة أنفسهم وشق طريقهم في الحياة بتفاؤل، وإرادة، وطموح، واعتزاز بأنفسهم، ومعرفة الطرق السليمة الآمنة من الطرق المشبوهة، ومعرفة النماذج الاجتماعية الطيبة، والتفريق بينها وبين النماذج الاجتماعية السيئة التي تريد أن تزج بهؤلاء (اللقطاء والأيتام) حطب محرقة لتحقيق أهداف وأفكار مشبوهة قذرة غير إنسانية أو أخلاقية.

(وبإذن الله سوف أورد في الجزء الثاني من «سيرتي» بعض النماذج بأسماء رمزية من الزملاء الذين غرر بهم واستغلوا استغلالا بشعا بعد خروجهم للمحيط الجمعي).

شعور الانتقام

يُقال: «إن وراء كل دكتاتور طفولة يائسة»، ولا أخفيكم سرًا أن هذه العبارة صحيحة إلى حد بعيد، فقد اعتراني في سن المراهقة إحساس فيه مزيج من (الديكتاتورية، والسادية، والاندفاع، والتهور)، فأصبحت حاقدا وناقما على المجتمع، وسبب حقدي هو المجتمع نفسه، فكما يُقال: (لكل فعل ردة فعل)، والعنف لا يُولّد إلا العنف، فقد كان لعنف المجتمع المعنوي والنفسي والتمييز الطبقي والعنصري ضدي وبأنني شخص لا حسب ولا نسب يشكل لي هاجسا، فاتخذت لنفسي وسيلتين أشق بهما طريقي في الحياة، أحد هذه الوسائل أو الطرق حق مشروع وهو أنني قررت أن أنتصر على نفسي وعلى أبناء الذوات والأحساب والأنساب، وأن أكون مميزا أكثر منهم حتى أوضّح لهم أن الإنسان يُقاس بمجهوداته، وقدراته، وبفكره، وعلمه، وليس بحسبه ونسبه، قررت أن لا أحد من أبناء الذوات أو الحسب والنسب يتفوق أو ينتصر علي في أي مجال تنافسي بتاتا، سواء كان علميا، أو رياضيا، أو قياديا. وعلي المثابرة من أجل أن تكون لي اليد الطولى في أي مجال أخوض فيه منافسة مع الآخرين.

أما الطريق الثاني أو الوسيلة الثانية، والذي أعترف الآن بعد نضجي أنني تندمت كثيرا على أنني سلكت هذه الطريقة، فهو أنني فكرت أن أجد وسيلة دفاعية أتعلمها وأحمي بها نفسي وأنتصر بها على

من يخاصمني أو يحاول أن يستفزني أو يحتقرني، ولم يكن أمامي من خيار إلا استخدام لعبة رياضية كنت أمارسها وأحبها وأعشقها كهواية وهي رياضة (الكاراتيه والتايكوندو)، وفجأة تحول حبي وعشقي لرياضة «الكاراتيه والتايكوندو» من هواية ورياضة الهدف منها الحماية والدفاع عن نفسي، إلى وسيلة تصفية حسابات أستمتع بها كثيرا، وتشبع رغبتي في ممارسة الانتقام، والعنف، والشوفينية التي اجتاحت نفسي فجأة في سن المراهقة. أصبحت أعشق العنف، وحب السيطرة، والتلذذ بالمغامرة، والاندفاع غير المحسوب، بل أن طموحي جعلني أنصرف عن ممارسة هذه الرياضة من ناد رياضي عام، وأنخرط في ناد متخصص للممارسة (الكاراتيه والتايكوندو) بشكل احترافي تحت إشراف مدربين مميزين من «كوريا والصين» أعجب المدربون بتكويني الجسماني ومثابرتي وإقبالي على التمارين بإقدام وتحدٍّ، وتنفيذ الحركات والضربات بطريقة متقنة وخاطفة وسريعة، لكنهم حذروني كثيرا من تهوري واندفاعي، فقد كنت فعلا متهورا، أصبحت لا أخاف بتاتا، أصبح المدربون يخافون علي من نفسي ومن تهوري، ويخافون على الآخرين من اندفاعي وعدائيتي أثناء المنافسات. كان النادي الرياضي الذي انتسبت إليه يشارك في منافسات المناطق ومنافسات الجامعات والأندية الرياضية، ورغم أن هناك أنظمة وقوانين رياضية، وأخلاقية، وإنسانية، تنظم هذه اللعبة وتحمي المتنافسين من بعضهم وأنظمة وقائية يجب أن لا يتجاوزها أي ممارس للعبة، فهناك أعضاء ومواقع في جسد كل ممارس للعبة يجب أن لا يتم الضرب عليها؛ لأن فيها خطورة على المتنافس. لكني كنت عندما يبدأ النزال والمنافسة

تنتابني حالة هيجان وغضب هستيري غير طبيعي، وأندفع على المنافس بطريقة شرسة، وعنيفة تتخطى كل قواعد وأنظمة اللعبة الرياضية والأخلاقية والإنسانية، وقد تم توقيفي عن ممارسة اللعبة أكثر من مرة بسبب أنني سببت إصابات لبعض المنافسين، وما زلت أذكر أن أحد المدربين «الكوريين» الذين كانوا يشرفون على ناد منافس للنادي الذي أنتسب له، وهو مدرب مشهور ومعروف على مستوى المنطقة الوسطى كلها، جاء إلي بعد أحد المنافسات وأشاد بقدراتي وبتمكني، وقال لي: (لو تخليت عن اندفاعك وعن عنفك وتحكمت بأعصابك واحترمت المنافسين لك، والتزمت بأنظمة اللعبة لأصبحت مشروع بطل (دولي وليس إقليمي)، بل إنه طلب مني أن أذهب معه «لكوريا» أثناء إجازته ليقوم بعرضي على أخصّائي في علم النفس الرياضي يعلّمني عبر برنامج استشاري كيف أضبط نفسي، وأتحكم في أعصابي أثناء المنازلات الرياضية، وهذا البرنامج اسمه «الثبات الانفعالي» يتم عن طريق أخصائي نفسي متخصص في علم النفس الرياضي يعلمني كيف أتحكم وأسيطر على اندفاعي وتهوري أثناء المنافسات الرياضية، وأيضا لكي أحصل على «كورس» تعليمي في أشهر مراكز التدريب العالمية لتعليم الكاراتيه في كوريا.

لكن من المفارقات الغريبة أنه بعد أسبوعين من كلام ذلك المدرب الكوري معي وأثناء الاشتراك في بطولة ينظمها النادي الذي يشرف عليه ذلك المدرب، تم شطبي نهائيا من قبل اتحاد اللعبة، وتم سحب بطاقة مزاولة اللعبة مني وحرماني من ممارستها بتاتا، لأنني تسببت في إصابة بليغة لأحد المنافسين مما سبب له كسرًا مضاعفًا

في الحوض، أعترف بكل صراحة وتجرد أنني أستحق الشطب، فقد سببت الأذى والألم لشخص ليس له ذنبٌ إلا أنه دخل معي في تنافس رياضي شريف، وقد ندمت لاحقا - بعدما نضجت - ندمًا شديدًا، وما زلت نادمًا حتى هذه اللحظة على ذلك التصرف الأهوج وغير المبرر مني تجاه ذلك «الشاب»، لكني وقتها كنت أعيش لحظات عزلة شعورية واجتماعية، وأمرّ بجفاف عاطفي من جراء الوحدة القاتلة، مما انعكس سلبا على نفسي، وتولد عن هذا الحرمان حقد على المجتمع، كنت وقتها أعتقد أن العنف هو الوسيلة الوحيدة التي أنفس بها عن نفسي أو أنتصر بها على الغير، كان مفهومًا خاطئًا مني لم أكتشفه إلا بعد فوات الأوان وبعد نضوجي والتحاقي بالجامعة، كم تمنيت أنني أعرف الآن الأشخاص الذين سببت لهم أذى لكي أعتذر منهم، وأطلب منهم الصفح والعفو، خاصة ذلك «الشاب» الذي تسببت في كسر مضاعف له في الحوض، وما زلت أشعر بغصة وألم، وتأنيب ضمير، مما حدث له من جراء تهوري وغروري واندفاعي، وحقدي غير المبرر، فلم يكن له ذنبا فيما جرى لي من المجتمع، بل إنه أصبح ضحية لحقدي مثل ما أنا ضحية لتسلط المجتمع.

قيادة الذات

مع مرور السنين بدأت أدرك أنه لن يخرجني من العزلة الاجتماعية والشتات الوجداني، والوحدة القاتلة، ومن نظرة المجتمع إلا العلم والتعلم والاعتماد على نفسي وقيادة ذاتي، ويجب علي أن لا أنتظر من أحد شفقة أو عطفًا، فالمجتمع حتى في عطفه وشفقته علي «يحسسني» بضعفي، وبمعاناتي، وبأنني غير قادر على إدارة ذاتي، وأنني أستحق الشفقة والعطف والانكسار.

من هذا المنطلق قررت أن أجلس مع نفسي جلسة مصارحة ومحاسبة «أن أكون أو لا أكون»، ووضعت نفسي أمام خيارين لا ثالث لهما:

الخيار الأول: إما أن أرضى وأخنع لمهانة وذل المجتمع الذي ينظر إليّ على أنني نقطة نكرة على الهامش، لا أشكل لهم هاجسا أو وجودا، وأستمر أستجدي مشاعرهم، وأبقى أسيرا لنظرتهم القاصرة تجاهي (كلقيط)، لا قيمة لي في ميزانهم ولا أصل ولا فصل لي في عرفهم.

والخيار الثاني: أن أثابر وأكافح وأنحت في الصخر بكل الطرق المشروعة في سبيل أن أكون متميزا وأفرض نفسي عليهم وأكون ثوريا، وسلاحي المشروع هو القلم والعلم والمعرفة والتفوق والصمود أمام

ظلمهم وجحودهم وإقصائيتهم.

من تلك اللحظة قررت اختيار (الخيار الثاني)، وعلي أن أثابر وأكون مميزا دراسيا وتعليميا، وأن أركزعلى تطوير ذاتي بكل الوسائل الممكنة والمشروعة، وأن لا أخضع لنظرتهم، ولا أستكين لاحتقارهم، وأن لا أعطيهم مبررًا أو فرصة لامتهان كرامتي، أو مصادرة إنسانيتي، علي أن لا أنحني أو أخضع لأحد إلا الله.

منذ تلك اللحظة عزمت الأمر على الطموح والمثابرة والاجتهاد؛ لكي أحصل على مؤهلات علمية وأكاديمية تؤهلني لأنجو بنفسي من الوحدة ومن المهانة التي كنت أتمرغ في ذلها ومهانتها ليلا ونهارا. وفعلاً هذا ما حدث، فقد نتج عن هذا الطموح والتحدي أن كان ترتيبي الأول على دفعتي بالثانوية العامة.

ولم أقف عند حد التفوق بل رسمت لنفسي إستراتيجية واضحة المعالم، وخططت لأهداف مشروعة، ومن تلك الأهداف، أن أكون شخصا قياديا، وأن أعتز بنفسي، وأنمي قدراتي القيادية، وبفضل من الله بدأت أنضج فكريا، وأتخذ قرارات قيادية صنعتها لنفسي، وقد تكون الوحدة التي عشتها سببا إيجابيا في قيادة ذاتي والاعتماد كليا على نفسي منذ المرحلة المتوسطة. فقد كنت أعتمد على نفسي اعتمادا كليا، كانت طموحاتي وأهدافي تكبر معي بشكل تدريجي، وكلما عبرت مرحلة أطمح أن يكون طموحي للمرحلة القادمة أكبر من المرحلة التي قبلها. من هذا المنطلق بدأ يكبر طموحي، وقد منحني المعلمون الثقة

فبدأوا يوكلون لي مهامّ قيادية سواء في الصف أو في المدرسة، كأن أكون عريفا للصف، وكشافا مساعدا للتنظيم داخل المدرسة، كان هذا الشيء يحفزني ويعزز الثقة في نفسي ويجعلني أتمسك بالقيادة وأحاول أن أثبت للجميع أنني أهل للقيادة. كنت أقاتل بكل الطرق من أجل أن أكون قائدا لفريق الصف الرياضي في كرة القدم وكرة اليد، وكنت أنخرط في جميع الأنشطة الرياضية، كان معلم الرياضة في الثانوية يعاملني معاملة خاصة ليس لأني (مجهول الأبوين) فهو لا يعلم وزملائي التلاميذ عن وضعي الاجتماعي شيئا، لكنه كان يؤمن بتكويني الجسماني وبقدراتي الرياضية بعد حصولي على المركز الأول في السباحة على جميع مدارس المنطقة، ومن ثم تطور الأمر وتم اختياري لأكون قائدا كشفيا لكشافة المدرسة، ومبررات اختياري، رغم صغر سني، كانت لعدة أسباب منها: بنيتي الرياضية، والجسدية البارزة، وأيضا لحبي الشديد أن أكون قائدا مميزا. فقد كنت أحرص أن أتعلم وأكتسب صفات القيادة وأحاول صقلها وتطويرها بكل الطرق، ومن ثم قمت بالانخراط في رياضة «الكاراتيه والتايكوندو» وهذا الاختيار كان لسببين مهمين: السبب الأول: كنت أريد منه أن أرضي غرور نفسي، والسبب الثاني: من أجل إهدار طاقتي بشيء مفيد، ومن أجل حماية نفسي.

كان لتوجهي وحبي للقيادة منذ الصغر انعكاسات جميلة، أثّرت بطريقة إيجابية على بقية حياتي العامة والخاصة، وإن كان لمعاناتي ووحدتي من وجه مضيء مشرق فهذا الوجه المضيء هو أنني اعتمدت على نفسي، بعد توفيق الله الذي ألهمني أن أقود نفسي لبر الأمان، وأن

أتعلم صفات قيادية عززت في نفسي سمات جميلة، منها على سبيل المثال لا الحصر: الثقة بالنفس، وحب الطموح، وحسن التصرف، وقوة التحمل، واجتياز المواقف والمعوقات التي تواجهني، كذلك علمتني القيادة الاعتماد على النفس، وعدم الاتّكال على الغير، وهذه الصفات القيادية يحتاجها كل شخص في حياته إن هو أراد أن يكون شخصا بارزا. فالشخص الذي لا يحسن قيادة ذاته فهو في نظري شخص هلامي اتّكالي ستكشف له الأيام أنه عبء على نفسه وعلى الآخرين.

كان قرار اعتمادي على نفسي وقيادة ذاتي من أهم وأجمل القرارات التي غيرت مجرى حياتي وحولتها رأسًا على عقب، فقد تحولت من «شاب» يائس محبط متشائم مستكين متذبذب التفكير خائف من المستقبل إلى «شاب» ثائر ومتفائل، مفعم بالحيوية والنشاط، يعشق الطموح، ويتمتع بإرادة فولاذية لا تلين ولا تنضب، ولم تقف طموحاتي على التفوق العلمي فقط، بل قررت أن أرسم لنفسي عدة قرارات عزمت على تنفيذها وبث روح المنافسة في نفسي والتنافس مع الآخرين، ومجابهة المجتمع والسير موازيا لأبناء الذوات وأبناء القبائل «كتفًا بكتف»، بل والتفوق عليهم، كان قرار جريئا ورائعا، أسهم في اتخاذي حزمة قرارات لاحقة مهمة جدا، أسهمت في شق طريقي في الحياة دون أن أستجدي مشاعر وعواطف المجتمع أو أكون نقطة على هامشه.

ومن منطلق إيماني بأنني وصلت إلى قناعة وثقة في قيادة ذاتي، وعرفت معنى الاستقلالية الذاتية، والتفكير الإيجابي، وأن التحرر من

عبودية المجتمع يجب أن تواكبها نقلة نوعية في تفكيري وفي سلوكي وفي تصرفاتي، لهذا قررت اتخاذ عدة قرارات ذاتية مهمة تتمثل في الآتي:

- قررت أن أتجاهل الظّلام مهما كان معتماً، وأن أواصل الكفاح لتحقيق أَحلامي المبعثرة وألملمها، وأُلمِلم نفسي وأُعيد رسم تقاسيم خريطة وجغرافيا حياتي، بعيدا عن تضاريس وندبات وجروح الماضي مهما كانت غائرة ومؤلمة.

- قررت أن أحطم البرواز النمطي الجمعي الذي يؤطر صورة نمطية مشوهة «للقيط»، بَعد أن شوهته قسوة الِأيامْ، وظلم المجتمع. وعزمت أن أرسم صورة مختلفة وجميلة وبرواز أَجمل.

- قررت أن أتجاهل الأيام الغابرة مهما كانت آثارها وأخاديدها بارزة على روحي، وأتجاهل الأشخاص الذين كل همهم المفاخرة بالحسب والنسب، وزرع الانكسار وتحطيم روحي ونفسي.

- قررت أن يكون وجودي كإنسان وكمواطن أسمى وأقوى من أن تقتلعه عواصف موروثات اجتماعية إقصائية متسلطة.

- قررت أن تظل روحِي أسمى من أن تَضيعَ بَينْ إقصائية مجتمع طبقي، وبين وحدة قاتلة.

- قررت أن يكون سلاحي السلمي لمجابهة قمع وظلم وتسلط المجتمع هو التسلح بالعلم والمعرفة والانتصار على الذات، والتغلب على الظروف مهما كانت قاسية ومؤلمة.

حلمي المفقود

بعد تخرجي من «الثانوية العامة» كان حلمي، وأمنية عمري الدخول والانخراط في (الكلية الجوية)، فقد كان طموحي أن أكون طيارا حربيا مقاتلا، قد يكون لحقدي وقتها على المجتمع وعلى نظرته الدونية لي سببا في ميولي لهذا التخصص الذي يتصف بشيء من العنف والجسارة والقوة، وقد حمدت الله بعد النضج أنه لم يتحقق ذلك الحلم، فلم أندم الآن على عدم تحقيقه؛ لأنه كان في لحظة وقتية كنت فيها حاقدا على المجتمع، وأحس برغبة جامحة في ممارسة أي تخصص يتصف بالعنف وعدم الرحمة، أو خوض أية رياضة فيها عنف وانتقام كرياضة «التايكوندو والكاراتيه». كنت وقتها أحس بعشق للانتقام والعنف وقد يكون للتنشئة والبيئة التي عشت بها وما وجدته من حرمان عاطفي وأسري وإقصائية من المجتمع، انعكس سلبا على نفسيتي وتصرفاتي؛ فنتج عن ذلك حقد وكراهية وحب في الانخراط في أي مجال يكون فيه عنف وتصفية وتسلط.

قدمت أوراقي على (الكلية الجوية) كانت جميع الشروط ومعايير القبول تنطبق علي؛ فمعدل درجاتي ونسبتي بالثانوية عالية جدا، كما أنني اجتزت جميع الفحوص الطبية والمقابلات الشخصية، ولم يتبقَ إلا إعلان أسماء المقبولين بالكلية الجوية. كانت المفاجأة أن اسمي لم يكن من ضمن أسماء المقبولين، ولم أعرف سبب عدم قبولي

بتاتا، مع أن هناك تلاميذَ من دفعتي هم أقل مني درجات تم قبولهم في الكلية الجوية، مما سبب لي صدمة نفسية مزعجة، لم أقتنع بعدم قبولي، وكنت مصرا على دخول «الكلية الجوية» بأية طريقة كانت، ولهذا قررت الذهاب لقائد الكلية الجوية لمقابلته وطلب شفاعته، ولكي أوضح له أنني تجاوزت جميع الشروط، وتنطبق علي جميع معايير القبول ولم يتم قبولي!

وصلت إلى مكتب قائد الكلية، وقابلت مدير مكتبه. كان مدير مكتبه شخصا متغطرسا جافا متعاليا في تعامله، ولم يسمح لي بمقابلة القائد، حاولت بشتى الطرق مقابلة القائد لكن مدير مكتبه رفض ذلك. شاهَد إصراري أحد الأفراد العسكريين العاملين بمكتب القائد «كمراسل» وحس بي، همس ذلك العسكري في أذني حينما انشغل عنا مدير المكتب بالحديث عبر الهاتف، قائلا لي: لن يسمح لك «مدير المكتب» بمقابلة القائد، لكن لم يتبقَ على صلاة الظهر إلا نصف ساعة والقائد سيخرج من مكتبه للذهاب إلى المسجد لأداء صلاة الظهر، فرصتك أن تُلفت انتباهه لك أثناء ذهابه للمسجد وأن تشرح له موضوعك. فعلت ما نصحني به ذلك العسكري «الطيب».

انتظرت القائد حتى خرج للمسجد، كان القائد رجلا مهيبا ضخم البنية، خطواته سريعة لم أستطع اللحاق به إلا عندما جريت للحاق به، وعندما اقتربت منه فاتحته بموضوعي وسلمته عريضة شكوى كتبتها أشتكي فيها عدم قبولي رغم اجتيازي جميع شروط القبول، لم يكن القائد يمشي وحده فقد كان مشغولا بالحديث مع

مجموعة من «الضباط» كانوا يسيرون بجانبه متجهين للمسجد، أخذ العريضة وسلمها لشخص كان برتبة «عميد» يمشي بجانبه وقال له: اطّلع على موضوع هذا الشاب، بعد الصلاة، واتخذ في شكواه ما يتوافق مع أنظمة القبول.

قمنا بأداء صلاة الظهر بمسجد الكلية، ومن ثم تبعت ذلك «العميد» الذي سلّمه القائد عريضة شكواي بعد خروجه من المسجد حتى دخوله مكتبه، طلبت من عسكري كان أمام مكتبه الدخول له، قال لي: انتظر حتى أبلغه وآخذ الإذن منه بدخولك عليه، لفت نظري لوحة صغيرة على باب مكتب ذلك «العميد»، مكتوب عليها (مكتب المساعد)، عرفت أنه مساعد الكلية، تفاءلت خيرا أنه سيحل مشكلتي، أذن لي العسكري بالدخول، دخلت ووجدت ذلك «العميد» رجلا طيبا يحمل وجها بشوشا، وابتسامة مريحة، قرأ عريضتي وأخذ الهاتف، واتصل على شخص ما، وأعطاه اسمي وطلب إحضار ملفي من شئون الطلبة. بعد ربع ساعة تم إحضار ملفي واطّلع عليه وعلامات الدهشة والاستغراب بادية على وجهه، ثم قال لي: ما شاء الله عليك، حاصل على جميع معايير القبول، لكن لا أعلم ما هي الأسباب التي منعتك من القبول، ثم اتصل مرة أخرى على شخص آخر وطلب منه الحضور لمكتبه عاجلا، بعد خمس دقائق دخل علينا ضابط برتبه «عقيد» طلب مني «العميد» الانتظار بصالة الانتظار خارج المكتب وبقي «العقيد» معه بمكتبه، سألت العسكري الذي خارج المكتب بصالة الانتظار من هو «العقيد» الذي دخل على العميد؟ قال لي: هذا المسئول عن لجنة التسجيل والقبول عرفت أنه الشخص الذي اتصل فيه «العميد» من

أجل موضوعي. بعد ربع ساعة خرج «العقيد» وطلبني «العميد»، دخلت عليه، قال لي: بلهجة عامية فيها شيء من التضامن والتعاطف معي: «شف يا ابني جميع شروط القبول تنطبق عليك كشخص، لكن لم يكتب لك نصيب بالقبول عندنا بالكلية، ومن الأفضل لك أن تدخل إحدى الجامعات، فمعدلك ممتاز وستُقبل بأي تخصص تريده، أما الكلية فهناك شروط خاصة لا تنطبق على منهم في مثل وضعك.

اندهشت من رده وصدمت من قوله «شروط خاصة»، تحليت بالشجاعة والتماسك مع أن عيوني كانت تقاوم الدموع قائلا له: أسألك بالله، ما هي الشروط الخاصة التي حرمتني من حلم حياتي.

رد علي قائلا: هدئ من روعك يا «ابني»، وطلب لي كأس ماء، وبعد أن هدأت من البكاء، قال: سأصارحك بأسباب عدم قبولك مع أنه من المفروض أن تبقى سريّة، لكن سأقولها لك من باب أن تقطع الشك باليقين، وتفقد الأمل من القبول «بالكلية الجوية»، وتبحث لك عن مجال آخر تشق فيه حياتك الدراسية والعملية. السبب يا «ابني» أننا بعد الاطلاع على شهادات ومشاهد حسن السيرة والسلوك وخطابات التعريف أنك من أبناء الشئون الاجتماعية ومن (مجهولي الأبوين)، وقام بإخراج كراسة قبول من درج مكتبه مليئة بالشروط، قائلا: هذه فراغات لا بد أن يقوم كل متقدم على الكلية بتعبئتها، وفيها خانات من ضمنها (اسم أب المتقدم واسم جده - واسم أم أبيه - وجدته لأبيه - واسم أمه - واسم أبوها واسم أمها - واسم جدته لأمه)، ومن ثم تصدق هذه المعلومات من شيخ القبيلة أو من العمدة بأنه مواطن

الأصل والمنشأ ومعروف أبوه وأمه وجده وجدته، وهذه الشروط للأسف لا تنطبق عليك (كمجهول الأبوين)، فأبواك غير معروفين.

قلت له: بلهجة تحدي حادة ودموع الغبن والقهر تنساب من عيوني: هل تضمنون أن كل من يتقدم لكم «ابن شرعي لأبيه» وتعملون له تحليل دم وراثي يثبت نسبه لأبيه؟ وهل الولاء والانتماء للوطن وعدم خيانته مقتصر على أبناء الذوات والقبائل والعوائل المعروفة؟ أليس من احتل «الحرم الشريف» جميعهم من أبناء القبائل؟ نظر لي ذلك «العميد» بدهشة من ردة فعلي وجرأتي وقال: يا «ابني» أقدر حرقتك، وكلامك منطقي، لكن نحن ملتزمون بكراسة شروط يجب أن تكون مستوفية جميع الشروط.

قلت له بحدة: من وضع هذه الشروط قادر على تغييرها فهي ليس قرآنا منزلا أو ثابتا من الثوابت التي لا يمكن تغييرها، إنما هي من صنع أناس يؤمنون بالإقصائية والقبلية والمحسوبية والعنصرية للحسب والنسب، ووضعوا وفصّلوا هذه الشروط لتناسب مقاساتهم دون غيرهم، رغم أن السلوك والأمانة الوطنية لا تعترف بالحسب والنسب، فليس شرطا أن يكون كل قبيلي أو من أبناء الذوات لا يخونون أوطانهم، وليس شرطا أن كل «ضائع نسب» يخون وطنه، فالمسألة مجرد تصنيف عنصري ليس إلا. بعدها قمت غاضبا، وخرجت من مكتبه، وأنا أتجثم حزنا ومرارة الحرمان من حلم مفقود كنت أتوق إلى تحقيقه، لكن قانون الحسب والنسب قتل حلمي في مهده، بسبب الطبقية والإقصائية والمحسوبية، وبسبب شروط وضعتها ثلة من أبناء

الذوات والقبائل؛ لتناسب أبناء الذوات وأبناء العوائل والقبائل دون غيرهم.

خرجت من مبنى «الكلية الجوية» وكل إحباطات الكون تعتريني، اسودت الدنيا في عيوني، وبقيت فترة من الوقت أعيش صدمة فقداني حلم كان يراودني ليلا ونهارا منذ صغري، لكن مع مرور الوقت آمنت أنه ليس لي نصيبا في هذا المجال والخيرة فيما اختاره الله لي، وليس فيما اخترته لنفسي ﴿وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خيرٌ لكم﴾.

الخيار الصعب

بعد فترة قصيرة من عدم قبولي في (الكلية الجوية) اتجهت للجامعة، كانت هناك أربعة تخصصات تستهويني، وكان طموحي الانخراط في كل واحد منها، فقد كان لكل تخصص من هذه التخصصات جانبا يشكل لي مقصدا، ورغبة ملحة لأسباب جوهرية سواء كانت رغبات نفسية، أو رغبة تخصصية، لكن الجامعة لن تقبل مني إلا اختيار تخصص واحد فقط.

كانت تستهويني التخصصات التالية: (علم الإدارة، وعلم الاجتماع، والصحافة والإعلام، وعلم القانون أو المحاماة). احترت كثيرا بين هذه التخصصات فكل تخصص من هذه التخصصات يستهويني، وأعتبر أنه سيكون بصمة وسيشكل جانبا إيجابيا في حياتي.

كانت الرغبة الأولى: أن أنخرط في (كلية الإدارة) فعلم الإدارة يمثل لي القيادة الذاتية، والتمكن من قيادة الآخرين، كانت القيادة الذاتية منذ صغري تشكل جزءا لا يتجزأ من تكويني وشخصيتي في حياتي الفردية الخاصة، وحياتي العامة، فقد اعتمدت على نفسي منذ نعومة أظافري مما خلق عندي حبًّا جامحًا لأن أكون مميزا كإداري ناجح وكقائد لنفسي وأطمح أن أكون قائدا مميزا في الحياة العملية العامة، والحياة الخاصة، ولن أستطيع التميّز في الإدارة والقيادة حتى لو كنت أملك صفات (وكريزما) القيادة، إلا بصقلها

بالعلم المعرفي الإداري، وأن أثري نفسي بسلوكيات إدارية وقيادية عن طريق متخصصين متمكنين في الإدارة والقيادة، كما أن الدراسة التخصصية لهذا العلم (علم الإدارة) تستهويني جدا وتشكل لي هدفا أتمنى تحقيقه، وبكل شفافية وصراحة كنت أريد أن أثبت للمجتمع أني قادر على إدارة وقيادة أناس من المجتمع، وأن عدم وجود حسب ونسب لن يمنعني أو يقف في طريقي من قيادة وإدارة أناس ممن يؤمنون بالحسب والنسب، ويعتقدون أن من لا حسب ولا نسب له، سيكون نقطة على هامش المجتمع وليس بمؤهل أن يكون مميزا أو قائدا أو مديرا (لأبناء الحمايل) كما يدعون، رغبت أن أثبت للمجتمع أن الإنسان بقدراته وفكره وبعلمه، وليس بحسبه أو نسبه أو بقبيلته وأصله وفصله.

أما الرغبة الثانية: فهي أن أتخصص في (علم الاجتماع)، كنت أتمنى أن أنخرط في هذا التخصص؛ لأقوم بتشخيص وتعرية سلوك المجتمع وأسباب تمسكه بالأحساب والأنساب وما يمارسه من تمييز ومن نظرة دونيه، ضد من هو مثلي (مجهول أبوين) أو (لقطاء) كما يطلق علينا المجتمع. وما نعانيه (كلقطاء) من إقصائية، وتمييز طبقي واضح وجلي، وما يطبقه هذا المجتمع في حقنا من قانون اجتماعي طبقي إقصائي اسمه قانون (تكفأ النسب) كان السبب في ميولي لهذا التخصص ما يمارسه المجتمع من جبروت وثقافة إقصائية ضدنا، فلم يكن للدولة كسلطة تنظيمية وتشريعية علاقة فيما يمارسه المجتمع من سلوك إقصائي، وتمييز طبقي ضدنا (كلقطاء) أو (مجهولي النسب) بل ما يمارس ضدنا قانون جمعي.

من هذا المنطلق كان لدي رغبة نفسية وروحية أن أغوص في سلوكيات المجتمع والبحث في مسببات هذه الإقصائية، وهذا الاعتزاز الذي يصل حد الغلو بالأنساب والأحساب الذي يؤمن به المجتمع، كنت أعتبر الطبيب البشري يشخص الأمراض الجسدية للبشر، وعلى نفس الغرار يأتي الباحث أو الأخصائي الاجتماعي فهو يشخص الأمراض الاجتماعية والسلوكية للمجتمع، ولن يكون بمقدوري تشخيص تلك الأمراض الاجتماعية من (إقصائية، وطبقية، وعنصرية، وفوقية، وقمع، وتسلط) إلا بدراسة سلوك المجتمع دراسة أكاديمية متخصصة، ولن أعرف خبايا المجتمع إلا بالاندماج في عمق المجتمع القبلي ودراسته دراسة منهجية بعيدا عن التنظير، بل لا بد من الدراسات التطبيقية البحثية المبنية على التحليل والتشخيص العلمي المبني على المنهج البحثي، والمنطق العلمي.

الرغبة الثالثة: كانت دراسة (الصحافة والإعلام) تستهويني لعدة أسباب منها: حبي وعشقي الشديد للإطلاع والقراءة والكتابة، وكنت أريد أن أطور من نفسي بالانخراط في هذا التخصص الذي سيسهم في زيادة ثرائي المعرفي، وخلق بيئة عملية مناسبة بعد التخرج أمارس فيها (القراءة والكتابة) وفق أسس علمية أكاديمية تصقل هوايتي وعشقي للقراءة والكتابة، ويصبح بوحي بمثابة البلسم الذي يبدد ما يدور في خلدي من هموم وشجون، وأوصل قضيتي عبر نزف قلمي للخروج للعلن، وأستخدم السلاح السلمي «القلم» لتعرية وكشف سلوكيات مجتمع طبقي أحادي التوجه والاتجاه، ليس في قاموسه مجال للتعدد أو قبول من لا ينتمي لنسيجه الاجتماعي أو «كهنوت» الحسب

والنسب الذي يؤمن به حد الاعتقاد، كما أن الصحافة هي السلطة الرابعة وتساهم في كشف خفايا وخبايا وأمراض جسد المجتمع.

أما الرغبة الرابعة: دراسة «المحاماة والقانون» كنت أريد أن أعرف حقوقي الخاصة والعامة، وأستطيع الدفاع عنها، والدفاع عن حقوق كل اليائسين والمهمشين والمظلومين، كان حلمي أن أدافع عن كل مضطهد، ومضطهدة، وأجابه كل ظلم وتسلط بالقانون وبالمعرفة التامة لحقوقي وحقوق الآخرين. كنت ولا أزال أعتقد وأؤمن أن المعرفة والاطلاع على القوانين وفهمها جيدا هو طوق النجاة لكل مضطهد ومظلوم سواء كان هذا الظلم ظلما محسوسا بارزا، أو ظلما معنويا، أو ظلما اجتماعيا، فكما قيل «العلم بالشيء فرع عن تصوره».

تضاربت عندي الرغبات المتعددة واحترت ماذا أختار من هذه التخصصات فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن تتيح لي الجامعة الانخراط في جميع هذه التخصصات التي تستهويني، وسأكون مضطرا لاختيار تخصص واحد فقط، ومن باب «ما لا تدركه جله، لا تتركه كله» كان علي حزم أمري واختيار تخصص واحد قبل أن تغلق الجامعة باب القبول، وبعد تردد وقع اختياري على تخصص (علوم إدارية) وذلك نابع من حبي وعشقي للإدارة والقيادة، ولما لهذا التخصص من صفة قيادية قد تصنع مني قائدا لنفسي في ظل مجتمع يحتاج إلى من يجابهه لا من يخضع له أو ينحني لسلطته وإقصائيته.

استقلاليتي والخروج من السكن الجماعي

عندما التحقت بالجامعة أصبح السكن الجماعي يشكل لي إزعاجا مقلقا، خاصة أنني أحب الهدوء والقراءة والمذاكرة، والنوم مبكرا وأحب التنظيم والاستقلالية. أصبحت لا تناسبني بعض عقليات وتصرفات الشباب الموجودين، فقد كان السكن الجماعي يفرض علي عقليات متعددة وفروقًا فردية وسلوكية فرضها السكن الجماعي علي مرغما.

كانوا يشاركوني بالسكن الجماعي الذي توفره لنا الشئون الاجتماعية بعض الزملاء الذين لا أعيب عليهم كبشر، وقد يكونون أفضل مني عند الله، لكني لا أحب الفوضى أو الإزعاج أو السهر أو النقاشات السطحية التي تهدر الكثير من الوقت في نقاشات غير إيجابية أو مفيدة، فقد كانت معظم حواراتهم عقيمة أغلبها تنصب حول أحدث الأفلام والمسرحيات، والجديد في النكت، وعن صرعات الموضة، وأحدث قصات الشعر. لم تكن هناك مناقشات علمية أو أدبية أو ثقافية أو حوارات عميقة يستفيد منها المحاور والمتلقي، ولهذه الأسباب لم تكن أجواء السكن الجماعي مناسبة لمن يريد أن يهتم بالدراسة والمذاكرة، فالأجواء مليئة بالصخب والضجيج بسبب وجود شباب مراهقين لديهم طاقات صوتية وحركية، يروق لهم التمرد على الضوابط والقيود.

كان الصخب والضجيج وعدم الخصوصية يشكل لي هاجسا مقلقا بدأ يؤثرعلى نفسيتي وعلى دراستي ومذاكرتي، خاصة أنني بالمستوى الأول من الجامعة، ويجب أن أحصل على معدل تراكمي ومعدل فصلي ممتاز حتى أستطيع المحافظة عليه مدة فصول الدراسة الجامعية، فكما هو معروف، أن المعدل في السنة الأولى من الدراسة الجامعية مهم وهو بمثابة التأسيس الذي يرسم طريق تفوقك من عدمه، ورغم أنه يوجد سكن بالجامعة كان بإمكاني محاولة الانتقال إليه، لكنني سأكون مثل (المستجير من الرمضاء بالنار)، فالسكن الجامعي سيكون نسخة أخرى من السكن الجماعي التي تؤمنه لنا الشئون الاجتماعية المليء بالصخب والضجيج وعدم الخصوصية، حتى لو سكنت في غرفة مستقلة بالجامعة سيكون الصخب والضجيج حاضرا في بهو السكن الجامعي وفي ممراته وفي مطعم الجامعة.

كان كل يوم يمضي علي بالسكن الجماعي يشكل لي همّا مزعجا، ويؤثر سلبا في مستقبلي الدراسي، ويؤثر على مذاكرتي ويقتل طموحي، فقد كنت أطمح أن أكون مميزا في دراستي الجامعية. من هذا المنطلق، كنت أبحث عن طريقة تحررني من أجواء العشوائية والصخب والضوضاء التي أعيشها في سكن الشئون الاجتماعية. كان يجب علي ألا أبقى مكتوف اليدين، فمستقبلي الدراسي سيكون معرضا للخطر، فكرت كثيرا أن أستأجر وحدي في سكن مستقل لأعيش خصوصية واستقلالية، وأسيطر على وقتي، وأقوم بترتيبه بشكل منفرد، وأبعد عن أي تشويش وتوتر ينعكس سلبا على حياتي ودراستي. كان لدي بعض المبالغ مرصودة لي من إعانة الدولة جزاها الله خيرا، فقد كانت

الدولة تصرف لنا (كلقطاء) مبالغ رمزية توضع في حسابنا كل شهر، وهذه المبالغ المرصودة قد تكون عونا لي في دفع إيجار مقدم سنة، وتأثيث السكن الذي سأستأجره، لكن هناك متطلبات أخرى وحسابات إضافية ستترب على خروجي من السكن الجماعي، وسأحتاج لمصروف شهري للطعام والشراب، ودفع فواتير الهاتف، والماء، والكهرباء، وسأحتاج لسيارة توصلني للجامعة وتعيدني وأنهي عليها مشاويري وسوف تحتاج إلى بترول وصيانة دورية، كل تلك الحسابات الإضافية كانت تمثل لي عقبة، جلست مهموما أمام تلك العقبة أبحث عن مخرج أتخطى به هذه العقبة، لكن أتى الفرج من الله بصدفة محضة، فقد اتصلت بي كعادتها كل شهر «امرأة» فاضلة تعيش مع أطفالها بعد وفاة زوجها «أرملة»، كانت سابقا تستضيفني باستمرار عندما كنت صغيرا، فقد كانت تأتي إلى الدار مع سائقها الخاص وتخرج بي لبيتها ألعب وأستمتع مع أطفالها أيام الإجازات الأسبوعية وأيام الأعياد، كانت تعاملني بحنان آسر وعطف لا يوصف رغم أنني كنت شقيا وثوريا و«أتشاكس» باستمرار مع أطفالها، لكنها «جزاها الله خيرا» كانت امرأة استثنائية، أحس معها بحنان الكون، كانت إنسانة راقية بحق، حريصة كل الحرص على الاهتمام بي وتحفيزي وتشجيعي، كانت تقول لي منذ كنت صغيرا أنها تتوسم فيني النبوغ العقلي، وأنني سأكون في قادم الأيام شابا مختلفا، وسأشق طريقي بالحياة بنجاح، كنت أعتبر كلامها لطفا منها ومجاملة لي تريد منها رفع معنوياتي وتحفيزي ليس إلا.

فقد كانت تلك «المرأة» الرائعة رغم مشاغلها والتزاماتها

تحرص على المجيء للدار عندما كنت صغيرا واصطحابي باستمرار دون بقية الأطفال، نشأت بيني وبينها علاقة أمومة مقدسة، فقد أحببتها من أعماقي، وهي كذلك كانت تبادلني ذلك الشعور الممزوج بالحب الإنساني الطاهر.

وبعد أن كبرت وأصبحت شابا بالغا كان من الصعوبة أن أزور تلك المرأة وبناتها في بيتهم، حيث أن لديها ثلاث بنات أصبحن بالغات يافعات في سن الزواج، ومحرج لهن ولي أن يزورهن شاب غريب عليهن غير محرم لهن، خاصة في ظل مجتمع لديه حساسية مفرطة وفضول من كل غريب يأتي ويدخل بيت سيدة وبناتها وهو لا يقرب لهن، ولتحاشي إحراجهن وإحراج نفسي توقفت عن الذهاب لهن حتى لا أسبب لهن حرجا أمام جيرانهن، أو يكون وجودي يشوه سمعتهن، لهذا اقتصر تواصلي مع تلك المرأة الفاضلة على الهاتف من وقت لآخر.

في أحد الأيام كنت متوترا ونفسيتي متعبة، فجأة تلقيت اتصالاً من تلك المرأة الفاضلة كعادتها فهي تتصل بي بشكل أسبوعي، كانت تملك فراسة واستشعارًا إنسانيًّا فقد كانت تشكل لي روحا إنسانية تشاركني همومي وشجوني و«تحس فيني»، وتعرف دائما من نبرات صوتي هل مزاجي رائق أم متوتر؟ كان التوتر والتأثر واضحا على صوتي، سألتني قائلة: لماذا صوتك متعب؟، حاولت قدر الإمكان أن لا أوضح لها الأسباب النفسية التي تؤثرعلى نفسيتي بالسكن الجماعي فقد كنت منذ المرحلة المتوسطة أحاول أن لا أشتكي لأحد وأن أعتمد على نفسي وأحل مشاكلي بنفسي، فكما قيل (الشكوى لغير الله مذلة)

كنت لا أريد أن أكون ثقيلا على تلك المرأة الفاضلة فيكفيني إحساسها الإنساني النبيل واتصالها الدائم والاطمئنان علي، لكنها ألحت علي وناشدتني بالله أن أبوح لها بما يزعجني، وتحت ضغطها وإلحاحها علي بحت لها باكيا بأن السكن الجماعي يزعجني ويسبب لي تأثيرات سلبية على حياتي وعلى دراستي ويجعل مزاجي متوترا، وأحس بأنني مسجون منذ طفولتي بمعتقل أنفذ فيه عقوبة ذنب لم أقترفته، وليس أمامي من خيار إلا البحث عن سكن مستقل خاص مناسب لقدراتي المادية خارج سكن الشئون الاجتماعية، حاولت أن تهدئ من توتري وأن تلطف الجو ببعض كلمات التشجيع والفكاهة التي تتصف بها وأضافت قائلة: ما زلت شابا في بداية حياتك، والأيام القادمة ستكون مضيئة لك، وستخرج وتعمل وتحرر من كل قيود وتبعات الماضي.

انتهت المكالمة بيني وبين تلك «المرأة الفاضلة» على هذا النحو من التشجيع المعنوي الجميل، إلا أنها قالت لي قبل ختام المكالمة: هل لديك حي سكني معين أو سكن مستقل تريد أن تنتقل إليه بالذات.

قلت لها: لا تقلقي علي، فلدي بعض المبالغ المالية محتفظ بها، وبإذن الله أستطيع «أدبر» عليها زيادة أو أشترك في جمعية مع زملائي، وسأحاول أن أبحث عن سكن يناسب قدراتي المادية، انتهت المكالمة بيننا على هذا النحو.

بعد «عشرة» أيام من تلك المحادثة الهاتفية جاء السائق الخاص لتلك المرأة الفاضلة، وسلمني ظرفا مغلقا ومن ثم ذهب، فتحت الظرف

وجدت داخله مفتاحًا، وعقد إيجار شقة موثقًا ومسجلاً باسمي، وسند قبض لدفع إيجار الشقة لمدة سنة، إضافة لشيك مصدق بمبلغ (خمسة عشر ألف ريال) مكتوب باسمي، وورقة فيها عنوان الحي السكني وعنوان البناية التي فيها الشقة.

وجدت كذلك داخل المظروف رسالة بخط يد تلك «المرأة» الفاضلة، تقول فيها: «ابني (...) لا تعتبر هذا التفاعل والمساعدة مني شفقة أو عطفًا عليك إنما نوع من الإحساس فيك «كابن» من أبنائي، أكن لك حبا وتقديرا واحتراما لا يوصف، وأريد لك السعادة، وهذه هبة لك مني، ومن حسابي الشخصي، فأنا ولله الحمد مقتدرة ماديا ولدي مالا فائضا عن حاجتي، وبدلا من أن يبقى هذا المال حبيس حسابي يستفيد منه البنك، رغبت أن أساعدك بشيء منه، فأنا أعتبرك أحد أبنائي وهذه هدية متواضعة أنت تستحقها مني».

اغرورقت عيناي بالدموع بعد قراءتي تلك الرسالة متأثرا ومندهشا من إحساس تلك المرأة النبيلة، ومن تصرفها الإنساني الجميل، رغم أنه لا يجمعني بها صلة رحم أو رابط نسب، إنما رابط إنساني سام ونبيل، بعدها اتصلت بتلك «المرأة» قائلا لها: لماذا كلفتي نفسك ويعلمً الله أن بوحي لك وشكواي لك في المكالمة السابقة كنت أقصد «الفضفضة» والبوح لك بعد إلحاحك علي بأن أخبرك بما يزعجني، وليس من أجل أن تكلفي نفسك وتشيلي همي (حاش لله) إنما من جراء ضغطك وإلحاحك علي بحت لك بما كان يكدر مزاجي وقتها، وقد حملتي نفسك فوق طاقتها.

قالت: بسألك سؤال؟ قلت: تفضلي: قالت:ماذا تعتبرني في حياتك؟ قلت:أعتبرك بمثابة أمي، وبمثابة روحي، وبمثابة كل شيء جميل في حياتي.

قالت: وهل بين الأم وابنها حواجز أو حسابات مادية؟: قلت لها: سأقبل منك تلك المساعدة بشرط أن أعيد لك الشيك، وكذلك أريد أعطيك ولو جزءا مما دفعتيه كمقدم إيجار للشقة.

قالت: بحزم «الهدية» لا ترد ولا تكثر كلام في هذا الموضوع لا أريد منك إلا الدعاء، وأن تحافظ على نفسك وتثابر في دراستك وتبتعد عن أصدقاء السوء، هذه وصيتي لك (وأنا أمك)، وأريد منك أن تصرف الشيك وزد عليه من عندك واشتر لك سيارة جيدة تخدمك وتذهب بها لجامعتك، وتقضي عليها مشاويرك ومتطلباتك».

وعدتها أن أنفذ وصيتها وكلامها، وأن وقوفها معي سيكون جميلا في رقبتي ما حييت ولن أنساها من الدعاء آناء الليل وأطراف النهار.

كان اليوم التالي يوم خميس (إجازة أسبوعية)، استقللت (تكسي ليموزين) ذاهبا لتلك الشقة، كانت تقع في حي سكني جديد وراقٍ بشمال الرياض قريبة من الجامعة، تقع في بناية متعددة الطوابق، كانت الشقة جديدة لم تسكن من قبل، ومؤثثة تأثيثا كاملا وراقيا مكونا من (غرفة نوم مؤثثة بسرير نوم و«دولاب» ملابس، وصالون جديد، وكنب جلوس، ومطبخ مؤثث تأثيثا كاملا بجميع المستلزمات الكهربائية والكماليات، ولا أخفيكم أنني أثناء دخولي لتلك الشقة التي ستكون

سكنا مستقلا لي، أحسست بنشوة عارمة، وكأنني ملكت الكون كله، فهي تمثل لي مملكة خاصة، وسكنًا مستقلاًّ يحررني من نمطية السكن الجماعي الذي يتصف بالفوضى والصخب وأن أسمع كلاما قد لا أرغب في سماعه، ويفرض علي سلوكا وأنماط أشخاص قد لا أرتاح لهم أو أتكيف معهم، فمن وجهة نظري أن الاستقلالية في المسكن شيء مهم جدا في حياة الإنسان، فهو يمثل له الاستقلالية الذاتية والتصرف بحرية تامة بعيدا عن نمطية وقيود السكن الجماعي، فالسكن المستقل يوفر للشخص حرية تامة، يأكل ما يريد، ويلبس ما يريد من ملابس، ويشاهد ما يريد، وينام متى يريد، ويستقبل من يريد، دون مجاملة لأحد أو الخوف على مشاعر أحد خلافا لما يحدث في المساكن الجماعية التي تتصف بقيود وضوابط وفوضى وعدم استقرار، ويكون الشخص فيها بين أمرين أحلاهما مر، إما يخضع لسلوكيات ولعقليات وللتعايش مع أنماط سلوكية وبشرية قد لا يتفق معهم شكلا ومضمونا، ويكون بينه وبينهم تصادم وتنافر، أو أنه يحاول أن يرغم نفسه على العيش والتكيف مع الوضع مجبرا، ومحاولة مراعاة مشاعر الآخرين ومجاملتهم على حساب راحته وخصوصيته ومشاعره.

كان وجود تلك «الشقة» المستقلة تمثل لي «أوكسجين الحرية» فقد كانت تلك «الشقة» تمثل لي غاية لا وسيلة، خاصة أنه تشكل في شخصيتي منذ الصغر حبي للاستقلالية الذاتية، والاستقلالية في الرأي، وفي الفكر، وكان هاجسي استقلالية «السكن»، فلا أريد أن أكون ظلًا أو تابعا لأي كائن كان، فالاستقلالية الذاتية أصبحت جزءا من شخصيتي ومن تكوّني.

مكثت عدة ساعات في تلك «الشقة» غير مصدق، أحس وقتها أنني أحلق عاليا فوق الجميع وأن الأجنحة التي أحلق بها استقلاليتي، وحريتي، والتي تحققت بفضل الله، ثم بفضل «امرأة فاضلة» تمثل الوجه المشرق والمضيء للإنسانية الحقيقية للبشر، لقد أهدت لي تلك «المرأة الفاضلة» جوهرة لا تقدر بثمن، تتمثل في سكن مستقل أتنفس فيه هواء الاستقلالية والحرية الذاتية التي لا يعرف قيمتها إلا من عاش مثلي على الهامش متجرعا قيود وأنماط «سكن جماعي» أعتبره معتقلا.

كان حلمي التحرر من قيود وصخب وطقوس السكن الجماعي والانطلاق إلى نعيم حرية الاستقلالية الفردية والذاتية، ولن أنسى ما حييت أفضال تلك «المرأة الفاضلة» فهي تمثل لي ينبوعا من الحنان النادر، الذي لا أستطيع وصفه مهما وصفت فهو أكبر من الوصف، فقد كانت رقيقة المشاعر، جميلة الإحساس، باذخة بالحنان الآسر، كانت بيني وبينها لغة إنسانية راقية شفافة تفهم بها ما أعانيه، وعرفت بسببها روعة وجمال الحياة البعيدة عن القيود وعن التحكم، وعن الكبت الروحي، والجسدي.

بعد ذلك عدت للسكن الجماعي، وذهبت للشئون الاجتماعية، وقدمت خطابا مكتوبا أطلب فيه السكن وحدي، كانت هناك إجراءات متبعة يتم اتخاذها لمن يريد السكن مستقلا، ومن تلك الإجراءات على سبيل المثال أن يقدم «اللقيط» خطابا مكتوبا والتعهد بأن يتحمل مسئولية نفسه، وأن يكون تخطى السن القانونية التي تتيح له الاعتماد

على نفسه، ويكون حسن السيرة والسلوك، ومنضبطا سلوكيا وفي التصرفات، كانت جميع الشروط تنطبق علي وتسمح لي، وفعلا تمت الموافقة على طلبي بعد اتخاذ جميع الإجراءات النظامية المتبعة.

كان يوم استقلاليتي من السكن الجماعي يوما مميزا ويوما لا ينسى في حياتي، وبعد استقلاليتي وسكني في الخارج، عزمت أن لا أعطي سري أو أبوح لأحد بخلفيتي الاجتماعية وبأني (لقيط) لعدة أسباب، منها: لا أريد أن أتعرض لفضول الفضوليين، أو نظرة وتندر الساخرين، أو شفقة وعطف من أحد، كنت أريد أن أندمج مع المجتمع كإنسان دون النظر في خلفيتي الاجتماعية أو البحث في حسبي أو نسبي. حاولت أن أنسلخ تماما من المحيط الذي كنت أعيش فيه، وأنسى جميع أيام وذكريات الماضي بمرارتها وتبعاتها، وتوقفت علاقتي تماما إلا مع قلة جدا ممن يعدون على الأصابع وممن يستحقون أن أتواصل معهم، ويستحقون أن أتمسك بصداقتهم سواء من الزملاء الذين كانوا زملاء في الدار أو في السكن الجماعي، أو من المشرفين والمراقبين السابقين.

بعد خروجي عشت لحظات سعيدة وأوقاتًا ممتعة في سكني المستقل، وقمت بشراء سيارة صغيرة حالتها جيدة بسعر مناسب، ورتبت جدولي اليومي بشكل دقيق ومتقن، كان هدفي وهمي الأول أن أكون مميزا وأتفوق في الدراسة، وأحصل على معدل تراكمي وفصلي ممتاز، ولن يحدث ذلك ما لم أكبح جماح نفسي، وأكبت رغباتي في الخروج باستمرار وتشتيت الوقت في الخروج والترفيه، عزمت بإرادة قوية أن لا أخرج من منزلي إلا للنادي الرياضي، أو لشراء احتياجاتي

الضرورية، وقد أقبلت على المذاكرة ومراجعة دروسي كل يوم بيومه حتى لا تتراكم علي وتصعب السيطرة عليها، فأغلب الطلاب الذين لا يحققون معدلات جيدة هم السبب في ذلك؛ بسبب تركهم الدروس تتراكم عليهم، فهم لا يقومون بالمذاكرة الجدية إلا وقت الامتحانات، وهذا التراكم والإهمال يسبب لهم عبئًا فكريا، ونفسيا يؤثر على تحصيلهم الدراسي.

من هذا المنطلق حاولت أن لا أكرر الأخطاء التي يقع فيها الآخرون بل علي أخذ العبرة وتلافي السلبيات التي ستؤثر على تحصيلي الدراسي الجامعي فالشهادة الجامعية أهميتها في المعدل، فكثير من الشباب يتعب ويمضي من عمره أربع أو خمس سنوات دراسية ومن ثم يخرج بشهادة جامعية معدلها ضعيف لا تسمن ولا تغني من جوع، ويبقى بسبب إهماله وتكاسله على رصيف البطالة ينتظر عطف الآخرين ومساعدتهم، بينما لو أنه حصل على معدل ودرجات مرتفعة فستكون فرصه الوظيفية أكبر وأفضل.

كنت أستغرب حد الدهشة من إهمال وعدم مبالاة كثير من زملائي الطلبة بالجامعة الذين يسهرون حتى قرابة الفجر في الاستراحات والمقاهي، ومن ثم يأتون للجامعة ووجوههم شاحبة، وعيونهم محمرة من السهر، وفي حالة يرثى لها من الأرهاق والتعب، لا أعلم كيف يستفيد هؤلاء الطلبة من المحاضرات وهم في هذه الحالة من النعاس والشتات وعدم التركيز، ومن المؤكد أنهم سيحصلون على معدلات منخفضة، مما يؤثر على مستوياتهم وعلى معدلاتهم الفصلية والتراكمية بشكل عام.

نقطة التحول في حياتي

كانت التجربة الجامعية سببا مهما في قلب حياتي الخاصة والعامة إيجابيا، فقد غيرت طريقتي في التفكير رأسًا على عقب، فهي من شكلت تكويني الفكري والثقافي ومنحتني ثقة لا حدود لها في النفس، وشكلت استقلاليتي الذاتية والفكرية بشكل كبير، فمنذ الشهور الأولى من دراستي الجامعية تعلمت الاعتماد على الذات، والتحرر من عقدة الخجل والتردد أو الخوف غير المبرر من الاختلاط بالمجتمع.

ولا أخفيكم سرا أنني كنت أتوقع أن البيئة الجامعية أكثر انفتاحا وثقافة، وتحررا من ناحية الفكر والمضمون والممارسة، كنت أتوقع أن الجامعة بمثابة الحصان الذي يجر عربة تنوير وتطوير المجتمع والتحرر من موروثات العنصرية والطبقية، وأن منسوبي الجامعة من أعضاء التدريس، ومن الطلبة، قد وصلوا إلى مستوى فكري ناضج ورؤية منطقية عادلة لإنسانية الإنسان بعيدا عن نمطية التفكير التقليدي الموغل في التفاخر بالأحساب والأنساب، لكني صدمت حقا، فقد وجدت الوضع معكوسا، فالمجتمع بكل موروثاته وتوجهاته هي العربة التي تجر حصان التطوير والتحديث للخلف وليس للأمام، فقد وجدت صبغة المجتمع التقليدية التي كنت أشاهدها في خارج محيط الجامعة حاضرة وبوضوح داخل الجامعة، فقد تم نقلها من خارج الجامعة إلى داخلها، فوجدت نفس العقليات التي تؤمن (بكهنوت) الحسب والنسب

الذين يفاخرون بأفكارهم ومرجعياتهم القبلية والطبقية والاجتماعية ويمارسون نفس الطقوس الإقصائية والطبقية، فأول سؤال يسألونك (إلى أي عائلة أو قبيلة تنتمي؟) لا يسألونك عن مستواك الدراسي أو الثقافي أو رؤاك الفكرية والثقافية؟!

كانت تلك الأسئلة التي تقدس النسب والحسب تزعجني كثيرا حد الألم، ولذلك قررت الابتعاد عنهم قدر الإمكان وعدم الاختلاط بهم، فأناس بهذه العقليات الرجعية لن يضيفوا لي شيئا بقدر ما تجرحني وتحرجني أسئلتهم، حاولت أن أجد وسيلة أشغل بها نفسي وقت الفراغ داخل الجامعة، وجدت أن (مكتبة) الجامعة ستكون بالنسبة لي بمثابة الرئة والشرايين التي أتنفس عبرها هواء الحرية الفكرية والاستقلالية الروحية، وستمثل لي كتبها أسرة ومجتمعا راقيا وجميلا لا يعرف الحقد ولا يعرف الغدر ولا يؤمن بالأحساب والأنساب، لهذا انغمست حد الانصهار والذوبان في قراءة الكتب، فوجدت فيها متعة لا تعادلها متعة أخرى، وتعلمت من الكتب دررا لا أستطيع أن أقدرها بثمن، وعرفت عبر قراءتي واطلاعي على عدد من الكتب معنى الحرية الذاتية والاستقلالية الفكرية. عرفت أن الكتب هي معاول البناء الحقيقي التي تبني الإنسان وتبني فكره وتغير نمط حياته، وتجعل الإنسان يتميز عن الآخرين فكرا وسلوكا وقيمة وثقافة، كانت قراءة الكتب والإبحار فيها يشكل لي غذاء روحيا حد الارتواء، ووقودا فكريا لا أملّه أو أشبع منه، قمت بتوزيع وقتي بين ممارسة الرياضة بشتى أنواعها حتى أنمي جسمي وأهدر طاقتي بصفتي شاب في عز ثورة الشباب. وبين القراءة والكتابة والمذاكرة والرسم حتى أنمي

عقلي، كانت هذه الهوايات التي أمارسها تغذي روحي وفكري وجسدي. كنت أثناء الإجازات الأسبوعية أبحث عن المكتبات العامة وأذهب لها، فقد كانت القراءة تشكل لي هاجسا وهوسا محببا، كذلك تعلقت بالرياضة والرسم التشكيلي، ووجدت في هذه الهوايات لذة لا توصف، فقد كانت تشكل لي نبعا من الغذاء الفكري والزاد الروحي والجسدي، وبدأت تشكل مداركي وتعيد رسم خريطة تفكيري وحياتي، تعلمت أن قراءة الكتب والكتابة والرسم والرياضة بمثابة المفتاح السحري لتخطي كل الصعوبات والأزمات وملء الفراغ الروحي والشعوري الذي كنت أعيشه.

أصبحت الكتب جزءا لا يتجزأ من حياتي، فأصبحت تلازمني كأنفاسي في كل مكان أكون فيه، تكون معي في سيارتي، وفي فراشي، وعلى طاولة طعامي، وترافقني عندما أذهب لمقهى أو«كوفي» أصبح الكتاب رفيقي وصديقي الوفي الذي أعيش معه لحظات لا أملها مهما غلوت أو أسرفت أن

في قراءته، فكل شيء يغلو الإنسان فيه يكون له انعكاسات سلبية إلا الغلو في القراءة والكتابة، فالغلو فيها يزيدك ثقافة ووعيا وإدراكا، وقد عشقت الكتب عشقا خالدا، فهي التي تزيدني علما وثراء معرفيا، وتشاركني وحدتي، وهي جزء من سعادتي، فلا أتصور بتاتا أن يعيش الإنسان سعيدا دون أن يقرأ أو يكتب، فمن وجهة نظري أن الفرد، والمجتمع الذي لا يقرأ هو فردٌ ومجتمع معاق فكريا.

كنت مغرما ومهووسا بشراء الكتب واقتنائها، ولن أكون مبالغا لو قلت أنني لو كنت لا أملك إلا قيمة طعام يومي، ووجدت كتابا للبيع فأستشري الكتاب وأستغني عن الطعام، فليس مهما عندي أن أشبع جسدي، إنما المهم أن أشبع فكري، فقد تحولت كتبي إلى مدرسة عظيمة متنقلة معي أينما حللت، أنهل من مداركها وأتجول في ربوعها كمن يتجول في جزيرة حالمة منتشيا بجمالها ومعجبا بمناظرها، فقد وجدت في الكتب ورفقتها وقراءتها رابطا روحيا ووجدانيا، فهي من تسلي وحدتي وتبدد وحشتي، وتغنيني عن المحيط الخارجي مهما كان فيه من مغريات وملذات وقتية عابرة، وأعترف أنني استفدت من القراءة فوائد لا تعد ولا تحصى، فقد استفدت منها على سبيل المثال لا الحصر القضاء على الفراغ والعون على الوحدة وقتل الملل، كذلك استفدت منها أنني تعلمت منها أكثر مما تعلمته من المدرسة، ومن الحياة العامة، استفدت منها الثقافة وتوقد الفكر، والنظر للأمور نظرة إيجابية، كانت القراءة أيضا تشكل غذاء وجدانيا، وكانت الكتب تمثل لي أسرة ومجتمعا لا أملهما، ولا تملني مهما عشت في ربوعها أو أسرفت في قراءتها.

رسم حياة من خيال

في بداية المرحلة الجامعية وبالتحديد في السنة الأولى، وبعد استقلاليتي في السكن تعلقت بحب الرسم التشكيلي، كان سبب حبي وتعلقي بالرسم عائدا لشخص من دولة عربية كان جارًا لي يسكن في نفس البناية التي أسكن بها، كانت شقته أمام شقتي تماما، ومهنته «معلم» لمادة الرسم في أكبر المدارس الأهلية الخاصة بالرياض، كان مغرما ومحبا للرسم ويشارك في عدة معارض ويفرح عندما يجد شخصا يعشق الرسم، ويحاول أن يعلمه مبادئ وأسس الرسم السليم، كانت عندي خلفية بسيطة سابقة عن الرسم منذ أيام الدراسة المتوسطة والثانوية، لكنه رسم تقليدي نمطي لا يرتقي إلى الاحترافية.

عرضت على ذلك «المعلم» بعضًا من رسوماتي التي كنت أحتفظ بها منذ أيام الثانوية أعجب بها، وأخذ يحفزني ويشجعني ويرى أن رسوماتي تستحق الإشادة وفيها خيالات معبرة، تأثرت بذلك «المعلم» وبدعمه وتشجيعه لي، بدأت أحاول أطور نفسي في مجال الرسم حتى أثبت له أنني على قدر ثقته، قام ذلك «المعلم» بوضع بعض الرسومات التي قدمتها له، في غرفة مخصصة للرسومات التي تُهدى له ويضعها في غرفة مخصصة للرسم بشقته، وكتب تحت كل رسم أهديته له عبارات ثناء وإطراء.

أصبحت أعشق الرسم التشكيلي، وأشارك في عدة أنشطة

تشكيلية كانت تقام على مستوى المملكة، ومع تعاقب الأيام والاحتكاك مع عدة أشخاص يعشقون الفن التشكيلي كانوا أكثر مني خبرة وإتقانا واحترافا للرسم التشكيلي، فتراكمت لدي خبرة أزعم أنها جيدة، ومن هذا المنطلق أصبحت مغرما ومحبا للفن التشكيلي، والرسم «بالفوتوشوب».

كانت تغلب على رسوماتي الحالات النفسية التي أمر بها، فالواقع النفسي الذي أعيشه يطغى على معظم رسوماتي، فعندما ينتابني مثلا إحساس بالوحدة والحزن كنت أجسد ذلك بالرسم، فأحاول أن أرسم مثلا «طفلا» جالسا تحت شجرة شاحبة ليس بها أغصان بل شجرة جرداء لا تحميه من حرارة الشمس، أو من زخات المطر، أو من العواصف الرملية، وذلك الطفل يخفي وجهه بكفيه منكسرا محبطا، وهناك عدة أشخاص يرتدون وجوه وحوش ينظرون للطفل بنظرات تجعل الطفل في حالة هلع وخوف منهم، كنت أقصد من هذا الرسم وصفا رمزيا لحالة الطفل «اللقيط»، فالرسم يجسد واقع الدار والشئون الاجتماعية، فهي كالشجرة الجرداء التي لا تحمي من يجلس تحتها من حرارة الشمس أو من زخات المطر أو من العواصف الرملية، أما الناس الذين يرتدون وجوه وحوش فتتجسد فيهم «وحشية» المجتمع الذين يضطهدون «اللقيط» ويمارسون ضده إقصائية وطبقية ويعتبرونه نتاج علاقة شيطانية محرمة.

وعندما تنتابني حالة فرح أو سعادة أجسد تلك الحالة، فأقوم برسم تخيلاتي وأحلامي على شكل جزيرة حالمة فيها أشجار باسقة

وبساتين مخضرة، وعصافير مغردة، وينابيع جارية، وشلالات متدفقة، ومناظر خلاقة وجميلة.

كذلك كنت عندما أتخيل أن يكون لي أسرة أنتسب لها أرسم ذلك رسما تخيلياً، فأجسد ذلك بالرسم، وأرسم لي أسرة مكونة من «أب، وأم، وأشقاء، وشقيقات» وأسرح في هذا الخيال كثيرا، وأعيش واقعا أسريا خياليا أرسم فيه التضامن، والحب، والاحتواء، قد تكون هذه الخيالات نابعة من حالة الحرمان القاسي والشتات والوحدة التي عشتها جسديا وروحيا ووجدانيا، فقد كنت أرسمها على شكل لوحات خيالية، لكن سرعان ما تنكشف هذه الخيالات الوقتية التي يرسمها خيالي الجامح، أمام واقعي الحقيقي المؤلم، فأعود أرسم حال واقعي الحقيقي من شتات، وحرمان، ووحدة، وهكذا أعيش حياة خيالية متذبذبة بين خيال عابر كم تمنيت أن أعيشه، وبين واقع مرير أعيشه حقيقة، وواقعا مهما شطحت خيالاتي الوقتية التي تذوب وتنصهر أمام وحدة مملة قاتلة، وتشرد روحي، وشتات وجداني، وبتلقائية أصبحت أمارس الخيالات بشكل يبدد عني شيئا من الوحدة الشعورية، فكنت أرتدي ثياب الخيال عندما أحس بالملل والكآبة، وفجأة أعود متجردا من تلك الثياب إلى واقعي الحقيقي.

هكذا نمت في نفسي موهبة الرسم التشكيلي التخيلي الذي يرسم حياتي وواقعي كمركب تموج به عواصف متلاطمة في بحر مجتمع متلاطم، ولم يرسُ مركب حياتي على ميناء أو مرفأ آمن بل بقي عائما تتقاذفه الأمواج بين شد وجذب، لا يعرف أين يتجه، ولمن يتجه؟

ورغم أن الخيالات تبدد عني شيئا من وحدتي، لكني كنت أعلم أنني أمارس واقعا خياليا لا يغير في واقعي الحقيقي شيئا، وأنني كمن يقفز قفزة في الهواء لا تبعده بتاتا عن محيط واقعة ومكانه الذي قفز منه، هكذا بقيت حائرا بين خيال عابر، وبين واقع خالد، ولم يتغير في الأمر شيئا مهما حاولت أن أخرج من حياة الواقع إلى حياة الخيال، لكن قد يكون هذا الخيال هو الشيء الوحيد المسموح لي بممارسته، دون إقصائية أو تدخل من المجتمع، ولو عرف المجتمع بخيالاتي فقد يقمعها حتى لو كانت هذه الخيالات كسراب يحسبه الظمآن ماء.

وقد يكون أجمل ما في تلك الرسومات أنني وصلت لحقيقة مؤكدة أن الرسم واللوحات التشكيلية ليست جمادا كما يعتقد الناس، إنما فيها حياة من نوع آخر، حيث أنها تجسد حالة وواقع من يرسمها سلبا أو إيجابا.

التفكير الإيجابي

بعد أن كنت حاقدا ناقما على المجتمع وأرغب أن أنتقم منهم، أدركت أن هناك شيئًا اسمه التفكير الإيجابي، وعبره يمكن للإنسان أن يستفيد من قدراته أن هو حرر تفكيره من الأفكار السوداوية، ومن الأحقاد والبعد عن تصفية الحسابات عبر العنف والعنف المضاد، فأدركت أنني كنت مخطئا عندما كنت حاقدا وناقما على المجتمع، فجلست مع نفسي جلسة محاسبة لها ومصارحتها، وسألت نفسي سؤالا جوهريا ومنطقيا (ما هو الفرق بيني وبينهم عندما أمارس نفس السلوك ونفس الدور الذي يمارسونه ضدي)؟

من هذا المنطلق تعلمت معنى قوله تعالى: ((يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون))، وقوله تعالى: ((أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم..)) ولهذا صارحت نفسي كيف أطلب من المجتمع مثاليات وسلوكيات جميلة لا أطبقها على نفسي أولا، قبل أن أطلب من المجتمع تطبيقها معي.

قررت أتسامح مع نفسي أولا، ومع المجتمع ثانيا، وأبتعد عن سلوكيات العنف وأحقاد الانتقام، وأن أوجه طاقاتي وأستثمرها في مجالات إيجابية مفيدة تجعلني أكثر إيجابية وأكثر مرونة وأن أؤمن بواقعي وأتكيف معه وأبعد عن التفكير السلبي والنظرة السوداوية للحياة وللمجتمع، وشيئًا فشيئًا بدأت أنضج فكريًا وأصبحت أعشق

الكتابة والقراءة والرسم وأعشق التفكير الإيجابي وأتحمل مسؤولية نفسي ومسئولية تفكيري، نبذت عن تفكيري التناقضات وازدواجية المعايير بين المثالية وممارسة عكسها.

وبسبب تغيري لتفكيري انعكس ذلك على استقرار نفسي إيجابي كانت ثماره أن حصلت على معدل ممتاز في السنة الأولى من الجامعة وأصبحت متفوقا على طلبة كلية «علوم الإدارة» مما كان له أبلغ الأثر الإيجابي على معنوياتي وعلى استقراري النفسي وعلى إيماني بقدراتي، وعزمت الأمر أن أواصل في جميع مستويات الجامعة بكل جدية ومثابرة وأن أكون متفوقا ولا يتوقف طموحي على المستوى الأول من الجامعة بل يجب علي المثابرة في كل سنين الجامعة.

انتهت السنة الجامعية الأولى بعد أن حققت فيها ما أريد من نتيجة كانت إيجابية تؤسس لي معدل درجات تراكمية جيدة، ولم يأتِ هذا التفوق من فراغ فقد حبست جميع رغباتي وحاولت أن يكون اهتمامي منصبا على الدراسة والاجتهاد، وقد يسر الله ذلك وحصلت على درجات ممتازة خلال السنة الأولى، وقد بدأت الإجازة الصيفية، وعادة الإجازات تشكل لي أرقا وهاجسا من جراء الوحدة، وعدم وجود أسرة أو مجتمع يحتويني في الإجازات فأحس بفراغ عاطفي وزمني، فالكل ممن لديهم أسرة ومحيط اجتماعي يستمتعون بالإجازات، أما من كان مثلي فتشكل له الإجازات مللا وسأما واختلالا في جدولي اليومي، فقد عودت نفسي أن أستيقظ باكرا وكان نومي قليلا، لا أحب الإسراف في النوم ولا أحب السهر، أنام بالليل باكرا، لهذا أستيقظ

من النوم باكرا، أمارس حصة رياضية صباحية، أجري وأمارس بعض التمرينات الرياضية، ومن ثم أعود لسكني، أقوم بتحضير وجبة إفطار لي، ثم أقوم بالقراءة لمدة ساعة أو ساعتين، ويبقى لدي وقت فراغ بقية اليوم، من جراء هذا الفراغ القاتل الذي يسبب لي هاجسا مزعجا مملا وقاتلا.

محاولة إجباري على العمل

من جراء الملل والوحدة التي أعيشها قررت أن أبحث عن عمل مؤقت خلال فترة الإجازة الصيفية، وبما أنه من الصعوبة أن يجد شخص مثلي ليس له علاقات اجتماعية أو معارف عملا فمسألة العمل تحتاج «لشفاعة» أو واسطة من هذا المنطلق لم يكن أمامي من خيار إلا أن أطلب الشفاعة من تلك «المرأة الفاضلة» التي كانت تستضيفني في بيتها أيام الإجازات الأسبوعية وأيام الأعياد عندما كنت طفلا صغيرا بالدار، والتي ذكرت قصة (دعمها لي عندما خرجت من السكن الجامعي وسكنت وحدي بفضل دعهما)، فقد كانت بمثابة الأم لي والقلب الحنون الذي ألجأ إليه عندما تضيق علي السبل، فقد كانت نعم الإنسانة ونعم السند لي، فلم تتوانَ تلك المرأة الفاضلة يوما ما عن مد يد العون لي بتاتا.

طلبت منها بحكم علاقاتها الاجتماعية المميزة أن تكون شفيعة خير في البحث لي عن عمل مؤقت وقت الإجازة الصيفية التي تقارب ثلاثة أشهر، من أجل أن أقضي على الفراغ الممل، ولكي أعتمد على نفسي وأندمج في المجتمع بعيدا عن العزلة الشعورية والاجتماعية التي أشعر أنها تزعجني، وتسبب لي إحباطا وتوترا وقلقا، وعدتني خيرا.

بعد يومين تقريبا اتصلت بي تلك المرأة الفاضلة، قائلة بأنها تحدثت مع قريبة لها، صديقة لعائلة (برجوازية) لها مركز اجتماعي

مرموق، وتعتبر من «علية القوم» وهذه العائلة تحتاج لشخص يعمل عندهم وقت الإجازة، لم تحدد لي نوع العمل، لكنها أسرت لي بأن قريبتها أخبرت العائلة المرموقة بأنني «لقيط» ورغم أنني غضبت داخليا من إفشائها سري، لكني كتمت غضبي احتراما وتقديرا لتلك المرأة الفاضلة ولم أحسسها بغضبي مع أني كنت دائما أحاول أن لا أحد يعرف خلفيتي الاجتماعية، فمن يريد توظيفي أريده أن يؤمن بي كإنسان ويؤمن بقدراتي، بصرف النظر عن حسبي ونسبي، أو أن يوظفني من باب العطف والشفقة علي، كنت أريد أن لا أحدا يحسسني بنقص أو ينظر لي بدونية أو يستغل ظروفي، المهم أن تلك المرأة الفاضلة، أخبرتني بأن قريبتها أعطت رقم هاتفي لتلك العائلة المرموقة، وبأنهم سوف يتصلون بي ويحددون لي موعدا للعمل.

في اليوم التالي اتصل بي شخص معرفا على نفسه «بأنه مدير الشئون الخاصة» لتلك العائلة المرموقة، وطلب مني عنوان سكني قائلا لي: أنه سيرسل لي أحد السائقين لاصطحابي لقصر العائلة ومقابلتهم واستلام العمل، أعطيته العنوان ووصلني سائق من حاشية تلك العائلة أسود البشرة، ذو جثة عملاقة، متجهم الملامح، كان ذلك السائق طول الطريق من سكني حتى قصر تلك العائلة يردد على مسامعي جملة «عليك طاعة واحترام (المعازيب) فهم عائلة لهم وضعهم الاجتماعي ويحظون بمكانة وحظوة اجتماعية مرموقة، ويجب عليك أن تخدمهم بإخلاص وأمانة ولا تغضبهم أو ترد لأحد منهم طلبا في أي وقت سواء كان هذا الطلب صادرا من ذكر أو أنثى منهم، فسوف يكونون أولياء نعمتك وأسيادك وعليك احترامهم وتنفيذ رغباتهم وطلباتهم دون

تردد أو تكاسل «استفزني ذلك السائق من كثر ما ردد هذه العبارة التي كان يرددها كببغاء»، وقد رددها علي أكثر من ثلاث مرات، مما جعلني أفقد أعصابي وأرد عليه بحزم، وبعصبية وصفاقة مني لم أحسب عواقبها، فرديت عليه قائلا له: إن كنت أنت «عبدا»عند (المعازيب) كما تدعي، فأنا إنسان حر أملك كرامة وأملك زمام نفسي، ولن أكون «عبدا» لأحد إلا لله، والمسألة بيني وبينهم عرض وطلب، وعقد عمل، إن توافقت شروطي مع شروطهم كان بها، وإن لم تتوافق شروطنا فكل منا يذهب في طريقه «ويا دار ما دخلك شر».

وخزني ذلك السائق بنظرات حاقدة يتطاير منها الشرر، ورد قائلا: يبدو أنك مغرور (وشايف نفسك) أكثر من اللازم، قلت له: أنا لست مغرورا بقدر ما أنا إنسان أعرف قدر نفسي جيدا، ولا يمكن أن أذل نفسي أو أكون تبعا أو خادما عند أحد مهما كان، فالمسألة عمل وفق عقد تراضي بيننا، والعقد شريعة المتعاقدين.

وصلنا قصر تلك العائلة، وأصابتني الدهشة من كبر وضخامة حجم القصر، ومن فخامته، كان قصر منيفا تبدو عليه من الخارج والداخل سمات الفخامة والبذخ، مشيدا بأحدث الطرق الهندسية ومزودا بأحدث التقنيات الحديثة، وبأجمل أنواع الديكورات التي رأيتها في حياتي، شدني منظر بحيرات مياه صناعية عائمة مشقوق لها أخاديد في الأرض على أشكال هندسية تتشعب داخل الحديقة بشكل سريالي بديع، استغربت حد الدهشة كيف يحصلون على كل هذه الكمية المهولة من المياه، خاصة أن مدينة الرياض الموجود بها

هذا القصر لا يوجد بها بحار أو أنهار، فقد تم تحويل مئات الأمتار من الأرض التي تشبه صحراء قاحلة، وبقدرة القادرين تحول ذلك القصر المشيد بشكل خرافي باذخ، محاطا بحدائق غناء، وبحيرات صناعية عائمة في عمق مدينة جافة من الموارد المائية، هكذا يفعل جبروت المال، وسطوة الجاه، عندما يجتمعان يفعلان المستحيل.

طلب مني ذلك «السائق» أن أنتظر في قسم الحاشية والموظفين، ودلف هو لداخل القصر، انتظرت ما يقارب «ربع ساعة» بعدها جاءني شخص آخر، غير الشخص الأول، وطلب مني مرافقته للداخل لمقابلة سيدة القصر وأبنائها كما ذكر لي، أخذني ذلك الشخص لحديقة خلفية للقصر، كانت حديقة كبيرة وجميلة تشتمل على عدد من أشجار النخيل الباسقة، وأشجار الفواكه المتنوعة، محفور فيها مسارات وممرات مرسومة بطريقة مبتكرة تحفها من الجوانب أحواض مزروعة فيها أجمل أنواع الزهور والورود بتناسق فريد وجذاب، كان خرير وشلالات الماء وأصوات العصافير يعطي تلك الحديقة جوا خياليا جميلا، كان الجو معتدلا والساعة تدنو من «الرابعة» مساء في يوم إجازة أسبوعية، كنت أمشي مدهوشا مما أرى من هول ما رأيت من مناظر خلابة وفخامة لم أرَ مثلها في حياتي، كانت هناك مجموعة من العمالة «الفلبينية، والهندية، والنيبالية» من رجال ونساء يملؤون الحديقة كل منهم يقوم بعمل معين بطريقة فيها تنظيم وتناغم عجيب، منهم من يقوم بتنسيق الأشجار، ومنهم من يقوم بالنظافة، ومنهم من يقوم بعمل شواء و«طعام» في ركن مجهز بجميع أنواع أدوات الطبخ والشواء.

وصلنا إلى ركن في نهاية الحديقة مجهز بأكواخ تتسم بشكل جمالي مذهل، وأمام تلك الأكواخ منصة مرتفعة عن الأرض مجهزة بأرائك جلوس راقية، ومراجيح متحركة، شاهدت «امرأة» عليها سمات النعمة والبذخ، وباديا عليها «الغرور والغطرسة» كان عمرها في حدود (الأربعينيات) كانت جالسة على أريكة فاخرة ممدة أقدامها على أريكة قطنية صغيرة أمامها، وعند أقدامها عاملة «فلبينية» تقوم بعمل مساج لأقدامها، كان بقرب تلك «المرأة» شاب عمره في حدود العشرينيات، وفتاتان عمرهما في حدود عمر الشاب أو أصغر منه قليلا، كانوا يتأرجحون على أريكة فخمة مصممة لتكون أرجوحة معلقة بحبال مربوطة في الأعلى بأنابيب حديدية مزخرفة ومعلقة في كوخ جميل مفتوح من الأمام ومصمم على شكل هرمي، كان قريبا منهم مجموعة من «الحاشية» ومنهم ذلك «السائق» (أسود البشرة) الذي جاء بي من سكني، وحدثت بيني وبينه مشادة كلامية في السيارة.

سلمت على تلك المرأة، لم ترد علي السلام، بل كانت نظراتها ونظرات «الشاب والفتاتين» تجاهي نظرات فيها نوع من الحدة ومن الاستغراب والفوقية (ومن المؤكد أن ذلك «السائق» الذي جاء بي أخبرهم مسبقا عندما كنت أنتظر في قسم الحاشية، عما حدث بيني وبينه أثناء الطريق، وبأنني قلت له (أنني لن أكون «خادما أو عبدا» أو أخنع لأحد غير الله)، فقد كان استقبالهم لي فاترا ونظراتهم تجاهي فيها شيء من الفظاظة والجدة. كانوا ينظرون إليّ بتحدٍ واضح، كنت وقتها أرتدي لباسا مكونا من (تي شورت وبنطال وحذاء رياضي) كانت عضلات جسمي وقتها بارزة من جراء ممارستي لرياضة السباحة

والحديد، وممارستي رياضة «الكاراتيه والتايكوندو» واهتمامي بلياقتي وببناء جسمي فقد كنت وقتها أهدر وقتا كبيرا في ممارسة الرياضة وبناء جسمي، كان شعر رأسي وقتها طويلا بعض الشيء يصل حتى منكبيّ، كنت مهتما ببشرتي وبنفسي بشكل مبالغ فيه، فقد كنت شابا مندفعاً متمرداً غير مبال أو كما يقولون بالعامي «ما خذ في نفسي مقلب» ولم يشكل لي وجود تلك المرأة وأبنائها خوفا أو هاجسا.

قالت: إحدى «الفتاتين» بتهكم ساخر ومسموع «ماما» شكله ينفع يكون «بادي جارد» حارس شخصي لنا، استفزني جدا وصف تلك الفتاة لي بقولها: أنني أنفع أكون «بادي جارد» لهما، لكني كظمت غيظي داخل نفسي، ولم أرد على تلك الفتاة.

قالت المرأة لي: دون مقدمات هل تعرف قيادة السيارات؟ وهل لديك رخصة قيادة؟ قلت: نعم، أعرف القيادة ولدي رخصة قيادة، لكني لم أبحث عن عمل لأكون «سائقا»، أنا أبحث عن وظيفة «إدارية» تناسب قدراتي إن كانت لديكم وظيفة إدارية تناسبني كان بها، وإن لم يكن لديكم فأستأذنكم، لا أقبل بعمل آخر.

رد الشاب بقوله: بسخرية وتهكم «والله حالة، «لقيط» ويتشرط، «احمد ربك» أن واحد مثلك يعمل عندنا».

رديت عليه بحزم وعنف، قائلا له: المسألة بيني وبينكم عمل يخضع للعرض والطلب، والرضا والقبول، ولست مجبرا أن أعمل عندكم إذا لم يناسبني العمل حتى لو كنت «لقيطا» فلن أرضى بإملاءاتكم أو

فرضكم علي شروطا دون قناعة مني.

ردت علي تلك «السيدة» بعصبية رافعة صوتها، قائلة: من تكون لكي ترد على أسيادك بهذه الطريقة يا (ساقط)، قلت لها: أكون من أكون و(الساقط) هو من لا يحترم البشر ويحاول أن يستعبدهم ويتسلط عليهم، وأنا لست «مستعبدا» عندكم، ودام هذا أسلوبكم فلا يشرفني العمل عند أناس متغطرسين ومغرورين مثلكم، ولن أقبل بالعمل عندكم حتى لو بوظيفة «إدارية».

ردت علي تلك «المرأة» قائلة: اسكت يا (...) من تكون على شان تجادل معي «يا وضيع».

رددت عليها قائلا لها: ليس من حقك شتمي ورفع صوتك علي أو الطلب مني السكوت، فأنا لست بخادم أو أجير عندك حتى أخضع لسلطتك.

بعدها حاولت أن أنصرف لكن «الشاب» نزل فجأة من أرجوحته غاضبا، مقبلا تجاهي يهدد ويتوعد، لماذا أتجرأ بالرد على تجاوزات أمه؟ اتجه ناحيتي يريد أن يضربني كنت متهيأ له، استحضرت كل قوتي وتركيزي، لم أخَف وقتها من ذلك «الشاب»، فهو كما يبدو تظهر عليه سمات النعومة والدلال وبنيته الجسدية ليست بتلك القوة، كما أنني وقتها أجيد بإتقان ممارسة رياضة الدفاع عن النفس «الكاراتيه والتايكوندو»، وقادر على الدفاع عن نفسي، لكن كان خوفي من «الحاشية» الكثيرة المتناثرة في كل أرجاء الحديقة ومنهم ذلك

الرجل (ذو البشرة السوداء) الذي جاء بي من سكني فشكله وتكوينه الجسماني ومظهره يدل على غلظته وقسوته، كانت عدة أفكار تختلج نفسي في تلك اللحظات المتسارعة، كيف أتصرف في هذا الموقف الذي لم أحسب له حسابا؟

اقترب مني ذلك «الشاب» وارتفع صوته وصوتي، ومسك كل منا بالآخر، دفعته للخلف فوقع على مؤخرته، وانطلقت جاريا، فليس من الشجاعة أو من الحكمة في شيء أن أتشاجر مع ذلك «الشاب» في منزله ووسط «عائلته وحاشيته» حتى لو كنت قادرا على الانتصار عليه أو ادعيت الشجاعة رغم أنني لا أدعي الشجاعة، لكن كما يُقال (الكثرة تغلب الشجاعة) فمن المؤكد أنها ستجتمع «الحاشية» الكثيرة بالحديقة وستقوم بلا شك بمساعدة ذلك «الشاب» على ضربي، انطلقت أجري، وكان يجري خلفي ذلك «الشاب» ويجريان معاه اثنان من «الحاشية» أحدهما ذلك الرجل الغليظ صاحب «البشرة السوداء» الذي أحضرني من سكني، كانت أصواتهم عالية وهم يلاحقونني، كنت أملك لياقة بدنية عالية وقادرا على الهروب منهم دون أن يلحقوا بي، لكن كان هاجسي أن بوابة القصر الخارجية بها حراس، وكنت خائفا أن يمسكوا بي عندما أصل للبوابة، لكن قبل وصولي لنهاية مسارات الحديقة وقربت من مدخل القصر الداخلي الذي يطل على الحديقة، علا فجأة صوت «امرأة طاعنة» في السن (عجوز) عمرها في حدود «السبعين سنة»، كانت قادمة إلينا من باب القصر الداخلي الذي يفتح على الحديقة مباشرة، كانت جالسة على كرسي متحرك تدفعها «عاملة فلبينية» قائلة لمن يلاحقوني «بصوت عالٍ»: احترموا أنفسكم، ولا أحد

منكم يؤذي هذا «الشاب» يا ظلمة، استحوا على أنفسكم، لن أترككم تمسونه بأي أذى، بل سوف أحاسبكم على فعلتكم المشينة يا (همج).

فجأة توقف الجميع بمن فيهم أنا، وكأن كلام تلك «العجوز» الفاضلة، ماء صب على نار مشتعلة فأخمدتها تماما «توقف الشاب ومن معه من «الحاشية» وكل منهم تقهقر للخلف.

راودني وقتها انطباع أن تلك «العجوز» لها هيبة وقدر، ويخاف منها الجميع، قالت تلك «العجوز» لي: اخرج «يا ولدي» وروح في سبيلك فهذه (المرأة وأولادها) لا يستحقون أن تعمل عندهم أو تحترمهم، ناس لا يخافون الله ويريدون استعباد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا، وسوف يكون لي ولوالدهم معهم حساب عسير على قلة أدبهم معك وعلى تشويههم سمعة وصورة عائلتنا، ونادت تلك «العجوز» على سائق (هندي) اتضح لي لاحقا أنه سائقها الخاص، وطلبت منه أن يوصلني لسكني.

كانت «المرأة المغرورة وابنها وبناتها» ينظرون لي بحقد لكنهم كانوا صامتين بعد أن أنّبتهم ووبختهم تلك (العجوز الفاضلة). مررت بقرب تلك (العجوز) وقمت بتقبيلها على رأسها ويدها وشكرتها على نبل مشاعرها وعلى وقوفها معي وحمايتي من موقف لا أحسد عليه.

ذهبت والجميع صامتون ينظرون لي أثناء خروجي، ولا أخفيكم سرا أنني كنت خائفا، أن أحدا من الحاشية أو ذلك الشاب ينتقمون مني قبل خروجي من القصر أو أثناء عودتي لسكني، كنت وقتها مرتبكاً

ومتوتراً، لاحظ السائق «الهندي» الذي يتحدث اللغة العربية بطلاقة، والذي أحس بتوتري مهدئاً من روعي قائلا: لا تَخَف اهدأ، الأمر انتهى لن يستطيع أحد أن يؤذيك دام العمة (...) وذكر اسم المرأة العجوز وقفت معك فلن يستطيع أحد منهم أن يؤذيك بتاتا.

قلت له: من تكون تلك المرأة العجوز قال لي: هذه السيدة والدة الأ (...) صاحب هذا القصر وهو رجل له سلطة ومكانة اجتماعية وسلطة رسمية، وهذه أمه، وهو رجل وقور طيب، ولا يرضى بالظلم أو الأذى لأحد، والمرأة «المغرورة» التي رفعت صوتها عليك هي «الزوجة الثالثة» لابن تلك العجوز وذلك الشاب هو ابنها، والفتاتان بناتها، والعجوز جدتهم لأبيهم وهي صاحبة الرأي الأول والأخير في القصر وفي العائلة، وابنها الأ (...) لا يرد لها طلبا ولا يكسر لها كلاما، وبإمكانها لو أرادت أن تطرد تلك «المرأة المغرورة وأبنائها» من القصر لطردتهم، فتلك المرأة التي حدث بينك وبينها مشادة هي زوجة ثالثة للأ (...) ابن العجوز وهي امرأة مغرورة كما رأيت، وأبناؤها متغطرسون، وتنتمي لعائلة عادية جدا وتزوجها الأ (...) ابن العمة وأصبحت تعيش في بذخ وفي قصر وفي نعيم لم تكن تحلم به كما ترى، وهي تخاف خوفا شديدا من غضب زوجها، ومن غضب العمة (...) يقصد (المرأة العجوز) فبإمكان العمة (...) أن تحرم تلك المرأة من النعيم التي تعيشه في القصر والميزات التي تتمتع بها وتعيدها للعيش مع أسرتها المتواضعة، وأسهب في عد الخصائص الجميلة التي تتمتع بها تلك (المرأة العجوز) الذي يطلق عليها العمة (...) قائلا أنها: امرأة قيادية وآراؤها دائما محل اعتبار واحترام عند الجميع، ولها مكانة عند ابنها وعند العائلة

عموما، وتملك فراسة ونباهة، وحسًّا إنسانيًّا نبيلًا ولا ترضى بالظلم بتاتا، بل إنها تساعد كل الناس وخاصة من يعمل عندها، فأنا وزوجتي نعمل عندها منذ (خمس وعشرين سنة) وقد قامت بدفع مهر شقيقاتي ومهر بناتي، فعندنا في (الهند) من يدفع المهر المرأة للرجل، ونجد صعوبة في دفع المهر وتكاليف الزواج، لكن العمة (...) لها أياد بيضاء علي وعلى أسرتي، فقد قامت ببناء منزل لأسرتي في الهند، وأكن لها وأسرتي وفاء وحبا لا يوصف.

سألته قائلا: كيف عرفت تلك المرأة العجوز عما حدث بيني وبين «زوجة ابنها» وذلك الشاب، قال: كانت تطالعكم من شرفة القصر و«تشوفكم» وتسمع صوتكم بوضوح، لأن أصواتكم كانت مرتفعة ومسموعة، ولهذا نزلت بسرعة، دون أن تراها «زوجة ابنها وأبنائها»، ولو علموا أنها في شرفة القصر فثق أنهم لن يتجرأوا على فعل أي شيء ضدك، وتأكد أنها ستحاسبهم جميعا حسابا عسيرا ولن تمر تلك الحادثة مرورا عاديا دون محاسبة.

سألته أيضا عن ذلك السائق «ذو البشرة السوداء» الذي جاء بي من منزلي وقام بإخبار المرأة وأولادها عما حدث بيني وبينه من نقاش حاد في السيارة، وكان يحاول الإمساك بي عندما كنت أجري هاربا.

قال: هذا رجل كان والده قبل وفاته «عبدا رقيقا» عند هذه العائلة منذ القدم، ورغم أنه تم «تحرير الرق» إلا أن هذا الرجل ظل

بعد موت «والده» عند العائلة كمشرف على كراج السيارات وعلى السائقين، يرسلونه أحيانا لقضاء بعض المشاوير الطارئة عندما يكون السائقون مشغولين، ورغم أنه رجل غليظ ومتهور ويسبب لهم مشاكل وإحراجات كثيرة إلا أن وفاءهم لوالده «المتوفى» الذي خدمهم عشرات السنين جعلهم يصبرون على مشاكل (ابنه) رغم كثرها وتعددها.

وصلت لسكني، وكنت مستاء ومتأثرا جدا مما حدث لي من إهانة ومن استفزاز وسخرية وتهكم وحرقة أعصاب عشت لحظاتها بألم وذل.

اتصلت مباشرة بتلك المرأة الفاضلة التي عرضت قريبتها خدماتي على تلك العائلة المرموقة، ذاكرا لها ما حصل لي عند تلك العائلة، وأنني لا أرغب العمل عندهم بتاتا، تفاعلت معي تلك المرأة الفاضلة التي أعتبرها القلب الحنون الذي ألجأ إليه عندما تنتابني الإحباطات أو عندما أحس بضغوط، فهي الوحيدة التي أبوح و(أفضفض) لها بكل همومي وشجوني وهي أقرب الناس إلى قلبي وإلى روحي وأعتبرها أمي، تأثرت تلك المرأة الفاضلة تأثرا كبيرا مما حدث لي واعتذرت لي اعتذارا شديدا بأنها باحت بسري بأنني (لقيط) لقريبتها وبوح قريبتها لتلك العائلة المرموقة عن خلفيتي الاجتماعية مما جعل تلك العائلة تقوم باستفزازي وإهانتي ومحاولة إجباري على العمل عندهم، ووعدتني أنها ستبحث لي بنفسها عن وظيفة تتناسب مع قدراتي ومؤهلاتي في مكان يحترمني، ويحترم إنسانيتي.

إنسانية رجل

بعد فترة قصيرة من الحادثة التي وقعت لي في قصر تلك العائلة «البرجوازية» التي رفضت العمل عندهم، اتصلت بي تلك «المرأة الفاضلة» قائلة لي: أن هناك «شيخ» تجارة وقور وثري يرغب في موظف مبيعات وقت الإجازة في متجره، وقد أشادت بأخلاق ذلك الرجل وبأنه رجل نقي القلب، ناضج وطيب، تعرفه وتثق فيه جيدا بحكم قرابتها «لزوجته» قائلة أنه من أكبر تجار مواد البناء والتشييد بالرياض، وأعطتني عنوان متجره، وطلبت مني مقابلته والتفاهم معه مباشرة، ذهبت له وكلي خوف ووجل، فلم يعد لدي ثقة في أحد بعد ما جرى لي من تلك العائلة المرموقة، كنت أثناء ذهابي لمتجر ذلك الرجل تساورني تساؤلات متعددة تشغل بالي، كنت مترددا، هل سوف أجد قبولا عند ذلك الرجل؟ وهل الوظيفة التي سأنخرط فيها متوافقة مع رغبتي و طموحي أم لا؟

وصلت إلى المتجر فوجدته متجرا كبيرا وواسعاً جدا، متخصصا في بيع «مواد التشييد والبناء بجميع أنواعها، وأصنافها من الأخشاب، والحديد، والدهانات، والأصباغ، والديكورات بجميع أنواعها، ومستلزمات السباكة، ومستلزمات الكهرباء، بشتى أنواعها، كان المتجر مقسما إلى قسمين. «قسم للبيع الفردي، وقسم لبيع الجملة»، سألت أحد الباعة عن صاحب المتجر أين هو؟

رد قائلا: أنني سأجده بمكتبه في الدور الثاني، ذهبت للدور الثاني ووجدت مدير مكتبه وأبلغته أنني أريد مقابلة (الشيخ)، سألني مدير المكتب، لماذا أريده؟ ذكرت له أنني مرسل له من شخص يعرفه، بعد دقائق سمح لي بالدخول، وعندما دخلت وجدت رجلا ملامحه يكسوها الوقار والهيبة، مبتسم المحيا، تقاسيم وجهه مريحة للنفس، يبدو أن عمره في حدود الستين، يغشى وجهه شعر خفيف ممزوج ببياض شيب يزيد وجهه وقارا وهيبة، كان استقباله لي استقبالا جميلا ومريحا لنفسي التي كانت متوترة وقلقة، طلب مني الجلوس، وطلب لي قهوة فقد أحس أنني متوتر.

بدأ معي الحديث بطريقة لطيفة ومتدرجة، حتى هدأت نفسي، ومن ثم سألني قائلا: لماذا تريد أن تعمل، وأنت ما زلت طالبا لم تنه دراستك الجامعية بعد؟

قلت له: لدي فراغ كبير وقت الإجازة الصيفية، ولدي الرغبة في ملء هذا الفراغ بعمل مفيد منها أقضي على الفراغ، ومنها أنظم وقتي، قال لي: ممكن أسألك سؤال واعتبره سؤال مقابلة شخصية؟

قلت: تفضل، قال: هل الأهم عندك المتجر الذي تعمل فيه وتأخذ راتبك منه؟ أم الأهم عندك العملاء؟

قلت له: هل تريد إجابتي بصراحة وشفافية، قال:نعم، ومن المؤكد أن الصراحة والشفافية مطلوبة.

قلت: الأهم من وجهة نظري العملاء لأن العملاء هم حجر الزاوية في التجارة، وهم السبب الرئيس الذين يمولون المتجر، وهم كذلك السبب في دفع رواتب العاملين في المتجر ولو عزف العملاء لأغلقت المتاجر أبوابها وسرحت موظفيها، فالعملاء بمثابة الوقود المحرك للتجارة وللموظفين، وفي حالة عدم وجود عملاء مستهلكين لا يمكن أن تكون هناك متاجر، ولا يمكن أن تكون هناك مكاسب لأصحاب المتاجر، أو رواتب لموظفي تلك المتاجر.

رد قائلا: «برافو» عليك إجابتك منطقية ونموذجية، وقد وصلت وجهة نظرك بطريقة وافية وكافية، واعتبر نفسك مقبولا من الآن، وبإمكانك استلام عملك من الغد بإذن الله، ثم نادى مدير مكتبه وطلب منه أن يحرر لي عقدا وظيفيا، وأن يبلغ «المشرف» على المتجر بأن يقوم بتدريبي على العمل من الغد، بعدها عدت لمنزلي مرتاح البال من حسن مقابلة ذلك «الشيخ» لي، ومن بشاشته المريحة، ومن إشادته بشخصي المتواضع.

في اليوم التالي ذهبت للعمل باكرا، قابلت «المشرف» على المتجر الذي قام بعقد دورة سريعة ومختصرة لتعليمي كيف أجيد العمل على «أجهزة الكاشير المحاسبية الباركود» وصناديق البيع، ومعرفة الأصناف وقيمة كل صنف، كانت لدي رغبة جامحة في إجادة وإتقان العمل بجودة وتميز، لسببين مهمين: أولا: لكي أثبت وجودي، وثانيا: من أجل إرضاء ذلك «الشيخ» الطيب صاحب المتجر الذي استقبلني استقبالا طيبا، ورفع معنوياتي وأشاد بأسلوبي وإجاباتي أثناء مقابلتي له، كنت

أريد أن أكسب ثقته وأن لا أخذله، لهذا بذلت قصارى جهدي في سبيل التعلم بسرعة، والمحافظة على الانضباط سلوكيا، وعمليا، وبعد أسبوع من التدريب المكثف تم اختباري فيما تعلمته خلال الأسبوع، وبفضل الله حصلت على رضا «الشيخ» صاحب المتجر، وعلى رضا «المشرف» على المتجر، وتم توجيهي للعمل بقسم «بيع الجملة» الذي يبيع بضائع بالجملة لمتاجر وشركات ومؤسسات كثيرة سواء داخل مدينة الرياض التي بها المتجر، أو بإرسال البضائع لمتاجر وشركات ومؤسسات في مدن أخرى، استمتعت جدا بالبيع في هذا القسم، وحاولت أن أبني جسورا من الاحترام والود مع أصحاب المتاجر والمؤسسات والشركات التي تتعامل مع المتجر، وأحاول قدر المستطاع أن أثقف نفسي وأقرأ في مجال التجارة، وكيف أجعل من نفسي بائعا مميزا؟ وأحاول أن أكسب ثقة العملاء، وأن أتعامل معهم بأسلوب راق وجذاب، وبمصداقية وباحترافية مميزة، كنت أحترم رغبات العملاء وأحرص على تلبية طلباتهم بدقة متناهية، ومتابعة طلباتهم هاتفيا حتى يستلموها في متاجرهم وفي مؤسساتهم وشركاتهم، وهذا الاهتمام والتواصل مع التجار رسم بيني وبينهم خريطة طريق ومد بيننا جسور ثقة وعلاقة متينة مبنية على الصدق والإخلاص، فأصبح هؤلاء العملاء عندما يتصلون يريدون طلبيات لمتاجرهم أو مؤسساتهم وشركاتهم يطلبونني «بالاسم» لكي أهتم بطلباتهم، كان لتواصلي معهم ومتابعتي لطلباتهم والاهتمام بهم مفعول السحر، وأصبح لدي قاعدة بيانات بأسماء تجار ومؤسسات وشركات كثر كنت أتواصل معهم وأخبرهم عن كل جديد من بضائع وعروض وصلت فيطلبون منها كميات لمتاجرهم

ومؤسساتهم وشركاتهم.

كان المتجر يقوم كل «شهرين» بوضع معايير لاختيار «البائع المثالي» الذي يحقق أعلى نسبة مبيعات في المتجر وفي فروعه، ويمنح الموظف المثالي جائزة «تشجيعية «ومن تلك المعايير توزيع «استبانة» على كل متاجر ومؤسسات وشركات الجملة الذين يشترون طلباتهم من المتجر لتقييم «بائعي المتجر»، كذلك يقوم المتجر بعمل إحصائيات عن طريق العمليات المحاسبية لأكثر «بائع» يحقق أرباحا وينال رضا العملاء، كانت المفاجأة «للشيخ» صاحب المتجر و«للمشرف» على المتجر ولي «شخصيا» أنني حصلت على «البائع المثالي» الذي حقق أعلى مبيعات، وحزت بناء على الاستبانة على رضا العملاء رغم أن عملي في المتجر كان لا يتجاوز «شهرين وعشرة أيام فقط». وهناك «بائعون» كثر غيري لهم فترة كبيرة في المتجر، ولديهم خبرة سنوات في مجال البيع، لكن بفضل الله ثم بفضل أنني كنت متسلحا بإرادة لا حدود لها، ومؤمنًا بأهمية تثقيف نفسي عن طريق القراءة في مجال الأساليب المثلى في تنمية المبيعات، وأساليب جذب العملاء، ففي أي مجال يريد الإنسان الإبداع فيه،لا بد من وجود، إرادة لا تذبل، وحافز وطموح لا ينضب، وتثقيف نفسه، وعمل خطة إستراتيجية ينتهجها الشخص الذي يريد أن يبدع، وسيكون الإبداع بإذن الله حليف من يثق بنفسه، ويؤمن برفع قدراته وزيادة مداركه عن طريق القراءة وعن طريق الاستفادة من خبرات وسيرة الناجحين سواء في التجارة أو غيرها في الحياة الخاصة أو العامة.

كان «الشيخ» سعيدا جدا وبشكل واضح وجلي بحصولي على جائزة «البائع» المثالي، ومنحني جائزة «تشجيعية» مضاعفة و«خطاب شكر» تم تعميمه على جميع أقسام وفروع المتجر، أكملت بقية فترة الإجازة بالعمل في المتجر مستمتعا جدا بكل دقيقة قضيتها في متجر ذلك «الشيخ» الجليل فالعمل في متجره متعة لا تضاهى فهو يدير الموظفين بالاحترام وبالحب وليس بالتسلط أو القمع.

بدأت السنة الدراسية، كان لا بد لي أن أقدم استقالتي، وأنخرط في إكمال دراستي الجامعية، فالشهادة الجامعية تمثل لي سلاح المستقبل الذي لن أحيد عن الحصول عليها، قدمت استقالتي، طلبني «الشيخ» معترضا على الاستقالة، لكني وضحت له أن طموحي لإكمال دراستي الجامعية يحتم علي الاستقالة من أجل التفرغ للدراسة، واستجابة منه لإلحاحي قام بقبول الاستقالة، شكرته وقمت بتقبيله على جبينه، وعلى يده تقديرا وإجلالا له، واعترفت له قائلا له: بأن الفترة التي عملتها في متجرك على قصر مدتها إلا أنني استفدت منها أولا: نيل معرفتك وثقتك في شخصي المتواضع، وثانيا: استفدت منها ثراء معرفيا وتجاريا أفادني كثيرا.

رد قائلا: أنت شاب مكافح ومجتهد نحن من سنخسرك، بعد ذلك ودعته، وقبل خروجي من مكتبه، نادى مدير مكتبه، وطلب منه أن يبلغ قسم المحاسبة أن يصرفوا لي راتبي المتبقي، وأيضا صرف راتب شهر أضافي «كمكافأة» منه شخصيا على ما بذلته من جهود أثناء فترة عملي بالمتجر، ومن ثم ودعني قائلا: (وفقك الله) وأتمنى منك إذا

رغبت مرة أخرى في العمل فاعتبر وظيفتك محجوزة لك في أي وقت تحتاجها.

ذهبت مودعا ذلك «الشيخ» الجليل الذي يحمل كل الصفات الإنسانية بأنصع صورها، فقد كان مؤمنا أنه قبل أن يكون تاجرا كبيرا فإنه قبل ذلك إنسان، فلم تزده تجارته وهيبته ووقاره ومكانته الاجتماعية إلا تواضعا ورقيا في التعامل الإنساني والاجتماعي، كان جميع العاملين لديه على مختلف جنسياتهم ومعتقداتهم يحبونه ويكنون له تقديرا وامتنانا، ويكنون له ولاء وانتماء ولمتجره ويستمرون بالعمل عنده سنين طويلة، عرفت من تعامل ذلك «الشيخ» الوقور الوجه المضيء للمجتمع فرغم أنه ينتمي لقبيلة مشهورة، وعائلة معروفة إلا أنه تخلى عن جميع الطقوس القبلية الغابرة والموروثات العنصرية التي تكرس الإقصائية والطبقية والاعتزاز بالحسب والنسب، واستبدل كل صفات الإقصائية العنصرية المنفرة بصفات إنسانية جاذبة من الاحترام، ومن الصفاء الروحي، ومن التعامل الإنساني الراقي، مما جعل كل العاملين والتجار يكنون له إجلالا وإكبارا، ويثقون في أمانته وصدقه، ولا يبحثون عن بديل لمتجره في تعاملاتهم التجارية، مما انعكس إيجابا على نشر سمعة جيدة عنه، وأثبت ذلك «الشيخ» حقيقة مهمة وهي أنه يخطئ كثيرا من يظن أن الفوقية أو الغطرسة والاعتزاز بالأحساب سوف تجعل الناس يخضعون له، فالبشر على شتى مشاربهم وأصولهم ومعتقداتهم لديهم كرامات والنفوس البشرية تأبى التسلط والغطرسة والظلم، فإن لم تحترم البشر فلن يحترموك مهما كان لديك من مال أو حسب أو نسب.

بعد تلك التجربة القصيرة والمفيدة عدت منخرطا في إكمال دراستي الجامعية، وبعد «أسبوعين» من بداية الدراسة، وصلني اتصال من مدير مكتب ذلك «الشيخ» يفيدني بأن «الشيخ» يريد التحدث معي هاتفيا، تم تحويل المكالمة له، وبعد السلام عليه، قال لي: وصلتني كثيرا من الاتصالات من عملاء المتجر «قسم بيع الجملة» الذي تربطني بهم علاقة جيدة، يسألون عنك شخصيا «بالاسم» ويثنون على تعاملك معهم واهتمامك بطلباتهم ويرغبون في التعامل معك دون غيرك من «البائعين» الموجودين بل وصل الأمر ببعضهم أن طلب «رقمك» ليعرضوا عليك وظيفة في متاجرهم، وواصل قائلا: لكنني فكرت و«المشرف» على المتجر أن نفتتح قسما جديدا نطلق عليه «قسم خدمات كبار العملاء» وسيكون دوامه في الفترة المسائية، وتكون مهمته التواصل مع «كبار العملاء» وتلبية طلباتهم ومتابعتها، وقد تم «اختيارك» لتكون مشرفا على هذا القسم خلال الفترة المسائية، وسوف نكون مرنين معك لتكون فترة عملك بعد العصر لمدة (ثلاث ساعات) يوميا (عدا يوم الجمعة) وسنضع تحت تصرفك (موظفَين)، ونفتح لكم قسما خاصا مجهزا بمكتب وكل وسائل الاتصالات من هواتف وفاكس وحاسبات آلية، وسنقوم بتسليمك سيارة خاصة.

رددت قائلا له: ممكن تمنحني فرصة لمدة (يومين) أفكر في هذا العرض، وأرتب أموري جيدا، ومن ثم أرد عليك الرد النهائي (طال عمرك)، قال: ليس لدي مانع، فكر وأتمنى يكون ردك إيجابيا فنحن في حاجتك.

فكرت، ووجدت أن العرض جيد، ومفيد لي، قمت بترتيب جدولي الدراسي جيدا، وقمت بتوزيع الوقت الذي سأخصصه للدراسة والمذاكرة، والوقت الذي سأمارس فيه الرياضة اليومية، قمت بتحويل وقت ممارستي للرياضة بدلا من أن تكون عصرا، تكون بعد صلاة الفجر مباشرة. اتصلت بمكتب «الشيخ» وبلغت مدير مكتبه أنه ليس لدي مانع من ناحية المبدأ في قبول العرض الذي عرضه «الشيخ» علي، لكن لدي وجهة نظر أتمنى أن يوافق عليها «الشيخ»، ووجهة نظري هي أن تكون فترة عملي من «الرابعة والنصف مساء حتى الساعة السابعة والنصف مساء»، كذلك منحي إجازة أسبوعين «قبل الامتحانات لكي أذاكر جيدا. نقل مدير المكتب وجهة نظري «للشيخ»، ووافق عليها فورا، وتم تحديد وقت أبدأ فيه العمل.

بدأت العمل وكلي حماس أن أكون عند حسن ظن ذلك «الشيخ» الذي وضع ثقته في شخصي المتواضع، وقام بتعيني «كمشرف» على قسم «كبار العملاء» وهذه ثقة لا حدود لها، مما يجعل المسئولية علي كبيرة، خاصة أنني سوف أتعامل مع عملاء لهم وزنهم يدفعون مئات الألوف من الريالات لمتجر «الشيخ» ويجب أن نحافظ عليهم وننال رضاهم.

كان لا بد من جذب عملاء مميزين جدد، وعدم توقف خدماتنا على العملاء السابقين، ولا بد كذلك من تطوير العمل بالمتجر من هذا المنطلق قمت بعمل «مقترَح» وقدمته «للشيخ» كان «المقترح» يتضمن خططا تطويرية من ضمن تلك الخطط ما يلي:

- أن نقوم بعمل زيارات كل يوم خميس للشركات والمؤسسات والتجار الجدد ونعرض عليهم منتجات المتجر، خاصة أن هناك ثورة بناء وعمران في البلد، سواء على مستوى الأفراد، أو على مستوى الشركات والمؤسسات التي تقوم ببناء المشروعات الحكومية، والمشروعات الخاصة.

- كذلك لا بد من الدعاية الإعلانية للمتجر عن طريق الجرائد اليومية، والجرائد الدعائية، وعن طريق (البرشورات، والكروت الدعائية) فالدعاية والإعلان مهمة للانتشار، ومهمة لجذب عملاء جدد، وعلينا أن نؤمن بأهمية الدعاية للوصول لأكثر شريحة من العملاء.

- على المتجر أن يفتح فروعًا جديدة في مناطق المملكة الأخرى لتكون منتجات المتجر أكثر انتشارا، ويضمن تواجد منتجاته ووجود بضاعته بشكل أكبر، وأن يتم تحويل المتجر إلى شركة تنتشر فروعها في جميع أنحاء المملكة.

- أن يقدم المتجر هدايا تذكارية للعملاء الجدد، وعمل حسومات لكبار العملاء، وللعملاء المميزين عندما يصل سحبهم من المتجر مبلغ يتخطى «المليون ريال» ونضعهم في قائمة «عملاء التميز».

- أن يقوم المتجر بعمل حفل سنوي لجميع الموظفين، وعمال المتجر، وتوزيع هدايا على المميزين منهم، وذلك من باب تشجيعهم وتحفيزهم، وبث روح التنافس بينهم، ولكي تتأصل في نفوسهم صفات

الولاء والانتماء الوظيفي للمتجر.

أعجب «الشيخ» بهذه الاقتراحات، وأثنى عليها، وأيدها، وشكل «لجنة تطويرية» مُشكّلة من عدة أعضاء كان لي الشرف أن أكون نائبا لرئيس هذه اللجنة، وطلب منا أن يتم إقرار هذه الخطط التطويرية بصفة عاجلة في مدة لا تزيد على أربعة أشهر، قمنا بعمل إحصائيات للموظفين والعمال، ووجدنا تكدس الموظفين والعمال في المتجر الرئيس، قمنا بإعادة جدولتهم وتوزيعهم بطرق منهجية لا تؤثر على سير العمل، تم استئجار مستودعات في المدن المجاورة، وتم فتح فروع جديدة بها، وتزويدها بسيارات شحن ومشرفين، وبائعين، وعمال تحميل وتنزيل، وبدأ العمل في هذه الفروع الجديدة.

انتهت اللجنة التطويرية المُشكّلة من مهمة التخطيط وسلمنا الخطط وما تم عمله، بعد اعتمادها وبدأ التنفيذ لها من قسم الشئون المالية والتطويرية، بقيت «مشرفا» على (قسم كبار العملاء) كنت أتواصل مع العملاء، وأبحث كذلك عن المؤسسات والشركات الجديدة التي أرى لوحاتها التعريفية مكتوبة على مواقع المشاريع الإنشائية التي ما زالت تحت التأسيس ويتم إنشاؤها حديثا، كنت أتصل في تلك الشركات والمؤسسات القائمة على تصميم وإنشاء تلك المشاريع وأطلب مقابلة القائمين على تلك الشركات والمؤسسات وأذهب إليهم بمكاتبهم وأعرض عليهم منتجات المتجر، بموجب (برشورات وكتالوجات) توضح منتجات المتجر ومواصفاتها ومميزاتها، وقد أكرمني الله بإقناع صاحب شركة تقوم بإنشاء مجمع حكومي عملاق وافق أن يورد

له المتجر الذي أعمل فيه كل مستلزمات البناء من (أخشاب، وحديد ودهانات، ومستلزمات سباكة، وكهرباء وغيرها) مما تحتاجه الشركة من مواد لإنشاء المشروع، وتم عمل عقد توريد بين متجر «الشيخ» الذي أعمل فيه وبين شركة الإنشاءات، كانت قيمة العقد ضخمة ومجزية ماديا، مما جعل «الشيخ» يكون سعيدا وفرحا بشكل لا يوصف بهذا العقد المجزي جدا الذي «يقدر بالملايين» طلبني بعد توقيع العقد للحضور إلى مكتبه كانت تبدو السعادة واضحة على محياه، قال لي يا «ابني» حقيقة تعجز الكلمات عن شكرك وإيصال ما أكنه لك من تقدير وامتنان على جذبك هذه الشركة لنقوم بتوريد مواد لها بهذا المبلغ الضخم، وهذا الربح المادي المجزي، ولن أخفي سرا (يا ابني) أنني منذ أن أنشأت هذا المتجر لم أتخيل يوما ما أن أحصل على عقد توريد بهذه الضخامة، لكنك كنت خير سفير ونعم السفير لي ولمتجري، ولا أعلم ماذا أجازيك به جرّاء جهودك المميزة.

قلت له (طال عمرك) أولا: ما «أنا» إلا موظف أؤدي عملي والله سبحانه هو من هيأ لنا هذا العقد وسخر لنا صاحب هذه الشركة، وهذا رزق مكتوب لك، وأنت تستحق، قال: بصراحة أعجز عن شكرك (يا ابني) ثم قام بتحرير شيك ودون فيه «مبلغا» مجزيا وسلمني الشيك قائلا: هذا الشيك مكافأة لك على جهودك في جلب هذا العقد، رفضت لكنه أصر على منحي الشيك، وأقام وليمة بقصره في (خيمة شعر) في حديقة قصره ودعاني ودعا المشرفين على المتجر احتفالا بهذا العقد، وقد قربني منه قائلا أمام الجميع: أغبطك (يا ابني) على (الكاريزما) التي تتحلى بها، والأساليب الجاذبة التي تجيدها في

جذب العملاء وإقناعهم وهذه مهارة لا يتقنها إلا القليل ونريد منك أن توضح لنا كيف تعلمت طرق وأساليب الإقناع في المفاوضات.

رددت عليه بخجل قائلا له: أولا:هذه شهادة أعتز بها من شخص مثلك (طال عمرك) ووسام أضعه على صدري. وثانيا: ليس هذا بقدراتي إنما بتوفيق من الله، ثم لإيماني بأهمية القراءة والاطلاع وتثقيف نفسي في مجال إجادة طرق وأساليب جذب العملاء، وكيفية الوصول إلى إقناعهم، وأنا مؤمن إيمانا تاما، بأهمية حسن المنطق وجمال الأسلوب مع العميل ومحاولة كسب ثقته وقلبه وفكره أولا، فالبائع أو المندوب البارع في الإقناع هو «من يصل إلى قلوب العملاء وإلى فكرهم قبل أن يصل إلى جيوبهم» فعندما يقتنعوا فيك كشخص تحترمهم وتدخل قلوبهم وتكون صادقا معهم فإنهم بلا شك سيمنحونك ثقتهم في البيع والشراء، ثم أن هناك مفتاحا لكل القلوب والجيوب وهي «الابتسامة» فمن يستخدم الابتسامة والود والاحترام مع المراجعين والعملاء ومع الناس عموما فسيكسبهم، وقد قيل في الحكمة الصينية «من لا يجيد الابتسامة، لا يفتتح متجرا».

استشارة عابرة غيرت مجرى حياتي

بقيت مستمتعا بالعمل في الفترة المسائية في قسم «كبار العملاء»، وقد كتسبت ثقة كبيرة عند «الشيخ» بعد ذلك العقد الضخم وكذلك لارتفاع مبيعات القسم الذي أعمل فيه وجلب عملاء جدد مع المحافظة على العملاء السابقين.

في يوم من الأيام استدعاني «الشيخ» إلى مكتبه، دخلت عليه، فوجدته على غير عادته متجهمًا منزعجًا، تبدو على وجهه علامات التوتر والغضب.

قلت له: سلامات «طال عمرك» أتمنى ما يكون هناك ما يعكر صفوك، قال: هناك عدد كبير من «العمال» طلبنا منهم الذهاب للعمل في فرعنا الجديد الذي سيتم تدشينه بمدينة حائل، وتمردوا ورفضوا الذهاب، وبصفتي أثق في نظرتك للأمور أطلب منك الاستشارة الصادقة «يا ابني» فيما أتخذه تجاههم، هل أغريهم بزيادة في رواتبهم؟ أم أتركهم يعملون في المتجر الرئيس، وأستبدلهم بغيرهم؟ ما هو الحل الأمثل للتعامل معهم من وجهة نظرك؟

قلت له: (طال عمرك) ممكن قبل أعطيك رأيي أن أطلع على عقود العمل القانونية المبرمة بين متجرك وبين هؤلاء العمال، هل فيها فقرات تلزمك عندما تريد نقلهم من منطقة إلى أخرى أن تشاورهم؟

وهل يحق لهم الامتناع من الذهاب أو المطالبة بزيادة رواتبهم عندما يتم نقلهم لمنطقة أخرى؟ وهل يجب طرح الخيار عليهم في الذهاب من عدمه؟ أو تقديم مميزات إضافية لهم؟ كل تلك الأمور أكيد أنها مدونة بالعقود، ولا بد أن أطّلع عليها قبل أن أعطيك رأيي النهائي في الأمر أو فيما يجب أن تتخذه تجاههم من قرارات، حتى أبني رأيي على ثوابت قانونية بعيدا عن العاطفة في مجاملة متجرك على حساب ظلم هؤلاء العمال أو هضم حقوقهم القانونية، أو هضم حقوق متجرك وإعطاء العمال مميزات ليس من حقهم، فالعقود القانونية هي من تحدد صفة التعامل بينك وبين هؤلاء العمال بعيدا عن الارتجالية والاجتهادات غير القانونية وقد قيل «العقد شريعة المتعاقدين».

طلب مباشرة من مدير شئون الموظفين أن يطلعني على عقود العمالة، وقراءة فقراتها، تفحصت العقود جيدا، لم أجد فيها فقرة واحدة، تحدد أن من حق «العمال» العمل في منطقة معينة دون أخرى من المملكة، أو زيادة رواتبهم، أو تقديم مميزات إضافية لهم في حالة نقلهم للعمل بمنطقة أخرى، خاصة أن منطقة حائل التي سيفتتح فيها الفرع الجديد ليست منطقة نائية، بل منطقة حضرية ومدينة كبيرة فيها جميع الخدمات وجميع وسائل الاتصالات والراحة، وموفر لهم سكن وإعاشة وعلاج، ومواصلات، وما تتضمنه بنود العقد من مميزات.

بعد أن اطلعت، وتأكدت من العقود وبنودها، رددت على «الشيخ» قائلا له: يعلم الله أنني أكن لك تقديرا واحتراما لا يوصف «كشيخ»

وقور، وكمسئول عني، فأنا موظف عندك وليس لي الحق في التدخل في قراراتك أو فرض عليك استشارة مني اجتهدت فيها، قد تكون سليمة وقد تكون خاطئة. لكن، بما أنك استشرتني فسأوضح لك بكل شفافية وجهة نظري التي قد لا تقبلها بصفتك إنسانًا طيبًا لا تريد الضرر لأحد أو قطع رزق أحد، أو الدخول في مشاكل مع عمالك، لكن من باب الأمانة والمهنية أن أكون صريحا وصادقا معك، وأتمنى تقبل صراحتي وتعتبرها «كالنحلة التي تلسع من الخارج لكنها تحمل داخلها العسل»، فوجهة نظري أن تضع هؤلاء (العمال) أمام خيارين لا ثالث لهما، إما تنفيذ الأمر والذهاب للفرع الجديد بمنطقة حائل دون تردد أو مساومة أو ابتزاز، أو أن تقوم بإنهاء عقودهم بسبب رفضهم الذهاب للعمل بالفرع الجديد الذي سيتم فتحه بمنطقة أخرى. فالعقود لا يوجد فيها فقرة واحدة تعطيهم مبررات منطقية للتمرد وعدم الذهاب أو طلب مميزات وزيادة رواتب، فالمنطقة المنقولون إليها داخل المملكة منطقة بها جميع مقومات الحياة وليست منطقة نائية.

نظر لي قائلا: وجهة نظرك قاسية ومؤلمة، وهؤلاء العمال عددهم كبير، وقد قمنا بتدريبهم وصقلهم ولهم خبرات طويلة وإنهاء عقودهم ستؤثر على سير العمل.

قلت له: لم أبنِ قراري على العاطفة أو على المزاجية والارتجالية بل بنيته على عدة مبررات أرى أنها من وجهة نظري الخاصة منطقية وعادلة، وسأطرح عليك تلك المبررات، ومن ثم القرار قرارك، وليس شرطا أن توافق على وجهة نظري فالأمر مجرد استشارة مني ليست

ملزمة لك، ولك الحق في قبولها أو رفضها؟ واتخاذ ما تراه مناسبا، قال ما هي مبرراتك؟ قلت: مبرراتي كالتالي:

أولا: في حالة قبولك لتمردهم، وامتناعهم عن الذهاب، وعدم تنفيذ أمر نقلهم، سيكون ذلك مدعاة لغيرهم في عدم تنفيذ الأوامر والقرارات اللاحقة، وسيشكل ذلك ضعفا في أي قرارات تأتي لاحقا.

ثانيا: عقود العمل والاستقدام المبرمة بين متجرك وبينهم لا توجد في بنودها فقرة تحدد لهم خيار العمل في منطقة دون أخرى أو في منطقة محددة، بل إن العقود التي بينك وبينهم تتيح لك الطلب منهم العمل بأية منطقة داخل السعودية حسب حاجة العمل مع حفظ حقوقهم وصرف لهم بدل مواصلات، وتأمين سكن وغيره من المميزات الموجودة بالعقد، غير ذلك فليس من حقهم قانونيا رفض العمل بمنطقة أخرى أو التمرد على قرارات نقلهم.

ثالثا: أعرف طيبتك ووفاءك لهؤلاء العمال بصفتهم عملوا عندك فترات طويلة، لكن هناك قاعدة إدارية تسمى (الخيار الصعب) فعندما لا يكون أمامك كمسئول من حل سوى هذا الخيار الصعب، فيجب اتخاذه حتى لو كان مؤلما لك ولمن اتخذت في حقهم تلك القاعدة، فأحيانا يضطر الإنسان لبتر جزء من جسده حتى يحمي بقية الجسد من تفشي المرض فيه، كذلك صاحب القرار أحيانا يضطر لفصل عدد من الموظفين أو العمال من أجل حماية بقية الموظفين والعمال، وفي حالة إنهاء عقود خدمات هؤلاء المتمردين من العمال ستحمي حتما البقية

العظمى من الموظفين والعمال من التمرد أو الرفض لاحقا، وفي حالة انصياعك لابتزازهم ومطالبهم ورغباتهم فستفتح عليك بابا لن يغلق بتاتا، وسوف يتخذون التمرد والرفض عادة وورقة ضغط يستخدمونها متى ما أرادوا تحقيق مكتسبات أو رغبات ويلوون بها «ذراعك» لتلبية رغباتهم.

رابعا: التجارة ليس فيها عواطف، أو مجاملات، فالعاطفة والمجاملة عندما تدخل في التجارة، أو في أي عمل ستكون بمثابة المسمار الأول الذي يدق في نعش بداية النهاية لنجاح أي تجارة أو عمل، وشركتك ومتجرك ليست شئونا اجتماعية أو جمعية خيرية تمنح لهؤلاء العمال رواتبَ وحوافزَ دون وجه حق، بل استقدمت واستقطبت هؤلاء العمال من بلدانهم من أجل العمل، وعليهم واجبات ولهم حقوق وبينك وبينهم عقود وعليهم القيام بواجباتهم وبتنفيذ عقود العمل التي بينك وبينهم، فأنت لم تظلم هؤلاء العمال ولم تعتدِ على حقوقهم بل طلبت منهم القيام بعمل في منطقة أخرى وفي حالة رفضهم من حقك إنهاء عقودهم عند رفضهم العمل، فليس أنت من ظلمهم بل هم من ظلموا أنفسهم برفضهم العمل.

خامسا: أعرف مدى طيبة قلبك ونبل مشاعرك وحرصك على مشاعر كل شخص يعمل معك، لكن ثق أن مصلحة العمل والتجارة عندما تخضع للمجاملات والعواطف ستتعرض لكثير من الاستغلال والابتزاز، قد يكون كلامي قاسيا ومرا، لكن ثق تماما أن الدواء مهما كان مرا على النفس فهو الحل الوحيد للشفاء، ولسعادتكم الحق في

قبول هذا الخيار من عدمه والقرار قراركم.

رد علي قائلا: لم أَستَشِرك إلا لثقتي في رجاحة عقلك وحسن رأيك، وكلامك ومبرراتك التي ذكرتها منطقية وواقعية و(على بركة الله) سأنفذ وجهة نظرك، وسأجتمع مع هؤلاء العمال وأطرح عليهم أحد الخيارين إما النقل للفرع الجديد أو إنهاء عقودهم.

قلت له: من وجهة نظري أن لا تقابلهم أو تحاورهم مباشرة، ولا تحسسهم أو تبوح لهم بأنك في حاجتهم، بل عليك إرسال «تعميم» لهم يتصف بلهجة صارمة وحازمة مصدق منك شخصيا موجها لجميع الأقسام والفروع، مرفقا فيه «بيان بأسماء العمال» الذين رفضوا الذهاب إلى الفرع الجديد، وتضع هؤلاء العمال أمام خيارين لا ثالث لهما: إما القبول بالسفر ومباشرة العمل بالفرع الجديد «بحائل» حسب ما تنص عليه عقود العمل بين المتجر وبين هؤلاء العمال، أو تسليم إقاماتهم وجوازاتهم خلال (24ساعة) لشئون الموظفين وإنهاء خدماتهم وعودتهم لبلدانهم، و اذكر في التعميم أن المتجر لن يتوقف عليهم، فمثلما تم استقدامهم، فالمتجر قادر على استقدام غيرهم، ولا تقبل التفاوض مباشرة معهم أو تقابلهم حتى لا يفاوضونك أو يبتزونك بطلبهم تنازلات أو وعود وتحقيق مكاسب ومميزات خارج العقد المبرم بينكم وبينهم، الذي ينص نصا صريحا على العمل في أي مكان داخل البلد، وثق أنني لن أظلم نفسي أو أظلمهم بوجهة نظري، لكن هذا المنطق، وهذا ما وجدته بالعقود، فأنت لم تظلمهم أو تهضم حقوقهم بل طلبت منهم العمل في فرع جديد وهذا من حقك دام أنه يتوافق

مع عقود العمل بينك وبينهم، وموفر لهم جميع المميزات الموجودة بالعقود من راتب، وسكن، ومواصلات، وإعاشة، وتأمين طبي، وإقامات نظامية، وجميع حقوقهم المبرمة بالعقد بينك وبينهم فهم من أخلو ببنود العقد وليس أنت.

رد علي مقتنعا وقائلا: بلغ «مدير الشئون الإدارية» فورا بصيغة «التعميم» الذي تراه مناسبا، ويتم طبع التعميم بصفة عاجلة، ويرسل لمكتبي أصدق عليه فورا، ويتم تعميمه مباشرة على جميع الأقسام والفروع قبل نهاية دوام اليوم.

بلغت مدير شئون الإدارية بصيغة «التعميم»، وطلبت منه عرضه فورا على «الشيخ» وذهبت بعدها لمكتبي.

في اليوم التالي اتصل مدير مكتب «الشيخ» طالبا مني الحضور لمقابلة «الشيخ» عند الذهاب له، وجدته مبتسما باديا على وجهه الارتياح والانشراح.

تحدث معي مباشرة قائلا: وجهة نظرك المنطقية كان لها صدى إيجابي، فالعمال الذين كانوا رافضين الذهاب للفرع الجديد وافقوا على الذهاب عدا «أربعة أشخاص» منهم ما زالوا يفكرون.

قلت له: مباشرة أرى أن تنهي عقود هؤلاء العمال «الأربعة» ويعلم الله أنني لا أعرفهم بتاتا، وليس بيني وبينهم علاقة أو تصفية حسابات، فكما تعلم أنه لا يوجد بقسمي عمالة وافدة، ولم أعمل بتاتا

في المستودعات، وتعلم أن جميع العمال بالمستودعات، لكن المتوقع أن هؤلاء «الأربعة» هم من قاموا بتحريض بقية العمال على التمرد ورفض الذهاب للفرع الجديد، فدائما من يؤمن بمبدأ «ثوري» أو تمرد يصر عليه ويتمسك فيه ولا يريد أن يبيّن للآخرين عدم صحة مبدأه وتمرده، لذا هم يصرّون على مبدئهم وتمردهم وعنادهم حتى لو وافقوا على السفر والذهاب للفرع الجديد سوف يكون الذهاب في نظر أنفسهم رغما عنهم، وسيحاولون التأثير على بقية العمالة وتحريضهم على التمرد وعدم الاهتمام بالعمل، وسينعكس ذلك على الإنتاج وجودة العمل، ومن الأفضل إنهاء عقودهم، وقد قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - محذرا من الاستغلال والاستكانة للابتزاز «لست بالخب ولا الخب يخدعني»، ويعلم الله أنني لست ضد أحد من هؤلاء العمال أو أسعى في قطع رزقهم، لكن من باب المنطق ومن باب عدم السماح لهم بابتزاز المتجر، واستغلالهم حاجة المتجر لهم، والحرص والفطنة وحفظ حقوق المتجر وعدم الخنوع «للوي الذراع» أو الاستغلال، ولكي لا يتكرر الابتزاز والتمرد مرة أخرى.

وأضفت: أفضل أيضا، أن يتم توزيع العمال الذين ترددوا ورفضوا سابقا الذهاب للفرع الجديد ومن ثم وافقوا على الذهاب أن يتم توزيعهم على فروع متفرقة ولا يتم ذهابهم جميعا لفرع واحد، حتى لا يتمردوا بشكل جماعي أو يؤثر بعضهم في بعض ويؤثر ذلك على سير وجودة العمل، واستبدالهم بعمالة من الفروع الأخرى «بمعنى» أخذ من كل فرع من الفروع الأخرى مجموعة للفرع الجديد، وإرسال العمال الذين رفضوا الذهاب سابقا مكانهم لكي يتم مزجهم ودمجهم

مع عمالة جديدة، وعدم بقائهم مع بعض حتى لا يشكلون كتلة ويتم تأثيرهم في بعض أو أن يتوقفوا ويضربوا عن العمل.

قال: رأي سديد ومنطقي، وأرسل أمرا لشئون الموظفين بتوزيع العمال على عدة فروع، وأخذ من عدة فروع عماله وإرسالهم للفرع الجديد.

بعد تلك الاستشارة بقيت فترة قصيرة جدا «مشرفا» على قسم «خدمات كبار العملاء» ومن ثم صدر قرار من «الشيخ» بتعييني مستشارا شخصيا له، ويكون ارتباطي به مباشرة، وأمر لي بفتح مكتب خاص بقرب مكتبه.

توطدت العلاقة بيني وبين «الشيخ»، وأصبحت أكثر متانة وعمقا، بدأ يستشيرني في كل أموره ويؤمن بما أقوله له، وجعل مني «أمينا لأسراره» كان عندما يسافر سواء داخليا، أو خارجيا، يأخذني «مرافقا» له، كان معجبا جدا بصراحتي معه، وكان معجبا بحرصي على القراءة والاطلاع وتنمية قدراتي، كان مستغربا من شغفي وحبي الشديد لشراء الكتب فقد كنت في كل سفر أسافر معه أحرص على شراء عشرات الكتب، كان يقول لي دائما: «كيف تجد الوقت الكافي لقراءة كل هذا الكم من الكتب؟».

كنت أرد عليه قائلا: عندما يريد الإنسان أن يرتب وقته بدقة فسيجد وقتا كافيا، ثم إن هذه الكتب هي النبراس التي تضيء للشخص مستقبل حياته، وترسم له رؤية وخريطة ذهنية وفكرية واضحة المعالم

حتى لا يضيع في تشعبات الحياة وكثرة منعطفاتها.

كان يحب دائما أن يستمع مني التعليق على كل الأمور، سواء الأمور الاجتماعية، أوالسياسية، أوالاقتصادية، أو الحياتية العامة.

ولن أكون مبالغا لو قلت (أنني وذلك الشيخ) الجليل نشأت بيننا «كيمياء» خاصة وعميقة وبات أحدنا يفهم الآخر جيدًا، ولم نختلف يوما ما، كنت أعتز بوجودي معه بعيدا عن كونه ثريا أو من أجل أنه رب العمل الذي أنتمي له، إنما لكونه إنسانا نبيلا يتحلى بصفات إنسانية جميلة ونادرة، كان يضع ثقته في شخصي المتواضع ودائما يرغب بوجودي معه عندما ندخل في مفاوضات تجارية، كان يطلب مني قبل المفاوضات أن أضع له تصورات منهجية عن السلبيات والإيجابيات والمعوقات التي ستواجه تنفيذ العقود، وما هي الطرق المثلى المؤثرة في المفاوضات، كنت أطّلع وبشكل مكثف على كتب قانونية توضّح كيفية صياغة بنود التعاقدات والحقوق وتوثيقها قانونيا، كنت صريحا صادقا مع «الشيخ» أتعامل معه بشفافية، وأصارحه بقولي، أعتبرك بمثابة «الأب الروحي» لي في الحياة، وأحترمك جدا وأقف لك إجلالا وإكبارا كإنسان نبيل تستحق الاحترام والتقدير، وكشخص لك أفضال كثيرة على شخصي، لكن هذا لا يمنع أن أكون معك صادقا وصريحا عندما تستشيرني بعيدا عن العاطفة والعلاقة المتينة بيننا، فلن أجاملك أو أتردد في إبداء رأيي بكل وضوح وشفافية، وثق أنني عندما أجاملك أو أتعامل معك بعاطفة فأنني بذلك غير جدير بأن أكون مستشار أمينا لك، وسأتحول من مستشار إلى منافق عندك، فصراحتي ووضوحي

معك مهما كان فيها من جرأة مني، لكن ثق أن الصدق والصراحة عندما تختفي يحل محلها التضليل والنفاق والتدليس والمداهنة والغش في الرأي، وعدم وضوح الحقيقة لك.

اكتشاف الحقيقة الغائبة

كنت أتسامر ذات ليلة من الليالي مع «الشيخ» في بهو فندق «سلستل» في مدينة «مكاتي» بالفلبين، حيث كنت بصحبته في مهمة عمل لجلب واختيار بعض العمالة المهنية المتخصصة، كانت الجلسة ثنائية خاصة بيني وبينه، لم يكن أحد يشاركنا الجلسة، باح لي بهموم وشجون كانت تثقل كاهله وتؤرق منامه، مشتكياً من عقوق «أبنائه» له، وسلبيتهم وعدم ثقته فيهم، قائلا لي: «ابني» كما تعرف أن الله منحني من المال الشيء الكثير، ومن الجاه، ومن المكانة والسمعة الطيبة، وأحمد الله على ذلك، لكن رغم تلك المعطيات والنجاحات التي حققتها وتلك النعم التي أعيشها، افتقدت لعطف وبر «أولادي»، أعيش ألما من عقوقهم وسلبيتهم تجاهي، مما يسبب لي غصة وهاجسا مزعجا، فقد كنت متزوجا من أمهم «ابنة خالي» التي كانت أول زوجة لي، وأنجبت منها ثلاثة أولاد، منهما «ولدان توأم» ثم حصل بيني وبين أمهم خلافات وعدم تفاهم أو توافق، مما جعل الحل الوحيد بيننا حدوث أبغض الحلال «الطلاق»، كان ذلك قبل ما يقارب «خمسة وعشرين عاما» وبناء على طلب خالي «والد طليقتي» الذي أكن له كل تقدير واحترام وأعتبره بمقام والدي، الذي طلب مني أن يبقى أولاد طليقتي بحضانتها وتحت رعايتها، وأن لا آخذهم من أمهم، واستجابة لرغبته واحتراما لطلبه، وكذلك لانشغالي بمتابعة تجارتي التي كانت مستحوذة على كل وقتي، قمت ببناء منزل وتأثيثه لطليقتي وأولادها

بالقرية التي يسكنها «خالي» وأرسل لهم مصروفا شهريا وأزورهم متى ما وجدت الوقت، وقد درسوا أولادي بالقرية تحت رعاية خالي وطليقتي، لكنهم كانوا يحتكون بأبناء القبيلة والقرية الذين يتصفون بالجفاف والخشونة، كذلك لبعدي عنهم مما انعكس سلبا على علاقتي معهم وجفافهم معي، فلم يكن بيني وبينهم ود أو تفاهم، بل كانت أمهم تشجعهم ضدي خاصة بعد زواجي من زوجة أخرى تزوجتها من الرياض، وأنجبت لي بنتا وولدا مصابا بمرض (منغولي)، حاولت بعد فوات الأوان إعادة المياه إلى مجاريها بيني وبين أولادي الذين كانوا مع أمهم في القرية، لكن لم أنجح في كسب ودهم، ولا أبرئ نفسي من جزء كبير من المسئولية ببعدي عنهم، وانشغالي بتجارتي، مما أحدث فجوة وجدانية وأبوية وانفصال عاطفي بيني وبينهم، كذلك كان لتحريض أمهم وشحن نفوسهم ضدي، والإيحاء لهم بأنني السبب في طلاقها، وبأنني انشغلت عنهم وأهملتهم، كانت تستخدمهم كورقة انتقام ضدي وتحرضهم وتشوه صورتي في نظرهم.

وأكمل «الشيخ» حديثه وبوحه لي قائلا: حاولت بكل السبل وبكل المغريات المادية والجهود المعنوية أن أحتوي «أولادي» وأجذبهم لي وأن أحسن صورتي في نظرهم، لكن كما يقال «الطبع يغلب التطبع» فقد كان طبعهم جافا ومتمردا، وغير متقبلين وجودي معهم أو قبولي «كأب» لهم حاولت أن أؤثر فيهم، أخذتهم عندي بالرياض عندما تخرجوا من المتوسطة وقمت بتسجيلهم في مدارس ثانوية خاصة، وأمّنت لهم كل متطلباتهم، لكنهم كانوا لا يرغبون في ذلك، فقد كانوا شرسين متمردين يختلقون مشاكل ومشاكسات مع التلاميذ ومع أولاد الجيران

ومع زوجتي ومع ابنتي «أختهم غير الشقيقة» ومع «ابني» الأصغر «أخيهم غير الشقيق» المريض بمرض «منغولي»، مما شكل لي إحراجات، ومتاعب ولم أستطع السيطرة على مشاعرهم أو السيطرة عليهم فهم لم يتقبلوا أوامري، ويريدون الهروب والرجوع للقرية عند أمهم، كانوا متعصبين لبعض، ومتضامنين يحرضون بعضهم على التمرد، كانت أمهم إنسانة تحب السيطرة وتحب إثارة المشاكل والانتقام ورسمت في أذهانهم أفكارا وأوهاما أنني سأهتم وأعطف على «ابني» غير الشقيق أكثر منهم، رغم أن عطفي عليه من باب أنه مريض وليس لأنني أفضله عليهم.

توترت العلاقة بيني وبين «أولادي» وتأثر مستواهم الدراسي، فلم يبذلوا أي مجهود أو تفاعل في المدرسة مما جعل مدير المدرسة والمدرسين يرسلون في طلبي ويبلغونني أن أبنائي متضامنون مع بعض ومتمردون ولا يرغبون في الدراسة، وأنهم لن يحققوا نجاحا أو تقدما وأن مشاكلهم كثيرة، وأن عدم اهتمامهم بالدراسة والمذاكرة سيؤثر على تحصيلهم التعليمي، فقد كانوا متمردين على المعلمين، تعبت في إقناعهم أو تغيير سلوكهم وجفافهم وتمردهم، بعد فترة - وفي أحد أيام الإجازات الأسبوعية - هربوا وعادوا للقرية التي توجد فيها «أمهم»، وأصروا على عدم العودة للرياض، مما اضطرني إلى سحب وثائقهم وملفاتهم من المدرسة وإرسالها لهم لإكمال دراستهم بالقرية، واستسلمت للأمر الواقع، اقتنعت أنني مهما حاولت مع أولادي بشتى الطرق فلن أكسب ودهم أو تصفى قلوبهم، بل سيبقى حبل الود والحب بيني وبينهم مقطوع، آمنت بقاعدة (إنك لا تهدي من أحببت

ولكن الله يهدي من يشاء) فقد بقوا بالقرية وتخرجوا من الثانوية بمعدلات ودرجات متدنية جدا وشهادات «لا تسمن ولا تغني من جوع»، ولا تنفعهم للمنافسة في أي مجال، غضبت عليهم من جراء تواضع درجاتهم، وتركتهم قاصدا ومتعمدا يبحثون عن عمل ولم أتدخل بتاتا في الشفاعة لهم أو مساعدتهم، كنت أريدهم أن يعتمدوا على أنفسهم، مع إيماني بأنهم لن يجدوا وظائف في ظل درجاتهم المتدنية، وفي ظل عدم وجود وظائف متوفرة في الدولة بكثرة، توقفت عن دعمهم ماديا ومعنويا، كنت أرغب أن يذوقوا مر الحاجة وأن يجربوا مرارة البطالة وأن يتعلموا الاعتماد على النفس لعل حاجتهم تنمي عندهم الإحساس بأهمية العمل، والوظيفة، والشهادة في حياة الفرد، تركتهم يبحثون عن وظائف حتى تعبوا ولم يستقبلهم أحد أو يوظفهم أحد أو يساعدهم أحد، وبعد أن تيقنت أنها خارت قواهم ووصلوا إلى طرق مسدودة، وسئموا من البحث ومن الحاجة، تدخلت محاولا أن أعيد تجربة الاحتواء معهم مرة أخرى، لعل ذلك يجد صدىً في نفوسهم وأساهم في كسب ودهم، وقمت بتوظيفهم في متجري، وسلمت كل واحد منهم مهمة عمل «كمشرف» على قسم من أقسام المتجر، ووفرت لكل منهم سكنا وسيارة محاولا أن أزرع فيهم الثقة، وحب العمل، وأوضحت لهم أن هذا المتجر سيؤول لهم في يوم من الأيام عندما ينتهي أجلي بالحياة، وأن عليهم الحرص عليه ومعرفة كيف يدار، والحرص على الاستفادة من مدراء الأقسام ومن المشرفين والتعلم منهم واكتساب خبرة، وعليهم احترام الموظفين والعاملين وكسب ولائهم وعدم التسلط عليهم أو ظلمهم أو تنفيرهم من العمل، فهؤلاء العاملون هم الوقود المحرك

للمتجر، وبدونهم لن يكون هناك إنتاج أو مبيعات، ويجب عليهم كسب الموظفين ومساعدتهم والحرص على عدم جرح مشاعرهم أو ظلمهم.

بعد فترة قصيرة اكتشفت أنهم غير مهتمين بالعمل، يحضرون وينصرفون حسب مزاجهم، وإن حضروا كانوا متعالين يمارسون التسلط والظلم ضد الموظفين والعمال ويتدخلون في عمل وتخصصات غيرهم دون معرفة أو دليل، مما أحدث بينهم وبين العاملين في المتجر فجوة وتنافرًا، وأصبح العاملون مستائين، وأثر ذلك سلبا على دخل المتجر وعلى سير العمل فيه، وقام كثير من العاملين بتقديم استقالاتهم متذمرين من قمع وتسلط وتصرفات «أبنائي» ضدهم.

من جراء هذا التعالي والتسلط من أبنائي ضد العاملين بالمتجر وضعت نفسي أمام أمرين أحلاهما مر، إما الخضوع لرغبة الموظفين والعاملين وقبول استقالاتهم من المتجر، أو تنحية العاطفة الأبوية وإبعاد «أبنائي» من المتجر الذي أصبح إنتاجه يتراجع وسمعته تتأثر، وقفت حائرا أمام أي الخيارين أختار، وبعد تردد، استشرت أحد التجار الثقاة الذي بيني وبينه احترام وتبادل تجاري وأثق في رأيه، قال لي ذلك التاجر: «عليك التخلي عن العاطفة الأبوية في متجرك، فالعاطفة الأبوية إن خضعت لها ستضعك «وأولادك»على رصيف الإفلاس، عليك أن تلحق نفسك، وتحتوي الموظفين والعاملين فهم بعد الله السبب في رزقك وفي استدامة إنتاج متجرك أما «أبناؤك» فعليك أن تكون حازما معهم وتقوم بإبعادهم عن المتجر، والبحث لهم عن فرص عمل بعيدا عن متجرك دام أنهم لا يملكون مؤهلات إدارية أو تجارية، ولا يقدرون

المسئولية وسلبياتهم أو أكبر من نفعهما».

وأكمل «الشيخ» قائلا: أخذت نصيحة «صديقي التاجر» بعين الاعتبار وقمت بتنفيذها فورا، واجتمعت مع «أبنائي» وأعطيت كل واحد منهم شيكا فيه مبلغ جيد من المال، وقلت لهم: حاولت أن أحتويكم وأصنع منكم رجالا يعتمد عليكم، لكنكم للأسف خيبتم ظني وثقتي فيكم، واكتشفت أنكم بدأتم تعبثون في متجر بنيته بعرق جبيني من عشرات السنين، ولن أسمح لكم بتدميره أو تعرضه للكساد بسبب جهلكم وعنجهيتكم، ويكون في علمكم أنا لم أرث من والدي رحمة الله شيئا، فقد مات والدي وأنا صغير، رغم ذلك شقيت طريق حياتي بمفردي واعتمدت على نفسي وأوجدت هذا المتجر من عدم، بفضل الله ثم بعصامية، وبجهود مضنية، وسهر وتعب، ومعاناة حتى وصل إلى ما وصل إليه، وقد صرفت لكل واحد منكم شيكا فيه مبلغ جيد تستطيعون شق طريقكم في الحياة والاعتماد على أنفسكم فمن نجح منكم واكتشفت قدراته ووثقت فيه، فلن أبخل بمساعدته، ومن استكان منكم للكسل والخمول ولم يتحمل المسئولية فأنا بريء منه.

بعدها ذهب «أبنائي» عائدين لأمهم «بالقرية» التي أصبحت فيما بعد محافظة، واشتركوا في شراء معرض لبيع السيارات، لكنهم خسروا لأنهم لم يعملوا جدوى اقتصادية لمشروعهم، وقاموا بتقسيط سيارات على رجال من القبيلة، لم يسددوهم وخسروا كل رأس المال الذي منحتهم، والآن هم يعيشون على معونات أرسلها لهم شهريا، ورغم ذلك أسمع من قبيلتي كلاما جارحا أنني تخليت عن أبنائي، مع

أن الحقيقة أن أبنائي هم من تخلوا عني، وغير جديرين بالمسئولية وقد جربتهم واختبرتهم عده مرات وفشلوا فشلا ذريعا، ولم ينجحوا في دراستهم أو في حياتهم الخاصة، فكيف أستأمنهم على متجر وثروة تقدر بالملايين جمعتها على مدى سنين طويلة بعد تعب وعناء، أخذت من وقتي ومن صحتي.

وأكمل قائلا: كم تمنيت أن يكون أحد «أبنائي» يملك مثل ما تملك من طموح، ومن فكر، ومن مثابرة، ومن أمانة، وعلم، وكم أغبط والديك «يا ابني» على وجود شاب مثلك.

عندما سمعت قوله «كم أغبط والديك» أجهشت بالبكاء بطريقة عفوية لا إرادية مني، ولم أستطع كبح جماح دموعي التي انهمرت بعفوية تامة، استغرب «الشيخ» بكائي المفاجئ حاولت أن أقوم من الجلسة لكن «الشيخ» أصر على بقائي ومصارحته بأسباب بكائي الفجائي.

قلت له:لا شيء..لا شيء.. واستأذنته أن أذهب «لدورة المياه» لغسل دموعي، حاولت أن أتأخر عليه لعله ينشغل وينسى الموضوع فلم أكن أرغب في البوح له بسري وبأنني «لقيط».

عدت له فوجدته ما زال جالسا ببهو الفندق ينتظرني، تمنيت وقتها أنه ذهب للجناح الذي يسكنه، لكي ينسى الموضوع، ولا يحرجني أو يلح علي بإخباره عن أسباب بكائي المفاجئ، حاولت أن لا أثير الموضوع أو أعود لفتحه، وقلت له: أستأذنك «طال عمرك» سأطلع لغرفتي أريد أن أنام، قال: ممكن تعطيني من وقتك خمس دقائق تخبرني فيها عن

أسباب بكائك؟ قلت له: بكيت من معاناتك من أبنائك وعدم برهم فيك.

رد علي «مازحا»: العب غيرها، وأضاف قائلا: «يا ابني» أعرف مدى ذكائك ودهائك، لكن عمري وصل الستين «يا ابني» وأصبحت قادرا على التمييز بين الأعذار الجادة وبين الأعذار غير الجادة، بكاؤك وراؤه شيء آخر غير ما ذكرت لي، فإن كنت تكن لي قدرا وتعتبرني مثل «والدك» فيجب عليك مصارحتي عن أسباب بكائك؟

ترددت كثيرا في البوح له «بسري» لكن تحت ضغط وإلحاح ذلك «الشيخ» لم أستطع المقاومة، وبحت له بأنني «لقيط» مجهول الأبوين، وما أثار بكائي هو قولك «أغبط والديك فيك»، فقد حركت عندي مشاعر كانت محبوسة وخامدة، وأثارها حديثك، كم الدنيا قاسية أنت تملك الأبناء والأموال ومحروم من بر أولادك، وأنا محروم من الوالدين، ومن الأسرة، ولو عاش «أبناؤك» ما عشته من شتات ومن وحدة قاتلة، ومن فقدان عطف وحنان «الأم»، وفقدان توجيه، واهتمام «الأب» لعرفوا معنى الحرمان من وجود «الأب» في حياة الفرد.

أطرق «الشيخ» برهة صامتا، وقد سقطت من عينيه دموع سالت على خديه مختلطة بشعر ذقنه الوقور، بعد ذلك رفع رأسه قائلا: لي «أفأ... أفأ...عليك يا ابني» أعطيتك كل ثقتي وأبوح لك بكل أسراري، وتعمل معي منذ فترة ليست بالقصيرة، ولم تخبرني «بسرك» هل هذا يعني أنك لم تثق بي بعد؟!

قلت له: العفو طال عمرك «حاش لله» ليس عدم ثقة فيك، لكن كنت محتارا بين هاجسين يمنعاني من البوح لك بخلفيتي الاجتماعية، قال وما هما الهاجسان؟

قلت له: الهاجس الأول: أنك رجل تنتمي لقبيلة مشهورة، والقبائل ينظرون لكل «مجهول حسب» نظرة قاصرة، وقد لا تقبل بوجودي لو علمت عن خلفيتي الاجتماعية.

والهاجس الثاني: كنت «خائفا» أن تنظر لي نظرة شفقة وعطف وتجاملني، وأنا لا أريد أحدا ينظر لي بشفقة وعطف لأنني لست بضعيف أو مسكين، بل إنسان اعتمدت على نفسي وشققت طريقي، ولا أحتاج لعطف وشفقة من أحد، من هذا المنطلق لم أخبرك «بسري» حتى لا أعرض نفسي لإحدى النظرتين التي وضحتها لك.

رد علي قائلا: اسمع «يا ابني» صحيح أنني من قبيلة، لكن ماذا قدمت لي قبيلتي، لم تقدم لي شيئا إيجابيا؟ بالعكس القبيلة هي سبب من أسباب عقوق «أولادي» بتشجيعهم وتحريضهم بالتمرد علي، ولا تهمني القبيلة بقدر ما يهمني أن أجد إنسانا أمينا ومخلصا ومثابرا مثلك بعيدا عن ميزان الحسب والنسب بيني وبينك، فالميزان الحقيقي والعادل بيني وبينك هو ميزان الإنسانية والصدق والأمانة والاحترام، ويعلم الله أنني أحببتك «كشاب» طموح ومخلص، وأنظر لك بإعجاب وغبطة وحبور، ولن أنظر لك بعطف وشفقة فأنت «ما شاء الله» فرضت وجودك واحترامك بفكرك وقدراتك، ولن أنظر لك سوى «ابن» وهبني

الله إياه من غير حيل مني ولا قوة، وأعترف لك أنني في حاجتك أكثر من حاجتك لي، وأتشرف أن أعرض عليك أن تكون «ابن» من أبنائي إن كنت ترغب في ذلك، وثق تماما أنني سأكون سعيدا فخورا فيك أكثر من «أبنائي».

قلت: من هو «طال عمرك» الذي لا يتمنى أن يكون «ابنا» لك، فأنت رجل تملك كل الصفات الإنسانية التي تريح النفس، واعتبرني من الآن «الابن» البار المطيع الذي يكن لك كل صفات الاحترام والتقدير والوفاء.

أيام ربيع العمر

عدنا للوطن من رحلتنا بالفلبين وحظيت بكل صفات الاحترام والتقدير من ذلك «الشيخ» فقد غمرني بلطفه وكرم مشاعره وبتعامله الراقي، وبعد وصولنا للوطن استأذنت منه لكي أذهب لسكني، قال لي: من الغد، تسلم سكنك الذي تسكن فيه، وسأخصص لك سكنا في ضيافة القصر الخاص بي، أريدك تكون قريبا مني.

قلت له: أتشرف بذلك «طال عمرك» لكن يا ليت أبقى في سكني فلا أريد أن أكون ثقيلا عليك وعلى أسرتك، قال لي: «أفاا... أفاا عليك، هل الابن البار والمحبوب يكون ثقيلا على والده؟»، حاولت الاعتذار منه بكل السبل، لكنه أصر قائلا: عشت سنينك الماضية وحيدا وحان الوقت أن نعيش أنا وأنت بقيه أعمارنا «برفقة» بعض، وأضاف مازحا (أو تريد أن تكون «ابنا» عاقا ولا تريد أن تعيش بجواري والحوار معي؟)، لم أجد ذريعة أو عذرا لتجنب إصرار ذلك «الشيخ» الرائع.

في اليوم التالي، استدعاني لمقابلته في قصره ذهبت له فوجدته جالسا في «خيمة الشعر» المنصوبة في حديقة قصره، كان قصرا كبيرا ومقسما إلى عدة أقسام :قصر داخلي كسكن خاص لعائلته، وفي أطراف القصر أجنحة للضيوف مشيدة بقرب «خيمة الشعر» الذي تعتبر مكان جلوسه المفضل، وأجنحة الضيوف لها مدخل خاص يفتح

على الشارع الخارجي، كانت الأجنحة مستقلة تماما ومفصولة بجميع مرافقها وخدماتها عن السكن العائلي الخاص وبعيدة عنه، كانت «أربعة أجنحة» كل جناح مستقل بكل خدماته يستخدمها لسكن ضيوفه الذين يزورونه.

قال لي: اختر واحدا من هذه «الأجنحة الأربعة» لكي أعطي تعليماتي لمدير القصر بتغيير أثاثه بأثاث جديد، وتجديد ديكوراته لكي تسكنه.

قلت له: ليس هناك داع لكل هذه التكلفة، لكنه أصر وأمر مدير قصره، بتجديد تأثيث أكبر الأجنحة وتجديد ديكوراته.

بعد «أسبوعين» سلمت سكني الذي كنت مستأجره، ونقلت جميع مستلزماتي الشخصية، وكتبي، للسكن بقصر «الشيخ» ورغم أنني كنت سعيدا من اللفتة الأبوية منه تجاهي، والثقة التي منحني ذلك «الشيخ» الجليل وإصراره أن أسكن بقصره وبقربه، لكن كنت متخوفا أن لا تقبل أسرته وجودي، أو أكون سببا في نشوء خلافات بينه وبين أولاده وأشقائه، خاصة أن المجتمع لديه حساسية من سكن رجل غريب بمنزل أسرة لا تربطه بهم علاقة، وقد ينتج عن وجودي بقصر «الشيخ» عدة تساؤلات من أبنائه، وزواره، وجيرانه.

كان «الشيخ» لا يهمه كلام الناس، وكان واثقا وجريئا في قراراته ويتخذها عن قناعة تامة، وبعد سكني بقربه بدأت العلاقة بيني وبينه تكبر وتزداد متانة وعمقا مع مرور الزمن، وتتحول من علاقة عبور إلى

علاقة خلود، فبدأ يعتمد علي ويثق في شخصي المتواضع ثقة لا سقف ولا حدود لها، ولثقته وعلاقته المتينة بزوجته الثانية أفشى لها «بسري» وبأنني «لقيط»، وطلب منها أن تهتم بي ولا تجرح مشاعري.

وحقيقة لم يقصر ذلك «الشيخ» وزوجته فقد غمراني بظلال وارفة من الحنان واللطف، ولم أجد منهما يوما ما، كلمة تستفزني أو تحط من قدري، بل كانا ينظران إلي «كابن» بار لها، وكان «الشيخ» يردد على مسامعي دائما بأنني قدر جميل منحه الله له وصرت له أفضل وأبر من «أبنائه وأشقائه»، كان يحب الحوار والنقاش معي في جميع الأمور، ويحب أن يشاكسني ساخرا، ويطلب مني دائما أن أقلد لهجة قبيلته، ومصطلحات يتداولونها، فقد منحني الله موهبة تقليد اللهجات والأصوات، كان لكل قبيلة لهجة و«لازمة» يرددونها. كنت أتقن لهجة قبيلته عندما أكون «أنا وهو» في وقت صفاء ذهني خارج حدود العمل أو في حالة سفرنا وحدنا، كان يطلب مني ترديد لهجتهم، وكان يضحك كثيرا عندما أقول له أنتم يا معشر «القبائل» ليس هناك فرق بينكم وبين الدول الإمبريالية المتغطرسة الظالمة، فلديكم سلطة فوقية ظالمة كسلطة الدول العظمى وتستخدمون ضدنا نحن مجهولي النسب (فيتو) عدم تكافؤ النسب ومحاولة اضطهادنا عندما نطالب بحقوقنا أو بقبولنا من المجتمع أو بالزواج من قريباتكم، فأنتم «مأزومون» بالتسلط ومصابين بمرض العظمة والنرجسية، تستخدمون «فيتو» الحسب والنسب ضدنا نحن «مجهولي الحسب» كما تستخدم الدول العظمى حق النقض «الفيتو» ضد أي قرار لا يلبي مصالحهم أو لا يتوافق مع كبرائهم وتوجهاتهم، وتحييد وإقصاء وظلم كل دولة صغيرة

لا تملك حق «الفيتو».

وأضيف مازحا: لو كان لي من الأمر شيئا لطلبت من مجلس الأمن الدولي أن يضع «قبائلكم» التي تكرس العنصرية والطبقية تحت البند السابع جراء ظلمكم وعنصريتكم القبلية التي تكرس القمع والتسلط، ولاعتبرت «شيوخ» قبائلكم مجرمي حرب يمارسون جرائم في حق الإنسانية بتكريسهم العنصرية والقبلية، وشكيتهم على «المحكمة الدولية في لاهاي».

رد «ضاحكا» قائلا: أحمد الله أنني أعلنت الانشقاق عن جلباب القبيلة وأصبحت في نظر القبيلة خائنا منشقا، من هذا المنطلق سأنجو من ملاحقة مجلس الأمن، ومن المحكمة الدولية عندما تشتكي القبائل على ما يمارسونه من عدائية ضد الإنسانية.

كانت «قفشات» ومزاحًا بريئًا أمارسها مع «الشيخ» ويمارسها معي وقت الصفاء ووقت سفرنا أو أثناء وجودنا بمزرعته بعيدا عن ضغوط العمل وصخب المدينة.

لم يكن «الشيخ» وحده من كان طيبا معي، بل كانت زوجته «امرأة» طيبة تتمثل فيها براءة الكون، بأسلوبها الحنون وتعاملها الرقيق الذي يأسر القلوب، فلا تناديني دائما إلا بكلمة «يا ابني».

كانت أيامي التي عشتها في كنف ذلك «الشيخ» الجليل، وزوجته، أياما جميلة ورائعة، أنستني أيام الوحدة والحرمان والشتات، كانوا

يحترموني، ويحاولون أن يغدقوا علي بكرم من مشاعرهم وأحاسيسهم النبيلة الفياضة الصادقة، كنت أحاول أن أكون بارا معهما، وأتعامل معهما تعامل «الابن» البار مع والديه، ونشأت بيني وبينهما محبة مليئة بكل سمات التقدير والاحترام والود.

كنت أخجل منهم كثيرا وأحاول أن لا أختلط بهم إذا كانوا وحدهم مع «بنتهم وابنهم» وأطلب من «الطباخ» إحضار طعامي في الجناح الخاص الذي أسكنه، لكنهم جميعا «الشيخ وزوجته وابنته وابنه» يصرون علي بإلحاح شديد أن أجلس معهم في صالون الطعام على طاولة طعام واحدة أثناء وجبات الطعام عندما يكونون وحدهم كأسرة، ولا يكون هناك ضيوف عند «الشيخ»، كنت أخجل ويصيبني الإحراج، عندما أجلس معهم على طاولة طعام واحدة، خاصة في ظل وجود «ابنتهم» التي في عمر الزواج، كذلك في ظل وجود زوجة «الشيخ» لكنهم كانوا يعتبروني أحد أفراد عائلتهم ويقولون لي أنت فرد من عائلتنا ونعتبرك أخا «لابنتنا وابننا»، ويحاولون أن يبددوا عني ما يعتريني من خجل ومن تردد عندما أكون معهم على طاولة الطعام، فقد كانوا يملكون إحساسا عظيما، ويريدون أن يضيفوا على حياتي معهم جوا أسريا مفعما بالدفء، والاحتواء والحب، واللطف. كان لديهم إحساس أنني افتقدت الجو الأسري في بداية حياتي وعشت وحدة شعورية وروحية سواء عندما كنت بالدار، أو عندما استقللت في سكني الخارجي، كانوا يريدون أن لا أعيش هذه العزلة والوحدة معهم، ويعتبرونني أحد أبنائهم، كان تصرف إنساني نبيل منهم لن أنساه ما حييت رغم الإحراج والخجل الذي عشته في بداية جلوسي معهم على

طاولة طعام واحدة، لكن مع مرور الوقت اعتدت عليهم واعتادوا علي، فأصبحت أستمتع بالجلوس معهم، والحوار والأكل معهم، وللحق لم أسمع منهم كلمة إسقاط أو تلميح بشيء يزعجني، بل وجدت منهم حبا، ولطفا، ودلالا واحتراما وتقديرا لا يوصف.

أصبح جلوسنا على الطعام يشكل لنا جميعا فرصة للحوار والنقاش وتحولت جلسات الطعام إلى جلسات حوارية نتحاور فيها في جميع المجالات، الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والرياضية، كان «الشيخ وزوجته وابنته وابنه» يعشقون الحوارات بشتى أنواعها، ورغم أنني أحاول أن لا أبدأ بفتح حوار أثناء جلوسي معهم على طاولة الطعام حتى لا أكون متطفلا وأفرض عليهم مواضيع قد لا يكون الوقت مناسبا لمناقشتها، لكنهم بما فيهم «الشيخ» يطلبون أن نتحاور فجلستهم العائلية على الطعام يرون أنها وقت مناسب للحوارات، فأصبحت هذه الحوارات سمة جميلة نمارسها كل وقت نجتمع فيه على طاولة الطعام ونستمتع بالنقاشات والحوارات الإيجابية البعيدة عن التسطيح الفكري أو النميمة أو ذم الآخرين أو الحديث في أعراضهم، فقد كانت حواراتنا متنوعة بين ثقافية، واجتماعية، واقتصادية، وسياسية، ورياضية.

كنت حريصا جدا أن لا أتدخل في خصوصياتهم، وإذا أحسست أن لديهم مواضيع تخص أسرتهم أو شأنهم الأسري، أو وضعهم المادي أو الاجتماعي الخاص أحاول سحب نفسي، وأخرج من جلستهم، لكنهم كانوا يرفضون ذلك ويحاولون إشراكي في مواضيعهم، بل كانوا يستشيروني في أمورهم الأسرية الخاصة، كنت أرد عليهم بلطف

واحترام أنني عشت وحيدا، وليس لدي الخلفية أو الخبرة الكافية في الأمور الأسرية أو الاجتماعية، كان هذا هروبا دبلوماسيا مني حتى لا أتدخل في خصوصياتهم حتى لو كان هذا التدخل بطلب منهم كنت أقول لنفسي «يا غريب كن أديب».

كان هناك تلميح غير مباشر لي من قبل «الشيخ وزوجته» بأنني شاب في سن الزواج ويجب علي الزواج، وأن أكون أسرة، وأنهما على استعداد تام للبحث لي عن «زوجة» أقتنع بها، ويضيف «الشيخ» لا تهمك بتاتا تكاليف الزواج من مهر، ومن سكن، لكني كنت أرفض وأرد عليهما أن الوقت ما زال مبكرا على الزواج، ولم يحن النصيب بعد، وما زال عندي طموحات وأهداف كثر لا بد أن أحققها قبل الارتباط والزواج.

كشف «سر» سبب المتاعب

بعفوية تامة غير مقصودة منها، باحت زوجة «الشيخ» لابنتها، بأنني «لقيط» ورغم أنها كانت «امرأة» طيبة جدا، ولم أر منها يوما ما إلا كل طيبة، وكل حنان، وكل اهتمام، لكن كان خطؤها الوحيد أنها باحت لابنتها «بسري» ومن ثم باحت «الابنة» لبنت عمها المتزوجة التي تزورهم هي وزوجها بصفة مستمرة، كانت بنت عمها «امرأة» ثرثارة غير حريصة على كتمان أي سر، فأخبرت زوجها بأنني «لقيط»، وبدوره أخبر أبناء وأشقاء «الشيخ»، كان أشقاء وأبناء» الشيخ عندما يزورونه لا يرتاحون لي من الأساس، وسبب عدم ارتياحهم لي ناتج عن اهتمام «الشيخ» بي، ووضعه ثقته في شخصي المتواضع، كان «الشيخ» يجاهر لهم بأنه يضع ثقته المطلقة في شخصي المتواضع أكثر من أي شخص آخر، مما سبب احتقانا في نفوسهم ضدي ونتج عن ذلك غيرة وردة فعل سلبية منهم تجاهي كان سببا في إثارة الحقد في نفوسهم، لماذا يفضلني «الشيخ» ويثق بي أكثر منهم.

ومما زاد «الطين بله» وزاد حقد «أبناء وأشقاء» الشيخ، وبعض الموظفين علي شخصيا، أن «الشيخ» طلب مني إضافة لعملي «كمستشار» خاص له أن أقوم بالإشراف المباشر على الإيرادات والمصروفات بالمتجر والقصر، ومنحني صلاحيات مطلقة وواسعة في الإشراف على الأمور المحاسبية والمادية، وطلب مني متابعة وتقييم عمل قسم «المحاسبة»،

وفوضني بتوقيع جميع الشيكات والفواتير أثناء غيابه، ومن باب الأمانة والإخلاص والمهنية، ولكي أحمي نفسي من الاتهامات أو الوقوع في تجاوزات أو أخطاء مالية، بصفتي غير متخصص في «المحاسبة» طلبت من «الشيخ» أن يتم التعاقد مع مكتب محاسب قانوني يكون مستشارًا ماليًّا يراجع جميع المصرفات والإيرادات بدقة وفق أسس قانونية محاسبية.

بعد الشهر الأول من مراجعة جميع الحسابات دهشت حقا من حجم الهدر المالي غير المبرر الذي كان يتم صرفه دون مبررات منطقية والتلاعب بتمرير مشتريات لا حاجة لها، ولتلافي الهدر المادي والتجاوزات المالية، وضعت معايير وضوابط وبرامج وأنظمة محاسبية دقيقة جدا في عملية الصرف وتدقيق جميع الأمور المادية التي كان «بعض» الموظفين والعاملين يستغلون طيبة وكثرة مشاغل «الشيخ» بصرف وشراء أشياء ومتطلبات غير ضرورية سواء في المتجر، أو في القصر، أو في المزرعة، وليس لها حاجة بل كل همهم أخذ عمولة سمسرة من المتاجر على شرائها.

قمت بوضع ضوابط صارمة تحدد آلية الصرف والشراء والتعامل مع الوكالات والمتاجر الأخرى مباشرة دون وسطاء أو مندوبين أو مسوقين، واتخذت مبدأ كتابة شيكات مصدقة لشراء أي سلعة أو نثريات أو أثاث أو أي شيء، منعت صرف المبالغ نقدا، كما كان يتبع سابقا، ووجهت القسم المالي بعدم صرف أي مبلغ مهما كان صغيرا إلا بواسطة شيك مصدق «فالشيك المصدق» لا يتيح للعاملين والمحاسبين

أخذ عمولة غير مشروعة أو التلاعب بالنقد أو تمرير وتزوير فواتير، كانت تلك الضوابط سببا في حرمان منتفعين من الموظفين والعاملين الذين كانوا يستغلون وضعهم بالمتجر أو ثقة «الشيخ» بهم ويحاولون الانتفاع بطرق غير مشروعة.

من هذا المنطلق تولد عن ذلك حقد على شخصي من تيارين شرسين، كل تيار ينطلق من مصالحه وأجندته الخاصة التي كانت سببا في الحقد علي.

فالتيار الأول: يتمثل في «أبناء، وأشقاء، وأقرباء الشيخ»، فلم يكن حقدهم علي ومحاولتهم إقصائي وإبعادي عن «الشيخ» نابعا من حرصهم على ماله أو مصلحته، إنما كان نابعا من تخيلاتهم وأوهامهم «البرجماتية» النفعية المريضة، فهم يرون أنني أشكل خطرا عليهم، ويخيّل لهم أنني قد أستغل ثقة «الشيخ» وأستحوذ على جزء من أمواله لحسابي الخاص، ويتصورون أن «الشيخ» سيمنحني شيئا من أمواله، كانوا يريدون أن يحصلوا على أكبر قدر من الكعكة ويستولون على أمواله وثروته دون مشاركة من أحد مع أن «الشيخ»، كوّن ثروته بعصامية دون مساعدة منهم، بل كانوا عبئًا عليه أكثر من كونهم عونا له وسببوا له مشاكل وكانوا معول هدم لثروته ولسمعته لا معول بناء.

أما التيارالثاني: يتمثل في «بعض» الموظفين والعاملين الذين قمت بتحييدهم وكبح عبثهم واستغلالهم وظائفهم بالمتجر أو بالقصر أو بالمزرعة بأخذ عمولات مادية أو سمسرة غير نزيهة بدون وجه

حق، وبسبب حرصي التام على أموال «الشيخ» وعلى حقوق المتجر، ووضعي لضوابط محاسبية صارمة ودقيقة، حرمتهم من مداخيل مادية إضافية كانوا يتقاضونها بطرق غير شريفة أو مشروعة تسمى «عمولات أو سمسرة» لا يعلم عنها «الشيخ» شيئا.

كانت تلك الضوابط وعدم تهاوني في العمل مع أي إهمال أو تسيب إضافة إلى المعاملة الطيبة والحميمية والثقة المطلقة التي يعاملني بها «الشيخ» سببا في نشوء حاقدين علي شخصيا سواء من عائلته أو من العاملين في قصره، أو العاملين في متجره.

كانت معرفتهم «سري» وبأنني «لقيط» كنزًا نزل عليهم من السماء، فقاموا بنشره انتشار النار في الهشيم وعرفه الجميع حتى العاملين، أصبحوا يستخدمون «سري» كفزاعه، وكورقة ضغط علي ونشروا عني شائعات ضخمها بعض المنافقين والمنتفعين، ومحبي نشر الإشاعات من العاملين والموظفين بقصر «الشيخ» والمقربين منه، فقد نشروا عددا من الإشاعات منها: أن «الشيخ» سيقوم بتزويجي «ابنته»، وأنه سيكتب لي جزءا من ثروته، بل وصل بهم الحقد علي أن أفشوا إشاعة بأنني «ساحر»، وقمت بسحر «الشيخ» فأصبح ينقاد وراء أفكاري ويستجيب لكل آرائي وطلباتي دون تردد ويثق بي أكثر من «أولاده» ومن أشقائه، وأقاربه.

لا أعلم كيف وصل الأمر بهؤلاء الناس، وأعمى الحقد قلوبهم بافترائهم واختلاق إشاعات، وأمور غير أخلاقية أو إنسانية تصل حد

اتهامي بالسحر الذي يخرج من الملة لم يخافوا هؤلاء الناس من الله وعقابه بإطلاقهم إشاعات لا صحة ولا وجود لها اللهم كانت نابعة من حقد وتصفية حسابات خاصة ضدي.

أصبح أولاد، وأشقاء «الشيخ» وبعض الموظفين في متجره يمارسون ضدي حربا خفية ومؤامرات شتى تحاك ضدي، وأصبحت هذه المؤامرات تأخذ طابع الدناءة والرخص، بل وصل الأمر أن أرسل لي «أبناء الشيخ» تهديدا مباشرا وأنني في حالة عدم ابتعادي عن والدهم بإرادتي فإنهم قادرون على إبعادي بطريقتهم الخاصة، وأنهم سيسلكون جميع الطرق المشروعة، وغير المشروعة في إبعادي عن والدهم، وبدأوا في تنفيذ بعض تهديداتهم.

لم أعر اهتماما لتهديداتهم وضغوطهم، ولم تشكل لي هاجسا، فقد كنت واثقا من نفسي ومن عملي، كذلك كنت أجد دعمًا ومؤازرة لا حدود لها من «الشيخ» ومن «زوجته وابنته»، وهذا الدعم منحني قوة وثباتا على مبادئي وما التزمت به من تعامل جاد في تقنين المصروفات والأمور المالية بالمتجر فلم أتنازل قيد أنمله عمّا بدأت به من وضع ضوابط محاسبية وقانونية وإدارية تجعل العمل بالمتجر يكون تحت المراقبة والمحاسبة.

لكن لم تتوقف محاربتهم لي، فاشتدت الضغوط علي شخصيا، وعلى «الشيخ» بشكل أكثر إلحاحا ووضوحا، بل وصلت الوقاحة «بأبناء الشيخ» أن بعثوا لي وافدا عربيا يعمل «سمسارا» بأحد مكاتب العقار،

يساومني أن أبيعه بعض أسرار «الشيخ» المادية والتجارية وأن أزوده بنسخ من سندات ومناقصات وشيكات مالية ومعلومات عن حساباته البنكية وعن العقود، مقابل أن يمنحني مقابل ذلك مبالغ مادية كبيرة.

قمت مباشرة بإبلاغ «الشيخ» بالموضوع، طلب مني «الشيخ» أن أتصل في ذلك «السمسار» وأوهمه بأني موافق على عرضه، وأن أسجل المقابلة معه بالصوت والصورة، لكي نكاشفه بالتسجيل ويكون التسجيل دليل ضغط لكي يخبرنا من هو الذي أرسله للتجسس علي وعلى أسرار «الشيخ».

قمت بمقابلة «السمسار» وعرفت منه أنه يريد «حسابات الشيخ» الشخصية وتعاقداته، وما يملكه من عقارات وثروات وأملاك وأموال وحسابات جارية ومنقولة.

وبعد أن انتهى من كلامه قلت له: كل كلامك مسجل وموثق «صوت وصورة» وطلبت من «مشرف الأمن» بالمتجر أن يحضر ويغلق الأبواب.

وطلبت من «السمسار» مقابلة «الشيخ» والاعتراف له بمن أرسله، ومن طلب منه هذه المعلومات، أو سوف نبلغ الجهات الرسمية «والمباحث الإدارية» وسوف تأخذ القضية منحنى قانونيا.

لم يكن أمام ذلك «السمسار» من حل سوى أن يذهب برفقتي لمقابلة «الشيخ»، كان وقتها يمر بحالة من الذل والارتباك.

بعد وصولنا لمكتب «الشيخ»، قال له «الشيخ»: أعدك وأعاهدك إن اعترفت لي من طلب منك هذه المعلومات سوف أخلي سبيلك، ولن أبلغ عنك الجهات الرسمية، وإن رفضت فسوف أسلمك وأسلم فيديو التسجيل للجهات الرسمية، وأقاضيك قانونيا، انهار ذلك «السمسار» باكيا، وطلب من «الشيخ» الصفح والعفو عنه، وعدم تبليغ الجهات الرسمية، فهو كما ذكر «في حالة التبليغ عنه سوف يسجن ويتم ترحيله لبلده وسيفقد عمله ومصدر رزقه».

قال له «الشيخ»: اعترف لي من «أرسلك» وأعدك أن أعفو عنك.

رد قائلا «للشيخ»: من أرسلني هم «أبناؤك» وقصدهم من ذلك إيقاع «مستشارك» هذا الشخص وأشار بأصبعه نحوي، وأن يثبتوا عليه أمامك أنه ليس أمينا أو جديرا بثقتك، كما أنهم يريدون أن يعرفوا ما عندك من ممتلكات وأموال.

استشاط «الشيخ» غضبا، وتوعد وهدد أن يكون له.موقف مؤلم في حق «أبنائه»، ثم قال لي متأثرا: «يا ابني» لقد وضعني أبنائي في موقف مخجل ومحرج معك ومع نفسي، لكن ثق أنني سوف ألقنهم درسا موجعا لن ينسوه مدى العمر، ولن تذهب دناءتهم ووقاحتهم هذه دون حساب أو ردة فعل مني، ومحاولتهم إيقاعك أو شراء ذمتك عمل دنيء وخسيس، ولا أتشرف أن يكون هؤلاء الأشرار «أبنائي».

رددت عليه قائلا: ثق تمامًا «طال عمرك» أنني لن أخونك أو أسبب لك الضرر أو الأذى أو أبيح لأحد بشيء مما ائتمنتني عليه من

أسرار يوما من الأيام مهما مورس ضدي من ضغوط ومهما قدم لي من إغراءات حتى لو بلغت ملايين، فالمسألة أمانة ضمير ومبادئ وخوف من الله، ومن ثم حبا فيك، ووفاء لتعاملك الراقي معي، فأنت بمثابة «الأب الروحي» الذي أدخلت السعادة والاستقرار على حياتي، ووثقت في شخصي المتواضع، ولا يمكن أن أخونك يوما من الأيام، بل سأكون أمينا ووفيا لك مدى العمر.

اغرورقت عينا «الشيخ» بالدموع، ورد علي قائلا: «كن واثقا أنني كل يوم يزداد تقديري لك وتزداد ثقتي فيك، وقد أحرجني «أبنائي» معك بأساليبهم الدنيئة والرخيصة.

قلت له: المسامح كريم «طال عمرك» انس الموضوع واعتبره كأنه لم يكن.

كان «الشيخ» وقتها متأثرا، وغاضبا جدا مما فعله «أبناؤه»، تعاطفت معه كثيرا وتألمت من أعماقي لتأثره، وخشيت أن تتأثر صحته، خاصة أنه قبل أشهر قليلة تم إجراء عملية «قسطرة» لشرايين قلبه التاجية.

حاولت أن أجد طريقة أخرج بها «الشيخ» من حالة الغضب والإحباط والتأثر التي يعيشها من جراء ما حدث من «أبنائه»، رجوته طالبا منه أن نذهب لمزرعته الخاصة به في رحلة استجمام، ونمكث هناك عدة أيام، ونبعد عن صخب المدينة، وضغوط العمل، كان يحب مزرعته، ويحب أن نذهب لها دائما.

وافق أن نذهب للمزرعة وحدنا، ولم يذهب معنا للمزرعة سوى «طباخه الخاص وسائقه الخاص» إضافة إلى العمالة الموجودين بالمزرعة، كان الفصل ربيعا والأجواء ربيعية جذابة، كانت مزرعة «الشيخ» رائعة جدا ومنسقة تنسيقا جميلا، وبها عدد من أشجار النخيل، والحمضيات والفواكه، وبعض الخيول، والجمال، وبها سكن عبارة عن فيلا جميلة، وعدد من البيوت المخصصة للضيوف والعاملين وخيمة من الشعر مقامة بطريقة هندسية جميلة وسط المزرعة، وبالمزرعة مسبح، وممشى لرياضة المشي، وكان دائما يحب أن أسرد عليه بعض قصص سيرة العظماء والمبدعين والثوريين، مما اطلعت عليه من سيرتهم عبر قراءاتي المتعددة في هذا الجانب مثل سيرة الملك عبدالعزيز وكيف وحد المملكة، المناضل الأمريكي ومحرر العبيد «الزنوج» الأمريكان الدكتور «مارتن لوثر كنغ»، كذلك المناضل الجنوب أفريقي المحامي والزعيم «نيلسون مانديلا»، وسيرة الثوري والأب الروحي للثورة الهندية ضد الاستعمار البريطاني المناضل الهندي «المهاتما غاندي»، وغيرهم من الثوريين والعظماء والأباطرة. كنا نتجاذب أطراف الحديث ونحن مستمتعان في استراحته بالمزرعة، حاولت أن أبعده تماما عن أجواء العمل، والأسرة، وأجواء الضغوط، وبعد يومين من وجودنا بالمزرعة هدأت نفس «الشيخ» وبدت عليه ملامح الارتياح والهدوء.

في اليوم الثالث كنت و«الشيخ» نمارس رياضة المشي بالمزرعة قلت له: ممكن «طال عمرك» أطلب منك طلبا بعد إذنك؟ قال: تفضل، قلت: أطلب منك أن تعفو وتصفح عن «أبنائك» فمهما حدث منهم

يبقون «أبناءك» وجزءًا لا يتجزأ منك ومن واقعك ومن حياتك، ولا أريدك تخسرهم أو يخسرونك بسببي، فمهما قفزنا على الواقع يبقون «أبناءك» هم الأولى بك مني «ورحم الله من عرف قدر نفسه»، ومهما طال الزمن فليس من حقي أن يكون وجودي سببا في نشوء خلافات بينك وبين «أبنائك» أندم عليها لا حقا.

وقف «الشيخ» فجأة عن المشي ينظر ناحيتي «باستغراب»، ثم رد قائلا: هل أعتبر كلامك تخليًا عني، واستجابة منك لضغوطهم وخوفا من تهديداتهم؟

قلت له: لا «طال عمرك» لا تعتبر كلامي هذا تخليا عنك أو ضعفا مني أو خوفا منهم أو خضوعا لتهديداتهم (حاش لله)، إنما من باب العدل مع النفس، فضميري يؤنبني أن أكون سببا في شقاق وتباعد وخلق فجوة ومشاكل بينك وبين «أبنائك»، ومهما حصل بينك وبينهم يبقون «أبناءك» شئنا أم أبينا، وكما يقال «الظفر لا يخرج من اللحم».

رد قائلا: اسمع مني هذا الحديث «يا ابني» ثم احكم على حديثي، لو كان «أبنائي وأشقائي» حريصين علي وعلى ثروتي حبا في «كأب» وكشخص، لكان الأمر هينا علي، لكن حرصهم ليس حبا أو تقديرا لي، بل لأنني أملك ثروة همهم الحصول عليها ويعتبرونني مجرد حارس عليها أجتهد وأتعب، وأنميها لهم، ومن ثم أقدمها لهم على طبق من ذهب دون جهد منهم، وثق أنني لو كنت فقيرا أو معدما لرموني في دار العجزة أو تركوني أعيش وحدة قاتلة، فعندما ترتبط أحاسيس

ومشاعر «أبنائي وأشقائي» الأبوية والأخوية بالمادة والمنفعة ويتخلون عن العاطفة الأبوية، فمشاعرهم مجرد مشاعر مزيفة تنتهي بانتهاء المنفعة المقصودة منها هذه المشاعر، ومن الأفضل لي أن أضع أملاكي كوقف خيري أو أهبها من يستحقها في حياتي، فربما استفدت منها بعد مماتي، ولن أسمح لهم بـ«لي ذراعي»، ولن أخضع لهم أو أرضخ لضغوطهم، فثروتي جمعتها بتوفيق من الله ثم بعصامية وتعب وسهر أفقدتني حتى صحتي، ولم أرثها عن أحد أو يكون «لأشقائي وأبنائي» أي دور أو فضل في ذلك، والآن يريدون السيطرة على هذه الثروة بضغوط وبطرق وأساليب أقل ما يقال عنها أنها رخيصة ودنيئة، ولو كان ماضي «أبنائي وأشقائي» معي مشرفا أو ناصعا لعفوت عنهم ولمنحتهم من ثروتي ما يرضيهم وما يريدون، لكن ماضيهم وأساليبهم غير مشرفة، وتاريخهم معي معتم السواد فلم يتركوا مجالا لي لأسامحهم أو أعفو أو أصفح عنهم، ولن يروا مني شيئا بعد الآن، فهم لا يستحقون مني سوى التهميش والصد «والجزاء من جنس العمل»، وكما قيل «البادي أظلم وهم من بدأوا بظلمي»، وعدم احترامي أو تقديري، وعندما اخترت شابا توسمت فيه الأمانة والنبوغ والصدق بارا بي مثلك، ثارت ثائرتهم وقاموا بمحاربتي ومحاربتك ليس لأننا «أنا وأنت» سيئان إنما لأنهم خائفون على ثروة ليست لهم من قريب أو بعيد فضلا في وجودها ويريدون الاستئثار بها، وكأنهم ذئاب جائعة، تريد أن تنهش في جسدي وجسدك دون وجه حق أو تأنيب ضمير، فهل تريدني أن أخضع لهم وأتسامح معهم؟!

كان كلام «الشيخ» ممزوجا بنغمة إحباط وألم نابع من أعماقه،

فلم يمنحه «أبناؤه وأشقاؤه» الاحترام أو التقدير الذي يستحقه، رغم أنه رجل فيه كل الصفات النبيلة، كريم نفس، وكريم يد، لكنهم لم يعرفوا أن يتعاملوا معه أو يحتووه، وأصبح بينه وبينهم فجوة كبيرة فهم يريدون أن يفرضوا عليه مع من يتعامل، ويريدون فرض أنفسهم عليه بطريقة فظة فيها نوع من الإجبار والتسلط، وهو كان يرفض أن يتدخل أحد في تعاملاته، أو أن يكون وصيا عليه أو يحدد من يصادق ومع من يتعامل، كان «أشقاء وأبناء» الشيخ فيهم فظاظة وجفاف غريب وعدم احترام، فلم يكونوا متعلمين بل كانوا جهلاء، لا يخجلون مما يقولون ولا يحترمون وجود «الشيخ» ويتدخلون في أمور تخصه هو شخصيا.

وما زلت أتذكر أنه في أحد الأيام زار «الشيخ» في قصره، الأخ الأوسط له، وكنت جالسا من ضمن الحضور بمجلس «الشيخ» وتحدث ذلك «الشقيق» موجها كلامه لي بفظاظة، وصفاقة قائلا: «بأن وجودي في مجلس وفي قصر «الشيخ» لا يشرف العائلة ويلوث شرفهم، ويجب أن لا يراني مرة أخرى في هذا القصر.

هممت بالخروج بعد أن رددت عليه قائلا: لن أرد عليك ليس ضعفا مني، بل احتراما لهذا «الشيخ» الوقور، ولم أجيء لهذا القصر متطفلا أو فارضا نفسي على أحد بل جئت بطلب من «الشيخ» شخصيا.

كان «الشيخ» وقتها موجودا بالمجلس، لكنه كان مشغولا بمكالمة هاتفية، سمع ما دار بيني وبين «شقيقه» فقطع المكالمة مباشرة، وقام بتأنيب «شقيقه» قائلا: له من تكون لكي تتعدى على رجل ضيف في

منزلي وتحت حمايتي، أنا من طلب منه المجيء لمنزلي، وهو عندي أفضل منك، ومن أبنائي، ووجدت منه براً، واحتراما، وتقديرا لم أجده منكم أو من «أبنائي» الذين أنتم سببا في عقوقهم لي، فقد علمتموهم الحقد والعقوق والتمرد علي.

رد «شقيقه» عليه قائلا له: كيف تسمح لرجل غريب بالسكن في بيتك، وعندك «زوجة» وبنت في عمر الزواج، وهذا الشاب سيكون خطرا عليهم وستلوث الألسن سمعتك وسمعتنا من جراء قيامك بإسكان «شاب» ضائع أصل غريب عندك؟

رد عليه «الشيخ» بغضب وعنف قائلا له: أولا: «زوجتي وابنتي» أشرف من الشرف وأثق فيهن ثقة لا حدود لها، وأثق في هذا «الشاب» ثقة أكبر من ثقتي فيك وفي أبنائي.

وثق أنك - باتهامك هذا - إنسان متناقض، تحاسبني على رجل غريب في بيتي كما تدعي، وأنت موجود عندي الآن بالرياض، بينما هناك عدد من العمالة الوافدة من عدة جنسيات في مزرعتك بقرب «زوجتك وبناتك» فهل ترضى أن أتهم «بناتك وزوجتك» في شرفهم بسبب أن عندك رجالا في مزرعتك التي تسكن فيها مع زوجتك وبناتك، أحسن الظن في الناس يحسن الناس الظن فيك.

وأكمل «الشيخ» حديثه «لشقيقه» قائلا له: إن كنت جئت من أجل أن تتدخل في سيادة بيتي وتكون وصيا على تصرفاتي، فلا أريد أن أراك مرة أخرى في بيتي بعد ما حصل منك من تجاوزات تجاه ضيوفي،

وتجاوزك حدودك واتهامك «لزوجتي وابنتي» ولهذا الشاب.

خرج شقيق «الشيخ» من القصر غاضبا، تأثرت أن يكون وجودي قرب «الشيخ» سببا في الشقاق والمشاكل بين «الشيخ وأبنائه وأشقائه»، وبعد أن هدأ «الشيخ» من الغضب، وكنت أتسامر معه قلت له «طال عمرك» إن كان وجودي سوف يسبب لك متاعب أو مشاكل مع «أشقائك وأبنائك» أو مع محيطك الأسري، فلن أرضى أن أكون سببا في فجوة بينك وبين أولادك وأسرتك فمهما كان يبقون «أبناءك وأشقاءك» وأسرتك وهم في حياتك بمثابة الفرض وأنا بمثابة النافلة.

رد علي قائلا: هم لا يعتبروني فرضا في حياتهم، وسأعتبرهم نافلة في حياتي، وما دمت حياً، فلن يمتهنوا سيادة حياتي الخاصة، أو سيادة منزلي أو يفقدوني كرامتي أو سيطرتي على بيتي وعلى تصرفاتي، ويملون علي من أستضيف في منزلي ومن يعمل عندي، ومن أرفض، فهؤلاء أناس ملأ الحقد والغيرة قلوبهم، وتدخلاتهم ليس حبا في شخصي أو حرصا علي، بل حبا في ثروتي، ولن ينالوا منها شيئا، نجوم السماء أقرب لهم من أن ينالوا من كرامتي أو يمتهنوا سيادة بيتي، أو يحصلوا على شيء من ثروتي، فليس لهم فضل من قريب أو بعيد في وجود هذه الثروة، فقد جمعتها بعد توفيق الله ومن ثم بعد تعب ومثابرة مني ومن عمل معي ممن كان لهم الفضل بالمساهمة في تنمية هذه الثروة، أما «أبنائي وأشقائي» فلم يكن لهم دور في ثروتي، بل عندما ألحقت «أبنائي» بالعمل في متجري كاد المتجر أن ينهار بسبب تهورهم وغطرستهم وحبهم لإثارة المشاكل في المتجر، وقد منحت كل

منهم مبالغ مالية طائلة لكي يعتمدوا على أنفسهم ويشقون حياتهم لكنهم فشلوا والآن بعد كل ذلك يريدون أن يحصلوا على ثروتي دون جهد أو تقدير منهم، ومن الغد بإذن الله سأفعل ما يجب أن يكون، وسأقوم بتوزيع هذه الثروة حسب ما أراه مناسبا لمن يستحقها، فأنا كما تعلم مريض قلب، ولا أعلم متى يأتي الأجل، ولا بد أن أتخذ إجراءات رسمية عاجلة.

في صباح اليوم التالي طلب «الشيخ» من المحامي، صاحب «المكتب القانوني والاستشاري» الذي يشرف على المعاملات القانونية التي تخص الشركة، أن يزوره بمكتبه، وفعلا حضر المحامي وقام «الشيخ» بتوجيه المحامي أن يتخذ الإجراءات القانونية والرسمية والشرعية بتوزيع ثروته، وتخصيص جزء من عقاراته للوقف الخيري، وأن يتم صرف راتب «ثلاثة» أشهر لجميع الموظفين بالشركة «كمكافأة» مقابل جهودهم في تنمية وزيادة دخل الشركة، وهم في نظر «الشيخ» من يساهمون في استمرار العمل وزيادة الأرباح، ويستحقون المكافأة والتحفيز والوفاء والتقدير مقابل جهودهم.

كما قام «الشيخ» بتوزيع بقية ثروته، بطريقته الخاصة التي يراها مناسبة وعادلة حسب وجهة نظره، كذلك قام بتفويض المحامي في عمل الإجراءات الرسمية والشرعية والقانونية اللازمة التي تضمن قانونية الإجراءات التي تم اتخاذها وتوثيقها من الجهات الرسمية ذات الاختصاص.

عندما علم «أبناء وأشقاء» الشيخ عن طريق بعض المنافقين الذين ينقلون لهم الأخبار التي تحدث في الشركة أن «الشيخ» قام بتوكيل المحامي بتوزيع ثروته، وخصص منها جزءا للوقف الخيري، ووزع على الموظفين «ثلاثة» رواتب مكافأة، ثارت ثائرتهم، وأصابهم الجنون وأقاموا ضد «الشيخ» قضية في المحكمة لطلب الحجر عليه وعلى تصرفاته، لأنهم كما يدعون يرون أنه غير مؤهل صحيا لإدارة الثروة، وقاموا بتقديم عريضة شكوى على القاضي لكي تقوم المحكمة بمخاطبة المستشفى الذي تم فيه عمل عملية في الشرايين التاجية لقلب «الشيخ» وأن صحته لا تؤهله بأن يدير الثروة والشركة والأملاك، وأنه بدأ يبدد الثروة ويقوم بتوزيعها دون الرجوع لهم أو حفظ نصيبهم من «الإرث».

تم استدعاء «الشيخ» للحضور إلى القاضي، حضر هو والمحامي، ورفض القاضي الدعوة المقامة ضد «الشيخ» من «أبنائه وأشقائه» قائلا القاضي لهم أن «والدكم» رجل رشيد، ومرض قلبه مرض عضوي وليس مرضا عقليا أو نفسيا لكي يؤثر على تصرفاته العقلية أو النفسية أو تصرفاته الاقتصادية، فهو رجل عاقل ومتزن ورشيد، وهو صاحب الثروة ومن حقه التصرف التام في ثروته الخاصة ما دام حيا فهو المتصرف فيها، وبعد مماته ستطبق وصيته وسيقسم الميراث حسب الوصية وحسب التقسيم الشرعي للثروة.

أسقطت من أيديهم دعوى حقيرة تجنوا بها على «والدهم» وعلى أنفسهم، ولم يستفيدوا من هذه الدعوى شيئا سوى غضب

«والدهم» الذي غضب منهم غضبا شديدا، وكانت ردة فعله أن أقام ضدهم دعوى عقوق وقطع علاقتهم معهم تماما، ومن جراء تصرفهم الأهوج الذي كان الدافع وراءه طمعهم المادي البشع، كانت حماقة حقا ساقتهم إلى غضب «والدهم» عليهم، كذلك احتقار الناس لهم، الذين يرون أنهم قاموا بفعل لا يرضاه الله ولا يتقبله المجتمع، وتصرفهم هذا ذكرني بالبيت القائل «لكل داء دواء يستطب به... إلا الحماقة أعيت من يداويها» فليس هناك عقوق أكثر بشاعة وإثما من أن تقيم ضد «والدك» حجرا وقضية في المحاكم، وأن تكون المادة والثروة أهم من روابط الأبوة، وأن تسمو المادة عندك على البر بوالديك مهما كانت تلك المادة، فلتذهب المادة والثروة للجحيم إن كان حب المادة والثروة ستكون سببا في الحجر على «والدك». كان هذا التصرف المشين بكل معاني الكلمة تصرفًا مستهجنًا حتى عند عمال المتجر الوافدين، وقامت الألسن تلوك سمعتهم وتلعنهم بسبب دناءتهم وما قاموا به تجاه «والدهم».

ويعلم الله أن»الشيخ «لم يكن سيئا أو ظالما لهم، فكل من تعامل معه يعلم جيدا مدى طيبته وإنسانيته، وشهامته، ولو أنهم كانوا طيبين وبارين «بوالدهم» لوجدوا منه كل التقدير والاحترام والتضامن ولمنحهم كل ما يريدونه من مال، واحتواء، وحب، لكنهم انساقوا خلف تحريض أمهم طليقة «الشيخ» السابقة التي بدلا من أن تقرب بين «أبنائها» وطليقها «والدهم» وتسعى بالخير وتقوم بلم الشمل بين «الأب» وبين «أبنائه» كان الحقد يملأ قلبها، والشيطان يسوقها لتحريض «الأبناء» على «والدهم» والتمرد عليه وعقوقه، وعدم سماع كلامه أو

احترامه، كذلك كان «أبناؤه» ضحية سلبية وتحريض «أشقائه» الذي يسمعون كلام محيطهم القبلي، والاجتماعي الذي يكرس فيهم المجتمع حب السيطرة والتحكم، وبينهم وبين شقيقهم خلاف منذ «زواجه» من زوجته الثانية، والتي يدّعي أشقاؤه، وقبيلته، أنها «امرأة» لا ترتقي هي وأسرتها إلى مكانة عائلته، وقبيلته، فهم يعتبرون «زوجته» الثانية «حضرية» كما يدعون. ففي عرف القبائل أن «الحضر» ينتمون لعوائل أقل مكانة وقدرا من القبائل، رغم أن «الشيخ» وجد مع هذه «الزوجة» كل سمات السعادة، والاستقرار، والتقدير، فقد كانت زوجته الثانية «امرأة» مثالية جميلة شكلا ومضمونا، وكانت حريصة على رضا «الشيخ» «ومطيعة، وحنونة، ولم تكن تحب المشاكل بل تحاول أن تبعد عن الخلافات، ومن المفارقات التي تدل على طيبتها أنها هي من تطلب من «الشيخ» عدم قطع علاقته مع «أبنائه» بل كانت تحثه وتطلب منه الصفح والعفو عنهم، عكس «طليقته» التي كانت تحرض أبناءها على عقوق أبيهم والتمرد عليه.

كان «الشيخ» يصارحني قائلا: لم أجد السعادة الزوجية والاستقرار النفسي، والحب الصادق إلا مع «زوجتي الثانية» فهي إنسانة، وامرأة استثنائية، تزوجتها عن قناعة تامة بعيدا عن حسبها ونسبها، ولم أرَ منها يوما ما يكدر خاطري، ولم ألحظ عليها يوما ما أن هدفها مادي أو تفكر في المادة، فعندما تزوجتها كنت في بداية حياتي التجارية، ولم أكن أملك من المال إلا القليل، وأذكر لها موقفا نبيلا لن أنساه بتاتا، وأضاف قائلا: في بداية زواجي منها قبل «خمس وعشرين سنة» تقريبا، اشتريت الأرض المقام عليها القصر حاليا،

وقد كان المخطط في ذلك الوقت جديدا، وأسعار الأراضي في ذلك المخطط مقدورًا عليها في ذلك الحين، فقد اشتريت الأرض المقامة عليها القصر الآن، وكان بجانبها أرض أخرى معروضة للبيع، وقتها لم تكن لدي سيولة كافية، والأرض ستباع لا محالة فهي أرض استثمارية تقع على الشارع العام ومساحتها كبيرة، كنت راغبا في شرائها بأية طريقة، لكن لا يوجد عندي ثمنها في ذلك الوقت.

وأضاف قائلا: فما كان من «زوجتي الثانية» إلا أن بادرت ببيع ذهب مهرها، دون أن أعلم وزادت عليه ما تملك من نقود، ومن ثم أعطتني قيمته لشراء تلك الأرض التي كنت راغبا في شرائها، حاولت أن أرفض قيمة ذهبها نقودها، لكنها أصرت وألحت علي، اشتريت تلك الأرض، وبعد خمسة أشهر أعدت لها قيمة ذهبها ونقودها، وبقيت الأرض لم أبِعها، بعد عشر سنوات من شرائي لتلك الأرض قمت ببيعها بقيمة وبمبلغ خيالي كبير، ومن قيمة تلك الأرض قمت ببناء هذا القصر الذي أسكنه، واشتريت المزرعة، واشتريت عدة قطع من الأراضي، والسبب يعود لمبادرة هذه «الزوجة» الوفية الرائعة التي قامت ببيع ذهبها في مبادرة جميلة منها عندما أحست بحاجتي.

وأكمل قائلا: لم تبنِ علاقتها معي يوما ما على المادة، بل إنها لم تناقشني يوما ما في تجارتي ولا تسأل ماذا أملك من ثروة وعقارات، كان اهتمامها منصبا على تربية «ابنتها وابنها» تزرع في نفسيهما الحب والتسامح، وتربيهم على الأحاسيس الصادقة والطيبة، وتنمي فيهما حبهما لي، وحبهما لفعل الخير، والبعد عن الطمع والأحقاد،

وعن الانتقام، كانت امرأة نادرة الوجود تملك نهرا من الحنان، ونبعا من العطاء، وكتلة من المشاعر الإنسانية النبيلة، كانت عكس زوجتي الأولى تماما مع أن زوجتي الأولى كانت «ابنة خالي» ومن نفس قبيلتي إلا أنني لم أرَ منها إلا إثارة المشاكل، والتمرد، والتحريض، فقد عشت معها خمس سنوات كانت مزيجا من التعاسة، وعدم الاستقرار، وحب السيطرة، والتسلط، وعندما طلقتها، وارتبطت بهذه «المرأة» الطيبة، شنّ «أشقائي وطليقتي» وقبيلتي حملة شعواء ضدي وضغوطا لا تنتهي لكي «أطلقها» فهي في نظرهم هي وأسرتها لا يرتقون إلى مستوى عائلتي وقبيلتي، ومارس «أشقائي وجماعتي» ضدي ضغوطا لا تحصى، بل إنهم استعانوا بشيخ قبيلتي الذي جاء إلى منزلي بالرياض مهددا ومتوعدا إن لم أطلق «زوجتي» الثانية التي لا يتناسب حسبها ونسبها مع عائلتي، ومع قبيلتي وفي حالة عدم طلاقها سوف تتبرأ مني القبيلة.

وأكمل قائلا: رددت على شيخ القبيلة بكل حزم قائلا له: هذه حياتي الخاصة، وزوجتي خط أحمر لن أسمح لأي كائن من كان بمساومتي عليه، ولن أطلقها تحت أي سبب من الأسباب، واعملوا ما بدا لكم، فلن أطلق زوجتي، وإن كان مجيئك كشيخ للقبيلة لكي تساوموني بين زوجتي وبين الانتماء والولاء للقبيلة، فسأختار زوجتي دون تردد، فقد تزوجت «بنت خالي» وبنت قبيلتي «زوجتي الأولى» ولم أعِش معها في سعادة، فهل تدخلت القبيلة في زرع السعادة بيني وبينها لإصلاحها وتغيير قناعاتها أم أن أكثر الناس بالقبيلة يجاملونها ولا يريدون نصحها؟!

والآن بعد أن بحثت عن زوجة مثالية تحترمني وتقدرني، وأعيش معها بسعادة، لم تتركوني وشأني، فأتيتم إلي تطرحون علي المقايضة بين الانتماء للقبيلة أو طلاق زوجتي، دون خوف من الله فليذهب الانتماء للقبيلة للجحيم، وزوجتي وبيتي سيادة خاصة لي وخط أحمر، وحمايتهم واجب علي، ولن أسمح لأحد بالتدخل في هذه السيادة. بعد هذا الكلام مني خرج من عندي «شيخ القبيلة، وأشقائي غاضبين، ومهددين أنهم سيقطعون علاقتهم معي، وعلي أن أختار بينهم وبين زوجتي التي كما يدعون «ليست من ثوبهم» أو «لا ترتقي لمستوى طموحهم الاجتماعي».

ويضيف قائلا: اخترت زوجتي دون تردد، وبقيت العلاقة مقطوعة بيني وبين أشقائي، وقبيلتي، وانتشر في أوساط القبيلة عقوقي للقبيلة وأنني اخترت «امرأة حضرية» وتمردت على القبيلة، وقام بعض مطبلي وشعراء القبيلة بنظم قصائد هجاءٍ تستهجن جرأتي على نسب العائلة وخروجي عن جلباب القبيلة. لم أُعِر تلك القصائد بالا أو اهتماما أو يرف لها رمش من رموش عيوني.

بقيت «اثنتي عشرة سنة» مبتعدا عن القبيلة منشغلا بتنمية تجارتي والاهتمام بزوجتي أعيش حياة هانئة وسعيدة بعيدا عن منغصات القبيلة وتسلطها وسطوتها وجبروتها، ويكمل حديثه قائلا: من المفارقات الطريفة التي تدل على النفاق الاجتماعي وتدل على ازدواجية المعايير، أنه حينما تزوجت «زوجتي الثانية» مورست ضغوط ضدي من أشقائي وقبيلتي، بسبب أنني تزوجت امرأة تنتمي إلى عائلة

«حضرية» وكنت وقتها في بداية حياتي وحالتي المادية عادية جدا، ولم أكن أملك وقتها إلا متجرا بسيطا بالكاد يكفي لمصروف أسرتي الشهري وإيجار المنزل الذي أسكنه بالعاصمة، وبعد رفضي ضغوطهم وقطع علاقتي معهم، بقيت بالعاصمة الرياض، وكان لبعدي وانقطاعي عن «أشقائي وقبليتي» وجه إيجابي، فقد تفرغت تماما لتنمية تجارتي والتفرغ لها بعيدا عن إضاعة وقتي في نفاق اجتماعي وممارسة طقوس قبلية غابرة، وبعد انقطاع دام «اثني عشر عاما» عن أشقائي وقبيلتي، نمت ثروتي وارتفعت أسعارعقاراتي فأصبحت من أصحاب الملايين، وأصبح يطلق علي حسب العرف الاجتماعي «شيخ» من شيوخ المال، وعندما علم «أشقائي» ورجال قبيلتي أنني أصبحت ثريا، عندها قدم «أشقائي وبعض رجال قبيلتي» إلى العاصمة في موكب كبير وحضروا لمنزلي، يطلبون مني السماح وأن نلم الشمل، وأعود لجلباب القبيلة، والغريب أنه كان برفقتهم شعراء من القبيلة ينظمون في شخصي قصائد مديح تصفني بالشهم الكريم عندها تذكرت مباشرة، أنه عندما رفضت ضغوط «أشقائي وشيخ قبيلتي» بعدم طلاق زوجتي، وكنت وقتها إنسانا عاديا شبه معدم لا يوجد لدي ثروة، قاموا بقطع علاقتهم مباشرة معي ونظموا ضدي قصائد هجاء تحتقرني بسبب عدم قبولي ضغوطهم بطلاق زوجتي، والآن سبحان مغير الأحوال عندما أصبحت ثرياً وصاحب ملايين، جاءوا من أجل طلب رضاي وطلب العفو والصفح عنهم وطلب عودتي، ونظموا في شخصي قصائد المديح والإطراء. إنها ازدواجية المعايير والنفاق الاجتماعي والمصالح التي يتم فيها تغيير المواقف والمبادئ، وممارسة «النفعية» بأبشع

صورها.

ويكمل قائلا: ورغم أنني – مباشرة - عرفت أنه لو بقيت معدما وفقيرا لبقيت منبوذا منهم، لكن سطوة المال تغير النفوس وتغير المبادئ. لم يكن أمامي إلا أن استقبلتهم فرحبت بهم، وقبلت العودة للقبيلة، ودعمت «أشقائي» ماديا وحققت لهم مطالبهم، لكن ما يحزنني أنهم أعادوا الكرة، ومارسوا ضدي ضغوطا أخرى بين كل فترة وأخرى، وبدأوا في ابتزازي إما بطلب مال منّي، أو توظيف أبنائهم وأقاربهم عندي بالمتجر، وكأنني فاتح هذا المتجر ليكون جمعية خيرية لكل عاطل من القبيلة أو من أبناء أشقائي، وعندما صارحتهم أن التجارة لا تبنى على العواطف أو المجاملات ولو رضخت لكل طلباتكم لجلست على بساط الفقر والإفلاس، عندها غضبوا مني واستخدموا «أولادي» ضدي فحرضوهم على التمرد علي، ولم يكن طلبهم مني العودة لهم وللقبيلة الهدف منه حبا في شخصي أو حرصا علي، إنما حبا في ثروتي، ومن أجل توظيف كل سلبي وعاطل منهم، رغم أنهم كانوا سابقا عندما كنت معدما يمارسون ضدي ضغوطا من أجل طلاق زوجتي، وظلمها من أجل انتمائي للحسب والنسب، ومن أجل الانتماء لقبيلة ضرر الانتماء لها في نظري أكثر من فائدتها، قبيلة تريد أن تسيطر حتى على مشاعري وأحاسيسي، وتتدخل في حياتي الخاصة وفي تجارتي التي بنيتها بعصامية مني، وأخذت من وقتي وصحتي عشرات السنين، ويريدونني أن أحولها جمعية أو شئون اجتماعية لهم ولأبنائهم وقرابتهم، وأن أسلم لهم سيادة وقيادة نفسي، يريدونني أن أتزوج ما يروق لهم، وما يناسبهم هم، لا ما يروق لي وما يناسبني.

وبعد أن أصبحت ثريا، عادوا لمصالحتي والتقرب مني ليس قصدهم حبا وتقديرا لشخصي بل حبا وقربا من أجل المال ليس أكثر من ذلك، وللأسف أصبحوا يمارسون نفس دورهم السابق في التسلط والتدخل بحياتي وتصرفاتي، وكيف أدير تجارتي، يريدون تصدير سيادتي، وأن أكون «إمعة» أنقاد خلفهم، وأنفذ رغباتهم، وأخضع لضغوطهم، وأن أظلم من أكون مسئولا عنهم من أجل إرضائهم، إنها سطوة وجبروت القبيلة والمجتمع.

وأكمل قائلا لي: احمد ربك «يا ابني» أنك تعيش مستقلا بذاتك، على الأقل لا أحد ينكد عليك حياتك بضغوط وتدخلات يريدون منها أن يفقدوك كرامتك وسيادتك حتى على نفسك، وعلى أسرتك، والحمد لله أنني لم أخضع لهم أو أستسلم لجبروتهم، فسيادة الإنسان الشخصية لحياته الخاصة، وزوجته، وأبنائه، ومن يعمل عنده بمثابة الخط الأحمر الذي لا يفاصل أو يفاوض عليه ومن تنازل عن سيادة تنازل عن كرامته وعن رجولته.

يوم التخرج

بعد أربع سنوات من الدراسة الجامعية المضنية، المليئة بالجهد والمثابرة والسهر وبإرهاصات المذاكرة والدراسة والبحوث والامتحانات، وبالتعامل مع عدد كبير من العقليات، والفروق الفردية المتنوعة من أعضاء التدريس ومن الطلبة.

وبعد مرور «ألف وأربعمئة وستين يوما» تتمثل في أربعة أعوام عشت فيها مزيجا بين الفرح والحزن، وبين المثابرة، والطموح، والاجتهاد، بعد كل تلك الأيام الجامعية الصاخبة حان وقت التخرج وحل موعد الفرح، وتتويج كل تلك الجهود بالحصول على الشهادة الجامعية التي هي حلم وطموح كل «شاب وشابة» وتمثل لهم جواز عبور لصنع مستقبل وظيفي، ومستقبل حياة عملية، واجتماعية جديدة.

كان يوم التخرج يمثل يوما مشهودا في حياة كل «طالب وطالبة» ويومًا لا ينسى، ففي ذلك اليوم يتحرر «الطلاب والطالبات» من هموم وشجون الدراسة الجامعية، وتتم قطف ثمار الجهد والبذل والاهتمام، ونسيان أيام التعب وليالي السهر. فالطلاب أثناء الدراسة الجامعية الطويلة يمرون بعدة مراحل من الإرهاق الجسدي، والتعب الذهني، والشتات الفكري ويصابون بشيء من الملل من جراء الدراسة والمذاكرة والامتحانات، ومن ثم يأتي يوم التخرج والحصاد، وكل يحصد مقابل ما قدم من جهود، فمنهم من يكون كاسبا جراء اجتهاده واهتمامه

ومثابرته، ومنهم من يكون خاسرا جراء إهماله واستكانته للخمول والكسل وعدم الاهتمام. فمن كان كاسبا فسيحصد ما زرع من جهد ومثابرة، وسيتذوق طعم ولذة النجاح، ومن كان خاسرا سيحصد نتيجة إهماله وتكاسله، وسيتجرع مرارة وعلقم الفشل.

وبما أن الشيء بالشيء يذكر فإن هناك طقوسا وإجراءات تسبق يوم التخرج يجب أن يقوم بها الطالب المتخرج فيجب عليه أن يسلم غرفته إن كان يسكن بالسكن الجامعي، ويعيد جميع الكتب التي قام باستعارتها من مكتبة الجامعة، والحصول على إخلاء طرف من مكتبة الجامعة، كذلك الحصول على إخلاء طرف من صندوق دعم الطلاب بالجامعة، ومن ثم استلام بطاقات دعوة حضور الحفل من قسم «شئون الطلبة» أو العلاقات العامة وهذه البطاقات موجهة لأولياء أمور وأقارب الطلبة المتخرجين لحضور حفل التخرج، كذلك يتسلم الطلاب «مشلح» التخرج الذي يوجد عليه شعار الجامعة، وعمل بروفات لحفل التخرج وكيفية دخول طلاب الأقسام من المتخرجين لقاعة التخرج الذي يوجد بها ضيوف الحفل والتي يرعاها عادة أمير المنطقة، وبروفات خاصة للطلاب المتفوقين وكيف يتم وصولهم لراعي الحفل واستلام شهاداتهم وجوائز التفوق.

وقبل تخرجي تم تسليمي «ثلاث» بطاقات دعوة لحضور أقاربي لحفل التخرج، ورغم أن العلاقات العامة بشئون الطلاب بالجامعة لا يعلمون أنني «لقيط» ولا يوجد لدي أسرة أو أقارب، لكني استلمت البطاقات الثلاث، وأعطيت أحد زملائي بطاقة واحدة كان في حاجتها

حيث أن والده وإخوانه الثلاثة سيحضرون حفل تخرجه ولا يوجد لديه عدد كافٍ من بطاقات الدعوة، لهذا منحته بطاقة زائدة عن حاجتي، وسلمت بطاقتي دعوة «للشيخ» الوقور الذي أعمل في شركته في الفترة المسائية، رغم علمي بتعدد التزاماته ومشاغله فجدوله اليومي دائما مزدحم بالمواعيد والارتباطات بشكل مكثف، لم أصر عليه بالحضور تقديرا لظروفه، إنما أعطيته «بطاقات الدعوة» من باب الاحترام، ومن باب العلم حتى لا يعاتبني بأنني لم أخبره بموعد تخرجي.

أخذ ذلك «الشيخ» بطاقات الدعوة، وبارك لي مقدما، لم يذكر لي أنه سيحضر الحفل بل ترك الأمر عائما.

كان موعد حفل التخرج مساء يوم «الاثنين»، ما زلت أتذكر ذلك اليوم جيدا وما زال خالدا في ذاكرتي فهو تاريخ مفصلي في حياتي.

توجهت للجامعة بعد صلاة العصر مباشرة حيث كنت سعيدا جدا، وفرِحا فَرَحا عارما خاصة أنه تم اختياري أن أقوم بإلقاء «كلمة الخريجين» ومما زاد سروري أن أحد الأساتذة بشئون الطلاب أسرّ لي بأنني الأول على دفعة كلية «العلوم الإدارية»، وقد استشففت ذلك أثناء عمل بروفات حفل التخرج، فقد تم التركيز علي وعلى مجموعة قليلة من الطلاب وتم تدريبنا على كيفية الوصول لراعي الحفل، وكيفية السلام عليه، وكيفية استلامنا الشهادة وجائزة التكريم منه.

ذهبت للجامعة يوم التخرج مبكرا بعد صلاة العصر مباشرة رغم أن الحفل سيقام بعد صلاة العشاء، لكني كنت على موعد مع

«أربعة» من زملائي الطلاب المغتربين الساكنين بالسكن الجامعي، كنت أكن لهؤلاء الزملاء تقديرا واحتراما وأعتبرهم من صفوة الطلاب علما، وأدبا، وسلوكا، وفكرا. عند دخولي الجامعة وجدتهم في البهو الجامعي ينتظرونني، ذهبنا لمطعم الجامعة في تمام الساعة «الخامسة عصرا» جلسنا على طاولة كانت بيننا وبينها «كيمياء خاصة» ورابط وجداني منذ السنة الأولى في الجامعة، كانت تلك الطاولة «المكان» الذي نجتمع ونلتقي فيه بشكل مستمر أيام الدراسة، ومن كان يبحث عنا يذهب مباشرة لتلك الطاولة بالمطعم وسيجدنا لا محالة هناك، فهو مكان شبه ثابت لنا.

جلسنا على تلك الطاولة عصر يوم التخرج نتذكر أيام الدراسة والأيام الجميلة الماضية التي عشناها برفقة بعض، وأخذ كل منا يوصي الآخر بعدم نسيان الآخر، ونتذكر بعض المواقف السعيدة والمحزنة والطريفة التي مررنا بها أثناء أيام الدراسة، وقد حانت لحظات الفراق والوداع بعد أيام جميلة عشناها كأخوة وكأصدقاء وكزملاء، جاء الوقت الذي سيشق كل منا طريقه في الحياة بعد التخرج وستتفرق بنا الطرق. «فثلاثة» من أصدقائي كانوا من مناطق خارج العاصمة الرياض، ووجودهم في العاصمة كان بسبب الدراسة الجامعية فقط، والصديق الرابع لم يكن مواطنا بل كان موفدا للدراسة من بلد خليجي مجاور، ودّعنا بعضنا بآهات من الحزن وبغصة من ألم الفراق، لكن هذه سُنّة الحياة تفرق بين الأحبة مهما كانوا متعلقين ببعضهم.

كان حفل التخرج مقررا أن يبدأ بعد صلاة العشاء مباشرة

تحت رعاية نائب أمير منطقة الرياض، ووزير التعليم العالي ومدير الجامعة، وعدد كبير من الأساتذة، ومن رجال التعليم العالي، ومن الضيوف الرسمين وغير الرسميين من أولياء الأمور ومن رجال الصحافة والإعلام وأعيان المجتمع. كان الطلاب المتخرجين يمثلون عموم أقسام وكليات الجامعة المتعددة، كان عدد الطلاب كبيرا، يتجاوز «سبعمئة طالب»، كان الحفل مقاما في مسرح وقاعة المؤتمرات بالجامعة والذي يوجد فيه ما يفوق «ألف وخمسمئة» مقعد، امتلأت عن بكرة أبيها بالضيوف وأولياء أمور الطلبة والضيوف.

بدأ الحفل بصورة نمطية تقليدية، فبدأ المذيع الذي يقدم الحفل باعتلاء منصة التقديم، مقدما الحفل، ومرحبا براعي الحفل والضيوف، ثم تمت تلاوة آيات من القرآن الكريم، قام بتلاوتها أحد الطلاب المتخرجين، ثم كلمة مدير الجامعة، ثم كلمة عميد شئون الطلاب، ثم جاء دوري لإلقاء «كلمة الخريجين»، لم أكن أريد أن تكون كلمتي نمطية تقليدية، بل أردتها أن تكون مختصرة بعيدة عن الإطالة المملة، وعن المديح والتسطيح المبتذل المبالغ فيه، فالكلمة تقاس بعمق معانيها ولا تقاس بكثرة عدد كلماتها أو صفحاتها، فإذا طالت «الكلمة» أصبحت مملة للسامع وينعدم الإصغاء لها. من هذا المنطلق حاولت أن تكون كلماتي مقتضبة لا تتجاوز نصف صفحة، ركزت فيها على حث زملائي الخريجين على أن لا يكون طموحهم الحصول على الشهادة ومن ثم التوقف، بل يجب عليهم تطبيق ما تعلموه وأن يعملوا به، وأن لا يكون طموحهم الوظيفة فقط، بل يجب أن يكون طموحهم نماذج مضيئة في سماء الوطن، وأن يكونوا حريصين كل الحرص على

الإخلاص والأمانة في العمل، وأن لا يكون هدفهم الأسمى بعد التخرج الحصول على الشهادة من أجل الوظيفة، بل يجب أن تطغى صفات «الإيثار» للوطن والمجتمع على «ذاتية الأنا»، وأن يكون علمهم الذي تعلموه حقا مشاعا لإفادة المجتمع والوطن، ولا يتوقف طموحهم عند حد معين من التعلم بل الاستمرار في تطوير أنفسهم والرفع من قدراتهم بصقل مداركهم في جميع المجالات العلمية، والعملية والاجتماعية.

بعد انتهائي من كلمة الخريجين، ألقى راعي الحفل كلمة هنأ فيها الخريجين، بعد ذلك قام عميد شئون الطلبة بإعلان النتيجة النهائية، وأسماء المتفوقين، كنت الأول على دفعة كلية «العلوم الإدارية»، وأثناء توجهي لاستلام جائزة التفوق من راعي الحفل، لمحت بطرف عيني وسط الزحام و«أنا» قادم لمنصة تسليم الجوائز أن هناك «شيخا» كبيرا يرتدي مشلحا لونه سكري نهض واقفا، وأخذ يصفق بحرارة وسط الضيوف، كان يجلس في الصف الثالث من مقاعد المدرج خلف راعي الحفل مباشرة، كانت الإنارة في مدرج الحضور خافتة بعض الشيء، أمعنت النظر من يكون ذلك «الشيخ» الذي يصفق لي بحرارة، فوجدته «الشيخ» الجليل الذي أعمل في شركته في الفترة المسائية، وأسكن عنده في قصره والذي «تبناني» بطلب منه، لمحت وجهه المضيء المألوف الذي يتخلله شعرا أبيضَ بذقنه يزيده هيبة ووقارا، كان يصفق بفرح نابع من أعماقه بحصولي على المركز الأول على دفعتي.

استلمت جائزتي وشهادتي من راعي الحفل، ومن ثم توجهت مباشرة لذلك «الشيخ» الذي كان فَرحي بحضوره حفل تخرجي

وتصفيقه لي بحرارة أكبر من فَرحي بالشهادة. ضمني كما يضم الأب ابنه، قائلا لي بلهجته العامية «بعدي يا ابني على هذا التفوق يا بطل»، نزلت دموعي بطريقة عفوية فقد كنت عطشًا للعاطفة، أحتاج تلك الأحاسيس الأبوية الحنونة وذلك التشجيع العفوي الصادق.

لقد غمرني ذلك «الشيخ» الجليل بحضوره الذي شكل لي مفاجأة سارة، ولن أكون مبالغا لو قلت أن حضوره لتخرجي أسعدني جدا، وكان يفوق عندي حصولي على المركز الأول على دفعتي بالجامعة. فمنذ دخلت الدراسة ومنذ الصف الأول لم يحضر أحد تفوقي أو تخرجي في أي مرحلة دراسية، اللهم إلا إذا كان الحضور عن طريق موظف من الدار مكلفا بالحضور كموظف يؤدي عمله، وليس حبا أو تقديرا لي.

كان حضور الشيخ» له وقع خاص على نفسي، خرجت معه من الجامعة وكأنني حزت ليلتها على الكون كله مفتخرا بحضور ذلك «الشيخ» الذي لا أستطيع وصف مشاعري تجاهه وقتها، أخذني في سيارته الخاصة، وأمر سائقه الخاص أن يقود سيارتي والعودة لقصره.

كانت تلك الليلة ليلة لا تنسى، فقد غمرني ذلك «الشيخ» الشهم بلطفه وإنسانيته، وبمشاعره الحنونة، فقد كنت أفتقد لتلك المشاعر والأحاسيس الأبوية، وقد حقق لي ذلك «الشيخ» أحاسيسَ كنت أفتقدها، انسابت تلك الأحاسيس والمشاعر إلى روحي العطشى بشكل جميل لا أستطيع وصفه مهما أتيت من بلاغه، كنت وقتها أحس بشعور جميل لم أعتد عليه، فليس هناك أجمل من أن يحس الإنسان بمشاعر

إنسانية صادقة نابعة من القلب ليس فيها تزلف أو مجاملة، بل مشاعر صافية نقية، إنها منتهى الإنسانية أن يشاركك غيرك لحظات فرحك ولحظات حزنك، كم كنت سعيدا ولأول مرة أحس بطعم التفوق والنجاح عندما وجدت أن ذلك «الشيخ» الجليل فرح من قلبه وضحى بمشاغله والتزاماته الكثيرة من أجل حضور تخرجي، والتصفيق لي بحرارة وتفاعله معي وتشجيعه لي، والسعادة بادية على وجهه البشوش من تفوقي.

في اليوم التالي أقام «الشيخ» بخيمته الخاصة المنصوبة بحديقة قصره وليمة عشاء بمناسبة تخرجي، وقام بتقديم هدية قيمة جدا لي، وطلب مني البقاء كموظف في شركته بعد تخرجي فهو في حاجتي، قائلا لي: أنه سيقوم بزيادة راتبي، قلت له: يكفيني منك إحساسك وما غمرتني به من لطف وتعامل أبوي حنون يوازي عندي كل أموال الكون، لكنه أصر على زيادة راتبي، وطلب مني أن أنتسب إليه «اسما»، فقد كان المسمى الذي سميت به في الدار لا يروق لي ولا يروق له، فقد كان في «الاسم» شيء من الغرابة، فطلب ذلك «الشيخ» مني، إذا لم يكن عندي اعتراض أو تحفظ فسأطلب من الجهات المختصة تغيير «اسمك» لتنتسب إلي ويتوافق اسمك مع اسمي، حتى لو احتج «فراعنة» القبيلة قالها ضاحكا، يقصد «شيوخ القبيلة».

قلت له افعل ما تراه «طال عمرك» فأنت بمثابة أبي، وما تراه مناسبا افعله، بدأ في إجراءات تغيير اسمي، كانت له علاقات اجتماعية واقتصادية مميزة وواسعة، واستثمر علاقاته في تسهيل

إجراءات تغيير «اسمي».

تم تغيير «اسمي» بسرعة وبصورة نظامية، فالشئون الاجتماعية تعطي الحق للشخص البالغ من «أيتام الرعاية» أن يغير اسمه إن كان منزعجا من الاسم أو تبناه أحد من الأخيار ويريد تغيير اسمه فله الحق في ذلك، تم منحي خطابا من الجهات المختصة لتعديل «اسمي» في جميع وثائقي وشهاداتي لكي تحمل «اسمي» الجديد بدلا عن الاسم السابق.

بعدها بقيت موظفا في شركة ذلك «الشيخ» الطيب، وأصر أن أبقى ساكنا عنده بقصره، كان يتعامل معي على أنني بمثابة «ابن» من أبنائه، وليس بشخص غريب، قدم لي كل ما يستطيع من تسهيلات في سبيل إدخال السعادة على نفسي حتى «اسمي» الذي كان يزعجني ويزعجه، ويدل على أنني «لقيط»، غيّره لأنتسب له. وهذا معروف وإحساس عظيم لن أنساه له مدى العمر، فقد أغدق علي بأفضاله التي طوقت عنقي حد الامتنان.

بعد التخرج لم أشعر بهموم وهواجس البحث عن عمل أو وظيفة، خاصة أن الوظائف الحكومية في ذلك الوقت لم تكن متوفرة بشكل كبير، فقد «تخرجت من الجامعة بعد تحرير الكويت من الغزو العراقي بما يقارب سبع سنوات»، وكانت المملكة ما زالت تعاني من آثار حرب الخليج الأولى التي اجتاح فيها النظام العراقي دولة الكويت، وتحمل الوطن تبعات ذلك باستضافته قوات التحالف وصرف أموال

طائلة أثرت على الميزانية العامة للدولة، مما جعل هناك شح في التوظيف في السنوات التي تلت تلك الحرب، كان من المناسب أن أبقى في وظيفتي بشركة «الشيخ»، في وظيفة توفر لي راتبا مجزيا، ومركزا وظيفيا ممتازا.

كان يعاملني ذلك «الشيخ» الجليل ليس كموظف بل «كابن» مدلل، بل إنه كان يستأمنني على جميع أسرار عمله، ويثق في شخصي المتواضع ثقة لا حدود لها، كان يبوح لي بأسراره التجارية والاجتماعية التي لا يبيح بها «لأبنائه وأشقائه» الذين لا يثق فيهم، فبينه وبينهم اختلافات في الرؤى وفي التوجه، وهذا ما جعله يستشيرني في هذه الأمور، كنت أعطيه رأيي بكل صدق ووضوح.

كان التعامل والعمل عند ذلك «الشيخ» يدفعني أن أبذل قصارى جهدي في سبيل رد شيء من الجميل وما غمرني به من احتواء ومن ود وحب وتقدير، فقد كان يشكل لي «الأب» الذي كان يشكل لي لطفه وحنانه ظلالا وارفة على حياتي، كان - جزاه الله خيرا - بعد علمه بأنني «لقيط» حسّ بمشاعر الأبوية والإنسانية أنني أحتاج للاحتواء والحب الأبوي الذي حرمت منه منذ صغري، فقد كان يحاول بشتى الطرق أن يجعلني جزءا من أسرته ويتعامل معي على أنني «ابن» من أبنائه، وليس غريبا عليهم.

كان هذا التعامل اللطيف جميل لن أنساه لذلك «الشيخ» المرحوم ما حييت، وسأظل أدعوا له مدى العمر، فقد عشت في كنفه أيامًا لا

تُنسى مليئة بالعطف والحب والحنان، فقد كانت الأيام التي عشتها في كنفه من أجمل أيام حياتي.

يوم الانكسار

كنت خارج المملكة، و«بالتحديد» في مدينة «اسطنبول» بتركيا، مكلفا من قبل «الشيخ» في مهمة عمل لإنهاء بعض الأمور التجارية الخاصة بشركته، كانت لدي بعض التفاصيل عن منتجات تجارية جديدة أريد التعاقد مع عدة مصانع وشركات تركية لتوريدها، وأريد اطلاع «الشيخ» على سلبيات وإيجابيات تلك المنتجات قبل شرائها، كان من عادة «الشيخ» أن يصحو من نومه باكرا، وكان من عادته أن يرد على اتصالاتي مباشرة، لكن في ذلك اليوم قمت بالاتصال على هاتفه عدة مرات لم يرد، كذلك لم يرد على الرقم المباشر بمكتبه في الشركة، قمت بالاتصال على مدير مكتبه، رد علي قائلا: أن «الشيخ» لم يحضر للشركة، و لم يرد على اتصالاتهم منذ الصباح، خالجني شعور غريب فيه مزيج بين القلق والخوف على «الشيخ»، فقد كان يعاني منذ فترة من آلام في قلبه «الطيب»، رغم أنه أجرى عدة عمليات بشريانه التاجي، قمت بالاتصال على قصره، لم يرد أحد على اتصالاتي، اعتراني توتر وقلق، لم يكن أمامي سوى الاتصال «بزوجته» فهي أقرب الناس له، ومن المؤكد أنها تعرف أين هو؟ وعن أسباب غيابه المفاجئ وعدم رده على الاتصالات.

عند الاتصال على زوجته ردت علي باكية، وعندما سمعت بكاءها سَرَت في جسدي قشعريرة، وكدت أن أقع من طولي، تلعثمت

كلماتي، فبكاؤها ينبئ عن خبر مؤلم وخطير، وذكرت لي بصوت متقطع ومبحوح أن «الشيخ» بالعناية المركزة، وحالته الصحية خطيرة، اسودت الدنيا في عيني وأصبت بحالة من الإحباط والتوتر والقلق، ألغيت جميع الاجتماعات التي كانت مقررة مع عدة مصانع إنتاج، ومع عدد من شركات توريد البضائع.

عدت للفندق مباشرة، حزمت حقائبي على عجل واتجهت للمطار مباشرة، كان الوقت صيفا، وكنت في بلد سياحي ومن المعتاد في مثل هذا الوقت من السنة أن تكون حجوزات الطيران شبه مستحيلة، فالمسافر الذي لم يرتب حجوزاته منذ فترة بعيدة فلن يجد مقعدا شاغرا، بحثت عن رحلات تهبط مباشرة في مطار الملك خالد بالرياض على أي خطوط كانت، لكنني وجدت جميع الرحلات مغلقة، بحثت عن حجوزات لأي رحلة تصل لأي مدينة أخرى في المملكة يوجد فيها مطار دولي كمطار الملك عبدالعزيز بجدة أو مطار الملك فهد بالدمام.

بعد بحث مضنٍ ومزعج في جميع مكاتب خطوط الطيران، وجدت مقعدا شاغرا على الدرجة الأولى على الخطوط العُمانية، وخط سير تلك الرحلة يحتم عليها أن تهبط في دولتها سلطنة عُمان أولا، ومن ثم تقلع بعد ذلك إلى «السعودية»، وسوف تهبط هذه الرحلة في مطار الملك فهد بالدمام، ومن ثم علي بعد وصول مطار الملك فهد بالدمام البحث عن رحلة داخلية تنقلني لمطار الملك خالد بالعاصمة الرياض التي يوجد فيها المستشفى الذي ينام فيه «الشيخ»، وهذا سيأخذ مني وقتا كثيرا، لكن لم يكن أمامي من خيار إلا هذه الرحلة رغم مشقتها،

لكن كما قال الشاعر «إذا لم تجد غير الأسنة مركبا... فما حيلة المضطر إلا ركوبها»، فقد كنت مضطرا حقا، كانت تلك الرحلة أشق وأطول رحلة طيران ركبتها في حياتي، فقد كنت متوترا وقلقا، لم يكن لي رغبة في الأكل أو الشرب أو النوم أو القراءة، كنت قلقا وخائفا جدا على ذلك «الشيخ» الجليل الذي كان يشكل لي روحا، وأمل حياة، كما أنني أكن له حبا لا يوصف، وتقديرا ووفاء لا حدود لهما، ولا سقف له، وفي حالة «وفاته» فسأفقد إنسانا يشكل لي مصير حياة، وستنقلب حياتي رأسا على عقب، وسأعود إلى الوحدة المملة والشتات الوجداني والروحي بعد وفاته، كما أن «وفاته» سيكون لها تبعات وجدانية، وروحية، وستجر وراءها تبعات أخرى، فبالإضافة إلى فقداني «الشيخ» سأفقد عملي بالشركة، وسأفتقد كذلك المحيط الأسري، والمحيط المكاني الذي عشت فيه أكثر من «ثلاث سنوات»، كانت من أجمل سنين عمري، وسيكون انتقام أولاده وأشقائه مني حاضرا لا محالة، فهم ينتظرون بفارغ الصبر هذه اللحظة لتفريغ شحنات حقدهم الدفين المكبوت في نفوسهم المريضة ضدي وضد زوجته.

عدت للوطن وهبطت بنا الطائرة في مطار الملك فهد بالمنطقة الشرقية التي تبعد عن العاصمة الرياض ما يقارب «خمسمئة كيلا» شرق العاصمة، بعد هبوطنا بحثت عن رحلة طيران داخلية تذهب للعاصمة الرياض، لكن لم أجد، «فناقلنا الوطني» كما يطلق عليه محتكر للأجواء السعودية، وليس له منافس. وخلال الإجازات والمواسم يتحول من «ناقل وطني» إلى «صداع وطني» ومن المستحيل أن يجد المضطر رحلة عليها مقعد شاغر مهما كانت ظروفه، اضطررت مجبرا

أن أستأجر سيارة «ليموزين» تذهب بي من الدمام للعاصمة الرياض، وفي الطريق للعاصمة اتصلت بي زوجة «الشيخ» نائحة باكية، تخبرني أن الله اختار أمانته فقد توفي «الشيخ».

نزل علي خبر وفاته كالصاعقة، لم أتمالك نفسي فقد أصبت بنوبة بكاء هستيرية من هول صدمة الخبر، كانت زوجته تبادلني عن طريق الهاتف البكاء والنياح، فلم يكن فقدان تلك «المرأة» النادرة «للشيخ» أن فقدته كزوج بل فقدته كسند، وكسد منيع كان يحميها هي و«ابنها وابنتها»، وبعد وفاته سوف تكون عرضة للانتقام وتصفية الحسابات من «أولاده»، ومن طليقته السابقة، ومن أشقائه ومن قبيلته. لقد سقط طود شامخ ورجل جليل كان حاميا لنا بعد الله، لقد رحل من كان يشكل ظلالا وارفة لشخصي، ولزوجته، وابنته وابنه المنغولي منها، ومن المؤكد أنه بعد وفاته سوف تنهش أجسادنا وحوش مكشرة عن أنيابها تنتظر الفرصة لنهش أجسادنا بعد أن غيّب الموت من كان سدا منيعا وجبلا شامخا يذود عنا والكل يهابه ويخافه، وسوف نكون لا محالة عرضة للطرد والإهانات وتصفية فواتير وحسابات سابقة حان الوقت في نظر «أبنائه وأشقائه» موعد سدادها وتصفيتها.

وصلت للعاصمة الرياض بعد مشوار بري طويل مضنٍ وشاق أرهقني جدا، وإضافة إلى الإرهاق الذي عشته في المطارات ورحلة الطيران الطويلة، كان الإرهاق الذهني والقلق النفسي الذي كنت أعيشه خوفا على ذلك «الشيخ» الفاضل، ومما زاد من إحباطي، وأتعبني أكثر عندما علمت من «زوجته» أنه توفي، كان خبرا صاعقا

زلزل كياني، عرفت أن اللحظات التي عشتها كأجمل سنين عمري ستكون ذكرى عابرة بعد وفاة ذلك «الشيخ» الجليل.

وصلت العاصمة الرياض، وطلبت من صاحب «اللموزين» أن يوصلني للمستشفى الذي توجد فيه جثة «الشيخ» مباشرة، وصلت المستشفى في تمام الساعة «الثانية عشرة ليلا»، حاولت أن أرى جثة «الشيخ» في ثلاجة الموتى، لكن تم منعي من مشاهدة جثته، وذلك لسببين، أولا: أن الوقت متأخر، وثانيا: ليس لدي تصريح من أمن المستشفى يخول لي رؤية جثته، عدت أَجُرُّ أطنانا من الإحباط، وأكوامًا من الحزن على فقدان ذلك «الشيخ» الفاضل الذي سيذهب إلى مثواه الأخير، ولا يمكن أن أراه مرة أخرى حتى وهو جنازة، أو وقت دفنه، فـ «أبناؤه وأشقاؤه» لن يمنحونني فرصة أن أراه، وأودع ثراه الطاهر، وأنا كذلك لا أريد أن أتصادم معهم أو يكون بيني وبينهم خصام وقت جنازته احتراما مني ووفاء لروحه الطاهرة.

اتصلت «بزوجته» باكيا، وردت علي وهي باكية أيضا، وأخبرتها أنني وصلت المستشفى، ولم يسمح لي بأن أرى جنازته، سألتها متى ستكون الصلاة على جنازته؟ قالت: غدا سيصلى عليه ظهرا في مسجد الإمام «تركي بن عبدالله» بوسط العاصمة الرياض، لم يعد بمقدوري أن أعود لسكني بالجناح المخصص لي بقصر «الشيخ» فقد تُوِّفِيَ، ولم يعد لي مكان في قصره، كما أن «زوجته» ذكرت لي عندما كلّمتها هاتفيا، أن القصر أصبح محتلا من قبل «أبنائه وأشقائه وبعض أفراد قبيلته» الذين وصلوا من كل مكان للمشاركة في العزاء

ودفن جثمانه، وأنها ذهبت هي «وابنها وابنتها» للسكن عند شقيقها حتى تبعد عن المشاكل، فهي إنسانة طيبة ونبيلة ولا ترغب في الدخول مع «أبناء وأشقاء» الشيخ في مناكفات وتصادم، خاصة أن جثته ما زالت مسداة بالمستشفى، ولم تُدفن بعد، وليس من المستساغ أن تحدث بينها وبين «أبنائه وأشقائه وطليقته» مشاكل بسبب الميراث، فحاولت أن تبتعد بهدوء ولا تتصادم معهم مباشرة.

استقلّيت سيارة «ليموزين»، وذهبت لأحد الفنادق واستأجرت غرفة فيه، وضعت حقائب السفر التي كانت معي في هذه الغرفة، فجميع حقائبي وأغراضي وأوراقي الرسمية وشهاداتي موجودة في الجناح المخصص لي بقصر «الشيخ» كذلك سيارتي موجودة بمواقف قصره، رميت نفسي على السرير في غرفتي بالفندق، كنت متعبا بشكل لا يوصف، فقد أمضيت ما يقارب «ستة وثلاثين ساعة» لم أذق فيها طعم النوم أو الراحة النفسية والجسدية، نمت مباشرة بعد دخولي غرفتي بالفندق، ورغم حزني وإحباطي لم أستطع مقاومة النوم الذي داهمني بعنف.

صحوت من النوم باكرا جدا صباح اليوم التالي، أخذت سيارة «ليموزين» وذهبت للشركة باكرا، حيث كانت عندي بمكتبي «أوراق ومستندات وصكوك» مهمة جدا ائتمنني «الشيخ» عليها في حياته، وقد وضعتها في خزانة حديدية في مكتبي، ويجب علي أخذ هذه الأوراق والمستندات قبل أن يحصل عليها «أبناؤه وأشقاؤه»، فهي أوراق مهمة وضعها «الشيخ» أمانة في ذمتي، وتتضمن هذه الأوراق نسخا من

الصكوك ووصيته وتقسيم أمواله، فقد كان لدى «الشيخ» حدس أن «أبناءه وأشقاءه وطليقته» (في حالة وفاته) سيظلمون زوجته الثانية وابنته وابنه المريض من زوجته الثانية كطفل «منغولي».

من هذا المنطلق كان «الشيخ» سابقا عندما خرج من المستشفى بعدما أصابته بالجلطة الأولى وخلافه مع «أبنائه» من طليقته بعد طلبهم الحِجر عليه وعلى تصرفاته، كان قد قام وقتها بتوكيل مكتب محاماة لتوزيع ثروته، وتخصيص لكل فرد من أسرته نصيب، وسجل باسم زوجته وابنته وابنه المريض عدة عقارات، وأموال ادّخار وضعها في حسابات بأسمائهم في البنوك، ولم ينسَ «أبناؤه» من طليقته، فقد خصص لهم كذلك شيئا من أمواله، وخصص جزءا من أمواله وعقاراته كوقف خيري للأعمال الخيرية والإنسانية، وقد أعطاني جميع الأوراق التي تخص زوجته وابنته وابنه بعد توثيقها من الجهات الرسمية، وقال هذه الأوراق معك أمانة لا أحد يعرف عنها، وفي حالة «وفاتي» عليك أن تقوم بتسليمها بشكل شخصي «لزوجتي وابنتي وابني»، دون أن يعلم عنها «أبنائي الكبار وأشقائي»، فأنا لست مطمئنا من ناحيتهم، فقد يظلمون ويأكلون حقوق زوجتي وابنتها وابنها، وستجدون أصول هذه الأوراق عند المحامي والمستشار القانوني للشركة.

وصلت الشركة، لم أجد أحدا في الشركة غير بعض الموظفين، دخلت مكتبي وفتحت الخزنة، وأخذت جميع نسخ الأوراق والصكوك التي ائتمني عليها «الشيخ»، وذهبت بها مباشرة، لزوجته، فهي عند شقيقها الأكبر الذي أعرف عنوان منزله شمال الرياض، قابلت

شقيقها الذي كان رجلا فاضلا، وطلبت بعد إذنه أن أقابل «شقيقته» زوجة المرحوم شخصيا بوجوده، فلدي «أمانة» لا بد أن أسلمها لها يدا بيد. حضرت تلك المرأة النبيلة، كان باديا عليها وعلى صوتها التعب والإرهاق، عندما رأيتها انفجرت باكيا وانفجرت هي باكية، كنت أعرف كم كان الفقيد يشكل لها من ثقل كبير في حياتها، وهي أيضا تعرف كم كان الفقيد يشكل لي، كان كل منا يعيش إحباطا وألما نفسيا وروحيا، وكانت الدموع هي تعبيرنا الوحيد لما نمر به من حزن وإحباط، وفراق وشتات.

سلمتها جميع «الوصية وجميع المستندات والأوراق والصكوك» التي تضمن حقها وحق «ابنتها وابنها» من تركة المرحوم، وقلت لها: عليك بعد انتهاء مراسم العزاء الذهاب لمكتب المحامي، وإعطائهم هذه الوصية، وستجدين جميع أصول الصكوك والوصية وجميع الأوراق موجودة بمكتب المحامي، وسيتم إفراغ هذه الأملاك باسمك وباسم «ابنتك وابنك»، كذلك أعطيتها أرقام حسابات الادّخار الخاصة بهم والمسجلة بأسمائهم لهم في البنوك التي يتعامل معها «الشيخ»، وأخبرتها بكل التفاصيل. طلبت منها أن تحتفظ بهذه الوصية وهذه الأوراق في مكان آمن ولا يعرف عنها أحد أو يعبث بها أحد، ووقعتها على سند استلام يبرّئ ذمتي أمام الله من هذه «الأمانة» التي كانت كالجبال على كاهلي.

تنفست الصعداء عندما سلّمت هذه الوصية بسلام لأصحابها، ومن ثم خرجت متجها لمسجد الإمام «تركي بن عبدالله» الذي سيصلى

فيه على المرحوم، وانتظرت ما يقارب «الساعتين» حتى حان موعد صلاة الظهر، و تم إدخال جنازة «المرحوم» والصلاة عليها بعد صلاة الظهر، كان قلبي يتقطع حزنا ويتفطر ألما، عندما رأيت نعش جثمانه الطاهر محمولا على الأكتاف، ومما زاد ألمي وحزني أنه ليس بمقدوري أن أحمله معهم، كنت موجودا بالمسجد، لكن لا أريد أن أسبب لنفسي إحراجا مع «أبنائه وأشقائه وجماعته»، خاصة أن الوقت غير مناسب للمشاكل والمناكفات أو تصفية الحسابات، فما زالت جثة المرحوم لم تُوارَ الثرى بعد، تم إخراج الجنازة من المسجد بعد الصلاة عليها والذهاب بها للمقبرة، كان في المقبرة جمع غفير من أقارب وقبيلة ومعارف وأصدقاء «المرحوم» ومن جيرانه ومن الموظفين المنتمين لشركته، ذهبت للمقبرة، وكنت أنظر جنازته من بعيد والدموع تتدفق من عيوني غزيرة مودعة ذلك «الشيخ» الذي كان يمثل لي رمزا إنسانيا طاهرًا يحمل كل المعاني الإنسانية النبيلة، وكان يشكل لي نبعا من العطف والحنان فقد عشت في كنفه وفي قصره أكثر من ثلاث سنوات في جو أسري خلّاق، وكانت تلك السنوات التي عشتها في كنفه أجمل أيام عمري، ولم يحصل بيني وبينه يوما من الأيام خلاف أو اختلاف، بل كانت علاقة ود واحترام تكبر وتزداد عمقا ومتانة كل يوم، كان يمثل لي كل شيء جميل بالحياة، بقيت في المقبرة منتظرا حتى انصرف الجميع بما فيهم «أولاده وأشقاؤه»، ثم ذهبت لقبره ودموعي تسيل مدرارا على فقدانه ومن ثم صليت له ركعتين على قبره، وبقيت أدعو له بالمغفرة والأجر والثواب ثم انصرفت أجرّ أكواما من الحزن على رجل عشت في كنفه أجمل وأفضل أيام عمري.

انتهت أيام العزاء، واتصل بي مدير مكتب «الشيخ» بالشركة قائلا لي: أن «أبناء «الشيخ» قاموا بتسريحه من العمل وبتسريح عدد من «الموظفين» الذين كانوا مقربين من «الشيخ»، وأنهم عرفوا عن طريق موظف «منافق» من جنسية عربية، يعمل بالشركة أبلغهم أنني جئت للشركة صباح اليوم الذي تم فيه دفن جنازة «الشيخ» وحكى لهم أنني فتحت مكتبي، وأخذت بعض الأوراق والمستندات ومن ثم خرجت من الشركة بسرعة خاطفة، وأضاف مدير مكتب «الشيخ» عندما عرفوا أنك جئت للشركة وأخذت الأوراق جن جنونهم، ويريدون أن يعرفوا بأية طريقة ما هي تلك الأوراق والمستندات التي أخذتها، وأنهم يبحثون عنك في كل مكان.

لم يعرفوا أن هذه «الأوراق والمستندات والصكوك» وصية وأمانة أوصلتها إلى أصحابها حسب طلب المرحوم، وأرضيت ضميري، ولم يعد يهمني بحثهم عني ما دام أني أوصلت الأمانة لأصحابها.

ليلة تصفية الحسابات

بعد مضي أسبوع من وفاة «المرحوم» أردت أن أذهب لقصره، لأخذ سيارتي، وجميع حقائبي، وأغراضي، وكتبي، ولوحاتي، وأوراقي، وما يخصّني من أشياء خاصة تخصني شخصيا، ولا تخص أحدا غيري، ولا أخفيكم سرا أنني ترددت كثيرا في الذهاب لقصر المرحوم، خاصة أنني كنت على تواصل مع رجل من جنسية عربية يعمل «طباخا» بقصر «الشيخ»، كانت بيني وبين ذلك «الطباخ» علاقة إنسانية طيبة ومتينة، فقد كان ذلك «الطباخ» يحب ويكن احتراما وتقديرا ووفاء «للشيخ» بشكل لا يوصف، وأثناء وجودي بقصر «المرحوم» توطدت العلاقة بيني وبين «الطباخ» وأصبح كل واحد منا يبث همومه وشجونه للآخر، من هذا المنطلق نمت بيني وبينه صداقة إنسانية وعلاقة وجدانية، وذلك لسببين، السبب الأول: قد تكون الغربة قاسما مشتركا بيني وبين ذلك «الطباخ»، فهو يحس بغربة مكانية بعيدا عن أسرته، ووطنه، وأنا أحس بغربة شعورية اجتماعية حتى لو كنت داخل وطني، ورغم أن «الشيخ» كان يشكل لي ولذلك «الطباخ» ظلالا وارفة، ونبعا من الحب والحنان، وكان يشكل لنا أسرة ومجتمعا، لكننا كنا في قرارة أنفسنا نعلم أن وجودنا بقرب «الشيخ» وجود مرحلة عابرة، لا تشكل لنا استقرارا نفسيا أو مكانيا، فقد كنت «أنا والطباخ» نعلم العلم الأكيد أن الزمن سيفرق بيننا وبين «الشيخ»، رضينا أم أبينا، وسنعود للشتات المكاني، والعطش الوجداني مرة أخرى.

أما السبب الثاني: الذي عمّق العلاقة بيني وبين ذلك «الطباخ» هو أنني أعتقد وما زلت أعتقد أن من يهتم «بطعامك وشرابك» سيكون أقرب الناس لك، ولا بد أن تحترمه وتقدره، ولا تستفزه أو تحتقره، بل لا بد أن تنمي بينك وبينه جسورا من الثقة لكي تكسبه، وأن يكون قريبا من نفسك وأن يكون بينك وبينه علاقة ود، وكيمياء خاصة في التعامل.

ومن منطلق الصداقة التي تربطني بذلك «الطباخ الطيب» كان يتصل بي بعد وفاة «الشيخ» يحذرني من المجيء للقصر أو الذهاب للشركة، ويجب علي أن أختفي عن «أبناء وأشقاء» المرحوم، فقد كان ذلك «الطباخ» هو «الشيف» الذي يُشرف على الخدم والطباخين بالقصر، ويقوم بتحضير طعام «أبناء وأشقاء» الشيخ المرحوم، ويتواجد معهم باستمرار ويسمع ما يتناقلون من أحاديث، وكما قيل (ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا... ويأتيك بالأخبار من لم تزود...)، فعادة الناس لا يعيرون اهتماما للخدم، والطباخين، مع أن كثيرا من هذه الفئات «خاصة» من يتقن اللغة العربية يعرفون ويطّلعون على ما يحدث من تفاصيل وأسرار تُحكى في الكواليس وخلف الأبواب المغلقة.

وللأمانة كان ذلك «الطباخ» لا ينقل لي الأحاديث التي يتداولها «أبناء وأشقاء» المرحوم من باب الجاسوسية المذمومة أو باب التصنت أو تسريب أسرارهم وأحاديثهم «حاش لله»، إنما كان ينقل لي من باب تحذيري منهم، ومن باب الصداقة الإنسانية التي تربطني به، كان حرصه دليلا على وفائه معي ومع المرحوم، ولم يحذّرني وحدي، بل كان يقوم بتحذير زوجة المرحوم وابنته وابنه، فكان تحذيره لي من باب أن

أتّبع الحرص على نفسي من أذاهم، ومن حقدهم. فهم يبحثون عني بشتى الطرق؛ لتصفية حساباتهم «خاصة» أنهم يريدون أن يتوصلوا بأية طريقة لمعرفة ما هي «الأوراق والمستندات» التي أخذتها من الشركة صباح يوم دفن جنازة المرحوم، وهي «الأوراق والمستندات والصكوك والوصية» التي كان «المرحوم» مؤتمنني عليها، وكان يجب علي توصيلها وتسليمها لـ «زوجته، وابنته، وابنه المريض»، فقد كانت أمانة عندي يجب أن أحرص على تسليمها كما طلب مني «الشيخ» قبل وفاته، وقد خاطرت بنفسي وذهبت للشركة بعد وفاته، وأخذت هذه «الأمانة» رغم المخاطر التي كانت ستواجهني لو كان أحد «أبنائه أو أشقائه» بالشركة.

لم آخذ كلام «الطباخ» على محمل الجد، حيث كان هناك رغبة جامحة مني، لأخذ أشياء ولوازم شخصية تخصني، ولها مكانة كبيرة في نفسي كـ «كتبي ومذكرات حياتي الخاصة التي أكتبها بشكل يومي منذ كنت في المتوسطة، ولوحاتي التي كنت أرسمها وأعتز بها، وبعض الكتب النادرة التي من الصعوبة أن أجدها بالمكتبات كذلك ملابسي الخاصة»، حاولت أن أجد طريقة مناسبة لجلب مستلزماتي دون أن أذهب بنفسي للقصر، قمت بالاتصال «بالطباخ» طالبا منه أن يحاول أن يبعث لي كل أغراضي عندما يجد فرصة مناسبة لدخول «الجناح» الذي كان مخصصا لي.

قال الطباخ لي: «سأحاول - تقديرا لك - ولو إنها مجازفة مني، فلو اكتشف «أبناء وأشقاء» المرحوم بأنني أتواصل معك، وأنني بعثت لك مستلزماتك فسيكون مصيري الترحيل، وأنت تعرف أنني

أحاول التمسك بهذا العمل حتى يحين تخرج «ابنتي وابني» اللذين بقي على تخرجهما من الجامعة سنتان، وأنا مغترب من أجل توفير رسوم دراستهم.

قلت للطباخ: مباشرة لا أرضى لك بالضرر، وأن ينقطع رزقك بسببي، فاصرف النظر عن الموضوع، ولا تجازف، لكن أريد منك خدمة بسيطة، أن تخبرني متى ما كان عند «أبناء وأشقاء الشيخ» مناسبة اجتماعية خارج القصر، أو ذهبوا للمزرعة لكي أحضر بنفسي لأخذ سيارتي ومستلزماتي الشخصية، قال بالنسبة لسيارتك فقد أدخلوها بمواقف السيارات الداخلية بالقصر، وأعطوا حراس القصر أوامر أن لا تخرج من القصر إلا بموافقتهم الشخصية، كذلك «جناحك» الذي كنت تسكن فيه، أخذوا النسخة الاحتياطية من المفتاح معهم، تألمت من قلبي على هذه التصرفات الهمجية الانتقامية منهم.

كنت أملك نسخة من مفاتيح الجناح الخاص الذي كنت أسكن به، عزمت الأمر بأية طريقة أن أحصل على أشيائي ولوازمي الشخصية التي تخصني.

قلت للطباخ: كل ما أريده منك أن تخبرني عندما يكون لديهم مناسبة اجتماعية خارج القصر أو يذهبوا للمزرعة، وسأتدبر أمر أخذ مستلزماتي بنفسي.

بعد عشرة أيام اتصل بي «الطباخ» قائلا لي: إن «أبناء» المرحوم سيحضرون مناسبة عند أحد معارفهم ليلة الخميس القادم، وهذه

فرصتك الوحيدة لأنهم سوف يذهبون جميعا لحضور المناسبة. كان للجناح الذي كنت أسكنه باب يفتح على الشارع الرئيس مباشرة.

قررت أن أذهب للقصر وأدخل من باب الجناح الخارجي، وأخذ جميع أغراضي المهمة، أما الأغراض التي بإمكاني الاستغناء عنها سأتركها حتى أستغل أقصر زمن ووقت ممكن قبل مجيء أحد أو عودة أحد للقصر أو اكتشاف الحراس أنني دخلت للجناح.

انتظرت متوترا، وعندما حان يوم الخميس ذهبت للقصر بعد صلاة العشاء بساعة، كان كل هدي في أن أحصل على مستلزماتي الشخصية الخاصة بطريقة هادئة، وخاطفة فهذه الأشياء جزء لا يتجزأ من حياتي، ولا يمكن أن أتخلى عنها تحت أي ظرف، أوقفت سيارة - كنت مستأجرها - قريبا من باب الجناح الخارجي الذي كنت أسكنه، كان له باب يفتح على الشارع مباشرة، نزلت وفتحت باب الجناح، ووجدت مستلزماتي مبعثرة بشكل فوضوي، وقد تم العبث بها من قبل «أبناء الشيخ» الذين بيني وبينهم عداوة وخصام.

بدأت أجمع أشيائي المتناثرة في الجناح من جراء العبث بها من قبلهم، كنت أحاول أن أخرج بأسرع وقت ممكن قبل وصول أحدهم، فجأة رأيت اثنين من «أبناء الشيخ» وبرفقتهم أحد أبناء عمومتهم، تفاجأت بوصولهم، ووقوف سيارتهم القادمين عليها مباشرة أمام الجناح على الشارع الخارجي.

عرفت أن هناك من وشى بي، لا أعلم هل كانوا يعلمون بما

يحدث بيني وبين «الطباخ» من مكالمات أو أن أحد العاملين بالقصر سمع المكالمة وبلغهم، لا أعرف كيف عرفوا بقدومي، لكن من المؤكد أن هناك من أخبرهم فمراقبتهم للجناح تدل على علمهم بقدومي في هذه الساعة بالذات!

لم يكن أمامي من وسيلة إلا أن أدافع عن نفسي حسب قدراتي، صحيح أن عددهم كـ«ثلاثة أشخاص» سيمنحهم القدرة على التغلب علي مهما حاولت الدفاع عن نفسي، لكن لم يكن أمامي من مفر إلا الدفاع عن نفسي وعدم الاستسلام. كانت تخرج من عيونهم كل شرور وأحقاد الكون، فقد حانت فرصتهم لإطلاق أحقاد كانت مكبوتة في نفوسهم ضدي، كانت أمنيتهم تفريغ حقد مترسب ومتأجج في نفوسهم على شخصي المتواضع منذ حياة «والدهم» الذي كان يعاملني بأفضلية عنهم، وكان يثق بي أكثر منهم، مما أجج الحقد في نفوسهم ضدي، حان الوقت لتصفية حساباتهم معي، كان أول من نزل من السيارة الشقيق الأكبر، كان الباب الخارجي للجناح مفتوحا على الشارع، انصب كل تفكيري كيف أخرج للشارع الخارجي قبل دخولهم علي بالجناح، فقد أجد فرصة أهرب منهم أو يمر أحد المارة ويفك الاشتباك بيننا، حاولت أن أخرج بسرعة وأثناء خروجي من باب الجناح واجهني مباشرة «الابن الأكبر» للمرحوم، كان يركض باتجاهي، حاولت أن أغيّر اتجاهي للجهة الأخرى المعاكسة، لكن كانت المسافة قصيرة بيني وبينه، ولم أستطع الهروب، فما كان أمامي إلا أن أتعارك معه، وصل أخوه الأصغر وضربني على رأسي من الخلف ضربة آلمتني جدا، لكنني لم أقع وبقيت أحاول أقاومهم، استخدمت بقايا خبرة سابقة في لعبة الدفاع عن

النفس «الكاراتيه – والتايكوندو»، رغم أنني متوقف عن مزاولتها منذ سنوات لكن ما زال لدي شيء من حركاتها، كان من حظي أنه لم يكن معهم أية أدوات قتالية حادة كالسلاح أو السكاكين أو العصي أو شيء من ذلك، كما أن الرصيف الذي أمام الجناح كان معبدا لا يوجد فيه بقايا طوب أو أحجار، وهذا سهّل شيئًا من مهمتي، كنت أحاول أركلهم بضربات سريعة من أرجلي وأحاول الهرب للخلف، كان أخوهم الأكبر رجلا قصير القامة زائد الوزن بشكل كبير، ولا يملك لياقة، وزيادة وزنه أعاقته بعض الشيء، بعدما ضربني أخوه الأصغر على مؤخرة رأسي، حاولت أن أستدير بسرعة حتى أحمي ظهري ومؤخرة رأسي، وأقابلهم جميعا بوجهي، كنت أجري للخلف، وأحاول أن أحمي نفسي بضرب من يتقدم منهم تجاهي بأرجلي وبيدي، والدفاع عن نفسي قدر استطاعتي، لكن حقيقة لم أستطع المقاومة كثيرا، فقد مسك أحدهم برجلي عندما رفعتها لركله فوقعت على ظهري، بعدها لم أعِ بنفسي إلا منوما بالمستشفى في صباح اليوم التالي وهو يوم جمعة.

عندما صحوت من الغيبوبة وجدت كل جسمي مضمدا، وأحس بآلام بكل «مليمتر» من جسدي، كان وجهي ورأسي متورما، كنت في حالة يرثى لها، ولا أستطيع تحريك أي عضو من أعضاء جسدي إلا بصعوبة من جراء الألم، كنت متعبا جدا جسديا ونفسيا ومنهارًا معنويا، جاءني الطبيب بغرفتي «التنويم» لكي يفحص جسدي كاملا، كنت أتكلم بصعوبة، وتم عمل أشعة لجسمي كاملا، وقد وضّحت الأشعة أن جسمي به عدة كسور في أصابع يدي وأصبعين من أرجلي، وكسور في أضلاع قفصي الصدري، وهناك كدمات وجروح كثيرة في

الوجه والرأس والصدر والرقبة والظهر، وهذا يدل على أنهم قاموا بضربي ضربا مبرحا دون رحمة أو شفقة، بل كان ضربهم يتصف بالحقد والكراهية.

زارني يوم السبت بالمستشفى «ضابط» تحقيق من الشرطة، يريد أخذ أقوالي، وأبلغني أن من قاموا بضربي هم الآن محجوزون بالسجن، وذكر لي أن من أنقذني منهم دورية شرطة كانت مارة بالصدفة، فعندما وقعت وفقدت الوعي كانوا يقومون بضربي بوحشية، ومن حسن حظي أنها مرت بالصدفة سيارة دورية من دوريات الشرطة بنفس الشارع الموجود فيه القصر، ورأتهم الدورية يضربونني، كنت وقتها واقعا على الأرض مغمى علي، وتم القبض عليهم، وإسعافي، وتم إيداعهم السجن، وذكر لي الضابط الذي زارني لأخذ أقوالي، أنهم اتهموني بأن سبب ضربهم لي أنني سطوت على قصر أبيهم.

رددت على المحقق قائلا له: إنني الآن متعب نفسيا، وجسديا، ولا أستطيع الحديث أو الإجابة على أي تساؤلات أو تحقيق في الوقت الحاضر، لكن عندما تتحسن صحتي فسأثبت بالأدلة والشهود أن اتهامهم لي غير صحيح، وشكوى كيدية منهم يريدون بها تبرير ضربهم لي. ذهب الضابط وقد تم وضع حارس «عسكري» أمام باب غرفتي بالمستشفى، لا أعلم هل سبب وجود ذلك الحارس خوفهم علي؟ أم خوفا مني؟

بعد «أربعة» أيام أحسست بتحسن صحتي، قمت بالاتصال

بشقيق «زوجة» المرحوم، وأخبرته أنني بالمستشفى وبما جرى لي من «أبناء» الشيخ، وأخبرته أنهم إضافة لضربي اتهموني بأنني سطوت على قصر «والدهم»، وطلبت منه ومن شقيقته «زوجة» المرحوم الشهادة في قسم الشرطة، بأنني كنت ساكنا بقصر «الشيخ» قبل وفاته، وأن سيارتي ومستلزماتي ما زالت موجودة بالقصر الذي كنت أسكن أحد أجنحته، وأن «أبناء» الشيخ بيني وبينهم عداوات ويريدون تصفية حساباتهم معي منذ حياة والدهم.

رد علي شقيق «زوجة» المرحوم بأنه هو «وشقيقته» سوف يقومان بالشهادة العادلة، وأنهما لن يكتما الشهادة أو يجاملا «أبناء» الشيخ على حساب قول الحق.

بعد ساعتين من اتصالي حضر شقيق «زوجة» المرحوم لزيارتي بالمستشفى وبرفقته شقيقته وابنتها، كانت زوجة المرحوم «امرأة» نبيلة ورائعة ورحيمة، وأول ما شاهدتني وما بجسمي من ضمادات وكسور انفطرت باكية، ومولولة، تدعو عليهم بسخط وبحرقة وبألم.

وبعد اطمئنانها على صحتي قالت: أنها مستعدة أن تشهد هي وشقيقها معي، وكذلك ابنتها معي ضد أبناء «الشيخ» وقول الحقيقة.

قلت لها: بالنسبة لابنتك، فأرجوك لا يمكن أن أرضى أن تشهد على أشقائها من أبيها، فشهادتها سوف تسبب لها مشاكل وقد ينتقمون منها لاحقا، ولا أريد لها الدخول في مشاكل ومناكفات مع أشقائها بسبب شهادتها معي ضدهم.

وأكملت قائلا: لأرملة المرحوم و«لشقيقها»، غدا سأخرج من المستشفى وسأذهب للشرطة مباشرة، وسوف أتصل بكم قبل ذهابي للشرطة لتقابلوني في قسم الشرطة، وتدلون بشهادتكم وتسجلونها في محضر الواقعة.

خرجوا من عندي بعدما كانت زيارتهم المفاجئة لي بلسما روحيا بدد شيئا من تعبي النفسي والجسدي والمعنوي، كانت زيارتهم لي تدل على نبل مشاعرهم الإنسانية النبيلة.

بعد خروجهم قمت بالاتصال «بضابط» كبير برتبة «لواء» يعمل في وزارة الداخلية، كان صديقا «للشيخ» المرحوم، وبينهما صداقة متينة، كانت مزرعة ذلك «اللواء» قريبة من مزرعة «المرحوم» وبينهما علاقة جوار في المزرعة، تحولت إلى صداقة عميقة بينهما، كنت أعرف كم أن ذلك «اللواء» رجل عادل شهم، ونبيل، واتصالي فيه لعلمي أنه يعرف مدى العلاقة الأبوية العميقة التي كانت تربطني «بالشيخ» قبل وفاته، أخبرته أنني بالمستشفى، وشرحت له القصة كاملة، وما حدث بيني وبين «أبناء المرحوم»، وأنهم إضافة لضربي، اتهموني بالسطو على قصر «والدهم» وطلبت منه الشهادة لي عند الشرطة بقول الحقيقة بأنني كنت ساكنا بقصر «الشيخ» حتى وفاته، ومجيئي للقصر من أجل أخذ سيارتي ومستلزماتي الشخصية، وليس من أجل السطو عليه.

رد علي ذلك «اللواء» مباشرة قائلا لي: اعتبرني جاهزا، متى ما أردت شهادتي. قلت غدا بإذن الله، سوف أخرج من المستشفى؛

وسأذهب مباشرة للشرطة؛ لإثبات براءتي.

أضاف قائلا: قبل أن تذهب للشرطة اتصل بي، وسأتجه لقسم الشرطة مباشرة وأقوم بتدوين شهادتي.

في صباح اليوم التالي، طلبت من «الطبيب» المشرف على حالتي السماح لي بالخروج، وأن يمنحني تقريرا طبيا موثقا ومصدقا من اللجنة الطبية بالمستشفى، مدونة فيه جميع الكسور والجروح والكدمات التي تعرضت لها، جراء ضربهم لي، لأني سأقوم بتزويد قسم الشرطة بنسخة من التقرير الطبي والمطالبة بحقي منهم. بعد «ساعتين» أحضر لي بغرفتي بالمستشفى تصريح الخروج، والتقرير الطبي. اتصلت بشقيق زوجة المرحوم، وطلبت منه أن يقابلني هو وشقيقته بعد ساعة بقسم الشرطة، كذلك اتصلت بذلك اللواء صديق المرحوم، وأخبرته بأنني ذاهب لقسم الشرطة. وعدوني جميعا بأنهم سيقابلونني بقسم الشرطة.

اصطحبني الحارس «العسكري» الذي كان يحرس غرفتي، وذهبنا لقسم الشرطة، دخلت على «ضابط» التحقيق الذي زارني بالمستشفى، والذي طلبت منه تأجيل التحقيق حتى يتم شفائي، وعندما دخلت عليه كان مبتسما، وهنأني بالسلامة وبالخروج من المستشفى، وطلب مني تقديم شكوى وبلاغ خطي ضد أخصامي من جراء ما جرى لي من كسور وكدمات.وجروح.

رددت عليه قائلا له: حضرة المحقق، سمعتي وبراءتي من

اتهامهم لي «بالسطو» على قصر والدهم أهم عندي مما تعرضت له من كسور وكدمات وجروح، ولدي جميع الأدلة والشهود والمستندات التي تدل أن اتهامهم لي بأنني سطوت على قصر «والدهم» اتهام باطل وتجنٍّ غير صحيح، وأريد أن أوضح أولا: براءة سمعتي التي هي عندي خط أحمر لا يمكن لأي كائن من كان أن يشوهها، ومن ثم سأسجل ضدهم بلاغ الاعتداء علي بعد أن أثبت أن اتهامهم لي باطل، وقذف، وشكوى كيدية.

رد الضابط المحقق علي قائلا لي: لا تقلق مبدئيا كل نتائج التحقيق في صفك، وجميع الأدلة في صالحك، وبراءتك من اتهامهم لك مجرد مسألة وقت ليس إلا.

وأضاف قائلا: بعد تحرياتنا وجدنا سجلك الأمني والسلوكي والأخلاقي ناصع البياض، ولا توجد عليك سوابق، مقارنة بهم ف «اثنان» ممن اعتدوا عليك عليهما ملاحظات أمنية وسلوكية، ولديهما سوابق، وهذا الشيء يصب في صالح براءتك وبدينهما.

بعد قليل من وصولي، وصل اللواء «صديق المرحوم» ودخل على المحقق مباشرة كان رجلا معروفا ومهيبا، وقف له الجميع احتراما بما فيهم المحقق، سلم علي واطمأن على صحتي، ثم قال للمحقق، أريد منك أن تسجل شهادتي، شهادة حق أقولها من باب العدل والإنصاف، وهذه الشهادة أقولها بصفتي الشخصية، وليس بصفتي الوظيفية، وأضاف «اللواء» قائلا: هذا «الشاب» كان متبنيه «الشيخ» المرحوم،

مخصصًا له جناحًا في قصره الكائن بحي «العليا» شمال الرياض ويثق به ثقة مطلقة، وبينه وبين المرحوم علاقة أبوية متينة، ولا يمكن أن يسطو على قصر من أحسن إليه، كما أن «أبناء وأشقاء الشيخ» كان بينهم وبين هذا «الشاب» تصفية حسابات بسبب قربه من والدهم، وأضاف لو كان هذا «الشاب» يريد أن يسطو على قصر «الشيخ» أو يستغل ثقة المرحوم فيه لاستغلها منذ زمن، فـ «الشيخ» كان يثق فيه على كل حساباته، وأمواله، وكان بينهما علاقة أبوية وثقة غير متناهية ومن المستبعد تماما أن يكون قدوم هذا «الشاب» لقصر المرحوم من أجل السطو بل من أجل أخذ سيارته، ومستلزماته التي ما زالت بقصر المرحوم حتى الآن.

وثّق المحقق شهادة ذلك «اللواء»، وبعد توثيق شهادته أضاف قائلا للمحقق: أنا على استعداد تام لضمان هذا «الشاب» وأن أعيده لكم وقت ما تطلبونه لو استجد شيء في موضوعه.

قال المحقق: لا يا سعادة «اللواء» لدينا الأدلة والحقائق التي تدل على براءته، وكلها مسألة إجراءات رسمية وقتية، وأخذ بعض أقواله وأقوال الشهود، ومن ثم سوف نقوم بإطلاق سراحه بعد استكمال التحقيقات اليوم بإذن الله، استأذن «اللواء» وخرج، بعد أن طلب مني الهدوء والصبر وإن احتجت لأية مساعدة فهو جاهز لذلك.

بعد خروج «اللواء» مباشرة دخل شقيق زوجة المرحوم، وبرفقته شقيقته وقاما بالإدلاء بشهاداتهما التي توضح أن «الشيخ» كان

مستضيفني بجناح خاص بقصره، وأن مستلزماتي، وسيارتي ما زالت موجودة بالقصر حتى هذه اللحظة، وذكروا أن شكوى واتهام «أبناء» الشيخ ضدي اتهام وشكوى كيديه.

سجل المحقق شهادتهما في محضر الواقعة، ثم استأذنا وقبل خروجهما، همست لي زوجة المرحوم قائلة: أنها طلبت من محامي «الشيخ» أن يحضر للشهادة، ولكي يقوم بالترافع عني، ويقوم بإجراءات إخراجي من القسم.

بعد خروجهما قدمت للمحقق أوراق ملكية السيارة الخاصة التي تثبت ملكيتها أنها مسجلة باسمي، والتي ما زالت في قصر «المرحوم»، وقدمت كذلك له التقرير الطبي الموثق من المستشفى الذي يثبت ما في جسدي من إصابات وكسور ورضوض، بسبب اعتدائهم علي بالضرب، وقدمت له أيضا مفتاح الجناح الخاص الذي كنت أسكنه بقصر المرحوم، وطلبت منه تسجيل بلاغ رسمي ضد «أبناء» المرحوم، ويكون البلاغ من شقّين: شق جنائي بضربهم لي وأخذ حقي القانوني وحقي الخاص منهم، والشق الآخر من البلاغ، رد اعتباري من اتهامهم لي بالسطو على قصر والدهم، وهذا الاتهام باطل وكيدي ويشوه سمعتي.

رد علي المحقق قائلا: يبدو أنك إنسان محبوب من الجميع، فقد شهد لك الجميع بالاستقامة السلوكية، وبأن «الشيخ» كان مستضيفك عنده بالقصر ويثق فيك، كذلك لا أخفيك سرا أننا ذهبنا أثناء وجودك بالمستشفى لقصر «الشيخ» لأخذ أقوال الخدم الذين كانوا

بالقصر وقت حضورك، وقد شهد لك «الطباخ» أنك كنت ساكنا بجناح في القصر، وأنك كنت على اتصال معه، لكي تجيء للقصر لأخذ كتبك ومستلزماتك الشخصية، وسيارتك الخاصة، وشهد أيضا أن «أبناء وأشقاء الشيخ» كانوا يهددون ويتوعدون أن يوقعوا بك الأذى، منذ حياة والدهم.

بعد ذلك سألني المحقق: ما هو السبب الذي جعلني أذهب لمكتبي بالشركة يوم دفن جنازة «الشيخ»؟ وما هو الظرف والأوراق التي خرجت بها من الشركة؟ وأكمل قائلا: لقد اتهمك «أبناؤه» بأنك أخذت أوراقا وخرجت بها من الشركة.

رددت على المحقق قائلا له: هذه الأوراق سيادة المحقق «وصية وأمانة»، كان «الشيخ» مؤتمنّني عليها، وكانت بظرف مختوم بالشمع الأحمر، ولم أفتحها بل وصلتها «لزوجة» المرحوم بوجود شقيقها حسب طلب «الشيخ» مني قبل وفاته، فقد طلب مني في حالة «وفاته» أن أوصلها لزوجته وابنته وابنه، وقد قمت بتوصل هذه «الأمانة» لزوجته، وابنته، وبإمكانك أن تسألها وتسأل شقيقها عن ذلك، وعندي سند موقع من زوجة المرحوم بأنها استلمت مني الظرف ومحدد في السند اليوم والساعة التي سلمتها الظرف والوصية فيها، توقف المحقق عن الكلام معي لورود مكالمة على هاتفه المحمول.

بقيت صامتا، و«أكبرت» بيني وبين نفسي شهادة ذلك «الطباخ» العربي الوافد الذي لم أطلب منه تلك الشهادة، وكان بإمكانه أن يبقى

صامتا، أو يشهد مع أبناء «الشيخ» ضدي ويكسبهم، فهو الآن يعمل تحت رحمتهم بعد وفاة والدهم، لكن صفات الصدق، والوفاء، وقول الحق، والشهامة سمات تسمو في النفوس الزكية على كل الاعتبارات، واعتبرت أن شهادته بقول الحق تربو فوق كل المصالح، وبشهادته جسد ذلك «الطباخ» الشجاع أنصع صور الإيثار وشهد بالحق بعيدا عن ما ستجر عليه تلك الشهادة من تبعات، فهي حتما ستكون سببا في قطع رزقه، لكنه كان شجاعا وصادقا، ولم يكتم شهادة الحق تحت أي ظروف، ازداد إكباري وإجلالي وتقديري لذلك «الطباخ» الوفي الشجاع في قول الحق.

وبينما أنا مستغرق في التفكير، والمحقق ما زال يتحدث بالهاتف، دخل علينا فجأة بقسم الشرطة محامي «المرحوم»، وهو محام مشهور وبارع، ورجل ناضج يملك مكتب استشارات قانونية كبيرًا ومعروفًا، وإضافة إلى أنه صديق «للشيخ» فهو المستشار القانوني والمحامي الخاص لجميع أعمال «الشيخ» وصندوق لأسراره، دخل وسلم علي بطريقة فيها نوع من الود والتقدير، واطمأن على صحتي وقام بإعطاء بطاقته التعريفية للمحقق.

قائلا له: أنا محامي «الشيخ المرحوم» كنت مسافرا خارج المملكة وقت وفاة «الشيخ»، ولم أُعد إلا قبل «يومين»، ولدي جميع الوثائق الرسمية الموثقة التي ستغير مجرى القضية تماما.

استأذن المحامي من المحقق أن ينفرد بي بشكل منفرد، خرج

المحقق وبقيت مع المحامي، سألني المحامي.

قائلا لي: احكِ لي تفاصيل المشكلة بدقة متناهية، سردت له: كل تفاصيل المشكلة بالتفصيل، وأنهم إضافة لاعتدائهم علي بالضرب، قاموا باتهامي بأن سبب ضربهم لي أنني سطوت على قصر والدهم.

رد علي «المحامي» قائلا لي: لا تقلق لدي جميع الوثائق والمستندات والأدلة التي سوف تخرج بموجبها معي بعد قليل، لكن لا تتنازل عن حقك الخاص بتاتا، يجب أن يأخذ هؤلاء الأشرار جزاءهم فهم لا يستحقون أي تنازلات منك.

عاد المحقق لنا بالمكتب، بادره المحامي قائلا له: سعادة «المحقق» هذه جميع الوثائق والصكوك الموثقة من المحاكم الشرعية، تدل على أن القصر الذي كان يسكنه «المرحوم» عائد ملكيته لزوجة المرحوم وابنها وابنتها، فقد سجله «المرحوم» أثناء حياته باسم «زوجته وابنه وابنته»، وأفرغ صك ملكية القصر، وكذلك ملكية الشركة وبعض العقارات والأموال الموجودة في البنوك باسم «زوجته وابنه وابنته».

أما بالنسبة «لأبناء» المرحوم من «طليقته»، فليس لهم شيءٌ في القصر أو الشركة أو المزرعة بتاتا، فقد أقام «الشيخ» ضدهم أثناء حياته قضية «عقوق» وكسبها، بعدما قاموا برفع قضية «حجر» عليه وعلى أملاكه، وقضية الحجر التي رفعوها ضد والدهم رفضها القاضي لعدم وجود مبرر عقلي أو نفسي يؤثر في تصرفات «الشيخ». وكان له حق التصرف بأمواله، بعدها قام «الشيخ» بتقسيم ثروته حسب ما يراه

مناسبا قبل مماته.

كما أن «الشيخ» وزع أمواله وثروته أثناء حياته، وخصص جزءا منها للوقف الخيري، ورغم عقوق «أبنائه» من «طليقته» له لم يحرمهم من الميراث بل خصص لهم بعض الميراث في صكوك موثقة عندي سوف أذهب بها للمحكمة وأفرغ لهم ما خصصه «الشيخ» لهم.

كما أن «المرحوم» خصص بعض المال «كهبة» منه لهذا «الشاب» وأشار إليّ تقديرا ووفاء لبر هذا «الشاب» له أثناء حياته.

من هذا المنطلق فإن القصر والمزرعة، والشركة وجميع ما فيها من خدم وموظفين، وسيارات، وأثاث ومستلزمات، منقولة وغير منقولة، من حق «زوجته الثانية وابنته وابنه منها» حسب الصكوك التي تثبت أنها أصبحت بأسمائهم قبل وفاته.

أما «طليقته وأبناؤها» فليس لهم شيء إلا ما خصص لهم من الميراث، كما أن سيارة هذا «الشاب» ومستلزماته الشخصية ما زالت بقصر المرحوم العائدة ملكيته الآن «لزوجة الشيخ وابنها وابنتها»، وهم من يتصرفون في القصر، ووجود «أبنائه» من طليقته، وأشقائه في القصر غير قانوني فليس لهم تصرف فيه، وسوف نسلم القصر حسب القانون وحسب ما عندي من صكوك ووثائق إلى «زوجة المرحوم، وابنه وابنته».

بعد شهادة «اللواء» وشهادة شقيق زوجة «الشيخ» ومجيء

المحامي، وكشفه عن وصية «الشيخ» المرحوم، عن الوثائق والصكوك الرسمية التي تم تقسيم بها ثروته أثناء حياته، تحولت القضية برمتها رأسا على عقب ضدهم، وانقلب السحر على الساحر.

وعندما علم «أبناؤه وأشقاؤه» أن الشيخ قام بتقسيم وتخصيص ثروته قبل وفاته، ثارت ثائرتهم، فقد أصابتهم هذه الوثائق بالجنون وحاولوا الطعن فيها، لكنها كانت وثائق رسمية قانونية موثقة من الجهات المختصة، وبناء على ذلك تم إلزامهم بالتوقيع والتعهد بعدم التعرض بتاتا لي أو لـ «أرملة» المرحوم وابنه وابنته، كما أن المرحوم قبل وفاته كان موصيا أن تكون «زوجته وابنه وابنته» يكون الولي عليهم شقيق زوجته وخال «ابنته وابنه» المريض بمرض «منغولي».

تم تنفيذ الوصية وأعطي كل ذي حق حقه، وتم الحكم على كل من «أبنائه وابن شقيقه» الذين اعتدوا علي بالضرب، كل واحد منهم بالسجن لمدة سنة، والجلد مائة جلدة بسبب الاعتداء على بالضرب.

كذلك تم الحكم عليهم بحكم آخر إضافي بسبب اتهامهم لي كيدا «بالسطو» على قصر «والدهم»، فقد تم الحكم عليهم بالسجن «شهرين» وجلدهم أربعين جلدة كعقوبة جراء قذفهم واتهامهم لي باتهام كيدي باطل.

بعد الحكم عليهم جاءني كثير من أقاربهم يطلبون مني العفو والتنازل عنهم وعن حقي الشخصي، لكنني رفضت رفضا باتا، ورددت عليهم قائلا: لكل من تشفع لهم، لو كانوا هؤلاء «المجرمون» يستحقون

التنازل أو لهم ماضٍ جميل معي أو مع «والدهم» المرحوم لكنت تنازلت وعفوت عنهم احتراما «لوالدهم» المرحوم الذي أكن له تقديرا واحترام ووفاء لا يوصف، لكن ماضيهم أسود وقبيح، فهم لم يرحموا حتى «والدهم» فقد كانوا عاقين معه، وأقاموا ضده قضية حجر، وهم السبب في تدهور صحته، لذا من لم يكن فيه خيرٌ أو وفاء «لوالده» لا يستحق التنازل أو العطف أو الشفقة والتسامح مني.

عادت تلك «المرأة الفاضلة» إلى قصرها الذي أصبح لها ولابنها وبنتها، كذلك الشركة والمزرعة، والسيارات، والخدم، وجنت تلك المرأة الفاضلة جزاء ما قدمت «للشيخ» المرحوم من دعم معنوي، ومن حب، ومن تقدير، وإحساس، ووفاء «وما جزاء الإحسان إلا الإحسان».

بينما فقدت طليقته وأبناؤها وأشقاؤه كل شيء إلا الميراث المخصص لأبنائه شرعا، وجنوا جميعهم ثمرة ما اقترفوا في حق «المرحوم» من ظلم ومكائد، وضغوط وعقوق، وكما قيل «الجزاء من جنس العمل»، وكلٌ وجدَ ما قُدم من عمل حاضرا، وحصد ما زرع.

حاولت تلك المرأة الفاضلة «أرملة الشيخ وابنتها» أن أبقى موظفا في الشركة، وأن تتم ترقيتي إلى مدير تنفيذي للشركة، لكنني اعتذرت منهم بلطف، قائلا لها ولابنتها: أتشرف بالعمل في شركتكم، لكني لا أريد أن يظن الناس أن وفائي للوظيفة، وليس «للشيخ»، فقد كنت أعمل معه أثناء حياة «المرحوم» ولاء، وحبا ووفاء وتقديرا له أكثر من كوني طامعا بالوظيفة، كما أنه كان سدا منيعا وسندا لي، أستمد

قوتي من الله ثم منه ومن وجوده بالشركة أثناء حياته، لكن بعد وفاته لن أجد البيئة العملية المناسبة التي كنت أجد فيها الدعم المعنوي والدعم الوظيفي و«اللوجستي» الذي كنت أجده أثناء العمل تحت مظلة «المرحوم» الذي كان يدعم قراراتي، وبعد «وفاته» سأجد منغصات ومشاكل كثيرة متربصة بي، وستضع في طريقي عوائقَ كثيرة، وسوف أظلمكم وأظلم نفسي بعدم تقديم العمل والجهد المطلوب، وذلك لافتقادي للدعم المعنوي والوظيفي، ولوجود رواسب قديمة بيني وبين «بعض» الموظفين ومشرفي الأقسام، وستظل تصفية الحسابات بيننا حاضرة من جديد، وسيكون ذلك على حساب العمل والإنتاج وجودة العمل بالشركة.

كذلك من الصعوبة أيضا أن أتعامل معكن مباشرة كـ «نساء» دون محرم من غير قصور فيكن، لكن أنتن تعرفن أننا نعيش في مجتمع قبلي منغلق لا يرحم، وستلوك الألسن سمعتكن وسمعتي حينما أكون «شابا» أعزبا وأتعامل معكن مباشرة، ومن الأفضل لي ولكن أن نبتعد عن بعض ليس كرها أو تخليا عنكن «حاش لله»، فقد عشت معكم أثناء وجود «المرحوم» أجمل أيام حياتي، لكن آن الأوان أن أرحل عن حياتكن بعد أن قضيت معكم أياما من أجمل حياتي، وبإذن الله سيكتب الله لكم من هو أفضل مني يدير لكم أملاكم وشركتكم.

بعد ذلك قمت بتسليم تلك «المرأة النبيلة وابنتها» عدة تقارير ومحاضر تخص الشركة، كنت أحتفظ بنسخ منها، وهي تقارير شاملة عن جميع الموظفين توضح تقييمًا كاملاً وشاملاً مدى إنتاج وسلوك

كل موظف، إيجابياتهم وسلبياتهم، وعن شركات التوريد، والمصانع الموثوقة والعملاء المميزين الذين أفضل التعامل معهم، وعن الشركات والمصانع غير الموثوق التعامل معها، كذلك دراسة مستقبلية لتوجه الشركة، وتقرير عن العملاء المميزين مع الشركة، ونصحتهم بإعادة مدير مكتب «الشيخ» المرحوم هو وثلاثة من الموظفين الذين سرحوهم «أبناء» الشيخ الأشرار من طليقته بعد وفاته مباشرة، رغم أن مدير المكتب، والموظفين الثلاثة الذين تم تسريحهم من أفضل الموظفين سلوكا، وانتظاما، وإنتاجا، ولهم معرفة وخبرة كافية ووافية في مجال العمل، ويعرفون زبائن وعملاء الشركة جيدا، وقلت لتلك السيدة من الأفضل إعادة هؤلاء والاستفادة من خبرتهم الماضية، وعلاقاتهم ومعرفتهم بخبايا وأسرار العمل.

باركت «أرملة وابنة» المرحوم تلك النصيحة مني، ووعدتا بعودة أؤلئك الموظفين للعمل، فهم لم يأخذوا مخالصات نهائية بعد، وسيستمرون بالشركة حتما.

وأضفت قائلا لهما: أنا تحت أمركما وكلي آذان صاغية، وكتاب مفتوح لكما في حالة طلبكما مني أي عون أو استشارات بأي وقت.

وقبل مغادرتي طلبت من تلك «المرأة الفاضلة وابنتها» رجاء خاصا تمنيت منهما قبوله، ردّتا علي قائلتين: نعدك بتحقيقه.

قلت: لهما أريد منكما فضلا لا أمرا، الوفاء مع «الطباخ» فقد كان له موقف نبيل وقام بالإدلاء بشهادته معي، دون أن أطلب منه

ذلك، مضحيا بمستقبل عمله، ومصدر رزقه، ولو بقي تحت كفالة «أبناء» الشيخ لرحلوه جرّاء شهادته معي ضدهم، لكن الله رزقه على قدر نيته الطيبة، وصار من ضمن خدم القصر الذي أصبح لكما، آمل أن تكونا وفيتين معه وهذا رجاء خاص مني.

ردت علي زوجة «المرحوم» قائلة: نعدك أن نكون أوفياء معه، وسنستقدم عائلته إن هو رغب في قدومهم، فهو أحد «الأشخاص» الذين أوصى عليهم «المرحوم» قبل وفاته بعدم قطع رزقهم أو ترحيلهم ما داموا يرغبون في العمل عندنا، ونعدك أن نحترمه ونقدر خدماته لنا، ووفائه معنا ومعك، «فلا تشيل هم» سنكون أوفياء معه ونحقق رغبتك ورغبة المرحوم.

ودّعت تلك «المرأة الفاضلة وابنتها» بدموع نازفة مني ومنهما، فقد عِشت معهم أكثر من «ثلاث سنوات» في ظل وجود «والدهم» المرحوم، وقد أضافوا على حياتي ظلالا وارفة من اللطف، والحنان. ويشكلون لي أسرة إنسانية رائعة. وكانت مشاعرهم تجاهي صادقة ونابعة من أعماق أرواحهم الزكية، فلم أرَ منهم يوما ما، ما يزعجني أو ينقص من قدري.

أخذت سيارتي من «كراج» السيارات، وشحنت بها ما تبقى من مستلزماتي الخاصة، بعد أن تم العبث فيها من قِبل «أبناء وأشقاء» الشيخ الأشرار، ومن ثم خرجت مودعا ذلك القصر، ومودعا أيام لا تُنسى مرّت كغيمة جميلة عابرة لن تعود.

خرجت مودعا ذكريات، ومواقف إنسانية نبيلة لن أنساها مدى العمر، ودّعت أيام الاستقرار الأسري، والاستقرار الوجداني، والارتواء العاطفي الذي عشته في محيط ذلك القصر، وفي ظل تلك الأسرة الكريمة في مشاعرها وأحاسيسها.

غلبتني دموع الفراق والحزن و«أنا» أخرج بسيارتي من البوابة الرئيسية لذلك القصر الجميل شكلا ومضمونا، وتبادر في ذهني تجربتان متناقضتان عشتهما في ذلك القصر.

التجربة الأولى: تتمثل في أنني عشت بذلك القصر في كنف «شيخ» وقور، كريم بالمشاعر والأحاسيس، هو وأسرته «زوجته وابنته وابنه» الذين كانوا في غاية في النبل، والحنان، واللطف، والكرم العاطفي والشعوري، والاحتواء الوجداني. كانوا يقدمون لي كل شيء يسعدني، ويفتخرون بوجودي بينهم، بل يصرّون علي أن أشاركهم كل تفاصيل حياتهم حتى طعامهم، وحواراتهم، وأسفارهم، وأفراحهم، وأحزانهم، لم «يحسّسوني» يوما ما بأنني غريب عنهم، أو أشكل عبئًا عليهم.

التجربة الثانية: تتمثل في تلك الليلة المعتمة المظلمة كعتمة وظلم بشر أشرار تخلوا عن إنسانيتهم، امتلأت نفوسهم وقلوبهم بالحقد والغيرة، قاموا بالاعتداء علي بالضرب بطريقة بشعة فيها الكثير من الحقد والعدائية والغل والانتقام، كذلك الاستحواذ على جميع أوراقي الثبوتية، وكل مذكراتي التي كنت أكتبها بشكل يومي فاستحوذوا على

كتبي وعلى جميع لوحاتي التي كنت أرسمها وجميع الذكريات الجميلة التي أحتفظ بها، فقد كان ألمي النفسي والوجداني أعظم بكثير من ألمي الجسدي التي تعرضت له منهم، لأن فقداني لمذكراتي وكتبي ولوحاتي هو فقدان لمرحلة وجزء مهم من حياتي، كانت هذه المذكرات والكتب واللوحات تجسد لي شيئا عظيما في حياتي، فهي بمثابة «الإخوة والأخوات والأسرة» التي انحرمت منهم وكانت المتنفس الوحيد لي، كانت تلك المذكرات تحتوي كل همومي وشجوني وخواطري بشكل يومي.

كانت الكتب التي فقدتها من جراء عبثهم فيها وتمزيقها لا تقدر بثمن، فهي من شكلت حياتي وعبرها عرفت الكثير من الفوائد العظيمة، فقد كانت تلك الكتب شريكة خلوتي، وهي من تبدد عني ألم الوحدة والشتات والحرمان.

كذلك كانت لوحاتي التي قاموا بتحطيمها تجّسد واقعي، وجزءا من وجداني، فلم أرسمها بريشة الرسام، بل رسمتها بمشاعر وبأحاسيس الإنسان، ولونتها بألوان من دماء قلبي ممزوجة بآهات نابعة من أعماقي. كنت أعشق تلك اللوحات عشقا جنونيا، فهي جليستي، وأنيستي في وحدتي، فعندما أبكي لا أحد في الوجود يفهم ألمي إلا اثنان «قلمي وفرشاتي». كانت لوحاتي ومذكراتي خير أصدقائي، وبئرًا لأسراري التي طالما كتمتها عن الجميع، فانتهك سريّتها أشرار في ليلة معتمة كعتمة قلوبهم الحاقدة.

رحلة تضميد الجراح

بعد مغادرتي، وفراقي لتلك الأسرة الكريمة، كنت محطماً ومحبطاً بشكل لا يوصف، فقد عشت خلال الأسابيع الماضية عدة صدمات عاطفية، ونفسية، ومعنوية، وجسدية، عشت لحظات مؤلمة بسبب موت وفقدان «الشيخ» المرحوم الذي كان يشكل لي كل شيء جميل في الحياة، كذلك عشت تجربة اعتداء سافر وحقير من «أبناء وأشقاء الشيخ» الأشرار التي ما زالت آثارها الجسدية، والنفسية تخيّم على حياتي. وعشت فراق أسرة كريمة «زوجة وابنة وابن» المرحوم الذين كانوا يشكلون لي أسرة إنسانية رائعة، وبسبب حقد الأشرار فقدت بعض كتبي، وتم تحطيم لوحاتي وفقدان أجزاء من سيرتي، كذلك فقدت وظيفتي والعمل في شركة كنت أستمتع بالعمل فيها وأعتبرها جزءا من حياتي. كل تلك الصدمات كانت آثارها واضحة المعالم على نفسي، وجسدي، وروحي.

كان لا بد أن أجد طريقة أخرج بها من هذه الصدمات العاطفية، والنفسية، والجسدية التي عشتها، لم يكن أمامي من خيار إلا الذهاب في رحلة روحية لمكة المكرمة، وللمدينة المنورة، خططت أن أمكث في مكة المكرمة أسبوعا أقوم فيها بتأدية العمرة والدعاء لنفسي، والدعاء «للمرحوم»، والقيام بعمرة على نيّته وأداء الصلوات في الحرم المكي، ومن ثم الذهاب للمدينة المنورة والمكوث فيها لمدة أسبوع آخر وأداء

الصلوات في المسجد النبوي.

حجزتُ مقعدا على رحلة طيران متجهة من الرياض لمدينة جدة، وأخذت معي بعض الكتب، والملابس، ومستلزمات السفر. توجهت للمطار مباشرة وتم إنهاء إجراءات السفر، وصعدت إلى الطائرة المتجهة لمطار الملك عبدالعزيز بجدة. وعادة في السفر يفرض عليك المقعد الذي بجانبك إذا كنت وحدك جار رحلة سفر غريبًا عليك، خاصة في وسائل النقل العام «كالطائرات والقطارات وحافلات النقل العام» وأنت وحظك، فليس لك من خيار في اختيار جارك في السفر، فقد يكون قدرك جميلا ويكون جارك بالمقعد الذي بجانبك «شخصا» نظيفا، متعلما، مثقفا نبيلا تستفيد من وجوده، فيزيدك ثراء معرفيا وتستمع معه بحديث إيجابي، أو يكون عكس ذلك، ويفرض عليك القدر «شخصا» يشاركك المقعد الذي بجانبك فيكون جار سفر سلبيًا، يزيد همومك هموما، يزعجك بحديث سلبي لا ترغب في سماعه، أو يأخذ من وقتك دون فائدة أو يكون كريه النفس والرائحة.

لكن حظي وقدري في هذه الرحلة كان جميلا، فقد كان جار السفر الذي يشاركني المقعد الذي بجانبي، رجلاً تبدو على ملامح وجهه سمات الوقار والهدوء والنضج والاهتمام بالنفس، فبعد أن أقلعت بنا الطائرة كنت أتصفح «صحيفة» يومية بيدي، وبين لحظة وأخرى تخرج من أعماقي «تأوهات» حزن عفوية، فقد كان الحزن والفراق يخالج نفسي ويظهر على شكل «تأوهات» تخرج من أعماق قلبي دون إرادة مني، فهي أحاسيس محبوسة تريد أن تخرج لعل الخفوق يتبدد

عنه شيء من الألم المحبوس بين أقفاص صدري الملتاع.

سألني ذلك الرجل الوقور قائلا: «فضلا، ممكن سؤال؟ وأرجو أن لا تعتبر سؤالي تطفلا أو فضولا أو تدخلا في حياتك إنما نوع من التضامن معك.

رددت عليه قائلا: تفضل، اسأل ما تريد عزيزي.

قال: سلامات، أتمنى ما يكون هناك ما يزعجك، فوجهك بادي عليه التعب والحزن والإحباط بشكل واضح.

قلت له: لقد فقدت شخصا عزيزا على نفسي يشكل لي جزءا عظيما من حياتي، وقد توفي قبل فترة بسيطة، وما زالت آثار فقدانه تنتاب نفسي حتى اللحظة، كذلك فقدت بفقدانه أشياء كثيرة وجميلة في حياتي.

قال: أحسن الله عزاءك، وألهمك الصبر والسلوان، وثق يا «ابني» أن الموت حق، ومهما حزنّا على من نفقدهم، فلن ينفعنا حزننا عليهم شيئا، ولن يفيدهم بكاؤنا عليهم شيئا، فنحن بذلك كمن «يبكي على اللبن المسكوب»، والشيء الذي يجب أن نقدمه لهم بعد وفاتهم الدعاء لهم وذكر محاسنهم، أما الحزن عليهم فلن يفيدنا، ولن يعيدهم لنا، فتفاءل بالخير «يا ابني» واعلم أن بعد كل «ألم أمل»، وبعد كل ليل معتم شمس مشرقة بإذن الله.

وأكمل قائلا: أنت شاب ما زلت في مقتبل العمر، وواضح من سمات وجهك أنك إنسان ناضج، وتملك وجها مألوفا، ومن هذا المنطلق فتحت معك هذا الحوار، متمنيا منك أن تتغلب على حزنك، وتعيش حياتك بتفاؤل، وأمل، فالحياة مرحلة عابرة نعيشها مرة واحدة، فلماذا نعيشها بنكد وكدر وهم؟

كان كلام ذلك «الرجل» كلاما منطقيا جميلا ورائعا بدد عن نفسي شيئا من جليد الحزن والإحباط الذي كان عالقا بها، وانساب كلامه الجميل إلى روحي كما ينساب الماء العذب لروح العطشان، فقد كنت في حاجة ماسة لمن يواسيني، ويتضامن معي خاصة في ذلك الوقت بالذات.

قلت له: اسأل الله العلي العظيم أن يكتب لك الأجر على كلامك الجميل الذي يحاكي جمال روحك الإنسانية الطاهرة، فقد كنت فعلا في حاجة ماسة لحديث، وتشجيع إيجابي يخفف عن نفسي شيئا من الحزن والإحباط.

رد قائلا: جزاك الله خيرا على دعائك.

دار بيني وبين ذلك الرجل حديث جميل متشعب في عدة مواضيع شتى، مضى الوقت سريعا جدا، وأعلن مضيف الطائرة أن الطائرة تستعد للهبوط، سألته: من يكون؟

رد علي قائلا: أنه يعمل «دكتور» يقوم بالتدريس في إحدى

الجامعات السعودية، تبادلت معه أرقام الهواتف، ومن ثم ودّعت ذلك الرجل الوقور، بعد أن قضيت معه دقائق سفر جميلة، وكان لكلامه الإيجابي مفعول السحر على نفسيتي المتعبة.

غادرت الطائرة بحالة نفسية أكثر تفاؤلا وارتياحا من نفسيتي عندما صعدت الطائرة، وتوصلت لحقيقة جميلة أن الكلام الإيجابي الجميل يؤثر إيجابا في نفوس المحبطين، واليائسين فهو بمثابة البلسم الروحي للنفس البشرية.

عند دخولي صالة المغادرة بالمطار، توجهت لمكتب تأجير سيارات بالمطار، استأجرت سيارة، واتجهت مباشرة لمكة المكرمة، وقمت بالذهاب لفندق «الشيراتون» القريب من الحرم المكي، كنت قد حجزت فيه جناحا عن طريق الهاتف، وركنت سيارتي بمواقف الفندق، ووضعت مستلزماتي في الجناح الذي أسكنه، كنت مرتدياً ملابس الإحرام، ذهبت مباشرة للحرم المكي، كان قريبا من الفندق الذي أسكنه، كانت صلاة العشاء توشك أن تقام، صليت صلاة العشاء جماعة بالحرم، كان لسماع صوت أمام الحرم الشجي الذي يريح الروح من جراء جمال صوته، ويعطي خشوعا وطمأنينة. بعد انقضاء الصلاة، بدأت بأداء مناسك العمرة، دعوت لنفسي ودعوت «للشيخ» المرحوم وأسرته عند الكعبة، دعاء أسأل الله أن يقبله. شربت من ماء زمزم، شعرت بعد أدائي مناسك العمرة وشربي من ماء زمزم براحة روحية ونفسية لم أحس بها منذ فترة طويلة، أعادت الراحة والطمأنينة لنفسي المتعبة وشيئا من تفاؤلها، وتوقدها.

بعد ذلك عدت للفندق، كنت متعبا بشكل كبير، صعدت لأحد مطاعم الفندق «تعشّيت» فيه، فقد كنت جائعا جدا، فبعد وفاة «الشيخ» المرحوم، وما حدث بعد «وفاته» من تصفية حسابات وما عشته من إرهاق فكري، ونفسي، وجسدي عزفت شهيتي عن الاستمتاع بالطعام، ومنذ فترة لم أستمتع بوجبة طعام تعيد لجسمي «المرهق» حيويته ونشاطه، بعد وجبة العشاء ذهبت للجناح الذي أسكنه، واتصلت بموظف الاستقبال في الفندق طالبا منه أن يتصل بي عند أذان صلاة الفجر لكي أذهب لأدائها بالحرم، بعد ذلك رميت نفسي على السريرمستلقيا أغط في سبات ونوم عميق افتقدته منذ فترة.

استيقظت عند أذان صلاة الفجر توضأت، ومن ثم ذهبت للأداء الصلاة بالحرم المكي، كانت نفسيتي تتحسن شيئا فشيئا، والصلاة في الحرم زادت من راحتي النفسية والروحية. بعد الصلاة جلست بالحرم، أقرأ شيئا من القرآن، ومن ثم قمت بشرب شيء من ماء زمزم، وخرجت من الحرم، ذاهبا للفندق، كنت ساكنا بالدور الثامن، دخلت الجناح الخاص بي في الفندق، كانت شرفة الجناح الذي أسكن فيه تطل على ساحات الحرم مباشرة.

أخذت «كوب قهوة» وكتابًا أريد قراءته، فتحت باب «الشرفة» وجلست على كرسي أريد أن أقرأه، كانت الشمس في بداية بزوغ شروقها، والأسواق المحيطة بالحرم المكي تعج بالحركة وأصوات الناس على جميع مشاربهم، وأشكالهم، وجنسياتهم. كان منظرا مبهرا استفز مشاعري وخيالي استفزازا إيجابيا، فقد رأيت منظرا خيالياً

سريالياً بديعا لا يمكن وصفه، رأيت تناسق الأسواق، وسمعت تمازج الأصوات واللهجات المختلفة، كان النظر لهذه اللوحة «البانورامية» المتحركة التي فيها مزيج بشري عجيب على تعدد ألوان بشراتهم، وملابسهم، وتحركاتهم، وألوان المعروضات على واجهات المحلات، كان منظرا أخّاذا بحق، زاد جمال النظر له من علو وارتفاع شاهق «من الدور الثامن» مما أعطى المكان «بنوراما» متناسقة جميلة، لن يميز جمالها إلا من تمعّن فيها بنظره الرسام الذي يعي أن مزج شروق الشمس مع أشكال البشر، وصدى أصواتهم، وتعدد وتنوع ألوان المعروضات بالأسواق من مستلزمات ومطاعم متعددة ومباني، تشكل لوحة سريالية متحركة غاية في الجمال، كما أنني رأيت منظرا آخر أكثر جاذبية وروعة، وهو وجود أسراب من حمام الحرم الطاهر يغرد في رحاب الحرم في أمان واطمئنان مغردا في جماعات وينتشر على شكل أسراب، وبعضه يستمع بأكل ما يعطى من حبوب، كان منظرا في غاية الجمال لا تستطيع ريشة رسام مهما كان ماهرا ومبدعا أن ترسم مثله، فقد كانت لوحة ربانية عفوية تتسم بجمال أخّاذ بشكل خيالي.

كانت هذه «المرة الأولى» التي تشرق الشمس علي فيها و«أنا» بمكة المكرمة رغم أنني كنت أزور مكة والحرم في كل سنة أكثر من مرة، لكن كانت زياراتي لها - سابقا - خاطفة وسريعة لأداء مناسك العمرة فقط، ومن ثم السفر مباشرة بعد أداء العمرة.

وبطريقة عفوية مني تركت الكتاب و«القهوة» على الطاولة «بشرفة» الجناح الذي أقطنه بالفندق، ونزلت لا شعوريا من الفندق

ذاهبا أتجول في محيط وساحات الحرم وفي الأسواق المحيطة به، وسط أمواج هادرة متحركة من البشر «رجالا ونساء وأطفالا» من مختلفي الأعمار والأشكال واللهجات والسحنات، شكّلت لي هذه المناظر الخلابة مع بزوغ الشمس منظرا أخّاذا استهواني، فرأيتها كلوحة فنية متكاملة العناصر رسمها الخالق سبحانه، وشكلتها الطبيعة الجغرافية والمكانية ولوّنتها المعروضات في واجهات المحلات. كان لتشعب الأزقة وتفرقها ومشي البشر بينها وكأنهم يرسمون مسارات متناغمة ومتناسقة بشكل يفوق الخيال.

بقيت مستمتعا بالمشي في هذه الأسواق والساحات المحيطة بالحرم حتى الساعة «التاسعة» صباحا، مستمتعا بالتجوّل في الأسواق المحيطة بالحرم في سياحة بصرية، وروحية، ومكانية، وفكرية خلاّقة. بعد ذلك عدت للفندق، وتناولت طعام الإفطار، كانت نفسيتي تتحسن رويدا رويدا، قمت بإغلاق «هاتفي» المحمول وقطع جميع الاتصالات معي، كنت أريد أن أبعد تماما عن جميع المؤثرات وجميع المنغصات، وأن أجلس مع نفسي في عزلة روحية، وسياحة دينية ولحظات شاعرية أستمتع فيها بكل ساعة تمر علي بعيدا عن جميع ما عانيته من مشاكل وتصفية حسابات بعد وفاة «المرحوم» وما يلاحقني من اتصالات وضغوط من قرابة «أبناء وشقيق ابن» المرحوم الذين يقضون عقوبة اعتدائهم علي وقذفهم لي بالسجن، ومن جراء اتصالات أقربائهم لم يهدأ هاتفي المحمول من اتصالاتهم، يريدون «الشفاعة» عندي من أجل التنازل والعفو عنهم، لذا أغلقت جميع وسائل الاتصالات بي، ولم أخبر أحدا بتاتا بأنني مسافر أو موجود في مكة المكرمة إلا أرملة

«الشيخ» وابنته، والقصد مساعدتهما في استفسارات عن أمور الشركة أو أية مساعدة مني، وطلبت منهما عدم إخبار أحد بتاتا بسفري أو بمكان وجودي.

قمت بتنظيم جدول يومي لنفسي، ألتزم به أثناء مكوثي في مكة المكرمة الذي سيكون أسبوعا من الزمن، فعملية المحافظة على الوقت والالتزام بجدول زمني، من وجهة نظري يمنح السائح استمتاعا أكثر بكل ساعة تمر عليه، فبعثرة الوقت وعدم ترتيبه، يجعل الإنسان فوضويا لا يعطي للوقت قيمته الحقيقية، من هذا المنطلق كنت حريصا على ترتيب وجدولة وقتي بدقة متناهية، وضعت جدولا يشمل، وقت أداء جميع الصلوات بالحرم، والبقاء بعد كل صلاة فترة لقراءة القرآن والدعاء لنفسي وللمرحوم ولأسرته «زوجته وابنته» والدعاء «لابنه» المريض بالشفاء، وشرب ماء زمزم، ومن ثم التجول في الأسواق وزيارة بعض المعالم، والمكتبات. فأنا مغرم بالقراءة ومحب للآثار، وشراء الكتب، كذلك خصصت وقتا للانخراط في النادي الرياضي لأستعيد شيئا من حيويتي ولياقتي البدنية، ونشاط جسدي، كما أنني خصصت وقتا للقراءة والكتابة.

كان يجب علي أن أنام باكرا، وأستيقظ باكرا لكي أستمتع بكل يوم من بدايته حتى نهايته، بقيت ماكثا أسبوعا استثنائيا بقرب الحرم في مكة المكرمة، عشت فيها لحظات دينية وروحية جميلة، بددت عني شيئا مما علق بنفسي من أحزان، ومن منغصات من جراء «وفاة» المرحوم، وما تعرضت له من عنف جسدي، ونفسي من جراء اعتداء

الإثم والبشع من أناس أشرار ملأ قلوبهم الحقد وحب الانتقام.

بعد أسبوع من الخلوة الفردية التي استمتعت فيها بسياحة دينية وروحية، وصفاء نفسي وذهني، وراحة جسدية، سلمت مفتاح الجناح الذي أسكن فيه للفندق، وعملت «شيك أوت»، وحزمت حقائبي عائدا لمدينة جدة بالسيارة مستمتعا بالطريق البري بين مكة وجدة وبمحطاته واستراحاته متوقفا عند كل محطة أو منظر يشدني، علما أنني حجزت مسبقا عن طريق الهاتف على رحلة طيران ستقلع من مطار جدة، إلى مطار المدينة المنورة.

وصلت إلى مطار جدة، قبل إقلاع الرحلة للمدينة «بثلاث ساعات» تقريبا، قمت بتسليم السيارة لمكتب التأجير بالمطار، شحنت ما معي من حقائب، وحصلت على بطاقة صعود الطائرة، بقيت أتجول في أسواق المطار، ذهبت لمحل بيع الكتب، كنت أتصفح عناوين عدد من الكتب المرصوصة على الأرفف، وجدت بالصدفة كتابا سمعت عنه طويلا، كنت أبحث عنه منذ زمن ولم أجده بالمكتبات العامة بحجة أنه لم يتم فسحه والسماح له بدخوله البلد، وجدته في سوق المطار، رغم أنه عادي المحتوى، وليس في محتواه ما يمس الذات الإلهية، أو البلد أو رموزه أو العقيدة أو الأخلاق والسلوك بشيء، لم أجد فيه ما يمنع فسحه أو دخوله البلد.

سألت البائع العربي، الذي استشففت من حواري معه أنه إنسان متعلم وقارئ جيد.

قلت له: ما هو «السر» الذي يمنع بيع هذا «الكتاب» في المكتبات العامة؟ ويباع عندكم بسوق المطار؟ رغم أنني لم أجد فيه فصلا أو عبارات تسيء بأي شكل من الأشكال للدين، أو الدولة، أو المجتمع؟!

رد علي البائع قائلا: ليس الاعتراض على الكتاب إنما الاعتراض على «مؤلف» الكتاب، لذا لا يُباع في المكتبات العامة، ويباع بسوق المطار لعدم خضوع بعض الكتب المبيعة بالمطار لمقص الرقيب التابع لوزارة الثقافة والإعلام.

قلت له: لا تؤاخذني على تساؤلاتي «ففضولي» الشرس يدفعني أعرف ما هي أسباب الاعتراض على «المؤلف» إن كان لديك معلومة عن ذلك، وأكون شاكرا لك؟

رد البائع قائلا: حسب ما عرفت أن «مؤلف» الكتاب كان رجلا «مطوّعا» يؤمن بأفكار التيار الديني المتزمت جدا، وينتمي لتيار متطرف، كان وقتها يعمل «معلما» بوزارة التعليم، بعد فترة انفصل عن التيار الديني «المتزمت» وابتعد عن ذلك التيار، وعاد للوسطية، والتفكير المعتدل، بعد ابتعاده عن أصحاب الفكر «المتطرف» انتسب لأحد الصحف «ككاتب»، وبدا عبر مقالاته بتعرية أفكار «التزمت» والغلو، وبدأ يحذر من الأفكار المتطرفة والمتزمتة، وبأن أفكارهم سوف تؤثر في عقول الشباب، والنشأ، ومن ينتمي لفكرهم، وبدأ ينتقد بعض المناهج التعليمية التي تكرس الكراهية والتطرف وإقصائية الآخر.

فما كان من المنتمين للتيار الديني المتطرف إلا أن شنّوا عليه

حملة شعواء لا تبقي ولا تذر، وبدؤوا في محاربته في مجال عمله، وفي حياته الخاصة والعامة، وقاموا بتأليب المجتمع عليه وتشويه صورته عند أسرته، وعند طلابه، وفي محيطه الاجتماعي، واتهموه أنه تغريبي، وعلماني، وليبرالي، وكل التصنيفات التي تحط من قدره وتهيّج المجتمع ضده، بل وصل بهم الأمر أن بدؤوا يدعون عليه في المساجد، ويحرضون عليه حملات تشويه منظمة ومتعمدة، في المواقع الإلكترونية، وفي المساجد، والمجالس.

في ظل هذه التعبئة الجمعية والإعلامية ضد ذلك «المؤلف» من تيار متطرف متفشٍ في المجتمع حد الثمالة، يدغدغ عواطف المجتمع الدينية، ويكرس فيهم الإقصائية، وأحادية الرأي، والكراهية، مارسوا ضده ضغطا بشعا ومنظما ولم تتسنَ له الفرصة في أن يطبع كتبه بالداخل، لذا يتم طبعها في دور نشر بالخارج، رغم أن كتبه معتدلة ولا يوجد فيها شيء يستحق المنع إلا ما يكشف من سلبيات فكر متزمت يريد أن يقمع كل من يعري سلبياتهم، ويكمم أفواه من ينتقدهم.

من هذه المعلومات التي ساقها البائع لي، وهي قريبة للصحة إلى حد بعيد، تذكرت ذهنيا ضغوطا مورست ضدي من «سدنة» هذا الفكر المتزمت عندما كنت طالبا بالسنة الأولى من الجامعة، وكنت مشاركا في أحد المخيمات الصيفية، كيف قام بعض «المتزمتين المتطرفين» بمحاربتي لأنني أنتقدهم، ورددت عليهم بتعرية فكرهم، حيث قلت لهم إنني إنسان مؤمن ومسلم بالفطرة المعتدلة الوسطية التي حثنا عليها رسولنا الكريم، ولا أحتاج لأحد أن يكون وصيا علي فأنا أؤمن

بالوسطية والاعتدال في الدين، وأؤمن بالاستقلالية الفكرية، ولا أنتمي إلا لنفسي ولا أحب أن أنتمي لأي تيار آخر، وكنت أحذر زملائي الطلبة من الانتماء لأي تياري فكري سواء كان متطرفا أو متحررا، فنحن أمة «وسط» لها ثوابت دينية معروفة، كل مسلم يعرفها ولا نحتاج تيارات فكرية أو تحررية متطرفة، مما خلق في نفوس «سدنة» التطرف حقدا ضدي لأني لم أنصع لجانبهم، فبدأت أتناكف معهم، وأقوم بتحذير زملائي منهم.

تعرضت من جراء عدم انصياعي لتوجهاتهم الأيديلوجية والفكرية لعدة ضغوط، خاصة ممن يطلقون على أنفسهم أنصار الصحوة أو من يصنفون أنفسهم أنهم ا الملتزمون، كانوا يحاولون بشتى الطرق التأثير على الشباب وجذبهم بالانخراط في جماعتهم، ويحاربون كل من لا يتوافق مع فكرهم، ويمقتون ويحرمون كل شيء حتى لبس الملابس الرياضية، فيحرّمون ارتداءها وقت اللعب وغير اللعب رغم أنها ساترة للعورة، وليس فيها رسومٌ أو تصاميم مخلة بالآداب أو بالدين!

كنت أحاجهم قائلا لهم: هل من يلبس الثوب والغترة هو المسلم ومن يلبس لباس رياضة أو بنطال كافر؟ أي منطق هذا الذي يصنف تدين المسلم وفقا للباسه؟! وهل كل المسلمين في جميع أصقاع المعمورة الذين يلبسون بنطالا وسترة في نظركم أقل منكم إسلاما لأنهم لم يلبسوا مثلكم؟!

كان الموجودون من تلك الجماعة معنا في المركز الصيفي يحرّمون علينا الاستماع للراديو، ومشاهدة التلفاز، ويريدون أن يجعلونا مجرد أرجوزات ودُمى يحركوننا كيفما يشاؤون، كنت أرفض وصايتهم، وأرفض الانصياع لهم.

كنت أقول لهم أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»، وأنا مسلم ومؤمن أؤدي جميع الفروض وأصلي جماعة، وأصوم وأخاف الله جيدا، وأعرف الحلال من الحرام، ولا أحتاج لوصاية من أحد، ولن أصنف نفسي لتيار أو تنظيم أو جماعة معينة، فأنا إنسان مستقل أعرف ماذا أعمل، ولن أسلم نفسي أو فكري لأي كائن من كان.

كانت تثور حفيظتهم ضدي عندما كنت أحذر وألوم بعض الزملاء الذين ينجرفون معهم ويؤمنون بأفكارهم، كنت أقول لهم لا تكونوا «إمعة» وتنقادوا خلف أناس جهلة حاقدين على البشر، يرون أنهم المؤمنون والأوصياء وغيرهم يجب أن يتبعهم، ويعتبرون من يحاجهم أو يرفض وصايتهم، ولا ينضم لجماعتهم بأنهم فسقة وزنادقة.

تذكرت تجربتي في المخيم الصيفي عندما روى لي بائع الكتب بالمطار ما تعرض له ذلك «المؤلف» من حرب وإقصاء من أناس متزمتين متطرفين في أفكارهم وفي توجهاتهم.

بعد ذلك الحوار الجميل مع بائع الكتب، تم النداء الداخلي بالمطار عن توجه ركاب الرحلة التي سأسافر عليها لبوابة صعود الطائرة، كنت وقتها سعيدا بحواري مع ذالك «البائع» المثقف، فقد كان

الحوار ثريا ممتعا، تشعّب إلى حوارات ثقافية وأدبية متنوعة ومتعددة.

ودعت ذلك «البائع» اللطيف الذي لم تمنعه ظروفه، ومشاغله، وغربته، أن يقرأ ويثقف نفسه، ويسلح نفسه بثراء معرفي ومخزون ثقافي جيد، شكرته على ما منحني من وقت، وما زودني به من معلومات ومن حوار ممتع وشيق.

خرجنا من بوابة المطار متجهين للطائرة عبر حافلة نقل جماعي تابعة لخطوط «الناقل الوطني»، كنت وقتها مستاء جدا أن يكون مطار دولي كبير ومهمّ كمطار الملك عبدالعزيز بجدة تهبط فيه عشرات الطائرات بشكل يومي، وهو البوابة الأولى للحجاج والمعتمرين والزوار، والسياح، وتواجده في العاصمة الاقتصادية للمملكة، ورغم كل تلك المعطيات والمحفزات لكنه ما زال مطارا بدائيا سواء في بنيته التحتية أو في بيئته الخدماتية، وفي ناقله الوطني، علما أن هناك دولا ومطارات مجاورة أقل حركة وأهمية ومادة، ومع ذلك تملك مطارات حديثة وجميلة مصممة على أحدث طرازات الحداثة، متواكبة مع عصر التقنية، ووصلت إلى حقيقة مهمة أن سوء هذا المطار يدل على أن هناك مسئولين نمطيين تقليدين «بيروقراطيين» لا يقدّرون المسئولية، ولا يؤمنون بالتحديث ولا يحركون ساكنا.

كنت على ثقة أن الدولة لن تدخر جهدا لو كان هناك مسؤولون «تكنوقراط» يعشقون التحدي، ويؤمنون بالتطوير، ويتحلون بالإرادة والكفاح وحب الوطن لكن للأسف هناك مسؤولون في حكم الأموات

دماغيا، كل همهم أن يمكثوا كـ «متخشبين» على كراسيهم لا فرق بينهم وبين الجثث «المحنطة» التي لا روح ولا حياة لها.

تم إنزالنا من الباص وصعدنا الطائرة، كانت طائرة من الحجم الصغير، وكما ذكرت سابقا في بداية هذه الرحلة عندما كنت قادما من العاصمة «الرياض»، متجها لمدينة جدة بأن قدرك و«حظك» عندما تسافر على وسائل النقل العام كـ «الطائرات – والقطارات – والباصات– ومترو الأنفاق» بأن القدر هو من يحدد رفيق سفرك عندما تكون بمفردك، فقد يكون جارك بالمقعد الذي بجانبك شخصا مميزا وتستفيد منه إيجابيا، وقد يكون عكس ذلك، ورغم أن حظي كان جميلا عند قدومي في الرحلة التي وصلت عبرها من مدينة الرياض إلى مدينة جدة، فقد كان جاري في السفر وقتها رجلا وقورا مثاليا متعلما ومثقفا، أذاب بكلامه ونصائحه الإيجابية شيئا من الحزن والإحباط الذي كان ينتابني وقتها، واستفدت منه الكثير رغم أن وقت الرحلة لم يتجاوز «ساعتين» من العاصمة «الرياض» حتى وصولنا جدة.

لكن المفارقة العجيبة أن قدري في هذه الرحلة التي ستقلني من مطار جدة إلى مطار المدينة المنورة كان عكس ذلك، فقد كان جاري في رحلة السفر شخصا لم أستسغه لا شكلا ولا مضمونا، فعند دخولي للطائرة كانت معي بطاقة الصعود مقيدًا فيها رقم المقعد الذي يجب أن أجلس فيه، ومن عادتي لا أحب الزحام، وأبقى متأخرا في دخول الطائرة حتى تهدأ الناس وتتوقف الفوضى، وكل راكب يجلس بمقعده، فما دام معي بطاقة صعود للطائرة وأنا قريب من الطائرة فلماذا

المزاحمة، ومضايقة البشر، كنت أفضل الانتظار والسير بهدوء على سلم صعود الطائرة حتى يدخل جميع الركاب، ومن ثم أدخل. فمقعدي مقيد في بطاقة الصعود، ولا يمكن لأحد أن يجلس على مقعد غيري.

لكن عند دخولي للطائرة، وجدت مقعدي يشغله شخص برفقه عائلته، خجلت أن أطلب منه إخلاء مقعدي، وليس من المستساغ أن أجلس بقرب عائلته، بلغت مضيفة الطائرة أن مقعدي مشغول بمسافر آخر، أخذت المضيفة مني بطاقة الصعود الموضح بها رقم المقعد، وذهبت لذلك الرجل الذي يشغل مقعدي المخصص لي، طلبت منه أن يبحث عن المقعد المخصص له والمسجل رقمه في بطاقة صعوده للطائرة، لكنه رفض أن يتخلى عن المقعد محتجا بوجود عائلته بالمقعد المجاور، لم أدخل مع ذلك الرجل في نقاش أو احتجاج بتاتا، فليست هذه مسئوليتي، بل مسئولية مضيفي الطائرة، لم تتوصل المضيفة مع ذلك الرجل لحل فقد كان مصرا على احتلال المقعد المخصص لي، وعدم التزحزح منه، بقيت واقفا في المسار الذي يفصل مقاعد الطائرة اليمنى عن المقاعد اليسرى، طلبت من المضيفة أن تطلب لي «المشرف» أو كبير المضيفين، جاء «المشرف» قلت له، ليس من الاحترام أو المستساغ أن أبقى واقفا أو الجلوس على مقعد غير مخصص لي فلا أرضى أن أكون متطفلا، وأحتل مقعدا غير مخصص لي.

رد «المشرف» قائلا لي: تعال نحاول مع ذلك الرجل لعله يقبل إخلاء المقعد المخصص لك.

رددت على «المشرف» قائلا له: هذه ليست مسئوليتي أن أفاوض الركاب أو أطلب منهم إخلاء المقعد المخصص لي، هذه مسئوليتكم أنتم، ولن أدخل في مفاوضات أو أتوسل ذلك الرجل أو غيره، عليكم أنتم إخلاء المقعد المخصص لي، أو إيجاد بديل لي غيره إذا كان ذلك الرجل لا يريد البعد عن عائلته، فأنا أيضا لن أقبل أن أجلس قرب عائلته أو أبعده عن عائلته فهذه خصوصية عائلية أحترمها.

رد «المشرف» قائلا: سأبحث لك عن مقعد آخر شاغر.

قلت له: بشرط أن يكون المقعد الذي ستجده لي ليس مخصصا لأحد غيري فلن أقبل الجلوس على مقعد مخصص لغيري وأدخل معه في إحراج أو ينظر إلي كأنني متطفل على مقعده، فكرامتي وسلوكي لا تسمح لي أن آخذ شيئا غير مخصص لي.

رد «المشرف» قائلا: انتظر دقائق سأبحث لك عن مقعد ليس مخصصا لأحد.

بقيت واقفا ومنتظرا والناس تنظر كيف تُحل مشكلتي، وصلت وقتها إلى حقيقة أن الفوضى والخلل وعدم التنظيم، لم تكن حكرا على سوء الخدمات الأرضية بالمطار، بل وصلت للخدمات الجوية بالطائرة.

بعد «دقيقتين» تقريبا جاءت «المضيفة» طالبة مني التوجه برفقتها إلى الدرجة الأولى، وأجلستني على مقعد شاغر في الدرجة الأولى يطل على نافذة الطائرة مباشرة، كان جاري الذي يجلس في

المقعد المجاور رجلا ضخم الجثة عمره تقريبا في حدود «الأربعينيات» لم أستسِغ شكله أو أتقبله، فقد كان منظره وسمات وجهه تدل على الغرور والغطرسة، وكانت تصرفاته تدل على سذاجته، وكلامه يدل على سطحيته، لم أرتَح له لا شكلا ولا مضمونا، كانت تنبعث من جسده ريحة «نتنة» لا تطاق، ولا أعلم كيف يتحمل ذلك الشخص ريحة جسده؟! وكيف يقبل أن يختلط بالناس بهذا الشكل والجسد الذي «يتقزز» منه كل إنسان يجلس بقربه، لم أجد مبررا تجعل هذا الشخص يهمل نظافة جسده، فالإنسان عندما لا يهتم بنظافة جسده يتحول إلى «جيفة» متحركة «أكرمكم الله»، تأبى النفوس البشرية السوية أن تجالسها أو تستسيغها.

وكما قيل «حشفة وسوء كيل»، فلم تنحصر صفات السوء في هذا الشخص على شكله، ونتن «ريحته» بل زاد على ذلك سوء تصرفاته السلوكية والأخلاقية، وسوء منطقه، فقد كان يرفع صوته بطريقة مزعجة ومؤذية للمشاعر، ويقوم بتصرفات صبيانية غير مسئولة، فعندما تمر «مضيفة» توزع المشروبات «عصير- شاي- قهوة»، كان يحاول أن يتحرش بها لفظيا، وعندما تنحني «المضيفة» لتقديم المشروبات للمسافرين، كان يمعن النظر في «أرداف» ومؤخرة المضيفة بطريقة استفزازية ماجنة، ولفتت تصرفاته الرعناء نظر جميع من في الدرجة الأولى من المسافرين الذين ينظرون له باحتقار واشمئزاز، فقد كانت تصرفاته وأسلوبه مع المضيفات فيه إسفاف وانحطاط أخلاقي وسلوكي فاضح.

لم يعجبني أسلوب وتصرفات ذلك الشخص الحقير، شعرت أن «المضيفات» بدأن يتذمرن منه ومن «ريحة» جسده النتنة، ويحاولن تجنب المرور بقربه، ولا أخفيكم سرا أنني احتقرت ذلك الشخص واستفزتني تصرفاته، ورغم أنه حاول أن يفتح معي حوارا لكنني همشته ولم أرد عليه، فشخص بذلك الشكل وبذلك الأسلوب المقزز لا يستحق أن أعطيه من وقتي حتى لو دقائق، فلن يضيف لي شيئا إيجابيا، وشخص بذلك السلوك الرديء لا يستحق أن أفتح معه حوارا أو ألقي له بالا، فسيأخذ من وقتي ويستفز مشاعري بأسئلة سخيفة لا تستحق أن ألقي لها بالا.

ورغم أن زمن الرحلة من مدينة جدة حتى المدينة المنورة قصير جدا، لا يتجاوز «خمسًا وأربعين دقيقة» طيران إلا أنها ستكون طويلة جدا عندما يكون «جارك» بالمقعد المحاذي لمقعدك شخصا ثقيل الدم، يستفز أعصابك، ويجرح مشاعرك، ويزكّم أنفك بريحته المنتنة.

تذكرت ذلك الرجل الطيب «الدكتور» الذي شاركني كجار سفر في رحلتي السابقة التي أقلتني من مدينة الرياض إلى مدينة جدة، كم كان الفرق واضحا وشاسعا بينه وبين هذا الرجل الكئيب، فقد كان ذلك «الدكتور» يملك فكرا راقيا، تنفذ من ملابسه «رائحة» زكية طيبة، ويملك أسلوبا شيقا ومؤثرا أثناء حديثه الإيجابي.

جسد لي هذا التناقض والتباين الكبير بين ذلك الرجل، وهذا الرجل أن هناك فروقا فردية في السلوك وفي التفكير وفي التربية

والتعليم، وفي الاهتمام بالنفس، فهناك أناس تكون معرفتهم بمثابة القدر الجميل حتى لو كانت معرفتهم لحظات وقتية عابرة، لكن تبقى لهم في فكرك ونفسك بصمة إيجابية مدى الزمن، وهؤلاء البشر الإيجابيون في فكرهم وفي أشكالهم، وتصرفاتهم عندما تخالطهم تقتبس منهم أشياء جميلة في الفكر وفي السلوك، فهم بمثابة بستان زهور، وورود، تشم منها رائحة زكية، وجمال أشكالها تسر ناظرك.

بينما هناك أشخاص بمثابة القدر السيئ حتى لو كانت لحظات وقتية عابرة، لكن تكون لهم بصمة سلبية في حياتك وفكرك. وهؤلاء البشر «السلبيون» في فكرهم وفي أشكالهم، وتصرفاتهم، وسلوكهم، كمرمى النفايات «أعزكم الله»، فالكل يحاول الابتعاد عنها وعن ريحتها النتنة.

أعلن المذيع الداخلي بالطائرة عن هبوطها بمطار المدينة المنورة، تنفست الصعداء لأنني سأتحرر، وأخرج من هذا الصندوق الطائر الذي فرض علي وجود ذلك «الجيفة النتن» القابع بجواري القبيح شكلا، ومضمونا، وسلوكا، وأخلاقا؟!

خرجت من الطائرة، أخذت حقائبي، واستأجرت سيارة، وتوجهت مباشرة لفندق «موفنبيك أنوار المدينة» القريب من المسجد النبوي الذي حجزت فيه مسبقا عن طريق الهاتف، استأجرت في هذا الفندق غرفة، ووضعت حقائبي بها، كان الوقت ظهرا، أردت أن آخذ قسطا من الراحة و«قيلولة» حتى يؤذن لصلاة العصر بالمسجد النبوي

الشريف، استيقظت مع الأذان وذهبت للمسجد النبوي الشريف، كانت الصلاة في المسجد النبوي لها روحانية تنساب إلى الروح البشرية بطريقة تعطي الروح الإنسانية صدى وجدانيا وروحيا لا أستطيع وصفه.

صليت العصر، وأحسست براحة روحية وجسدية لم أحس بها من قبل، ذهبت بعد الصلاة للسلام على قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وقبور الصحابة رضوان الله عليهم «بالبقيع»، بعدها تسوقت في الأسواق والساحات المحيطة بالحرم النبوي الشريف، ولا يختلف جمالها عن جمال الأسواق المحيطة بالحرم المكي، لكن ما يميز أسواق الحرم النبوي الشريف بالمدينة المنورة، أنها أكثر تنظيما، وحداثة، وجمالا، وأكبر مساحة، من الأسواق المحيطة بالحرم المكي بمكة المكرمة.

بعدها تم الأذان لصلاة المغرب بالمسجد النبوي، عدت لأداء صلاة المغرب بالحرم النبوي، بعد الصلاة جلست بالمسجد النبوي أقرأ آيات من القرآن الكريم، وأدعو لنفسي «وللشيخ» المرحوم، وأسرته، حتى أذان صلاة العشاء، صليت العشاء، وبعد الصلاة عدت للفندق، وضعت لنفسي برنامجا وجدولا يوميا، ألتزم به أثناء فترة مكوثي بالمدينة المنورة التي ستكون خمسة أيام. تناولت طعام العشاء بمطعم الفندق، ثم أخذت كتابا وذهبت لبهو الفندق، وجلست على أريكة في زاوية البهو، مندمجا في قراءة «رواية» ممتعة، بعد ساعة من الزمن، ذهبت إلى غرفتي للخلود إلى النوم.

كان النوم في المدينة يشعرك بروحانية لن أكون مبالغا لو قلت إنك لا تشعر بها في أية بقعة أخرى غير المدينة المنورة، فهي المدينة التي أحبها الله، كما ذكر في الأثر النبوي أن الرسول صلى عليه وسلم، عندما أراد الهجرة من مكة المكرمة دعا الله -وهو متوجه إلى البيت الحرام- قائلا عليه السلام: ((والله إنك لأحب الأرض إلي، وإنك لأحب أرض الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت)، فهداه الله وأرشده إلى أحب البقاع «يثرب» ويثرب اسم من أسماء المدينة المتعددة التي تتجاوز سبعة أسماء.

استيقظت من النوم مع أذان الفجر مسرور البال، منشرح الخاطر، بعد أن نمت نوما هادئا، وعميقا، أحسست براحة لم أعهدها من قبل، ذهبت لأداء صلاة الفجر جماعة بالمسجد النبوي الشريف، صليت وقرأت شيئا من القرآن، أحسست بأنني أغرد وأحلق عاليا، مما أحس به من راحة روحية لا أستطيع وصفها، خرجت من المسجد مع بزوغ شروق الشمس، كانت هناك نسمات هواء صباحية عليلة تدخل على نفسي وروحي المتعبة لحظات من الانتشاء والتفاؤل والتحرر من الماضي القريب الذي كنت أعيش فيه من تحطيم وإحباط جراء فقداني أعز البشر على نفسي، الذي بوفاته عدت إلى حياة الحرمان، والشتات الروحي، والعطش الوجداني. كذلك ما جرى لي بعد «وفاة» المرحوم من اضطهاد واعتداء «أبنائه» على شخصي وضربي بطريقة تجسد الحقد الدفين لبشر ملأت قلوبهم الأحقاد والضغينة والاستبداد.

حاولت أن أنسى أو أتناسى كل مؤثرات ومنغصات الماضي،

وبدأت أعيش سعادة اللحظة بالتجول بساحات الأسواق المحيطة بالمسجد النبوي الشريف، والمشي في مسارات الأسواق، أشاهد عددا كبيرا من البشر متعددي الأشكال، ومختلفي اللهجات بينهم تباين في السحنات، فهم يمثلون جميع أصقاع المعمورة، منهم العربي، والأفريقي، والآسيوي، والقوقازي، والغربي، والفارسي، كل هذا التعدد البشري الكثيف يشكل نسيجا متعددا من جميع المشارب، والمذاهب، يجمعهم دين واحد هو الإسلام. أتوا من أجل هدف نبيل واحد هو زيارة المسجد النبوي، استمتعت بالمشي والتجوال في تلك الأسواق وسط صخب مثير من أصوات متعددة، ولهجات متنوعة.

بعد ذلك اتجهت للفندق، تناولت طعام الإفطار، ومن ثم ذهبت للنادي الصحي، مارست التمارين الرياضية والسباحة، ومن ثم «استحممت» وغيرت ملابسي، وذهبت للمسجد النبوي لأداء صلاة الظهر، عدت للفندق، بعد أداء صلاة العصر، كنت أرغب بالتجوال في أرجاء المدينة المنورة، والذهاب للمعالم التراثية والتاريخية، والأسواق، ثم عدت بعد صلاة العشاء للفندق، تناولت طعام العشاء، ومن ثم قمت بالقراءة ومشاهدة الأخبار، ومتابعة برنامج حواري، ثم خلدت للنوم.

في اليوم التالي استيقظت فجرا، صليت الفجر بالمسجد النبوي، ثم عدت للفندق، وتناولت الإفطار، ثم مارست بعض التمارين الرياضية، ثم غيرت ملابسي، وخرجت ذاهبا للمكتبات العامة، زرت مجمع المكتبات التراثية، ومكتبة عارف حكمت، واشتريت منها عدة كتب، ومن ثم ذهبت لمسجد قباء الذي هو أول مسجد تم بناؤه في

الإسلام، صليت فيه صلاة الظهر، ذهبت بعد الصلاة لأحد المطاعم المشهورة بالمدينة المنورة تناولت فيه وجبة طعام الغداء، رغبت أن أكسر رتابة الروتين اليومي بتناول طعام الغداء خارج الفندق، بعد الغداء ذهبت وتجولت في المدينة المنورة، وتناقشت مع «بعض» سكانها في الأسواق وفي الأماكن العامة، تجاذبت معهم أطراف الحديث عن تاريخ المدينة المنورة، وماذا تشتهر به المدينة من منتجات وقد أفادوني أنها تشتهر بإنتاج أفضل أنواع التمور، ومنها تمور «عجوة» المدينة، التي قال فيها الرسول الكريم)من تصبح بسبع تمرات عجوة لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر(، كذلك تشتهر المدينة المنورة بنعناع، وحبق له نكهة جذابة، وتشتهر بدقة المدينة، وبورد وياسمين المدينة الجذاب.

عرفت من سكان المدينة أن للمدينة المنورة عدة أسماء من ضمنها «يثرب – مدينة الرسول - دار المهاجرين والأنصار- أم المساكين– طيبة الطيبة - نابذة الخبث – البقيع- المدينة المنورة» وشهادة حق أقولها أن سكان المدينة من ألطف الناس معشرا، ومن أكرم البشر في مشاعرهم، يملكون أخلاقا إنسانية رائعة، وثقافة حوارية جميلة، وثراء معرفيا جميلا، وتقبلا إنسانيا عفويا.

مكثت في المدينة المنورة «خمسة أيام» من أجمل الأيام استمتعت فيها باستجمام روحي، وجسدي، عشت فيها لحظات رائعة، ممزوجة بنسمات روحانية، ودينية، ووجدانية، أزاحت وأذابت وصهرت عن نفسي هموما وشجونا «متكلسة» وعالقة على نفسي، فأذابتها وصهرتها كما تذيب وتصهر الشمس الدافئة «تكلس» الثلج العالق بأغصان

الزيزفون، كان ذلك بفضل الله ثم تلك الأيام السعيدة التي أعيشها في خلوة مع نفسي في إجازة روحية قضيتها بين مكة المكرمة والمدينة المنورة، بعد ذلك ودعت المدينة المنورة عائدا، للعاصمة الرياض بعد أيام استجمام مميزة لا تنسى.

يموت الشجر واقفا

عدت للعاصمة الرياض، واشتريت منزلا صغيرا في أحد الأحياء الجديدة شمال الرياض، وقمت بتأثيثه، وعملت بعض الديكورات له بطريقتي الخاصة تحت إشرافي بصفتي أعشق فن الرسم وأمارسه، كنت أريد أن أتولى الإشراف على عمل الديكورات بنفسي، كذلك قمت بشراء سيارة جديدة كانت في نفسي منذ زمن، خلافا لسيارتي السابقة التي أهداها لي «الشيخ» المرحوم سابقا بمناسبة تخرجي من الجامعة، وكل ذلك «قيمة المنزل وقيمة السيارة»، يرجع الفضل فيها لله ثم «للشيخ» المرحوم، فقد كان يمنحني رواتب مجزية جراء عملي كمستشار له وكنت أدخر الرواتب بالبنك، كذلك قبل «وفاته» دون أن أعلم وضع لي مبلغا ماليا جيدا في حساب ادّخار باسمي في البنك كهبة منه لي، وأعطى المحامي تفويضا «ووصية» يتم بموجبها صرف هذا المبلغ لي بعد «وفاته»، كان ذلك وفاء منه وتقديرا لعملي وبري معه، كان إحساسا، وشعورا عظيما منه، لم يفرضه عليه أحد، ولم يكن مطلوبا منه أن يخصص لي هذا المبلغ، لكنها النفوس الكريمة تأبى إلا أن تكون كبيرة ووفية، تحس بمن يكن لها التقدير والإخلاص والوفاء، ويتضامن معها ويبادلها الوفاء بالوفاء، وقد جسد ذلك «الشيخ» الوقور كل سمات الأحاسيس الإنسانية النبيلة الوفية بأبهى صورها.

رحل الشيخ «المرحوم» بجسده، وبقيت مأثرة الإنسانية والخيرية

حاضرة، عندها تذكرت بيت شعر للأمير الشاعر «خالد الفيصل» يقول فيه: (يموت الشجر واقفاً... وظل الشجر ما مات) فبعد وفاة «المرحوم» كان حاضرا متواجدا كروح طاهرة أراها، وأشاهدها مجسدة أمامي في كل مكان، حتى إن كان رحل بجسده فهو باقٍ بإنسانيته وأعماله الإنسانية الخالدة، ومساهماته الخيرية التي لا تزال قائمة.

لم يكن ذلك «الشيخ» الجليل غنيا بالثراء المادي، بل كانت نفسه غنية وثرية بالعطاءات الإنسانية النبيلة، وروحه كريمة بالمشاعر والأحاسيس الصادقة، وقلبه غني بالحب والعطف والعطاء، كان يتألم عندما يرى مريضا، ويحزن عندما يشاهد فقيرا، كان يدعم كل فقير، ويسد حاجة كل محتاج، كان ينفق بالخفاء ابتغاء مرضاة الله، كان إنفاقه نابعا عن قناعة تامة صادرة من أعماق قلبه لا يريد بها رياء، ولا نفاقا.

كان «الشيخ» المرحوم يتكفل بالخفاء بكفالة عدد من الأيتام والأرامل، والفقراء، والمعوزين، ويقوم بدعمهم وتسديد إيجارات منازلهم وتسديد فواتير كهرباء منازلهم، ويمنحهم كسوة الشتاء، وملابس الأعياد، ومستلزمات المدارس، لم يكن بينه وبينهم رابط قرابة أو صلة رحم، إنما كان الرابط رابطا إنسانيا نبيلا، ولم ينسهم فقبل وفاته كان من ضمن وصيته، أنه خصص لهم وقفا خيريا من أملاكه وعقاراته المؤجرة، يدفع من إيجارها لهؤلاء الفقراء، والأيتام، والأرامل، كان حريصا غفر الله له قبل أن يموت أن يبقى هذا الدعم الإنساني والعمل الخيري مستمرا لا ينقطع حتى بعد مماته.

يخطئ كثيرا من يظن أن الإنسان الطاهر النبيل عندما يموت ينسى وتزول ذكراه وأعماله كما زال جسده، فالأرواح والقلوب الطاهرة مهما ماتت أجسادها تبقى حاضرة في القلوب ومن الصعب أن تزول بل تبقى حاضرة في أرواحنا كأرواح خفية تشكل لنا مصدر قوة وكبرياء، ونستقي من أرواحهم الحب بعدما أوصدت أبواب الحب في وجوهنا في ظل وجود بشر أشرار قلوبهم مليئة بالحقد، والأنانية، والحسد، وحب الانتقام.

كم هي غنية تلك القلوب النابضة بالحب والعطف، فهي كالنخيل الباسقة التي تؤتي أكلها رطبا جنيا، أما القلوب الحاقدة فهي كالحنظل مر الطعم، وسيء الرائحة، وكم هي فقيرة تلك القلوب المتخشبة التي لا تنبض شرايينها وأوردتها إلا بالكره والحقد، وتتفجر من أعماقها كل معالم الجمود فهي كالصخور الصماء لا تتفجر منها قطرة ماء ولا تنبت في زواياها نبتة خضراء وإذا ما هطلت عليها أمطارعواطف الآخرين سرعان ما تنزلق عنها؛ لأنها مغلقة من جميع جهاتها ليس بها منفذاً يسمح بدخول شيء من المشاعر والأحاسيس إليها أو الخروج منها.

رحم الله ذلك «الشيخ» الجليل كم افتقدته! فقد كان إنسانا رائعا لا أستطيع وصف روعته، ومن باب الوفاء له بعد وفاته، لم يمت الود والتقدير بيني وبين «أسرته» أرملته وابنته وابنه «المنغولي»، فليس من المستساغ أن أنقطع أو أتخلى عنهم، فقد كانت لهم أفضال علي لا تُنسى ولا تُوصف. بقيت متواصلا معهم حتى بعد ذهابي عنهم،

لم يمر يوم دون أن أتصل بهم للإطمئنان عليهم، وهم كذلك كانوا يتصلون للاطمئنان علي. تعلمت من تعاملهم الإنساني معي أن المشاعر الإنسانية الطيبة تتولد في القلوب الطيبة فتأتي بثمرات طيبة.

تعلمت من وفائهم معي أيضا أن العلاقات الإنسانية الطيبة هي تلك العلاقات الطبيعية التلقائية التي تنبع من القلوب الطاهرة فتصبح كالثمرة الناضجة على أغصانها، وليست كالثمرة المهجنة التي تتدخل الهندسة الوراثية في تفخيم حجمها.

تجربة وظيفية فاشلة

بعد وفاة «الشيخ» المرحوم، وما حصل لي بعد «وفاته» من ظروف وتصفية حسابات مع «أبنائه وأشقائه» ورفضي عرض «أرملته وابنته» بعدم رغبتي في إكمال العمل في شركة المرحوم، ومن ثم سفري في رحلة استجمام روحية، وجسدية، ودينية، لمكة المكرمة، والمدينة المنورة، ومن ثم عودتي، وبقائي فترة دون عمل عدة أسابيع منشغلا خلالها بالاهتمام بتأثيث منزلي.

بعدها توجهت لعدة قطاعات حكومية للبحث عن وظيفة تناسب تخصصي، رغم أن وزارة الشئون الاجتماعية عرضت علي وظيفة إدارية في أحد فروعها بصفتي أحد (أبنائها) كما يطلقون علينا نحن (مجهولي الأبوين) بأننا أبناء دور الرعاية ولنا معاملات ومميزات تفضيلية، وأولوية في الوظائف المتاحة في الشئون الاجتماعية، لكنني رفضت عرض الشئون الاجتماعية لعدة أسباب، من تلك الأسباب محاولتي الابتعاد عن بيئة الشئون الاجتماعية التي لا أريد العودة لها بعد تحرري من دار الرعاية، كذلك لا أريد أن أتذكر سنوات الوحدة والحرمان التي عشتها في طفولتي في الشئون الاجتماعية.

كذلك من أسباب عدم رغبتي بالعمل في الشئون الاجتماعية أنني أريد أن أخوض تجربة وظيفية جديدة أمارس فيها تخصصي الأكاديمي في «علم الإدارة» وأقوم بتطبيق كل ما تعلمته بالجامعة من

مبادئ وسلوك علوم الإدارة على أرض الواقع، فلن أستفيد مما تعلمت أو أفيد ما لم أطبق ما تعلمته على أرض الواقع الوظيفي كممارسة.

وجدت بالصدفة «إعلانا» بأحد الصحف المحلية عن وجود وظيفة «مدير شئون موظفين» شاغرة بأحد الجهات الحكومية الخدمية في منطقة تبعد عن مدينة الرياض - التي أسكنها - ما يقارب (480 كيلا) شمال شرق العاصمة الرياض، ومحدد في الإعلان تاريخ سيتم فيه عمل مقابلات شخصية للمتقدمين على هذه الوظيفة، وهناك معايير ومن تتوفر فيه هذه المعايير سيكون هو الفائز بالوظيفة، ذهبت مباشرة بأوراقي لمكتب هذه الجهة الحكومية الموجود بشارع الوزرات بالعاصمة الرياض الذي سيتم فيه التقديم، شرحوا لي مواصفات الوظيفة، كانت وظيفة على البند «المؤقت» ليست وظيفة رسمية، بمعنى أن العقد يكون عقدا يجدد سنويا، ويتم تجديده عن طريق مدير الدائرة الحكومية نهاية كل سنة. وعادةً الوظائف بعقد مؤقت تخضع لمزاج وتقييم المدير المباشر ويخضع هذا العقد لحاجة العمل.

ترددت عندما علمت أنها وظيفة على «بند مؤقت» لكن نظرا لعدم وجود فرص وظيفية كثيرة في الدولة في ذلك الوقت، كذلك كان راتب هذه الوظيفة مجزيا ومغريا ويتضمن العقد عدة امتيازات منها تأمين السكن، والإعاشة، وتخصيص سيارة خاصة للعمل، من هذا المنطلق عزمت أمري قائلا لنفسي «عصفور باليد أفضل من عشرة على الشجرة»، وقررت أن أخوض هذه التجربة بكل إرهاصات وتبعاتها ومخاوفها، وأجرب حظي فيها، توكلت على الله وسلمت أوراقي للموظف

المختص، حدد لي تاريخ المقابلة الشخصية ويوم الاختبار.

عدت لهم في اليوم المحدد، وجدت عددا كبيرا من المتقدمين يتنافسون معي على هذه الوظيفة، اعتراني وقتها خوف وتوقعت أن الوظيفة قد لا تكون من نصيبي، خاصة أنني أعرف مسبقا أن هناك محسوبيات وعنصرية قبلية ومناطقية وواسطات تحدد مصير كثير من الوظائف مسبقا لمن يملك «واسطة» خاصة في ظل مجتمع قبلي طبقي يؤمن «بالفزعات والشفاعات» والسطو على حقوق الآخرين بقانون المحسوبية والمجاملة و«الواسطة»، لم يكن أمامي خيار سوى خوض التجربة. توكلت على الله ودخلت الاختبار قائلا لنفسي: إن كان لي نصيب في هذه الوظيفة فسيحقق الله ذلك، وإن لم يكن لي نصيب في هذه الوظيفة فالخيرة فيما اختاره الله.

بعد أسبوع اتصل علي شخص من تلك الجهة الحكومية يزف لي البشرى بأنني من حصلت على الوظيفة وعلي التوجه لهم وتوقيع العقد، ذهبت ووقعت العقد، تم إبلاغي أن مباشرة العمل بالمقر الرئيس للجهة الحكومية التي بها الوظيفة بعد أسبوع من تاريخ استلامي العقد. كانت المدينة التي بها مقر العمل تبعد عن العاصمة الرياض ما يقارب «أربعمئة وثمانين كيلا» من الشمال الشرقي لها قريبة من حفر الباطن. وهي مسافة ليست كبيرة وبالإمكان الوصول لها بالسيارة خلال أربع ساعات، قررت أن أسافر لها بالسيارة لأني أعشق السفر البري، لعدة أسباب منها: حبي لاكتشاف عادات وتقاليد المجتمع خارج الرياض، كذلك كون الجو ربيعيا جميلا مناسبا للسفر

بالسيارة، والطريق جيد ومزدوج وسريع.

في عصر اليوم التالي جهزت سيارتي للسفر، وقمت بشراء خريطة جغرافية تعريفية توضح لي المدن، والهجر، والقرى ومعالم الطريق. قررت أن أحاول اكتشاف كل مدينة أو هجرة أو قرية أمر بها، وأعرف ما فيها من معالم وآثار تاريخية، وأسواق تراثية، ومكتبات، وخططت أن أمكث في أية مدينة أو هجرة تعجبني يوما أو يومين. كنت أعتبر السفر سياحة فكرية، وسياحة روحية وبصرية يتكشف فيها المسافر معالم وثقافة وآثار كل مدينة وهجرة وقرية يمر بها.

كان لدي عشق للتعرف على عادات وتقاليد وتراث كل قرية أو مدينة أمر بها، وكنت أفتح حوارات وتساؤلات مباشرة مع كبار السن واستمتع بحكاياتهم، وأستفيد من خبراتهم وتجاربهم، وأفتح حوارات مع الباعة، وأصحاب المطاعم حتى لو كانوا وافدين من باب «تحدث لأعرفك» فلن تعرف سلوكيات وأنماط وتقاليد البشر ما لم تتحدث معهم، وتسبر أغوارهم وتحاورهم حوارا مباشرا، وتخالطهم وتعيش واقعهم.

أكملت طريقي متجها للمدينة العسكرية التي سيكون بها عملي، كنت متفائلا أن تلك الجهة الحكومية سيكون فيها إنصاف وعدل وظيفي، واحترافية في العمل ما دام أن معايير التوظيف فيها تخضع للأجدر والأفضل من ناحية الشهادات والمقابلة والأفضل في اجتياز اختبار القبول، ولم تخضع للمحسوبية و«الواسطات» والعنصرية

القبلية، كان هذا الأمر مريحا لي وسببا في تفاؤلي.

وصلت لتلك المدينة العسكرية قبل اليوم المحدد لمباشرتي بالعمل بيومين، لا يوجد بها فنادق أو شقق للسكن المؤقت، ولذا كان علي الذهاب لمدينة حفر الباطن التي تبعد عن المدينة العسكرية ما يقارب (80 كيلا). استأجرت غرفة «بفندق هوليدي إن» لكي أرتاح فيها، كذلك للاطلاع على معالم مدينة حفر الباطن وأسواقها، وبعد يومين حان وقت الذهاب لمباشرة العمل، ذهبت للعمل، وجدتها إدارة حكومية داخل المدينة العسكرية. مهامها الرئيسية التشغيل والصيانة لمرافق المدينة العسكرية، كانت هذه الجهة ينتسب لها ما يقارب «ألفين وخمسمئة» موظف مزيج بين عسكريين، وموظفين مدنيين، وعمالة وافدة. كان مدير هذه الجهة الحكومية عسكري برتبة «عميد / مهندس»، له مساعدان برتبة «عقيد»، أحدهما «عقيد» مهندس مديرا للشئون الفنية، والآخر «عقيد» تخصصه إدارة مديرا للشئون الإدارية، وعدد من ضباط ومدراء الأقسام، كانت الوظيفة التي عينت عليها أن أكون «مديرا لشئون الموظفين»، كانت المهمات والواجبات المنوطة بي أن أكون مسئولا عن كل ما يتعلق بالموظفين من المدنيين المواطنين والموظفين الوافدين، أما العسكريين فليسوا من مسئولياتي، والمسئول عنهم ضابط يسمى «ضابط أفراد» ومن المفترض أن يكون ارتباطي المباشر بالمساعد «للشئون الإدارية».

ذهبت مباشرة «لمساعد الشئون الإدارية» دخلت عليه مكتبه، سلمت عليه، وأعطيته قرار تعييني، اكتشفت من حواره معي خوفه

الغريب من المدير العام، ووجه لي رسالة كلامية مفادها، أن «المدير العام شخصية قوية وله نفوذ وهو الآمر الناهي وصاحب القرارالأول والأخير، ويجب أن يكون راضيا عنك في كل شيء، وأن تنفذ جميع ما يأمرك به دون تردد أو مناقشة منك إذا أردت أن تستمر في هذه الدائرة وتكسب ود ورضا المدير العام».

أزعجني كلام «المساعد للشئون الإدارية»، رددت عليه قائلا له: ما أعرفه أن هذه الدائرة دائرة حكومية مؤطرة بأنظمة ولوائح واضحة وتخضع القرارات فيها للنظام المتبع بالدولة، فالمديرالعام - وأنت - وأنا وكل الموظفين «تنفيذيون» نقوم بتنفيذ أنظمة الدولة ولسنا «تشريعيين» حتى نشرع أنظمة حسب «المزاج»، اندهش من كلامي، ورد غاضبا: «أنت تريد «تغني على عشك»؟! لا تنسَ أنك موظف بعقد سنوي مؤقت، وبإمكان المدير العام إلغاء عقدك في أي وقت».

قلت له: الذي أعرفه أن هذه دائرة حكومية حتى لو كان عقدي عقدا مؤقتا فليس من حقه إنهاء عقدي إلا بمصوغات قانونية، أو بتغيبي على العمل، أو أرتكب تجاوزات قانونية أو أخلاقية.

زاد غضب «المساعد للشئون الإدارية» من كلامي وقال لي: «لسنا بحاجة لمحاضرات أو دروس في الأنظمة، عليك الذهاب لعملك في شئون الموظفين، ولا تستلم العمل حتى تتم مقابلة المدير العام بعد عودته، فهو الآن مسافر للرياض لحضور اجتماع وسيعود بعد يومين، وعليك أخذ التعليمات من المدير العام مباشرة، ولا تتخذ أي قرار أو

أية خطوة حتى لو كانت نظامية ما لم يكن المدير العام موجودا ويعطيك الموافقة المبدئية.

خرجت من مكتب «المساعد للشئون الإدارية» مصدوما، وقد خالجني انطباع أن هذا «المساعد» مجرد شخصية هلامية مصاب «بفوبيا» الخوف من المدير العام، وليس بيده حل أو ربط، ولم أرتح لكلامه وسلبيته فهو في نظري مجرد ظل «للمدير العام» يحركه المدير كيف يشاء. انقلب تفاؤلي الذي كنت أعتقده أثناء قدومي للعمل بأن هذه الجهة الحكومية سيكون بها إنصاف وعدل وظيفي واحترافية في العمل ما دام أن معايير التوظيف فيها تخضع للأجدر والأفضل من ناحية الشهادات والمقابلة والأفضل في اجتياز القبول، ولم تخضع للمحسوبية و«الواسطات» والعنصرية القبلية، كان هذا الأمر مريحا لي في بادئ الأمر عندما تم اختياري لهذه الوظيفة، وبعد مقابلة «مساعد الشئون الإدارية» تحول التفاؤل في نفسي إلى تشاؤم.

ذهبت لقسم «شئون الموظفين»، وتفاجأت أثناء دخولي للقسم بتسيّب واضح وبفوضى مكانية، ومكتبية، وسلوكية. فمعظم الموظفين وجدتهم بالممرات يتبادلون النكت، يقومون بالتدخين والمعاملات باقية متكدسة على مكاتبهم بطريقة فيها شيء من الإهمال والفوضى وعدم الاهتمام، والمكاتب غير منظمة أو مرتبة. سألت أحد الموظفين عن المسئول عن القسم، أشار إلى مكتب في نهاية الممر قائلا: هناك مكتب «مشرف» القسم فهو المشرف بشكل مؤقت.

ذهبت للمكتب المشار إليه ووجدت داخله موظفا جالسا على المكتب ومعه موظفان جالسان بطريقة هي أقرب لجلسة «مقهى شعبي» أكثر من كونها جلسة عمل في مكتب حكومي. سلمت عليهم، كان سلامهم واستقبالهم باهتا وباردا «قلت معكم «...» موظف جديد معين على وظيفة مدير شئون الموظفين. فجأة عندما علموا أنني «مدير شئون الموظفين الجديد»، عدلوا من جلستهم وقاموا يصافحونني بحرارة وود، لم يعجبني حقيقة تغير أسلوبهم فجأة، فهم لم يحترموني كشخص وكإنسان عندما دخلت عليهم قبل أن يعرفوا أنني سأكون «مديرهم»، بل تغير أسلوبهم للأفضل عندما علموا أنني سأكون مديرهم بطريقة فيها نفاق ومجاملة وتزلّف واضح ومن طبعي لا أحب النفاق أو المجاملة من أجل منصب أو من أجل منفعة، فمن لم يحترمني كإنسان وكشخص، لا أرغب أن يحترمني من أجل منصب زائل!؟

خرج «الموظفان» اللذان كانا بمكتب المشرف وبقيت بمكتب المشرف الذي لم يكن باديًا عليه الارتياح لوجود «مدير جديد لشئون الموظفين» بعد أن كان ذلك «المشرف» الرجل الأول فيها بصفته مديرها بالنيابة.

لاحظت أن الموظفين يحضرون لمكتب «المشرف» ينظرون لنا من باب المكتب ومن ثم يذهبون، فهمت أن الموظفَيْن اللذين خرجا من مكتب المشرف عندما دخلت عليهم وعرفتهم بنفسي هما من أخبر الموظفين بأنني المدير الجديد لشئون الموظفين، وفضول الموظفين كان محركا لهم بأن يروا «المدير الجديد»!؟

مكثت جالسا بمكتب المشرف حتى نهاية الدوام، ومن ثم ذهبت للسكن الذي استأجرته بشكل مؤقت حتى أستلم سكناً من عملي حينما يعود «المدير العام» من سفره.

في اليوم التالي حضرت للعمل وبقيت دون عمل، انزعجت حقا أن يمر «يومان» دون أن أستلم عملاً أو مكتبًا، طلبت تسليمي مكتبًا لأبدأ العمل، قيل لي: لن يتم تسليمك مكتبًا أو سكنًا أو مهمات عمل حتى يعود «المدير العام» من مهمته. قلت بيني وبين نفسي: هل أنا موظف عند «المدير العام» أم موظف في دائرة حكومية من المفترض أن يكون لها أنظمة مؤسسية سارية المفعول، تطبق على الجميع سواء بوجود «المدير العام» أو بوجود نائبه؟!

واستغربت أكثر عندما علمت من «مدير الممتلكات» وهو ضابط برتبة «رائد» أن مكتب مدير شئون الموظفين مؤثث وجاهز ولا أحد يشغله، كذلك يوجد سكن حكومي جاهز وسيارة رسمية مخصصة لمدير شئون الموظفين، لكن لا أحد يستطيع صرف أي شيء من ذلك إلا بحضور «المدير العام»، لا أعلم ما هو دور «مساعدي المدير العام ومدير الممتلكات»، إذا كان المدير العام هو الكل في الكل وبقية المساعدين وضباط ومدراء الأقسام مجرد «كومبارس» لا أهمية ولا دور لهم، وليس بأيديهم صلاحيات حتى في أمور روتينية لا تحتاج اتخاذ قرارات ويتم تعطيل كثير من المعاملات ومن مصالح الموظفين بسبب غياب المدير العام؟!

انتظرت مدة «ثلاثة أيام» حتى عاد المدير العام من الرياض، ذهبت مباشرة لمكتبه لمقابلته، انتظرت ما يقارب «الساعتين» قبل مقابلته، كنت قد سمعت عنه من الموظفين أنه إنسان غليظ متسلط يؤمن بالمركزية المفرطة والاستبداد والتسلط الوظيفي والتفرد بالقرار، وتحويل جميع ضباط ومدراء الأقسام إلى مجرد ظل له، ودمى يحركهم كيف يشاء، ولا أحد منهم يستطيع بتاتا البت في أي موضوع أو أخذ أي قرار حتى لو كان هذا القرار روتينيًّا ونظاميًّا إلا بوجود وموافقة المدير شخصيا، وفعلا رأيت ما سمعت على الطبيعة، فعند دخولي عليه وجدت رجلا متجهما لن أكون مبالغا لو قلت إنه لو كان هناك جائزة تمنح لـ «المتغطرس الأول بالكون» لحاز عليها ذلك المدير دون منازع، فقد وجدته «كطاووس» مزهوا بنفسه لا يرى الناس شيئا.

سلمت عليه: رد علي السلام بفوقية، وغطرسة، ثم قال لي: مباشرة دون مقدمات وبطريقة فظّة «عليك استلام عملك «بشئون الموظفين»، وإن كنت تريد أن تستمر فعليك أن لا تشك خيطا بإبرة إلا بأمري».

قلت له: سعادة المدير هناك أمور إدارية روتينية متعارف عليها نظاميا، وقانونيا، وإداريا، لا تحتاج لموافقة من سعادتكم، ومن صالح العمل أن لا نرسل لك إلا الأمور التي تحتاج منكم اتخاذ قرار، حتى نخفف على سعادتكم شيئا من أعباء العمل، كذلك من أجل تنظيم العمل وتوزيع الصلاحيات، والتيسير على الموظفين والمراجعين، وإنهاء أمورهم الروتينية وهذا كله في صالح العمل، وسنقوم بتزويد سعادتكم

بنسخ من أي إجراء قانوني وإداري وروتيني للعلم والاطلاع والإحاطة.

نظر لي نظرة فيها الكثير من الغضب والحنق، ثم رد قائلا: أنا هنا صاحب القرار وأعرف جيدا ما هي مصلحة العمل، وأسير العمل على قاعدة لا أنت ولا غيرك من ينقضها أو ينتقدها، ولا تنسَ أنك موظف على «بند العقود المؤقتة»، وتقييمك وتجديد عقدك السنوي بيدي وممكن أن أستغني عنك لو «شفت نفسك» علي أو تمردت على أوامري.

خرجت من مكتبه متشائما متضايقا، فقد كان كلامه معي فيه شيء من الفوقية والتهديد المباشر، عدت لمكتبي بشئون الموظفين محبطا، طلبت من «المشرف» الذي كان مكلفا بإدارة قسم شئون الموظفين قبل تعييني مديرا له، طالبا منه تزويدي بنسخة من الهيكل الوظيفي والتنظيمي لجميع الفروع والأقسام وعدد الموظفين بالأقسام ليكون لدي إلمام تام بالعدد والوظائف الشاغرة والوظائف المشغولة. أحضر لي «المشرف» من الأرشيف الهيكل الوظيفي والتنظيمي وعدد الموظفين. وجدت أن عدد الموظفين بجميع الأقسام الإدارية والفنية، ما يقارب «ألفين وخمسمئة» موظفا، الثلث منهم مواطنون والبقية وافدون.

لكن ما أثار استغرابي، أنني وجدت أن هناك بعض المشرفين ومدراء وموظفي الأقسام غير متخصصين، ولا توجد لديهم المؤهلات العملية أو الإدارية التي تخول لهم أن يديروا تلك الأقسام، ومنهم على

سبيل المثال «المشرف» المساعد لي في شئون الموظفين كان تخصصه «ميكانيكي» معدات ثقيلة، وشهادته العلمية «ثاني ثانوي + شهادة معهد مهني تخصص ميكانيكا معدات ثقيلة»، وبقدرة قادر أصبح «مشرفا» لشئون الموظفين وتحت إدارته موظفون يحملون شهادات جامعية، وأقدم منه بالعمل وأكثر منه كفاءة، لم يكن مؤهلا أن يدير من هم أفضل منه شهادة وقدرات.

لم يكن ذلك «المشرف» هو الموظف الوحيد الذي يشغل وظيفة لا تتناسب مع مؤهلاته وقدراته، وتخصصه، بل كان هناك عدد من الموظفين يعملون في غير تخصصاتهم، وفي مراكز وظيفية لا تتناسب مع قدراتهم.

كان الأمر بالنسبة لي مريبا، وبدأت تساؤلات فضولية تدور في رأسي، كيف وصل هؤلاء الموظفون لتلك «الوظائف» الإشرافية وهم لا يملكون معايير أو شهادات تخولهم لشغل هذه الوظائف؟!

كان في شئون الموظفين عدة شباب جامعيين، لكن كان هناك موظف «شاب» يحمل مؤهلا جامعيا، وله كما عرفت ما يقارب «سنتين» في العمل، كان شابا جادا، هادئا، متزنا، مثابرا، ومهتما بعمله. أراه دائما منكبا على إنهاء المعاملات بمكتبه لا يجتمع مع غيره من الموظفين الذين أشاهدهم يتجولون في المكاتب وفي الممرات، يهدرون وقتا كبيرا من دوامهم في الدردشة، والتدخين، والتسيّب، أعجبت بذلك «الشاب» وارتحت له شعوريا لذلك، وتوسمت فيه النضج وحسن

التفكير والانضباط والمثابرة في عمله.

طلبت من ذلك الموظف «الشاب» أن يحضر لمكتبي، وعندما حضر لمكتبي أثنيت على سلوكه الوظيفي الجيد، وعلى ما يبذله في عمله من جهد.

وقلت له: حقيقة أنت الموظف الذي أعجبت باهتمامك بعملك، وأتوسم فيك الخير، وأريد أن أستفيد من وجودك بصفتك لك «سنتين» تعمل في شئون الموظفين، وأريد أن أطرح عليك بعض التساؤلات والاستفسارات التي لم أجد لها تفسيرا، ووقفت أمامها كثيرا، وأريد منك إن كان لديك تفسير لها أن تفيدني بها.

قال لي: «أبشر» بكل سرور إن كنت أملك الإجابات سأفيدك بها.

قلت له: بعد اطلاعي على الهيكل التنظيمي والوظيفي وجدت أن هناك وظائف إشرافية، وإدارية، يشغلها موظفون لا تتوافق هذه الوظائف مع قدراتهم وشهاداتهم وتخصصاتهم، ومنهم على سبيل المثال مشرف «شئون الموظفين» هذه الوظيفة يشغلها شخص تخصصه «ميكانيكي معدات ثقيلة» وشهادته ثاني ثانوي، مع أنك وزملاءك الجامعيين أولى بشغل هذه الوظيفة، فما هو السبب أو المسوغ القانوني الذي أوصل مثل هؤلاء الموظفين لمناصب ووظائف لا تنطبق عليهم المعايير الإشرافية والوظيفية لشغلها؟.

تنفس بعمق وكأنني لامست جروحا في نفس ذلك الموظف،

ثم قال: أنت تعلم أننا في دائرة حكومية مهمتها الأساسية التشغيل والصيانة، وجميع الموظفين فيها على «بند العقود المؤقتة» وليست وظائف رسمية، والمدير العام هو المتحكم وصاحب القرار في هذه» الوظائف» يعيّن الموظفين حسب مزاجه فمن يريده أن يكون مشرفا أو مديرا لأي قسم، حسب «الواسطة والمحسوبية»، وليس عبر معايير إدارية أو تخصصية. «والمشرف» الذي ذكرته من نفس المدينة والمنطقة التي ينتمي لها «المدير العام» وبينهما علاقة قربى، وبتوجيه من «المدير العام» تم نقل هذا «المشرف» من قسم ورشة المعدات الثقيلة بعد أن كان يعمل «ميكانيكي» معدات ثقيلة إلى مشرف لشئون الموظفين، وهو ليس الوحيد، فهناك موظفون غيره في معظم الأقسام وصلوا لمناصب إدارية وإشرافية وهم غير مؤهلين لشغل تلك الوظائف، فالمعايير في هذه الدائرة تخضع لسلطة المدير العام وللمحسوبية والشفاعات، وتدخل فيها العنصرية القبلية، والانتماء المناطقي، وتضارب المصالح يلعب دورا مهما في التعيين وفي التقييم.

استغربت واندهشت من حديثة، وقلت له: هل أنت متأكد مما تقول؟

قال: متأكد تماما، ومع الوقت ستكتشف ذلك بنفسك وسترى محسوبيات وتجاوزات غير نظامية واضحة.

قلت له: غريبة؟، قال: ماذا تقصد بقولك «غريبة»؟ قلت: الوظيفة التي عينت عليها، كمدير «لشئون الموظفين» حصلت عليها

بعد اختبارات ومقابلات ودخول منافسة مع متقدمين آخرين وتوافق مع مؤهلاتي العلمية والتخصصية، ورغم ذلك حصلت عليها دون «واسطة» أو شفاعة وهذا دليل على عدم وجود محسوبية أو مناطقية أو عنصرية قبلية في التوظيف والتعيين!

ابتسم: ورد قائلا: صحيح بعد أن كثرت الشكاوي والضغوط تم قبل أشهر قليلة سحب جميع الوظائف الشاغرة للتعيين عليها من قبل الوزارة مباشرة الذي مقرها في العاصمة، وكنت أنت والموظفون الجدد محظوظين أن الوزارة هي من اختبرتكم واختارتكم لشغل تلك الوظائف، وأعضاء اللجنة التي اختارتكم كانوا أمناء مع أنفسهم ومعكم، وقاموا بتطبيق الأنظمة بشفافية ومصداقية دون محاباة أو محسوبية أو «واسطة»، أما سابقا فكان التوظيف يتم بالتعيين المباشر وحسب «الواسطة» والمحسوبية.

قلت له: كيف ترضون كموظفين جامعيين أن تسلب حقوقكم الوظيفية وتعطى لمن هو أقل منكم شهادة وقدرات وتخصص؟

رد قائلا: نحن كجامعيين نعلم أن حقوقنا الوظيفية مهضومة، ومهدرة، لكن في حالة تصادمنا أو تقديم شكوى ضد «المدير» فأعناقنا بيده، وسيكون ردة فعله ضدنا عنيفة، وقد لا يجدد عقودنا الوظيفية نهاية السنة، وسيبرر ذلك بعدم حاجة العمل لنا أو عدم كفاءتنا، من هذا المنطلق خضعنا للواقع وكما قيل «أحيانا الانحناء للعاصفة أفضل من التصادم معها».

وأضاف قائلا: لا تستغرب «إن نالك من هذا الهضم جانب» فما زال تقييم الموظفين وتجديد عقودهم يخضع لسلطات وصلاحيات ومزاج «المدير العام»، فتجديد العقود سنوية، ومن لا يرضى عليه «المدير» فلن يجدد له.

قلت له: لم أتصور يوما أن أنتمي لبيئة عمل فيها هذه الصفات القبيحة من المحسوبية والمركزية، والتسلط، والظلم الوظيفي.

رد قائلا: ماذا تريدنا أن نفعل؟ «اليد قصيرة والعين بصيرة»، تعرف أنه لا يوجد وظائف متوفرة في الوقت الحالي بالبلد، ومن فقد وظيفته فسيكون عرضة للبطالة، وقد لا يجد وظيفة مناسبة، وعندنا التزامات مادية وأسرية تحتم علينا أن نتمسك بهذه الوظيفة بكل علاتها، «فعصفور باليد أفضل من عشرة على الشجرة».

وأضاف قائلا لي: أنصحك أن تأخذ حذرك من «المشرف» الذي ذكرت، فهو أذن وعين «المدير» في شئون الموظفين، يوصل للمدير كل كلمة شاردة وواردة أو أي تذمر يُقال من الموظفين أو من يشتمه أو يريد التمرد عليه. فالمدير العام رجل مغرم ومهووس«بالجاسوسية» ويزرع في كل قسم «مخبرا سريا» يخبره ويصل له كل ما يُقال عنه أو عن إدارته.

انصدمت وأصابني إحباط مما سمعت من سلوكيات شاذة تُمارس في هذه الدائرة الحكومية التي حوّلها ذلك المدير المتسلط إلى بيئة فاسدة تُحاك فيها الدسائس، وتنقل فيها النميمة ويعم فيها

الخوف وعدم الثقة ويُمارَس فيها ظلم ومركزية وتسلط. عاتبت ولمت نفسي أنني تسرعت وقبلت هذه الوظيفة دون تمحيص أو معرفة مسبقة عن الوضع الإداري في هذه الإدارة.

انتهى الدوام الرسمي في ذلك اليوم، عدت لسكني محبطا، ما زال صدى كلمات ذلك الموظف «والشاب الطيب» يجلجل صداها في أذني. صليت صلاة العصر، ورميت نفسي على السرير ونمت مباشرة، دون أن أعمل لي طعام غداء، رغم أنني كنت جائعا، لكن نفسيتي كانت متعبة وعندما أتعب نفسيا أو أكون محبطا لا أشتهي الطعام مهما كنت جائعا. استيقظت من النوم لأداء صلاة المغرب وذهبت أصلي بالمسجد جماعة، ثم ذهبت مباشرة لمطعم قريب من المسجد، كان أكثر من يزور ذلك المطعم «العزاب»، فهو قريب من سكن الموظفين الذين يسكنون وحدهم دون عوائل، كنت جائعا جدا، طلبت وجبة طعام، وأخذت الجريدة اليومية، وجلست أقرأها على طاولة الطعام، منتظرا الوجبة.

فجأة دخل ذلك الموظف والشاب «الطيب» الذي كنت أتحدث معه أثناء الدوام بالمكتب، الذي أعطاني نبذة من سلوكيات قبيحة يُمارسها «المدير العام» والمقربون منه، فرحت وسعدت بقدومه، فقد كنت محتاجا لشخص أبوح و«أفضفض» له وأتحدث معه ويبدد عني شيئا من الوحدة والإحباط الذي اعتراني من جراء ما سمعته من سلوكيات في هذه الدائرة التي سيكون العمل فيها جزءا من حياتي. أصررت عليه أن يجلس معي على طاولتي، وطلبت له وجبة طعام إضافية مع طلبي.

قلت له: منذ سمعت منك بالمكتب صباح اليوم ما ذكرت لي عن ما يُمارس في بيئة العمل من محسوبية، ومن ظلم، ومن «شللية» وزرع «جواسيس» ينقلون للمدير العام «كل كلمة شاردة وواردة» وأنا محبط. فأسوأ ما يمر به الإنسان عندما يكون عمله في بيئة مليئة بالتوجس والخوف والدسائس وعدم العدل والتهميش والمركزية.

رد علي قائلا: عليك أن تتكيف مع الوضع، وأهم شيء أن تراعي الله، وتراعي ضميرك، وتبذل قصارى جهدك في عملك، فنحن نعرف أن «المدير العام» رجل ظالم ومتسلط، لكن نحن نعمل في جهة حكومية ونحصل على رواتبنا من الدولة مقابل عملنا، والمدير مهما كان مستبدا، فهو لا يمثل إلا نفسه، صحيح أن تصرفاته ومركزيته وظلمه أثر علينا سلبا، وهضم وصادر حقوقنا، لكن علينا أن لا ننتقم من تصرفات «المدير» بإهمالنا أو تقصيرنا بالعمل مثل غيرنا «فكما قال الله تعالى» كل نفس بما كسبت رهينة..»، والمثابرة في العمل جزء من أمانة الضمير، وجزء من الوطنية، فليس مهما أن يكون ولاؤنا «لمدير» قد ينقل أو يتقاعد، أو يموت، فالأهم أن يكون ولاؤنا لله، ثم للدولة والوطن فهم من سيبقون لنا مدى العمر.

كان كلام ذلك «الشاب» منطقيا، وجميلا، وناضجا، ووافقته تماما فيما ذهب إليه، ولم يخب ظني وحدسي في ذلك «الشاب»، فقد كنت أتوسم فيه النضج والخير، وقد راهنت عليه بيني وبين نفسي، كان رهاني في محله، وعرفت أن اهتمامه بعمله وبقاءه أكثر وقته في مكتبه منكبا على إنهاء ما لديه من معاملات وعمل، أنه بذلك يطبق

ما ذكره لي على حقيقته تطبيقا عمليا، وليس تنظيرا، كبر قدر ذلك الشاب في نظري وبدأت أرتاح له أكثر، بعد انتهائنا من تناول الطعام، وعزمنا على الخروج من المطعم قلت له أشكرك على نبل مشاعرك وصدق نصيحتك، حقيقة كنت محبطا ومتشائما، لكن كلامك كان له أثر إيجابي على نفسي، وبدد شيئا مما أحس به من إحباط ومن تشاؤم والدقائق التي جلستها معك أراحت نفسي مما أحس به من ضيق وملل، ومن وحدة قاتلة.

رد علي قائلا: ما هو برنامجك اليومي بعد الدوام؟ قلت له: لا يوجد عندي برنامج محدد بعد الدوام أعود لسكني، وأنام، ومن ثم أصلي المغرب، وبعدها أمارس رياضة المشي، وبعد صلاة العشاء أعود للسكن أزاول شيئا من القراءة ومشاهدة التلفاز، فكما تعلم أنني غريب على هذه المدينة، وجديد على هذه الوظيفة، ولا أعرف أحدا فيها أو أماكن ترفيه فيها.

قال لي: ما رأيك أن تمارس معي رياضة لعبة كرة السلة، وبعدها نذهب للمسبح، فهنا قسم اسمه «خدمات الترفيه»، يحتوي على صالة رياضية مجهزة بمعدات رياضية، وملعب للعب كرة السلة، واليد، والطائرة، وملعب سداسي لكرة القدم، ومسبح «أولمبي» واسع وممتاز ملحق به غرفة «ساونا، وجاكوزي»، وهناك أيضا مكتبة يتوفر بها عدة كتب، ومجهزة بأرائك جلوس مخصصة للقراءة، وكل تلك الخدمات مجانا فهي مخصصة للترفيه عن الموظفين وما عليك سوى إبراز بطاقة العمل التعريفية لموظف الاستقبال.

قلت: جزاك الله خير، لقد أسديت لي معروفا عندما ذكرت لي هذه الخدمات الترفيهية، فأنا في حاجة ماسة أن أقضي على وقت الفراغ الذي أعيشه، وأفضل شيء أن أهدر طاقتي ووقتي بشيء مفيد، وأنا من عشاق الرياضة ومن هواة القراءة.

أخذت منه وصفا لمكان قسم «خدمات الترفية» عدت لسكني، وارتديت ملابسي الرياضية، وذهبت مباشرة لقسم خدمات الترفيه.

كان قريبا من سكني، ذهبت له مشيا على الأقدام، وجدت ذلك «الشاب» قد سبقني إليه، وعند دخولي لقسم الترفيه أعجبت به إعجابا كثيرا. فقد كان مميزا وراقيا ويوجد فيه جميع الخدمات والأجهزة والإمكانيات. انخرطت في التمارين اللياقية تحت إشراف مدربين متخصصين، بعدها ذهبنا للمسبح، ومن ثم للمكتبة للقراءة. رجعت لسكني بعد ذلك مسرورا وسعيدا، والفضل يعود لله ثم لذلك «الشاب الطيب».

صحوت صباح اليوم التالي، وذهبت للعمل بتفاؤل وبنفسية متجددة، عازما أن أخلص في عملي ليس من أجل «المدير العام» إنما من أجل إرضاء الله، وإرضاء ضميري، ونوع من ولائي لوطني. اتخذت قرارا أن أقوم بتوزيع مهام العمل بصفة عادلة على جميع الموظفين دون محاباة لأحد أو مجاملة أحد، وقبل توزيع العمل أخذت نبذة عن قدرات الموظفين، وذلك بالاطلاع على ملفاتهم، وعلى سير عملهم، انتظرت أسبوعا، أراقب الموظفين وأجمع معلومات عنهم، بعد أسبوع

أعددت تقريرا خاصا بكل موظف، كان يوجد في شئون الموظفين «اثنان وثلاثون» موظفا، وبعد التقصّي لعملهم، وسلوكياتهم الإدارية، وجدتهم ينقسمون إلى ثلاث فئات:

الفئة الأولى: فئة سلبية بكل معاني السلبية، حضورهم للعمل من أجل توقيع الحضور والانصراف فقط، ليس بينهم فرقٌ وبين الطاولات والكراسي التي يجلسون عليها، كل همهم توقيع الحضور في بداية اليوم وتوقيع الانصراف في نهاية اليوم، لا يقومون بأي عمل محسوس، ولم أرَ منهم أي إنتاج عملي بتاتا، يعتقدون أن الوظيفة جمعية خيرية أو ضمان اجتماعي يصرف لهم راتبا نهاية كل شهر دون مقابل، ولو تم ربط رواتبهم بالإنتاج لوجدوا رواتبهم آخر الشهر صفرًا، فهم لا ينتجون شيئا ووجودهم بالعمل كعدمه.

الفئة الثانية: فئة متنفذة، ومتغطرسة، وهؤلاء هم أصحاب المحسوبية الذين جاءوا للعمل عبر بوابات «الواسطة» أو المحسوبية، أو لهم قرابة أو علاقة مباشرة أو غير مباشرة مع المدير العام، فهؤلاء الموظفون يملكون نفوذا وسطوة، ومدعومين من قبل المدير العام، يحصلون على جميع الامتيازات، والدورات والانتدابات، والإجازات، والاستراحات الطبية غير الحقيقية، وهؤلاء الموظفون يمثلون عبئًا على العمل وعبئًا على الدولة، ولا أحد يستطيع محاسبتهم أو فرض عمل معين عليهم، فهم محاطون بسياج يحميهم اسمه «المدير العام».

الفئة الثالثة: وهم الموظفون الإيجابيون الذين يعملون بذمة وإخلاص وضمير وخوف من الله وحب في العمل، مع أنهم قلة، لكنهم مظلومون بتكريس معظم العمل عليهم، ورغم اجتهاداتهم ومثابراتهم، لكنهم موظفون تقليديون نمطيون، لا يوجد لديهم ابتكار أو إبداع في العمل. وهذا ليس ذنبهم، فهم محرومون من الدورات التأهلية التي تصقل مواهبهم، فإذا جاءت نشرات للدورات تذهب هذه الدورات بقدرة قادر إلى أصحاب النفوذ والعلاقات والمحسوبية.

أزعجني هذا التباين الصارخ بين الموظفين، وما يمارسونه من سلوكيات سلبية، وعدم إيمانهم بالاحترافية في العمل، ولذا حاولت أن أنشر ثقافة وأخلاقيات العمل بين الموظفين وحررت خطابا عبارة عن «اقتراح» للمدير العام.

وهذا الاقتراح عبارة عن ورقة عمل تتضمن عدة نقاط، وتشتمل على المحاور التالية: نشر ثقافة وأخلاقيات العمل - أهمية توزيع العمل بين الموظفين- أهمية نشر ثقافة الأمانة المهنية - أهمية معرفة الموظف لما عليه من واجبات وما له من حقوق - أهمية إدارة الذات الوظيفية - أهمية ولاء وانتماء الموظف للمنشأة التي يعمل بها.

أرسلت الاقتراح «للمدير» مرفقا معه «محتوى لكل محور».

جاء الرد محبطا وصاعقا لي، فقد علق المدير على «الاقتراح» بسخرية وفوقية وعدم مسئولية منه، ومعلقا بعبارات تهكم مكتوبة على «الاقتراح»، قال فيها: «لسنا في نادٍ أدبي أو في وزارة الإعلام أو وزارة

العمل لنشر ثقافة العمل»، ثم وضع أكثر من علامة استفهام وتعجب»؟!

رغم أن «اقتراحي» الهدف منه رفع قدرات الموظفين وتأهيلهم وهم على رأس العمل وليس من أجل هدف آخر.

شاهد الاقتراح «مساعد مدير الشئون الفنية»، وهو ضابط برتبه (عقيد- مهندس) وهذا العقيد، رجل متعلم، وخلوق جدا، يخاف الله كثيرا، ويملك فكرا احترافيا في العمل ورؤى إيجابية، ورغم أنني لم أقابل ذلك «العقيد» إلا بالصدفة في مكتبه «قسم الترفيهي لمدة دقائق خاطفة»، وليس لي معه علاقة عمل، فعلاقتي المباشرة مع «المساعد للشئون الإدارية» أعجب «المساعد للشئون الفنية» بالاقتراح بعد أن شاهده على مكتب سكرتير المدير العام، اتصل على مكتبي وغمرني بكلمات إطراء وثناء على «اقتراحي»، وأضاف قائلا: اتصل فيك بصفتي الشخصية، وليس بصفتي الوظيفية، وأحببت أن أشكرك على «اقتراحك» الجميل الذي إن دل على شيء فإنما يدل على احترافيتك في العمل، فكم أكون سعيدا عندما أرى «شابا» ومواطنا يملك فكرا إداريا راقيا مثلك، ويجب أن لا يحبطك رد «المدير» على اقتراحك فهذه وجهة نظره، وعليك تقبلها بكل علاّتها، لكن الأهم أن لا تحبط «فاقتراحك» جيد ويستحق الثناء.

رددت عليه قائلا: أشكرك على إطرائك النبيل الذي لا يستحقه شخصي المتواضع، ويعلم الله أن هدفي من «الاقتراح» هدف نبيل من أجل رفع قدرات الموظفين، ونشر ثقافة وأخلاقيات العمل، وليس

القصد منه إبراز نفسي أو من أجل المزايدة على أحد.

قال: بإذن الله أتقابل معك مساء الليلة في المكتبة الموجودة بقسم الترفيه، وسأوضح لك عدة أمور ففي «فمي الآن ماء» سأتحدث معك لاحقا.

وضعت سماعة الهاتف متوقعا أن يكون عند «المساعد» أحد في مكتبه ويخشى أن يوصل حديثنا للمدير، جلست متأملا عدة دقائق، يا ترى ما هو الدافع الذي جعل «المساعد للشئون الفنية» أن يتصل بي دون مقدمات أو معرفة بيننا، ويقول لي كل هذا الإطراء والإشادة؟ هل هذا الاتصال يقصد منه تحفيزي والإشادة «بالاقتراح» أم أن هناك قصدا آخر «ووراء الأكمة ما ما وراءها؟!

بقي هذا التساؤل مسيطرا على تفكيري لمدة ساعة، دخل علي ذلك «الشاب» والموظف الرائع الذي يعمل تحت إدارتي في شئون الموظفين. أفادني بمعلومات وافرة، وحفزني على أن يكون عملي من أجل إرضاء الله وإرضاء ضميري ومن أجل الوطن، كذلك هو من دلّني على قسم الترفيه، والمكتبة، وبدد عني الملل والوحدة، قلت له: ممكن سؤال؟ قال: تفضل، قلت: ماذا تعرف عن «المساعد للشئون الفنية»، قال: هذا الرجل من أنبل وأفضل من تتعامل معهم، ويملك فكرا وسلوكا قويما، وهو نقيض المدير العام تماما، وليس بينه وبين المدير العام توافق.

عرفت أن اتصال وإشادة «المساعد للشئون الفنية» نابع عن

قناعة وعن تضامن معي بعد تهكم المدير على «اقتراحي»، وأن فكر «المساعد» يختلف عن فكر المدير شكلا ومضمونا.

انتهى الدوام الرسمي، ذهبت لسكني، وبعد صلاة المغرب ذهبت للتمرين بالصالة، ومن ثم ذهبت للمكتبة، وجدت «المساعد للشئون الفنية» في أحد زوايا المكتبة المجهزة بأرائك وطاولة جلوس، كان الركن مخصصا «لمساعد الشئون الفنية» فهو من رواد المكتبة ومن عشاق القراءة، رحب بي ترحيبا حارا، ودار بيني بينه الحوار التالي:

بدأ معي الحديث قائلا: قد تستغرب اتصالي بك اليوم، وإشادتي «باقتراحك» لكنني أتضامن مع كل موظف واعٍ، وأعرف مدى القمع والتهميش الذي يجده كل موظف طموح في هذه الدائرة، ومن منطلق إعجابي باقتراحك الذي يحتاجه فعلا الموظفون بهذه الدائرة، وتغيير نمط تفكيرهم وتهذيب سلوكهم الإداري، وقد ساءني رد «المدير العام» على اقتراحك الذي كان الأحرى به أن يشكرك ويشجعك على الاقتراح لا أن يقتل طموحك ويصادر آراءك.

رددت عليه قائلا: يعلم الله أن تقديمي «الاقتراح» مبادرة شخصية مني لا أرجو من ورائها جزاء ولا شكورا، لكن من باب رفع قدرات الموظفين، والإنتاج والتدريب على رأس العمل، وهذا سلوك إداري تنتهجه عده قطاعات تبادر بتدريب ورفع قدرات الموظفين لديها.

وكان ذلك من باب نشر ما تعلمته من دراستي الجامعية، فتخصصي «إدارة عامة» كذلك من خبرتي الوظيفية السابقة، وأحببت

تطوير الفكر الإداري للموظفين.

قال: أعلم ذلك واقتراحك جميل، لكن للأسف لقد اخترت الطريق الخطأ، فالمدير لا يؤمن بهذه الأفكار الإيجابية ويعتبرها خطرا وتمردا عليه، فهو يعتبر نفسه هو الفاهم الوحيد وصاحب القرار الصحيح، والبقية يجب عليهم أن يخضعوا له حتى في أفكارهم، ولا يريد أن يكون تحت إدارته أحد ذو فكر جيد، ومع الأيام ستكتشف بنفسك أن اقتراحك سيسبب لك مشاكل مع المدير.

قلت: لا أعلم ما هو المبرر لتلك المشاكل! المسألة «اقتراح» وقدمته للمدير، بصفته صاحب القرار ومن حقه قبوله أو رفضه، وتم رفضه وانتهى الأمر بالنسبة لي.

قال: ما لا تعرفه أن «المدير» رجل متسلط وقمعي بشكل لا يوصف، وأي ضابط أو موظف فاهم، يعتبره خطرا عليه، ويحاول محاربته. فنهجه أن من تحت إدارته يجب أن يخضعوا لسطوته وسلطته حتى في أفكارهم، وأن لا يصرحوا بأفكارهم بل يجب أن يوافقونه وينقادون خلف أوامره، فهو شخص لا يحب التجديد أو التحديث، ويحاول تكريس نهجه القديم الذي يركز على الشمولية، والجهل بالحقوق. فعندما يكون الموظفون عارفين بحقوقهم سيسبب له ذلك صداعا بمعرفة ما عليهم من واجبات، وما لهم من حقوق، وأنت ذكرت في أحد محاور اقتراحك «نشر ثقافة حقوق الموظفين» وهذا الشيء أزعج المدير، فهو يريد أن يبقي الموظفين جاهلين خاضعين لقمعه، وتسلطه. فالموظف الجاهل من

السهل أن تقوده وتؤثر عليه، أما الموظف الواعي الذي يعرف حقوقه وواجباته فإنه لن يتنازل عن حقوقه المادية والمعنوية والوظيفية، وهذا ما لا يريده المدير، فهو يريد أن يديرهذه الدائرة بشكل شمولي سلطوي نمطي، ولا يريد أحدا أن يبث الوعي في الموظفين أو يخرج من جلباب سلطته مما قد يسبب له صداعا أو تحديا.

قلت: ما أعرفه أن الموظفين هم بمثابة الموارد البشرية، والوقود المحرك لنهوض أي دائرة وعلوها، ولا يمكن أن ينجح أي مدير أو قائد دون موارد بشرية فاهمة ومحترفة وجيدة. فالموارد البشرية بمثابة الأجنحة التي تساعد أي مدير أو قائد على التحليق والطيران، وبدون هذه الأجنحة لن يستطيع الصعود أو تحقيق أي تقدم أو إنجاز.

قال: كلامك منطقي وصحيح، وقاعدة إدارية ناجحة، لكن هناك مدراء وقادة لا يؤمنون بهذه القواعد، ولا يؤمنون إلا بأنفسهم وأنهم هم أصحاب القرار وأصحاب الرأي الناضج الذي يجب أن يُنفذ دون نقاش أو اعتراض.

قلت: إذا كان هذا نهج المدير فلن يكون بيني وبينه توافق، فأنا جئت هنا من أجل ممارسة تخصصي الأكاديمي وممارسة مهامي الوظيفية بشكل احترافي، ولم آتِ من أجل الخضوع أو الخنوع لسلطة مدير يريد أن يحولني إلا مجرد مراسل أو مطبل لقراراته.

قال: معك كل الحق فيما ذكرت، لكن بيئة العمل في هذه الدائرة وبوجود «المديرالعام» لن تساعدك لتطبيق ما تعلمته، بأن تطبقه على

أرض الواقع، وستكشف لك الأيام أشياء وسلوكيات يمارسها «المدير» وستتعب معه، وترفع راية الاستسلام مثلنا، فنحن استسلمنا لأن أفكارنا تسبب لنا صداعا وصعوبات، وفقدنا مميزات كثيرة بسبب تصادمنا مع المدير العام.

قلت: لماذا لا توصلون صوتكم وتذمركم من المدير للجهات العليا، قال نحن «كعسكريين» عندنا قاعدة نظامية لا نستطيع تخطيها وهي عدم «تخطي المراجع» ولو اشتكينا وتذمرنا فسيكون مصيرنا أن نرجع له بصفته مرجعنا المباشر، ثم إننا كضباط لا تتم ترقيتنا إلا بتزكية وتقييم من المدير المباشر، وفي حالة تصادمنا سنخسر كثيرا، لذا ليس أمامنا إلا أن نحاول أن نبتعد عن التصادم المباشر معه.

قلت: أحمد الله أن ليس عندي شيء أخسره، فالمسألة عندي تجربة وظيفية، إن نجحت فهذا شيء يسعدني، وإن فشلت فسأبحث عن وظيفة في مكان آخر، ولا يمكن أن أخضع أو أخنع لمدير مستبد مركزي يريد تحويلي إلى شخص هامشي، أو إلى شخصية هلامية.

انتهى حديثي مع «المساعد للشئون الفنية»، خرجنا من المكتبة، ذهبت لسكني، وقد قطعت عهدا على نفسي أن لا أخضع لسلوكيات غير نظامية، أو أستسلم لأي قمع غير قانوني، وأن أقوم بمناقشة «المدير» في كل أمر يتعلق بعملي، وأي أوامر لا أقتنع بها، ولا تتوافق مع الأنظمة، فلن أقوم بتنفيذها.

المركزية القاتلة

مكثت فترة من الزمن بالعمل، مجرد موظف نمطي، أتجه للعمل في الصباح، وأخرج منه بعد الظهر بطريقة تقليدية نمطية تسبب السأم والملل، وتقتل الطموح، في ظل عمل روتيني ممل لا تجديد، ولا تحديث فيه.

كان هناك اجتماع ربع سنوي مع عموم ضباط ومدراء الأقسام، كنت أتخيل أن هذا الاجتماع سيتم فيه نقاشات وحوارات ديمقراطية صحية مفيدة، وكل مدير قسم سينقل وجهة نظره ويطرح رؤيته، ويناقش المشاكل والمعوقات التي تواجه إدارته وموظفيه، وتوضع حلول لهذه المشاكل.

حضرت للاجتماع، كنت أحمل معي «ملفا» يتضمن عدة معضلات تواجه الموظفين، منها عدم توافق وظائف البعض مع مؤهلاتهم، وعدم العدالة في الترقيات والحوافز والانتدابات، وكذلك عدم العدالة في توزيع الدورات بطريقة منصفة على الموظفين، فقد كانت الدورات والانتدابات تذهب لمن لديه «واسطة» وليس لمن يستحقها.

كنت أريد أن أطرح جميع هذه المعوقات على طاولة النقاش ومناقشاتها بالاجتماع، كان يجب علي أن أبرئ ذمتي بصفتي المدير المباشر لشئون الموظفين والمسئول عن طرح مشاكلهم والمطالبة

بحقوقهم.

تفاجأت أثناء الاجتماع مرور معظم وقت الاجتماع «والمدير» هو الشخص الوحيد الذي يتحدث، ويشخص المشاكل ويضع الحلول لها حتى الأمور الفنية والتنظيمية والإدارية التي قد لا تكون من صميم تخصص المدير الفني أو الأكاديمي، كان جميع ضباط ومدراء الأقسام صامتين كأن على رؤوسهم الطير في هدوء تام يصل حد السكون، وكأننا في قاعة محاضرات يلقي «المدير» فيها محاضرة علينا، وليس على طاولة اجتماعات من المفترض أن تتم فيها مناقشة أمور العمل بطريقة صحية، وديمقراطية بعيدة عن الديكتاتورية والمركزية.

استغربت من هذا الصمت، كان عدد الضباط ومدراء الأقسام كبيرا في صالة الاجتماعات، دخل سكرتير المدير بمعاملة عاجلة يريد إطلاع المدير عليها، توقف المدير عن الحديث منشغلا بقراءة المعاملة، همست لرئيس قسم الحاسب الآلي الذي كان يجلس بجانبي وهو من الموظفين القدامى، وخاطبته بهمس قائلا له: لماذا لا أحد من ضباط ومدراء الأقسام، يتداخل أو يناقش المدير، أو يطرح عليه المشاكل والمعوقات التي تواجه الأقسام وتسبب في انخفاض الإنتاج وعدم جودة العمل.

رد علي رئيس قسم الحاسب الآلي قائلا «بهمس» لا أحد يتجرأ على مقاطعة أو مناقشة المدير.

خرج السكرتير من صالة الاجتماع، وعاد المدير لمحاضرته

وحديثه الممل، رفعت يدي قائلا: سعادة المدير..أستأذن سعادتكم فلدي بعض المعضلات والمعوقات التي تواجه الموظفين آمل مناقشتها، تفاجأ المدير والحضور بمداخلتي، نظر لي المدير بنظرات فيها غضب وحنق كيف تجرأت طالبا مناقشته؟!

رد «المدير» قائلا: اصمت، مثلك مثل غيرك من الموجودين، اعرف حجمك جيدا، ومع من تتكلم، فأنا عندما أتحدث عليكم الإصغاء والتنفيذ.

رددت عليه: قائلا أعتقد أننا في دائرة حكومية وفي صالة اجتماعات عمل نتناقش في أمور العمل، وأنا «موظف» دولة ولست أحد أبنائك لتطلب مني الصمت، وإذا كنت تدير الاجتماعات بهذه المركزية القاتلة فمن الأفضل أن لا تجتمع بنا، بل عليك أن تقوم بإرسال تعميم بما تريد أن تقوله لنا دون مناقشة أو حوار.

غضب المدير من ردي غضبا شديدا: ورد علي قائلا: اخرج من الاجتماع حالا، وسيتم تحويلك للتحقيق على تطاولك وعدم احترامك لمديرك..

رددت قائلا له: سأخرج ليس تنفيذا لأوامرك، إنما لأنني لا أريد أن أكون «طالبا» بليدا مستمعا لمحاضرتك المملة، ولا أريد أن أكون صامتا كالكرسي الذي أجلس عليه، فأنا موظف أناقشك في أمور عمل، وفي حقوق موظفين يتعرضون لظلم وتهميش وضياع حقوق بسبب «المحسوبية والتهميش وقتل طموحهم الوظيفي» بسبب تسلطك الإداري..

خرجت من الاجتماع غاضبا، وذهبت مباشرة لمكتبي، عزمت الأمر على تقديم استقالتي، وتحرير نفسي من تسلط ومركزية «مدير» قمعي متغطرس، فلم يعد عندي شيءٌ أخسره، وليس في قاموسي أن أفقد مبادئي الوظيفية، وكرامتي الإنسانية، وأخضع وأنحني لتسلط مدير مركزي يحولني إلى دمية و«أرجوز» يحركني كيف يشاء.

بعد صلاة الظهر وصل لمكتبي خطاب في ظرف مغلق من مكتب «المدير» فتحته، وجدته خطابا موجها «لمساعد الشئون الإدارية» بتشكيل لجنة بالتحقيق معي عن أسباب رفعي صوتي على «المدير» أثناء الاجتماع والتطاول عليه وعدم احترامي للمدير، وموجهة لي «نسخة» من الخطاب تطلب مني الحضور للجنة التحقيق الذي سيكون صباح اليوم التالي في مكتب «المساعد للشئون الإدارية».

قمت مباشرة بتحرير استقالتي، ذاكرا فيها إشارة إلى خطابكم رقم «...» وتاريخ «...»، والمتضمن تشكيل لجنة للتحقيق مع شخصي، أفيدكم أنني أرفض تحقيقكم شكلا ومضمونا، فهو تحقيق غير قانوني وغير نظامي، فقد كان نقاشي معك نقاش عمل في صالة اجتماعات بدائرة حكومية، وليس نقاشا خاصا مع شخصك، ولم أتخطَ حدود الأدب أو أتجاوز الأخلاق، بل كانت مناقشتي للمطالبة بحل عوائق ومشاكل من واجباتك ومهامك الوظيفية «كمدير» يجب عليك أن تحلها وأن تسمعها وتناقشنا فيها، وليس هذا تفضلاً أو تكرمًا منك بقدر ما هو من صميم عملك.

ومن منطلق أنني لا أتشرف بالعمل تحت إدارتكم، فإن استقالتي «مرفقة» مع هذا الخطاب، وثق تماما أنني لن أرضى أن أكون مجرد ظل لكم يتحرك معكم في كل مكان دون إرادة أو احتجاج، وإن كان هناك أناس يخضعون لمركزيتك وتسلطك فأنا لست منهم، ولن أكون يوما من الأيام خاضعا للتسط والقمع الوظيفي.

هذا هو ردي على طلبك التحقيق معي بالخطاب «المرفق» ولن أكلف نفسي حضور اجتماع لجنة التحقيق التي تريدها أن تحقق معي، لأنها غير قانونية أو نظامية، ولا أعترف بها، وسأوفرعليك وعليهم التحقيق، بتقديم استقالتي و«برفقة» استقالتي «خطاب» يوضح حقيقتك التي لا أحد يستطيع أن يوضحها أو يبوح بها لك.

وكتبت له مع خطاب الاستقالة قائلا له الكلام التالي:

ثق تماما أنك تدير هذه الإدارة بتسلطك، وبأقدميتك ورتبتك العسكرية، وليس بقدراتك أو بجدارتك، والجميع غير مقتنعين فيك، حتى وإن خضعوا لتسلطك ليس خوفا منك بقدر ما هو خوف على أرزاقهم، فالكثير ممن هم تحت إدارتك أفضل منك وأجدر منك، لكن ظروفهم وقدرهم الوظيفي جعلهم يخضعون لك بسبب ظروفهم.

وثق أن هناك فرقًا بين من يخشى من رتبتك ومركزك ويخاف على رزقه، وبين من يحترمك لذاتك وقدراتك، فأفضل صفات الاحترام من يحترمك لشخصك وذاتك وقناعة في قدراتك، لا من يخاف منك من أجل منصبك «فالمنصب» سيزول مع الزمن بعدها

سترمى في مزبلة التاريخ الإداري، وسيحاسبك الله، والوطن، والتاريخ على ظلمك، وتسلطك، وتحويلك جهة حكومية «أنت» مؤتمن عليها إلى مؤسسة شخصية لك، تمارس فيها جميع أنواع «المحسوبيات والتسلط والقمع»، تشل قدرات وكفاءات الموظفين، وتقتل إبداعهم «وتؤثر في إنتاجيهم» بسبب تهميشك لهم، وتفضيل من هو أقل منهم عليهم شهادة وإمكانيات. وبدلا من تطبيق المعايير النظامية والقانونية التي تتصف بالعدالة الوظيفية، والمنطق السليم، وتطبيق الهيكل الوظيفي بالشكل السليم، تقوم بتطبيق معاييرك الخاصة التي تتمثل «بالمحسوبية» والعلاقات العامة، وزرع جواسيس في الأقسام بدلا من زرع الثقة، وحسن النوايا، والشفافية، فقد نسفت جميع الصفات الإدارية والأخلاقية الحميدة من قواميسك، وأحللت مكانها الدسائس والمؤامرات وسوء النية..؟!

وإن كان ضميرك غائبًا، أو مغيبًا، وأمانتك الوظيفية مفقودة، فثق أن الله سيحاكمك يوم لا ينفع مال ولا بنون، كما أن من ظلمتهم وتسلطت عليهم من «الموظفين والعمال» ستلاحقك لعنة ظلمهم، بعد تقاعدك، وبعد ذهابك من منصبك وبعد وفاتك، فهم يدعون عليك ليلا ونهارا على ما سببته لهم من متاعب نفسية ومعنوية، وحرمانهم من حقوق وظيفية مشروعة لهم، سيسألك الله عن كل ذلك يوم لا ظل إلا ظله.

قمت بوضع ورقة الاستقالة، والخطاب «المرفق» التي أوضحت فيه حقيقة «المدير» وأرفض فيها التحقيق في ملف العرض العام

وتعمدت أن لا أغلفها أو أضعها بظرف مغلق بل تركتها مكشوفة، كنت أقصد من تصرفي هذا تحدي «المدير» ردا على رفع صوته علي بالاجتماع وتشكيل لجنة تحقيق معي لأني طلبت «مناقشته». كنت أريد أن يقرأ استقالتي وردي عليه الموظفون بقسم الشئون الإدارية الذي سيصلهم ملف العرض قبل وصوله للمدير، ومدير مكتبه فأنا أعلم جيدا أن هذه الدائرة لا يوجد فيها أسرار للمعاملات وتتسرب جميع التعاميم والمعاملات حتى تقييم الموظفين الذي من المفترض أن يكون «سري» يتم تسريبه وإفشاؤه، فلا يوجد أسرار في هذه الدائرة.

ولا أخفيكم سرا أن روح الانتقام كانت حاضرة في نفسي وقتها، وأحببت أن أعري «المدير» أمام الموظفين والضباط، وأرد عليه إساءته لي، لذا قمت بإرسال خطاب الاستقالة والخطاب المرفق الذي يكشف حقيقة «المدير» ويعري سلبياته بمكاشفة جريئة مني، لمكتب «المدير» في ملف العرض العام ومن المؤكد أن يقرأها أكثر من شخص ممن تمر عليهم قبل وصولها «للمدير» كان ذلك التصرف فيه جرأة مني وتحدٍّ للمدير.

بدأت في جمع أغراضي، وأوراقي ومستلزماتي الخاصة من مكتبي، فقد عزمت الأمر أن لا أعود لهذا المكتب، بعد أن قدمت استقالتي، ولم يعد لي رغبة في العمل، كذلك لم يعد بيني وبين «المدير» توافق أو قبول، انتهى دوام ذلك اليوم، ذهبت لسكني، مرتاح البال، ولم تشكل لي الاستقالة وفقدان عملي، أي قلق أو هاجس فقد أصبح لدي مناعة ضد صدمات الحياة النفسية، والعاطفية، وكنت وحيدا لا

أعول إلا نفسي، وليس عندي مسئوليات أسرية أو اجتماعية أو مادية أخرى، وليس من المنطق أن أنحني للوظيفة، وأخسر كرامتي ومبادئ وحقوقي الوظيفية، فأكثر ما يجعل معظم الموظفين يخضعون للتسلط والقمع والتنازل عن حقوقهم الوظيفية هو أن معظمهم لديه ظروف أسرية ومادية تركعهم، ولا يستطيعون الاستقالة أو ترك عملهم في ظل ظروفهم وعدم توفر فرص وظيفية بسهولة، فلا يكون أمامهم إلا البقاء في وظائفهم تحت وطأة ظروفهم الأسرية، والاجتماعية، والمادية، لذا لم يكن أمامهم من خيار إلا الصبر والاحتساب، وانتظارهم الفرج من الله.

بعد عودتي من العمل، نمت كعادتي ساعة «قيلولة» بعدها صليت صلاة العصر، ثم ذهبت لـ «نادي ركوب الخيل» فقد انتسبت لنادي الفروسية قبل «شهرين» أزاول رياضة الفروسية، وركوب الخيل «ثلاثة أيام في الأسبوع» تحت إشراف مدرّبي رياضة قفز الحواجز بالخيول، وقد خُصِّص لي حصان رائع وجميل اسمه «السعد»، وقد نمت بيني وبين ذلك الحصان علاقة ود روحية وجدانية، فالخيل من أكثر الحيوانات ارتباطا بفارسها وتنمو بينها وبين خيّالها علاقة حب ووفاء عميق ممزوج بشيء من الود، ومن التعلق الروحي بين أحدهما والآخر. كنت متعلقا بذلك الحصان، وإن كنت سأخسر شيئا معنويا في تلك المدينة التي سأغادرها قريبا بشكل نهائي، فهو خسارتي لذلك الحصان الجميل والأليف، وممارسة رياضة القفز.

بعد انتهائي من قفز الحواجز، وانتهاء التمرين، وعودتي

بالحصان لحظيرته بالإسطبل، وإغلاقي باب الحظيرة عليه، كنت أنظر له وهو ينظر نحوي نظرات غريبة، وكأن كل منا يريد توديع الآخر، تأثرت من نظرات ذلك الحصان الرائع الوفي، وانسابت دموعي بشكل لا إرادي على وجنتي، عدت له ومسحت على رقبته، وأحضرت له بعض «العلف» ومكثت معه بحظيرته «ربع ساعة» أحسس وأمسح رقبته وشعره المنساب الجميل في انسجام روحي عفوي مؤثر بيني وبين ذلك الحصان الأصيل الذي تفوق مشاعر الوفاء والإخلاص عنده الكثير من البشر.

بعدها عدت لسكني، صليت العشاء، وذهبت للمكتبة وبقيت فيها ما يقارب «ساعتين» أقرأ فيها كتابا نادرا وممتعا، كنت أريد الانتهاء من قراءة جميع فصوله قبل سفري، فالمكتبة لا تعير، ولا تبيع كتبها، وتسمح فقط بقراءتها داخل المكتبة، بعد أن أغلقت المكتبة أبوابها، طلب مني «أمين» المكتبة أن أخرج لانتهاء دوام المكتبة، ذهبت لسكني، شاهدت «بعض» البرامج التلفزونية، ثم خلدت للنوم.

في اليوم التالي لم أذهب للعمل، بل ذهبت لممارسة الرياضة الصباحية، بعدها عدت لسكني، تناولت طعام الإفطار، ثم قرأت الصحف اليومية، ومن ثم ذهبت في حدود الساعة «الحادية عشرة والنصف» للعمل ليس من أجل العمل إنما لأعلم ماذا حصل على استقالتي، فقد كنت مصرا على الاستقالة، كنت أتوقع ردة فعل من «المدير» ليس على الاستقالة إنما على الخطاب «المرفق» مع الاستقالة الذي وضحت فيه بجرأة خارجة عن المألوف حقيقة المدير وشرحت

حقيقته لتكون حقيقته عارية أمامه دون سواتر أو مساحيق تجميل.

ذهبت لسكرتير مكتب المدير، وجدت عنده بعض مدراء الأقسام ينتظرون مقابلة المدير، سألته عن استقالتي، وماذا تم عليها من إجراء فأنا أريد تسليم العهد المسلمة من «مكتب وسيارة وسكن»، وأرغب في إنهاء إجراءات الاستقالة وأسافر، رد علي سكرتير المدير، بأن أستقالتي ما زالت في مكتب المدير، ولم يتم عليها أي إجراء حتى اللحظة، وأضاف السكرتير قائلا: بإمكانك الدخول على المدير، والاستفسار منه مباشرة عن سبب عدم توقيعه استقالتك.

رددت على «السكرتير» قائلا له: لن أدخل على المدير، ولن أترجاه، واستقالتي نظامية، وليس هناك مبرر لرفضها، وفي حالة عدم موافقته عليها، فسأصعد الأمر، وأخاطب الجهات العليا التي سترغم المدير على قبول استقالتي بقوة النظام.

خرجت من مكتب سكرتير المدير، بعد أن رميت حجرا في المياه الراكدة، فأنا على يقين تام، بأن السكرتير سيوصل كلامي للمدير، وتهديدي غير المباشر بقولي إنه في حالة تعطيل المدير استقالتي سأصعد الأمر للجهات العليا، ذهبت لمكتبي بشئون الموظفين، ومن ثم ذهبت للمسجد لأداء صلاة الظهر وكلي ثقة في نفسي بأن ما قمت به وخاطبت به المدير مع الاستقالة الذي كاشفت به «المدير» كلام مقتنع فيه وهو «حقيقته»، ولم أتجنَّ على المدير بل جسدت واقعه، ومستعد أن أثبت صحة كلامي، لو صعد الموقف بيني وبينه ورفع الخطاب الذي

كاشفته فيه بحقيقته للجهات العليا، وسيكون بتصعيده الأمر كمن «يغني على عشه» ويحفر قبره الوظيفي بنفسه، فلدي جميع الأوراق والشواهد، التي تثبت تجاوزات المدير العام إداريا، وماليا، واستغلاله نفوذه الوظيفي.

أثناء دخولي مسجد العمل لأداء صلاة الظهر، وهو مسجد يصلي فيه ما يقارب الـ «مئتَيّ» موظف، لفت انتباهي على غير العادة أن «بعض» الضباط، ومدراء الأقسام، والموظفين، ينظرون لي بنظرات فيها شيء من التركيز، استغربت نظراتهم نحوي التي لم ألفها من قبل.!؟

كنت أثناء عودتي من المسجد لمكتبي أتجاذب أطراف الحديث مع ذلك الموظف «الشاب» الجامعي الرائع والذي توسمت فيه منذ قدومي للعمل الخير والنبوغ الإداري وهو من أعطاني نبذة عن سير العمل، وعن تصرفات المدير في بداية قدومي للعمل.

قلت: لذلك الموظف «الشاب» لاحظت اليوم «بعض» الضباط ومدراء الأقسام والموظفين ينظرون لي نظرات غريبة لم أعهدها منهم ولا أعرف ما هو السبب..؟

رد علي قائلا: ليست نظرات استغراب، إنما نظرات إعجاب، فأنت الآن في نظرهم «بطل» لأنك وقفت في وجه «المدير» وأشفيت غليل قلوبهم، ضد قمع وتسلط «المدير» وإهداره حقوقهم الوظيفية وتهميشهم، فقد تولد في نفوسهم حقد عارم واحتقان ضد «المدير»،

ولم يكن أحد منهم يستطيع الوقوف في وجه المدير، ونقاشك الحاد معه في الاجتماع، وكذلك الخطاب الذي أرفقته مع استقالتك قام بقراءته عدد من موظفي الاتصالات الإدارية، وتم تسريب مضمونه، وانتشر خبره في جميع أقسام الإدارة «انتشار النار في الهشيم»، وأصبحت في نظرهم «ثوريا» ضد تسلط المدير وكاشفته بتجاوزاته بكل تحدٍّ، وهذا الأمر أعجب به الضباط ومدراء الأقسام والموظفين المغلوبين على أمرهم، واعتبروك انتصرت لهم بتعريتك سلبيات المدير والوقوف في وجهه.

رددت عليه قائلا له: لم أقصد من نقاشي ومن تعريتي سلبيات المدير ومكاشفته بحقيقته، أن أبحث عن «بطولة أو نجومية حاش لله، إنما كانت حقائق، ومبادئ أؤمن بها، وكانت مبادئي الوظيفية وكرامتي لا تسمح لي أن أخضع لقمع وتسلط مدير مركزي يتبوأ مدير إدارة حكومية يتعامل مع العاملين فيها كأنهم يعملون في مؤسسته الخاصة، أو مزرعته، أو استراحته، وليس في عمل حكومي مؤسسي مؤطر بأنظمة قانونية تحفظ حقوق الموظفين، وتنظم العمل بطريقة نظامية، وأنا على ثقة أن كثيراً من الضباط والموظفين ومدراء الأقسام يملكون الشجاعة أفضل مني، وقادرون على مجابهة «المدير» والمطالبة بحقوقهم، لكني أعِي أنهم بصفتهم موظفين على بند الأجور «المؤقتة» وتقييم بقائهم مرهون برضا المدير عنهم، ومن باب الخوف على أرزاقهم وعملهم، أصبح كثير منهم ينحني تحت وطأة ظروفه الأسرية والمادية في ظل ندرة الوظائف، وتجنب التصادم مع «مدير» ظالم قد يستغني عنهم فجأة، ثم يكون مصيرهم وعوائلهم أرصفة البطالة.

رد علي قائلا: هذا تواضع منك لكن يكفيك شجاعة أنك من علق الجرس وكسر حاجز الخوف في نفوس الموظفين، وقد أثلج صدورنا جميعا نحن أصحاب الحقوق المهضومة، والمهمشين بموقفك النبيل، فقد أشفيت غليل قلوبنا، بوقوفك في وجهه «المدير»، ومطالبتك بحقوقنا في الاجتماع حتى لو لم يتم قبول مناقشتك، لكن يحسب لك شجاعة المحاولة، وأنا وغيري من الزملاء المظلومين وحسب معرفتهم بعلاقتي معك أبلغوني أن أدعوك لمناسبة توديع في أحد الاستراحات قبل مغادرتك.

رددت عليه قائلا: يكفيني إحساسكم النبيل، ودعواتكم لي بظهر الغيب، واعتبروني تشرفت بقبول دعوتكم الكريمة لكن اعذروني لا أستطيع إجابة دعوتكم، فأنا لم أقل «للمدير» إلا ما يمليه علي ضميري، وما تمليه علي الأمانة الوظيفية بصفتي «مديرا لشئون الموظفين»، ولا أريد مقابل مجابهتي «للمدير» منكم جزاء ولا شكورا، فقد كانت مطالبتي ومحاولة مناقشتي للمدير والمطالبة بحقوقكم بالاجتماع من صميم عملي وليس تفضلاً مني، ولو لم أقم بالمطالبة بحقوقكم فلا أستحق أن أكون مديرا لشئون الموظفين وسأخون الأمانة الوظيفية الملقاة على عاتقي تجاهكم.

رد علي قائلا: أنت زميل عزيز تستحق منا الوفاء معك، والزملاء جميعا عازمون الأمر على تكريمك.

رددت عليه قائلا: اعتذر لي منهم، واشكرهم جميعا فردا فردا

نيابة عني.

حاول ذلك الموظف «الشاب» الرائع معي بأن أوافق على دعوتهم لكني كنت أحاول أن لا أضعهم في حرج مع «المدير» فقد يصله عن طريق الواشين والجواسيس الذين زرعهم في الأقسام أن يوصلوا له كل شاردة، وواردة، ولو علم من مصادره أن هناك «موظفين» عملوا لي تكريم وداع، لحقد على هؤلاء «الموظفين» وقد يقطع أرزاقهم، من هذا المنطلق رفضت رفضا باتا، حتى لا أسبب لهم أي إحراج مع «المدير» ويكون تكريمهم لي سببا في تصفية الحسابات معهم.

انتهى دوام ذلك اليوم دون أن يحدث على استقالتي شيء جديد باقية في مكتب المدير دون أن يقوم بالموافقة عليها، ذهبت لسكني ولم يشكل لي تأخير استقالتي قلقا أو توترا، وأخذت الأمر بهدوء تام، وكأن الأمر لا يعنيني بشيء، كنت واثقا أن «المدير العام» يمارس ضدي خبثًا، ويريد أن يوترني نفسيا، ومعنويا، وأن يستفزني لكني لم أتجاوب مع استفزازه، أخذت الأمر بروح رياضية، وبرود نفسي تام.

ذهبت في المساء، لصالة الترفيه، وتمرنت بالنادي الرياضي، بعد التمرين ذهبت للمسبح، وجدت في المسبح «مساعد مدير الإدارة للشئون الفنية» ذلك الرجل الواعي، الذي يخاف الله، ويتحلى بأخلاق إنسانية رائعة، وبفكر راقٍ، سلمت عليه كان معجبا، بما حدث مني أثناء الاجتماع، وبما كتبته في الخطاب «المرفق» مع استقالتي للمدير، فقد وصله محتوى ذلك الخطاب.

قلت له: إني أنتظر استقالتي والمدير لم يوقعها فماذا تنصحني به؟ وأخبرته أنني كنت ظهر اليوم عند «سكرتير المدير» وصلت له رسالة غير مباشرة لسكرتير المدير أن المدير في حالة عدم موافقته على استقالتي سأصعد الأمر للجهات العليا، وسأشكو المدير.

رد علي قائلا: «برافو» عليك لا تقلق سيوقعها لا محالة «فالمدير» ومن على شاكلته من المدراء الفاسدين، جبناء يخافون من الجهات العليا، لأنهم يعرفون أن هناك عليهم ملاحظات وثغرات، ولا يريدون أن يكشفوا أنفسهم، فكما قيل «الذي بيته من زجاج لن يرمي بيوت الناس بالحجارة»، والمدير يعرف جيدا أنك ليس من «صيده» ولن تخضع لسطوته، وستشكل جرأتك وفهمك للأنظمة خطرا عليه، كما أنه لن يستطيع أن يتخذ ضدك أي قرار، ولن يستطيع أن يحاسبك على مكاشفتك له بحقيقته، وثق أنه سيوافق على استقالتك مرغما.

بعد خروجي من المسبح، أصر ذلك الرجل الرائع «مساعد مدير الإدارة للشئون الفنية» أن أذهب معه لمناسبة في استراحته الخاصة، فعنده مناسبة مختصرة لضيف من زملائه السابقين كان في بعثة خارج الوطن وعاد، وسيحضر معه بعض أصدقائه، لم أستطع مقاومة إلحاحه علي أن أذهب معه للمناسبة باستراحته، وافقت مجاملة له وتلبية لدعوته الكريمة، طلبت منه أن أعود لسكني لتغيير ملابسي الرياضية، ولبس ملابس رسمية تناسب الخروج لمناسبة.

قال لي إنه أيضا سيمر سكنه وسيغير ملابسه، بعد نصف ساعة

تقابلت معه عند بوابة المجمع السكني الذي نسكن فيه، طلب مني ركن سيارتي بالمواقف، والذهاب برفقته في سيارته، فلو ذهبت وحدي لن أعرف مكان استراحة، ذهبت معه، وصلنا لاستراحته التي كانت استراحة حديثة ومنسقة تنسيقا جميلا.

وبعد وصولنا «بربع ساعة» تقريبا وصلوا ضيوفه، كانوا رجالا تدل سمات وجوهم على طيبتهم، وحديثهم يدل على مكانتهم العلمية، بعد جلوسهم، قام بتعريفي عليهم، وبدأ يكرمني أمامهم بكلمات إطراء وإشادة، أخجلتني، كانت تلك الكلمات مجاملة لطيفة منه لشخصي المتواضع بإطراءات قد لا أستحقها.

كانت المناسبة، محصورة على عدد قليل حيث كان عددهم «سبعة أشخاص» مما جعل للجلسة مذاق خاص، استمتعنا فيها بحوار فكري، وثقافي، جميل تحدثنا عن هموم عامة، وعن هموم العمل والحياة، وتشعب الحديث إلى التطرق للاقتصاد، وللسياسة، وللهموم الاجتماعية، كذلك تخلله شيء من الحديث في الرياضة، كانت ليلة جميلة، ورائعة لا تنسى، استمتعنا فيها بحديث ناضج، وحوارات خلاقة، ورؤى فكرية جميلة، وأحاديث ثقافية ممتعة، وقد أكرمنا ذلك الرجل بوجبة عشاء فاخرة، تدل على كرمه، وحسن ضيافته، انفضت تلك المناسبة، وذهب كل منا لسكنه، بعد أن قضينا سهرة رائعة وجميلة، تعرفت فيها على أشخاص، ونماذج رائعة يتسمون بالتواضع، والفكر الجميل، والثقافة الغزيرة.

أوصلني ذلك الرجل «الطيب» لسكني، وشكرته شكرا جزيلا على دعوته، وعلى كرمه، وودعته، ذهب لمنزله، دخلت سكني منتشيا سعيدا، كان ذلك الانتشاء انعكاسًا للنقاش والجلسة التي كانت مفيدة فكريا وثقافيا، أخرجتني من العزلة والوحدة، ووجدت أشخاصًا الجلوس والحوار معهم أضاف لي الشيء الكثير.

في اليوم التالي استيقظت لصلاة الفجر، ومن ثم عدت لسكني، جلست اقرأ في «رواية» حتى الساعة الثامنة، ثم ارتديت ملابسي الرياضية، وخرجت أمارس رياضة الجري فقد كان الجو ربيعيا ومغريا، ولم أذهب للعمل فقد قدمت استقالتي، ولم يعد لدي قناعة بتاتا أن أستمر في العمل في ظل وجود ذلك «المدير» المتسلط.

أغراني الجو بجماله وروعته، ومكثت أمارس رياضة الجري حتى ابتعدت كثيرا عن سكني، لم أعد لسكني إلا في تمام الساعة «العاشرة والنصف صباحا» عند دخولي سكني وجدت ورود عدة مكالمات واردة لهاتفي المحمول، من مكتب «سكرتير المدير» بعد أن استحممت، وغيرت ملابسي، قمت بالاتصال على السكرتير، أفادني أن «المدير» وافق على استقالتي، وعلي الذهاب له لاستلام خطاب الاستقالة، وتسليم ما لدي من عهد «سيارة ومكتب وسكن» لقسم الممتلكات.

كانت حقائبي جاهزة، قمت بشحنها في سيارتي، وذهبت مباشرة، وأخذت خطاب استقالتي من مكتب «سكرتير المدير» قمت بتسليم ما لدي من عهد لقسم الممتلكات، وخرج معي «موظف ممتلكات»

قام باستلام «سكني وسيارة العمل ومكتبي».

بعد ذلك حصلت على إخلاء طرف «وبراءة ذمة»، ثم قمت بتوديع «بعض» الزملاء الأعزاء على قلبي، ودعتهم، وذهبت لمكتب «المساعد للشئون الفنية»، وقمت بتوديعه، تمنى لي التوفيق وأضاف قائلا: هذه الدائرة لا تناسب طموحك وأحييك وأقف لك إجلالا وإكبارا على شجاعتك وتحريرك نفسك وتمسك بمبادئك الوظيفية وعدم التنازل عنها، وقبل أن أخرج من مكتبه طلب مني رقم هاتفي المحمول، وقال لي سيصلك مني اتصال خلال هذا الأسبوع بإذن الله تعالى.

سجلت له رقم هاتفي، رغم أني لم أفهم ماذا يقصد من قوله «سيصلك اتصال مني خلال هذا الأسبوع»، تحاشيت أن أكون فضوليا في استيضاح الأمر منه.

سقوط أحلامي الوظيفية

خرجت متأثرا من تلك «المدينة العسكرية» الحديثة التي تتسم بمواصفات عمرانية على أحدث طراز وإمكانيات مهولة ومتقدمة، لكن قتل تلك الإمكانيات وجود «مدير عام لإدارة التشغيل والصيانة» بهذه المدينة الفتية، التي عملت بها أشهرًا معدودة، كانت تجربة وظيفية فاشلة بكل المقاييس، لكني توصلت لحقيقة مؤلمة أن «المدير أو القائد» الفاسد، والمتسلط، يقتل كل الإمكانيات، ويئد الإبداع، ويتسبب في قلة الإنتاج، فـ (الموظفون) موارد بشرية تتأثر أنفسهم ومعنوياتهم بأي مؤثرات سلبية تمارس ضدهم، وليس هناك سلبيات أكثر ألمًا على النفوس البشرية، من أن تهضم حقوق «الموظفين» الوظيفية والمعنوية والمادية، وتعطى من هو أقل منهم شهادة وتخصصًا، وفكرًا، ولا تطبق بحقهم المعايير الوظيفية العادلة أو المنطقية التي تمنح لكل موظف حقه بكل أمانة، وعدل بعيدا عن «لعنة» المحسوبية، والواسطة، والعنصرية، والمناطقية، والمركزية» التي تصادر حقوق الموظفين المبدعين والجادين، وتقتل طموحهم وتصادر الحقوق المشروعة لهم، ويتم تحويلها لموظفين آخرين. كل المعايير التي يملكونها «المحسوبية والواسطة» وقربهم وعلاقاتهم مع «المدير أو القائد» أو مع صاحب القرار، إن هذه السلوكيات العنصرية تقتل «الموظفين» المبدعين، والمميزين، والمؤهلين، قتلا معنويا، وقتلا وظيفيا، فيصابون بالإحباط وعدم الولاء، وعدم الانتماء للدائرة أو المنشأة التي يعملون بها، وذلك

بسبب التمييز الوظيفي والطبقي والمناطقي الذي يصادر حقوقهم ويؤثر في نفوسهم، مما ينعكس سلبا على سير العمل، وعلى الإنتاج، وعلى جودة العمل.

ودعت تلك المدينة مسافرا للعاصمة الرياض، حزينا على تجربة وظيفية مريرة عشتها في بيئة وظيفية فيها كل مقومات النجاح، لكن هناك شخص واحد اسمه «المدير العام» نسف ودمر كل تلك المقومات الإيجابية، وشوّه البيئة العملية وحولها إلى بيئة ملوثة مليئة بالكراهية، والدسائس، والمؤامرات، والتسلط، والمركزية القاتلة، وقتل الإبداع الوظيفي، والمحسوبية، ونسف جهود الآخرين.

سافرت بعد أن سقطت من أحلامي الوظيفية والإدارية التي كنت أحلم بها وأريد تطبيقها على أرض الواقع، وقد تحول حلمي «الوظيفي» الذي كنت أرسمه، وأرغب في تحقيقه إلى أحلام من سراب، فقتل هذا الحلم بسبب تسلط «مدير» قمعي يؤمن بالمركزية حد الغلو، وتحول هذا الحلم الوظيفي إلى أنقاض مدمرة، لأن بيئة البناء الإدارية لم تكن مناسبة، والاختيار لم يكن سليما، وهذا ما جعل تجربتي الوظيفية فاشلة بكل المقاييس.

كنت أتوق أن أعمل في جهة حكومية يكون فيها البناء الإداري بناءً مؤسسيًّا متناغمًا، والقوانين المؤسسية والإدارية هي من تحكم العلاقة بين الموظف والمدير، وليس بناء إداريا فرديا مستبدا يتخذ القرارات فيه مدير مركزي متسلط يتصرف بمزاجية وفردية مطلقة،

يهمش دور الآخرين، ويدمر معنوياتهم، وينسف قدراتهم ولا يؤمن بتخصصاتهم، مدير قد يموت أو يغيب أو يضعف، مدير ديكتاتوري متسلط متغطرس يرى نفسه أنه إله على الأرض، ويؤمن بقاعدة «لا ترون إلا ما أرى».

ولا أعلم كيف يتم التعامل مع شخص لا يؤمن بتخصصك، ولا بقدراتك، ويعتبر جميع «المساعدين» ومدراء الأقسام، والموظفين، مجرد «أرجوزات» يحركهم «بالريموت كنترول» تطبل له، وتنافق عنده، فقد حوّلهم من موظفين، إلى مطبلين ومنافقين؟!

لم أتخيل يوما أن أعيش في «بيئة عملية» يديرها «مدير» لديه مرض العظمة والغطرسة يتخيل أنه الرجل الأوحد الذي يفهم، وأن على من يعملون تحت إدارته أن يتحولوا إلى مجرد ظل له، في العمل وفي الرأي، يدير العمل والموارد البشرية بشمولية، وتسلط وبمبدأ شمولي «أنا القائد الأوحد» يهمش دور الآخرين ويحوّلهم إلى مجرد (كومبارس) ودمى متحركة لا رأي ولا وجود لهم.

أزعجني جدا هذا السلوك الإداري المتسلط، والنمط الشمولي المركزي الذي يقتل الإبداع، ويشتت الجهود، ويخل بجودة العمل، ويعطل القدرات البشرية.

كنت أحلم بالعمل في عمل يؤمن بالعمل التكاملي، وبروح الفريق الواحد، وضرورة التواصل الإيجابي مع جميع الفروع الإدارية المختلفة، ونشر أهمية المسئولية المشتركة مع جميع الكوادر التنفيذية.

كنت أحلم أن يكون المسئول عني «مديرًا» ذا فكر عصري محترف، يؤمن بدور الآخرين المحيطين والعاملين معه يمنحهم الثقة ويديرهم بروح الفريق الواحد ويأخذ بآرائهم ويقدر تخصصاتهم ويقدر ما يقومون به من أدوار، يمنحهم شيئا من الصلاحيات، فتوزيع الصلاحيات وإعطاء الموارد البشرية مجال للمشاركة وفق سمة إدارية جميلة متناغمة ومتمازجة، مدير يؤمن بالحكمة الإدارية القائلة ((أن القائد الحقيقي هو من يقول نحن لا من يقول أنا)).

كانت تجربة وظيفية على قصرها إلا أنها كانت فاشلة بكل المقاييس، وكان الشيء الإيجابي الوحيد هو أنني اطلعت على الفساد الإداري متجسدا أمامي بوضوح وعشته كواقع بهذه الدائرة، بعد أن كنت أسمع فيه وأتردد في تصديقه أو تكذيبه، ورغم هذه التجربة الوظيفية القصيرة والمريرة إلا أنني وصلت إلى حقيقة مهمة وهي أنه عندما يموت الضمير وتغيب الأمانة، فإنه يحل محلها التسلط والمحسوبية، وتمارس شتى أنواع الفساد بشتى صوره.

اطلعت عبر هذه التجربة الوظيفية العابرة، على الوجه البشع للفساد الإداري، فهو لا يقل بشاعة عن الفساد المالي والأخلاقي، بل قد يكون أكثر بشاعة من الفساد المالي والأخلاقي، وتجسدت أمامي حقيقة مهمة أنه عندما تغيب معايير الإدارة السليمة، ولا يتم تطبيقها على الطبيعة، وتحل محلها الأقدمية، والمحسوبية، وعدم اختيار الرجل المناسب في المكان المناسب، فإن النتيجة الحتمية أن يكون هناك «عبث» وفساد، ومرض إداري يتفشى في الجسد الإداري فيحوله من

جسد صحي إلى جسد معتل مصاب «بغرغرينا» اسمها «مدير فاسد» ولن يرجى شفاء هذا الجسد الإداري إلا ببتر هذا «المدير الفاسد» فهو خطر قد يستشري فيقضي على بقية الجسد الإداري كاملا.

خلاصة القول في ظل تجربتي تحت إدارة ذلك المدير العسكري، أنني وصلت لحقيقة مهمة أن القائد العسكري مكانه الطبيعي في الميدان بين جنوده، ينفذ ما تعلمه في العسكرية من خطط وتكتيك ومن تمرينات عسكرية، وليس مكانه أن يتبوأ منصبا إداريا لا يتناسب مع قدراته ولا يعرف عنه شيئا، كما أن «كريزما» القائد العسكري تتصف بالشدة والمركزية وصرامة الأوامر التي لا تتوافق مع الموظفين المدنيين والعمال، مما أحدث تنافرا وتباينا واضحا بين العسكريين والموظفين المدنيين في بيئة العمل، فلكل شريحة منهم إجراءات وأنظمة لا تتوافق مع بعضهم، ولهذا أصبح التضارب والتباين واضحا، ومعيقا لجودة وانسيابية العمل.

تجربة وظيفية مختلفة تماما

بعد سفري من تلك المدينة «العسكرية» التي كنت أعمل بها، بعدما استقلت منها، ووصولي للعاصمة «الرياض»، مكثت أسبوعا في منزلي، كنت أبحث عن عمل في عدة جهات.

وصلني في أحد الأيام اتصال مفاجئ من ذلك العقيد المهندس الرائع «مساعد مدير الإدارة للشئون الفنية» في عملي السابق، والذي طلب رقم هاتفي عندما ودعته بعد استقالتي.

بعد السلام، طلب مني زيارة «شقيقه» الذي يعمل مهندسا، ويتبوأ مركزا وظيفيا مرموقا «كمدير تنفيذي» في إحدى أكبر شركات القطاع الخاص بمنطقة الجبيل الصناعية، وتعمل هذه الشركة في مجال «الميثانول» وهي شركة من ضمن مجموعة شركات «سابك» وهي شركة عملاقة تعمل في مجال الطاقة، والمقومات الأساسية، وفي مجال الغاز، والحديد والصلب، والبتروكيماويات، وغيرها من صادرات الطاقة، وهناك «رئيس مجلس إدارة» تقع كل الشركات تحت مسئوليته.

زودني «العقيد» برقم هاتف مكتب «شقيقه»، وطلب مني الاتصال به، والاتفاق معه على موعد يناسب ارتباطاته الوظيفية الكثيرة وتحديد وقت أقابله فيه.

اتصلت رد علي مدير مكتبه، حولني عليه، ذكرت له أنني من طرف شقيقه «العقيد»(....)، حدد لي موعدا أقابله فيه، كان مقر الشركة في منطقة الجبيل الصناعية وهي منطقة حديثة تبعد عن العاصمة «الرياض» مايقارب «أربعمئة وخمسين كيلا»، شرق العاصمة، وتبعد عن الدمام حوالي «80 كيلا» سافرت برا لتلك المدينة الصناعية الرائعة، بعد وصولي ذهبت واستأجرت غرفة في «فندق هولدي إن» سكنت فيه، وقد تفاجأت بالجبيل الصناعية فقد كانت مدينة حديثة ومتطورة بكل المقاييس وبها إمكانيات مهولة وأنظمة مرورية وتخطيطية وعمرانية هائلة وتشرف على إدارتها هيئة الجبيل الصناعية بجهود ذاتية وقد نقلت كل الطرق العالمية الحديثة لتلك المدينة كانت رائعة وتلفت الأنظار بنظافتها وجمالها وجودة خدماتها وتنظيمها، مكثت في الفندق حتى يحين الموعد المحدد للمقابلة.

ذهبت في الوقت المحدد لمقابلة «المديرالتنفيذي» للشركة، استقبلني استقبالا حارا، ذاكرا لي أن شقيقه «العقيد» حدثه عني، وعن تجربتي السابقة، وأشاد بشخصي المتواضع، وأنهم في الشركة في حاجة ماسة «لمدير للموارد البشرية» بالشركة أن يكون مواطنا، يحمل مؤهل «علوم إدارية» وأن يكون متمكنا إداريا، ويطور قسم الموارد البشرية، وأن لديهم شرطا يجب علي قبوله إن رغبت في العمل لديهم.

قلت له : ما هو شرطكم؟

قال: شرطنا أن تكون خاضعا للتجربة، لمدة «ثلاثة أشهر» وتعمل بعقد مؤقت وبراتب مقطوع، في حالة اقتناعنا في إمكانياتك وقدراتك الوظيفية، والسلوكية، سنقوم بعد اجتيازك «فترة التجربة» بإبرام عقد وظيفي دائم معك تحظى فيه بمميزات كثيرة، منها راتب مغر، وبدل سكن، وبدل تذاكر سفر ونقوم بتسليمك سيارة حديثة، وتأميناً طبيًا وغيرها من المميزات الأخرى.

قلت: أعشق التحدي، وأملك ثقة في نفسي وفي قدراتي، واعتبرني موافقا دون تفكير أو تردد على شرطكم، فتجربة «ثلاثة أشهر» جيدة لي، ولكم لكي يعرف كل منا الآخر، وأطلع جيدا على سير العمل، وطريقة التعامل في العمل، كذلك أنتم من حقكم معرفة قدراتي وسلوكي قبل توقيعكم لعقد وظيفي دائم معي.

قال: متى تريد أن تباشر العمل، قلت له: لو تريدون من الغد ليس لدي مانع.

قال: على بركة الله، غدا تحضر للشركة، وستجد العقد المؤقت جاهزا للتوقيع، وتبدأ مهام عملك من الغد بإذن الله.

خرجت من مكتبه، وأنا مرتاح نفسيا، فقد كان أسلوبه مريحا،

ولطيفا، ومقابلته لي وحواره معي حوارا ناضجا وواضحا، وتولد لدي انطباع أولي أنني أمام «مدير تنفيذي» محترف إداريا، متمكن جاد وصادق فيما يقول، فكما قيل بالمثل «تحدث لأعرفك» ومن حديث ذلك الرجل حكمت عليه مبدئيا أنه إنسان يملك «كريزما» المدير التنفيذي المتمكن.

عدت «للفندق» بعد مقابلة «المدير التنفيذي» كنت مرتاحا جدا، لأن العقد الأولي بيني وبين تلك الشركة العملاقة، سيكون «ثلاثة أشهر» للتجربة، وهي طريقة مناسبة لي، وللشركة، فهي مناسبة لي لأني أريد أن أتعرف على بيئة العمل في الشركة، وتعامل مدراء الشركة معي، وطبيعة العمل لمدة «ثلاثة شهور» رغم أنها شرط من الشركة لكنها مناسبة لي، فأنا أعشق التحدي، وأريد أن تكون مدة التجربة فترة تحدٍّ لذاتي لكي أثبت للشركة أنني سأكسب الرهان معهم، وأنال إعجابهم، عندها سيمنحونني الراتب، والميزات التي أستحقها بعد تجربتهم لقدراتي الوظيفية، كذلك هناك جانب آخر إيجابي للتجربة، ففي حالة عدم ارتياحي للعمل في تلك الشركة أو عدم الارتياح لتعامل مدراء الشركة معي فسوف يكون بمقدوري أن أنسحب بعد «ثلاثة أشهر» دون أن يكون هناك عقدٌ دائمٌ يلزمني بالعمل مع الشركة مدة أطول.

في اليوم التالي ذهبت باكرا للشركة، وجدت العقد «المؤقت» جاهزا وقمت بتوقيعه، ومن ثم تم توجيهي لاستلام «قسم الموارد البشرية» كان قسما كبيرا وجديدا، مؤثثا تأثيثا كاملا بكل الوسائل التي يحتاجها القسم من مكاتب، وموظفين، وأجهزة مكتبية. استلمت

مكتبي، وعقدت مباشرة اجتماعًا تعريفيًّا بيني وبين الموظفين العاملين بالقسم، ذكرت لهم استراتيجيتي في العمل، ووزعت عليهم «استبانة» طالبا من كل موظف أن يرفع لي ملاحظاته على شكل نقاط، وما يواجهه القسم من المعضلات والمشاكل التي تعيق عمل القسم وفروعه، أو تكون سببا في انخفاض الإنتاجية.

عزمت الأمر على أن أضع لي أهدافا وخططا ودراسات إدارية قصيرة المدى، أقوم بطرحها على الشركة، وأقوم بتنفيذها خلال مدة التجربة، فقسم «الموارد البشرية» قسم معني بمسئوليات ومهمات وواجبات مهمة، ومناط بقسم الموارد البشرية عدة مهام وواجبات منها، التخطيط للموظفين والعمالة وتحليل وتوصيف الأعمال والتوظيف وتقييم أداء العاملين وإدارة عملية الترقيات وتدريب وتنمية الموارد البشرية وتخطيط المسارات الوظيفية والمهنية واختيار واستقطاب الكوادر الفنية والمهنية المتميزة للقيام بأعمال الشركة بكفاءة عالية وتحديد المسارالوظيفي والمهني للموظفين ومنح العاملين رواتبهم، كذالك منحهم الإجازات السنوية، والتعاقد مع شركات التأمين الصحي لتوفير لهم العلاج، وعمل الحجوزات والتذاكر وتجديد إقامات الوافدين للعمل وصرف الانتدابات والتعويضات، والحوافز.

كنت أمام «ثلاثة» تحديات: التحدي الأول: أمام نفسي، والتحدي الثاني: أمام رؤساء الشركة الذين حددوا لي «ثلاثة أشهر» للتجربة لمعرفتهم مدى كفاءة قدراتي، ومنهجي في العمل، والتحدي الثالث: أمام الزمن الذي يجري سريعا «فثلاثة أشهر» فترة قصيرة جدا قد

لا تمنحي الوقت الكافي لتحقيق كل أهدافي، وسأواجه عدة معوقات بشرية، وإدارية، وتنظيمية ويجب علي التغلب عليها وتجاوزها.

وضعت أمامي هدفا مهما، وهو أن أضاعف جهودي، وأتحدى كل الظروف والعوائق، وأن أتحلى بإرادة قوية، وتفاؤل محفز لي على الإقدام وتحدي الذات، وكسب الرهان مع رؤساء الشركة وإقناعهم، بأنني أستحق أن أكون موردا بشريا منتجا.

كان هناك تحدٍّ آخر مهم، وهو أن لا أخذل ذلك «العقيد / المهندس مساعد مدير الشئون الفنية» في عملي السابق، الذي توسم في شخصي المتواضع النبوغ الوظيفي، وقام بتزكيتي عند «شقيقه» المدير التنفيذي لهذه الشركة، وأن أكون عند حسن ظنه، وظن مدراء الشركة التنفيذيين.

ومنذ اليوم الأول بدأت أقوم بمجهود مضاعف، ومكثف جدا من أجل تطوير قسم «الموارد البشرية» وتحقيق أهدافه المناط به تحقيقها، وضعت بعض الخطط التي كان الهدف منها تمييز القسم، وخلق بيئة عمل منظمة ودقيقة، وعمل إداري مؤسسي مبني على البناء المستمر، وفق خطط واضحة المعالم، مؤطرة بخطط إستراتيجية، تبنى خططها على منهجية مؤسسية إدارية، ولا يرتبط التخطيط فيها بالنسق الفردي، إنما يرتبط التنظيم فيها بالتخطيط الجماعي المؤسسي العام الذي لا يعتمد على الفردية والمركزية القاتلة، بل يعتمد على التوزيع الإداري التنظيمي المستمر بحضور الأفراد أو ذهابهم، وفق منهجية

البناء المستمر ووفق منهجية غير تقليدية.

قمت بتقديم «اقتراح» أن يتم هيكلة قسم الموارد البشرية، ليشتمل على عدة أفرع، ويتكون مما يلي: فرع التخطيط للموارد البشرية، وفرع التوظيف، وفرع تنظيم الهيكل الإداري، وفرع التدريب والتطوير، وفرع الرواتب والمزايا والتعويضات، وفرع مراجعة ومراقبة جودة الأداء، وفرع علاقات الموظفين، ويتم تخصيص عدد من الموظفين لكل فرع، فقد كان يعمل بقسم «الموارد البشرية» ما يقارب «أربعين موظفا»، وسيتم توزيعهم حسب تخصصاتهم وقدراتهم وسيخصص لكل فرع «ستة» موظفين.

لاحظت أن مكاتب الموظفين بالقسم عبارة عن صالات كبيرة المساحات، كل صالة بها مجموعة طاولات كمكاتب للموظفين بشكل فيه شيء من الفوضى، وعدم الخصوصية قمت بعمل «اقتراح» آخر يتضمن هذا «الاقتراح» أن يتم تقسيم المكاتب بقواطع زجاجية «البارتشن» يتم تصميمها بشكل جمالي، ويتم تقسيم الصالة الواحدة إلى عدة مكاتب بدل أن تكون مكتبًا واحدًا مكدسًا فيه عدد من الموظفين، ويتم تجزئته إلى عدة مكاتب فردية، لكي يصبح لكل موظف خصوصيته، ومكتبه الخاص لحفظ المعاملات والسيطرة على سرية العمل، وعدم ضياع المعاملات وضياع حقوق الموظفين، والعاملين، وأيضا للسيطرة على العمل، ومعرفة من المتسبب في تأخير أو ضياع أي خطابات أو معاملات تتعلق بالعمل، وتحديد المسئولية، وخلق بيئة عمل جميلة ومحفزة للموظفين على الإنتاج، بعيدا عن النمط التقليدي السائد

الذي تتبعه عدة جهات بتكديس عدد من طاولات ومكاتب الموظفين في صالة واحدة، بشكل عشوائي مبعثر وغير مرتب أو منظم.

قمت بصياغة كل «الاقتراحات» ووضعها في ملف «بلاستيكي» بطريقة منظمة ومرقمة على شكل محاور، ونقاط، وقمت بتقديمها «للمدير التنفيذي» ولا أخفيكم سرا أنني كنت مترددا وخائفا أن يحدث لهذه الاقتراحات ما حدث لاقتراحاتي الأولى الذي علق عليها مدير عملي السابق بتهكم وسخرية، لكني قلت لنفسي تكرار المحاولة نوعا من الإرادة والطموح والثقة فيما قدمته من نقاط على شكل اقتراح الهدف منه تطوير وتحديث للعمل.

اطلع «المدير التنفيذي» على تلك «الاقتراحات»، وتفاجأت أنه أعجب بها إعجابا كبيرا، وأثنى عليها، وطلب مني عرضها خلال زيارة «رئيس مجلس إدارة الشركة ومرافقيه من المدراء التنفيذيين» خلال زيارتهم المرتقبة التي ستكون بعد «أسبوعين» تقريبا.

كان طلبه مني أن أعرضها على «رئيس مجلس إدارة الشركة، ومرافقيه من المدراء التنفيذيين» فيه شيء من الثقة منه في شخصي المتواضع، كما فهمت من كلامه بطريقة غير مباشرة أنه يريد أن أحظى بثقة، وإعجاب رئيس مجلس الإدارة، وهذه لفتة كريمة من «المدير التنفيذي» المشرف علي إشرافاً مباشرا.

خرجت من مكتبه منتشيا، ومعنوياتي مرتفعة من جراء ثنائه، وإطرائه الجميل على «الاقتراحات» والخطط المستقبلية التي أريد

منها تطوير العمل وبيئته، كان لكلامه وثنائه مفعول السحر على نفسي، وبمثابة التحفيز المعنوي الذي يتقنه المحترفون والمتمكنون من المدراء القادة، فالتحفيز المعنوي فن من فنون الإدارة الحديثة فالمورد البشري «الموظف» كائن بشري، الثناء، والإطراء الجميل بمثابة الوقود الحقيقي الذي يؤثر في معنوياته إيجابا، ويجعله محبا للعمل، على العكس تماما من الكلام السلبي والتحطيم الذي يؤثر في «الموظف» تأثيرا سلبيا يشكل له الإحباط والتحطيم.

أثناء عودتي من مكتب المدير التنفيذي عائدا إلى مكتبي، قارنت مقارنة ذهنية عابرة وسريعة، بين هذا المدير التنفيذي «التكنوقراط» الذي يتمتع بفكر إداري احترافي راقٍ، يمارس الإدارة الحديثة بأنصع صورها، يؤمن بالديمقراطية والحوار والمشاركة في العمل، ويعي أن الموظفين بمثابة الأجنحة التي لن يحلق أي مدير أو قائد أو دائرة دون هذه الأجنحة، من هذا المنطلق يؤمن بدور الموظفين يشجعهم على الإبداع، ويثني عليهم ويحفزهم معنويا ونفسيا.

كان الفرق شاسعا بين هذا «المدير التنفيذي» وبين ذلك «المدير العام» بعملي السابق الذي كان رجعيا «بيروقراطيا» تقليديا متخلفا إداريا، وفكريا، يمارس التسلط المركزي القاتل، لا يؤمن إلا برأيه هو، يهمش آراء واقتراحات مساعديه، ومدراء الأقسام والموظفين، وينسف جهودهم، ويقتل إبداعاتهم، ويحطمهم، ويقوم بإحباطهم، تذكرت تهكمه على «اقتراحي» الذي قدمته له من أجل رفع ثقافة الموظفين الإدارية، وطلبت منه عمل دورات تدريبية ترفع من وعي وإدراك وثقافة

الموظفين، لكنه رفض الاقتراح وتهكم عليه بقوله «الثقافة معني بها وزارة الثقافة والإعلام والأندية الأدبية» كان ذلك المدير المتخلف والجاهل، لا يعلم أن هناك «ثقافة اسمها» ثقافة وأخلاقيات العمل، وثقافة سلوك المنشأة، وثقافة الموارد البشرية. «حمدت الله أنه عوضني عنه في عملي الجديد «بمدير تنفيذي» رائع متعلم، محترف في عمله وفي سلوكه وفي تعامله.

عدت لمكتبي مسرورا منتشيا، ولم تتوقف جهودي بل واصلت الجهود، وطرق كل السبل التطويرية والنظامية التي تصب في مصلحة العمل، وقمت بإعداد بعض «الرؤى» المستقبلية والتطويرية التي تساهم في رفع مستوى الموظفين، ويجب التركيز عليها وزرعها في نفوس الموظفين لتصبح سلوكا وثقافة يمارسها الموظفون على جميع الأصعدة، ومن عناوين تلك الرؤى المستقبلية ما يلي: أهمية دورالموارد البشرية ونشر ثقافة وأخلاقيات العمل، وأهمية التوازن والعدل في الثواب والعقاب، ومراعاة الجوانب الإنسانية والاجتماعية للموظفين، وزرع ثقافة وسلوك المنشأة لتكون ذات بصمة إيجابية، وتوزيع الصلاحيات وزرع الثقة في الموظفين، ووجوب نشر الأمانة المهنية والإخلاص والإتقان في العمل، وأهمية التدريب والتطوير في تنمية القدرات البشرية، وبث روح الانتماء والولاء للعمل في نفوس الموارد البشرية، وخطورة المجاملة والمحسوبية التي تسبب في قتل الإبداع والطموح في العمل، والعدل والمساواة بين الموظفين في مجال العمل، واتباع أسلوب التحفيز المعنوي، وجعل الموارد البشرية تعمل بروح الفريق الواحد، ونشر ثقافة الرقابة الذاتية، وأهمية الترفيه، والأنشطة الرياضية في تنشيط الموارد

البشرية، والاهتمام بجودة العمل.

قمت بوضع «الاقتراحات والرؤى» في (سي دي) على شكل عروض شرائح «الباوربوينت»، وعزمت الأمر على أخذ الإذن من «المديرالتنفيذي» لكي أقوم بعرضها عن طريق «البروجكتر» في صالة العرض أثناء زيارة «رئيس مجلس الإدارة والمدراء التنفيذيين» للشركة خلال زيارتهم.

عرضت الأمر على «المدير التنفيذي» بارك الخطوة وشجعها، وقام بتوجيه قسم العلاقات العامة، بتوفير جهاز «بروجكتر» وتركيبه في صالة العرض، وطلب مني أن أقوم شخصيا بالشرح أثناء العرض، والرد على تساؤلات «رئيس مجلس الإدارة، والمدراء التنفيذين والاستشارين المرافقين له»، قمت بالتحضير والاستعداد جيدا للعرض، وحضرت نفسي للإجابة على أي تساؤلات أو استفسار عن «المقترحات»، وكيف يتم تطبيق آلية هذه «المقترحات» على أرض الواقع في حالة الموافقة عليها، فمن المهم أن تكون هذه «المقترحات» قابلة للتطبيق على أرض الواقع، وقد أعددت لذلك، ولم أترك المحاور كعناوين مرسلة، بل وضعت تحت كل محور تفصيلا دقيقا وشرحا وافياً لها ولفائدتها التي ستعود بالفائدة على سير العمل.

كذلك اجتهدت لتكون «الاقتراحات» منطقية تتوافق مع الأنظمة الإدارية، والقانونية، مقرونة بآلية التنفيذ على أرض الواقع فإن لم تكن قابلة للتطبيق فستكون مجرد «كلام تنظيري» غيرقابل للتطبيق،

من هذا المنطلق احتطت جيدا لهذا الأمر ووضعت اقتراحات مشروعة تتوافق مع الأنظمة الإدارية، والقانونية، وفق منهجية قابلة للتطبيق حسب ما تنص عليه أنظمة التطوير والتحديث في الأنظمة الخاصة بمصلحة العمل وتفيد «الموارد البشرية»، ولا تخالف بنود عقود العمل الموثقة التي تنظم العلاقة بين الشركة وبين الموارد البشرية «الموظفين» العاملين بها.

وصل الوفد في تمام الساعة «التاسعة صباحا» متمثلا في رئيس مجلس الإدارة، والمرافقين له من كبار التنفيذيين والمستشارين، كان «بروتوكول» وجدول الزيارة يشتمل على استقبال، ومن ثم تناول «وجبة الإفطار» بخيمة احتفالات مقامة في فناء الشركة، ثم يقوم الوفد بعد ذلك بزيارة ميدانية لعموم أقسام الشركة الإدارية، والفنية، وخطوط الإنتاج، وغرف التشغيل والتحكم، ومن ثم يتجه الوفد لصالة الاجتماعات والعروض، للاستماع لكلمة «المدير التنفيذي» ثم يكون هناك اجتماع لمناقشة سير العمل والإنتاج، والرؤى المستقبلية، ومناقشة المشاكل ووضع الحلول لها، ومن ثم يتم عرض «الاقتراحات» التطويرية، وفي الختام يلقي رئيس مجلس الإدارة كلمته وتقييمه لسير العمل ويبدي ملاحظاته.

كنت مرافقا للوفد أثناء زيارته الميدانية وأثناء الاجتماع، وقد لاحظت أن رئيس مجلس الإدارة رجل مهيب يملك نظرة ثاقبة، ومستمع جيد، يهتم ويناقش أدق التفاصيل هو والمستشارون والتنفيذيون المرافقون له، لا يتركون شاردة أو واردة إلا ويناقشونها ويسألون عن

أدق تفاصيلها، وهذا سيجعل مهمتي أثناء العرض صعبة، خاصة أنني موظف حديث التجربة و«شاب» ما زلت في مقتبل العمر، وفي بداية مراحلي العملية، مما ولد في نفسي بعض التوتر، خاصة أنني سأقف أمام هامات وقامات إدارية شامخة لهم باع كبير من الخبرة، ملمين بشئون الإدارة ومتمرسين في الاجتماعات ولهم عمق في المناقشات، ويملكون رؤى ثاقبة وخبرات متراكمة وشهادات عليا من أعرق الجامعات العالمية والمحلية، ولديهم ثراء إداري ومعرفي من جراء حصولهم على دورات متعددة، وحضورهم ورش عمل ومؤتمرات إدارية وعملية كثيرة.

كنت أنتظر دوري من أجل عرض «مقترحاتي» ورغم أنني واثق منها ومن جودتها، وأؤمن بأهميتها، لكن كان لدي توجس وهاجس، أن يكون «رئيس مجلس الإدارة ومرافقوه» من نوعية الإداريين «النرجسيين» الذين لا يؤمنون إلا بأنفسهم ولا يجيزون إلا أفكارهم، ولا يعيرون اهتماما لأي «اقتراحات» من غيرهم.

وصل دوري للصعود لمنصة العرض، وبداية عرض «المقترحات» كان العدد الموجود بقاعة العرض كبيرا، حاولت أن أتغلب على توتري وأكون هادئا أمام ذلك الجمع الغفير من الحضور الكبير مكانة وعددا، والمهيب حضورا، صعدت للمنصة، بدأت في العرض بمقدمة موجزة قائلا فيها: «سعادة رئيس مجلس الإدارة ومرافقيه الكرام، تعجز حروفي المتواضعة أن تحاكي قامات وقيادات إدارية عملاقة لها من الخبرة والممارسة الوظيفية والإدارية الشيء الكثير مما يجعل شخصي

المتواضع محرجًا أمامكم، وقد اجتهدت في طرح هذه الاقتراحات التي إن نالت استحسانكم بصفتكم أصحاب القرار فهذا شيء يسعدني، وإن كانت عكس ذلك فأستميحكم عذرا أنني اجتهدت، وكما يقال «لا يلام المرء بعد اجتهاده».

ثم بدأت بعرض «الاقتراحات» ولا أخفيكم سرا أن «الدقيقتين» الأولى من العرض كانت جس نبض يشوبها شيء من التوتر في نفسي، لكن تفاعل الحضور مع المقدمة التي أوردتها، أعطت نفسي شيئا من الهدوء والسكينة، ورفعت من معنوياتي، أكملت العرض كان كل «مقترح» أقوم بعرضه يحظى بمناقشة دقيقة ومستفيضة من «رئيس مجلس الإدارة» ومستشاريه، كنت أجاوب على كل نقاشاتهم وتساؤلاتهم بكل دقة ووضوح.

بعد انتهاء العرض، قام الجميع بالتصفيق للمقترحات وعلى رأسهم «رئيس مجلس الإدارة»، وبما أن فقرة العرض التي قدمتها كانت قبل الأخيرة في «بروتوكول» الزيارة، بعدها ستكون كلمة «رئيس مجلس الإدارة»، وأثناء نزولي من منصة العرض، واتجاهي لقاعة الجلوس، قابلني بالطريق رئيس مجلس الإدارة، وهو متجه لمنصة العرض لإلقاء كلمته، صافحني بحرارة، وطلب مني أن أبقي بجانبه على صالة العرض، لم أعرف وقتها ماذا يريد مني.

وأثناء إلقاء «رئيس مجلس الإدارة» كلمته قال حرفيا الجملة التالية (إن كان لهذه الزيارة ثمرة، فثمرتها هي «اقتراحات» هذا

الشاب المبدع، الذي رغم حداثة سنه، وغضاضة تجربته، إلا أن «مقترحاته» وإجاباته على التساؤلات والمناقشات التي طرحت عليه مني ومن الاستشاريين بهدوء تنم على احترافيته وتمكنه وثقته في نفسه وإيمانه بقدراته، وسأوافق فورا على جميع «مقترحاته» وسأعمد «المديرالتنفيذي» وقسم التطوير باعتماد وتنفيذ هذه «الاقتراحات» اعتبارا من الآن)، وأضاف قائلا: (حسب ما ذكر لي «المديرالتنفيذي» أثناء عرض «المقترحات» أن هذا الموظف «الشاب» ما زال في فترة التجربة بعقد مؤقت، وبقي من زمن تجربته «عشرون يوما»، لكني من الآن أعمد «المدير التنفيذي» باعتماد توظيف هذا «الشاب» بعقد وظيفي دائم وبمميزات تناسب قدراته، وأعتبره مكسبا للشركة.

اغرورقت عيناي بالدموع، فقد كانت كلمات الإطراء والثناء في شخصي المتواضع من قبل رئيس مجلس إدارة عملاقة تعتبر ثاني أكبر الشركات بالبلد بلسمًا روحيًّا انساب إلى نفسي انسياب الماء العذب لروح العطشان، فقد كانت كلمات «رئيس مجلس الإدارة» المعنوية والتحفيزية تحلق بي عاليا، شعرت وقتها أنني أطير وأغرد عاليا، فقد عوضني الله بعمل فيه إدارة محترفة تقدر القدرات وتثمن الجهود، تعي أهمية التحفيز المعنوي والمادي، تؤمن بالتطوير والتحديث، وتعتبرالموظفين «الموارد بشرية» بمثابة الوقود الحقيقي لأية منشأة وعمل، حمدت الله أن جهودي المضنية خلال الفترة الماضية لم تذهب سدى، وأنني كنت رهانا كاسبا، وكنت عند حسن «المدير التنفيذي»

الذي تشفع لي عنده شقيقه «العقيد / المهندس» الذي كان مساعدا للشئون الفنية في عملي السابق.

بعد نهاية الزيارة استدعاني «المدير التنفيذي» لمكتبه، كان سعيدا ومسرورا جدا،

قال لي: أحيي فيك ثقتك في نفسك، وكسبك التحدي، فقد كنت على حسب الثقة، ولم تخيب الظن فيك، وبعد هذا التعب والجهود المضنية منك، لك مني إجازة لمدة «أسبوع» استرح فيها، واستمتع فيها ثم عد للعمل، وستجد عقد توظيفك الدائم جاهزا بالميزات التي بإذن الله ترضيك.

كانت تلك الإجازة التي منحني «المدير التنفيذي» بمثابة هبة من السماء نزلت علي كالمطر، فقد كان هناك معرض دولي «للكتاب» سيقام بعد يومين في العاصمة «الرياض»، وبما أنني من عشاق القراءة، وشراء الكتب، فقد كانت فرصة ثمينة أن أروي عطشي الروحي والفكري الذي يعشق الكتاب والقراءة حد الهوس.

حجزت مباشرة مسافرا للرياض، وبعد وصولي ذهبت لمنزلي، ثم بدأ معرض الكتاب، كنت أقوم بزيارة معرض الكتاب، صباحا، ومساء مستمتعا بالتجول في ردهات المعرض، وتجاذب الحديث مع الباعة، والمثقفين، اشتريت عددا كبيرا من الكتب في جميع المجالات، كانت فرصة كبيرة أن أعيش سياحة فكرية رائعة، وممتعة حد اللذة، انتهت الإجازة.

عدت لعملي بتلك بمنطقة الجبيل الصناعية، وصلت لمكتبي بالشركة، ومن ثم ذهبت للسلام على «المدير التنفيذي» وبعد السلام عليه شكرته على منحي إجازة كنت في حاجة ماسة لها، وقلت له: إنني جلبت معي عدة كتب أشتريتها من معرض الكتاب وأمل منه قبولها مني هدية.

وأضفت قائلا له: ليس هناك هدية عندي أقدمها لك أغلى من هذه الكتب التي أتمنى أن تنال استحسانك.

سعد بها «المدير التنفيذي» وشكرني شكرا بليغا فهو من محبي القراءة، وأضاف قائلا: أعتبر هذه الكتب هدية العمر فهي من أجمل الهدايا، فليس هناك أغلى من أن تهدي لي زادا للفكر وغذاء للروح.

بعدها طلب «المدير التنفيذي» مني استلام عقد عملي الجديد من مدير مكتبه، طالبا مني قراءة جميع بنود العقد، قرأت البنود وجدتها مميزة تشمل راتبا ممتازا، ومميزات، وحوافز جيدة، ويتضمن العقد تأمين سكن، والحصول على تذاكر طيران أثناء تمتعي بإجازتي السنوية، وتأمين صحي، وتأمين سيارة جديدة، وغيرها من الامتيازات، وافقت مباشرة دون تردد، وتم التصديق على العقد من طرفي، ومن طرف الشركة.

بعد أن صادقت على عقد العمل الدائم، ذهبت لمكتبي، مواصلا العمل بنفسية مرتاحة وروح منتشية، مجتهدا في تطوير القسم بشكل يومي، فقد اعتبرت القسم جزءا من كينونتي، وجزءا من حياتي، ولم

أتوقف عن تطويره لحظة واحدة، وتم عمل التعديلات اللازمة من فواصل «البارتشن» وتخصيص مكتب مستقل لكل موظف، وتم تنفيذ «الاقتراحات» التطويرية التي قمت بطرحها.

كذلك تم استحداث الفروع التي طلبت استحداثها، كان العمل على كثافته ممتعًا جدا فقد كنت أتعامل مع «مدير تنفيذي» يحفزني، ويؤمن بقدراتي بعيدا عن المحسوبية، وأصبح بيني وبين الموظفين العاملين تحت إدارتي ود ورابط وجداني انبثق عنه تقدير واحترام متبادل بيننا، وتكاتفت الجهود مني ومنهم في سبيل رفع جودة العمل والاهتمام بالتنظيم والإنتاج، كنت أحفزهم وأحترمهم وأتضامن مع من يوجد لديه ظروف أو مشكلة منهم أحاول حلها بما أستطيع، كنت أحثهم أن نتعامل مع بعض كأسرة واحدة يحس كل منا بالآخر ويحفز كل منا الآخر، كان العمل قائما على قدم وساق بطريقة متجانسة وبسلاسة انسيابية جميلة.

بعد سنة تقريبا، قام فريق مشكل من «رئيس مجلس الإدارة» بزيارة الشركة التي أعمل بها، كانت مهمة ذلك الفريق القيام بالتفتيش ومراقبة جودة العمل، ويقومون بزيارة لمجموعة الشركات التي تتفرع من الشركة الأم، ويقوم الفريق بعمل تقرير شامل يرفع مباشرة «لرئيس مجلس الإدارة» عن أفضل الأقسام، وعن أسوأ الأقسام، وتدوين الملاحظات وعمل تقارير عن سير العمل، وعن الإنتاج وفق معايير ومواصفات دقيقة.

كانت المفاجأة لي أن «قسم الموارد البشرية» الذي أقوم بالأشراف

عليه كمدير، كان هو القسم المثالي، كان هذا الاختيار بمثابة المفاجأة لي و«للمدير التنفيذي»، فالقسم يعتبر قسمًا ناشئًا عمره الزمني سنة تقريبا، وهناك أقسام لها سنين ولها خبرة وباع طويل في العمل، لكن فريق التقييم والاختيار كانت مبرراته لاختيار «قسم الموارد البشرية» القسم المثالي، ناتجة عن أنه قسم تفوق في سنة على أقسام لها سنين لم تطور من نفسها، كذلك من ضمن معايير التقييم أن القسم يهتم بالجودة الشاملة في العمل شكلا ومضمونا وممارسة، وأن بيئة العمل مرتبة ومنظمة بدقة متناهية.

وعندما وصل تقرير الفريق «لرئيس مجلس الإدارة» وصلني منه خطاب شكر وتقدير، وجائزة تقديرية عبارة عن جهاز حاسب آلي «لاب توب» وتم ترشيحي لدورة تدريبية خارجية في كندا، كمكافأة لي، ومن أجل صقل قدراتي، وإعطائي جرعة من التدريب الحديث، وتأهيلي لمناصب وظيفية أخرى كما ذكر لي «المدير التنفيذي».

حزمت حقائبي استعداد للسفر لكندا لحضور تلك الدورة التي مدتها ستكون «سنة» تقريبا، سافرت للدورة بعد أن عشت تجربة وظيفية رائعة وناجحة بكل المقاييس استمتعت فيها بكل يوم وكل ساعة عشتها في تلك الشركة العملاقة التي تديرها كوادر بشرية وعقول إدارية في منتهى الاحترافية والعدل.

كان العمل في القطاع الخاص على رغم أنه متعب ذهنيا وجسديا، ومكثف إلا أنه يختلف اختلافا كليا عن العمل في القطاع الحكومي، فقد

عشت تجربة قصيرة في القطاع الحكومي لكنها كانت فترة كئيبة مملة وفاشلة، بسبب الإدارة النمطية التقليدية المتخلفة التي تدار بها، فقد كانت تمارس في القطاع الحكومي «البيروقراطية» والمركزية بأبشع صورها، ويديرها «مديرعام» متسلط قمعي لا يؤمن بأحد سوى نفسه يطبق معايير «المحسوبية والمجاملة»، ينسف كل الجهود، ويقتل كل الآراء الجميلة، ويحبط كل المبدعين، ويعطل قدرات الموظفين.

أما القطاع الخاص، فتتم إدارته باحترافية، وبإبداع مميز، ويعتبرون الموظف «موردا بشريا» ووقودًا محركًا للعمل والإنتاج، وشريكًا في النجاح، بعيدا عن المجاملة، فمعايير الجودة عندهم تتمثل في إمكانيات وقدرات الموظف فهي المعايير التي توصله ومن تقيمة، ولا تدخل المحسوبية أو المجاملة في تقييم الموظف، لا يهمهم من يكون هذا الموظف ولا يهمهم لأية عائلة أو قبيلة ينتمي الأهم عندهم ماذا يقدم من عمل، لهذا تطور القطاع الخاص وقفز قفزات سريعة وهائلة بفضل وعي واحترافية العقول التي تديره، وإيمانهم بالتحديث والتطوير والاهتمام بالموارد البشرية وتحررهم من المحسوبية والمجاملة والنفاق الاجتماعي على حساب جودة العمل.

بينما القطاع الحكومي ما زال يحبو ويمشي كالسلحفاة في ظل إدارات وقيادات نمطية تقليدية رجعية متخلفة، لا تؤمن إلا بنفسها تمارس«نرجسية» ذاتية، ولا تتعدى طموحاتهم الكراسي التي يتبوأنها، يقتلون الطموح ويحبطون المنتجين، ويمارسون المحسوبية والمجاملات والعلاقات العامة على حساب العمل.

الاستعداد للسفر

بعد وصول خطاب «رئيس مجلس الإدارة» بالموافقة على سفري لخوض دورة خارجية بكندا في مجال عملي، استأذنت من «المدير التنفيذي» للشركة طالبا منه منحي إجازة مدتها «أسبوعان» قبل سفري من أجل الذهاب للعاصمة (الرياض) لإنهاء بعض الأمور المتعلقة بي هناك، والتجهيز والاستعداد للسفر، وافق «المدير التنفيذي» على إجازتي، وتم الإذن لي قبل سفري «بأسبوعين».

ذهبت للرياض، كان في منزلي حديقة صغيرة تعد بالنسبة لي «كالرئة» التي استنشق منها أكسجين الحياة، فأنا أعشق مشاهدة الورد والزهور والأعشاب الخضراء، وأحب الزراعة، وقبل سفري للعمل في الجبيل الصناعية قمت بزراعة هذه المساحة الصغيرة التي كانت في باحة منزلي، حيث كانت تمثل جزءا مهما من منزلي، فالزرع والورود والشجيرات تأتي عظمتها من أهمية الصفات الجميلة التي منحها الله للمزروعات فلها آثار إيجابية سواء كانت نفسية أو صحية، فالزراعة لها أبعاد روحية ونفسية، فمنظرها يريح البصر، وشم عبقها يدخل على النفس البشرية الراحة النفسية، كذلك لها قيمة في حياتنا فقد أوصى الرسول الكريم «بأنه لو قامت القيامة وفي يد أحدنا غصن فسيلة فليزرعه»، ومن منطلق المحافظة على هذه المزروعات قمت قبل سفري لعملي خارج العاصمة بالتعاقد مع عامل يعمل «كسائق»

يعمل لدى أحد الجيران، سلمته مفتاح الباب الخارجي للقيام بسقاية المزروعات ثلاث مرات في الأسبوع وتشذيبها، والاهتمام بها مقابل أجر شهري اتفقنا عليه.

بعد عودتي للرياض وجدت أن هذه الحديقة الصغيرة مليئة بالأشواك وغير مشذبة أو منسقة أو نظيفة فقد كان العامل الذي تعاقدت معه غير أمين، وغير مؤهل، وليس لديه خلفية أو معرفة بالاهتمام بالحدائق والمزروعات وتنسيقها وتشذيبها.

بحثت عن مؤسسة متخصصة في الزراعة وتنسيق الحدائق، قمت بالتعاقد معها للمحافظة على هذه الحديقة الصغيرة، والقيام بتنسيقها وسقيها أثناء وجودي خارج الوطن، أبرمت عقدا قانونيا بيني وبين تلك المؤسسة، ودفعت لهم أتعابهم لمدة عام مقدم، وسلمتهم مفتاح الباب الخارجي، وأوصيت أحد الأصدقاء الأعزاء بالحضور لمنزلي مرة كل شهر ومراقبة عمل مؤسسة الزراعة والتنسيق وإفادتي بما يراه من ملاحظات.

استغليت وجودي في الرياض، وقمت بتجديد جواز سفري ورخصة القيادة المرورية الخاصة بي، كما أنني ذهبت لأحد الأسواق واشتريت بعض التمور والقهوة العربية والهيل الذي أرغب في السفر به معي، فأنا من عشاق التمر والقهوة، ولا يمكن أن أستغني عنها حتى لو كنت خارج الوطن، رغم أن شحن هذه التمور والقهوة سيكلفني زيادة رسوم على تذكرة سفري، وسوف تحملني شركة الطيران الناقلة لي

زيادة في حمولة العفش، لكن لم يكن أمامي خيار فقد كنت مهووسا بحبي للتمر والقهوة العربية ولا أستطيع الاستغناء عنها، جهزت نفسي بكل مستلزمات السفر واحتطت بملابس شتوية كثيرة فالبلد الذي سأذهب إليه بارد جدا في فصل الشتاء، وأنا لا أطيق البرد مطلقا، كما إنني دائما أحاول التخطيط قبل السفر، أعمل حجوزات مبكرة للسكن، وأحاول أخذ فكرة كاملة عن البلد الذي سأسافر له، وعن ثقافته الجمعية والسلوكية والمحذورات فيه من هذا المنطلق بحثت عن طريق «النت» بالحصول على معلومات كاملة ووافية عن البلد «كندا» وبالتحديد عن مدينة «فانكوفر» التي سأسافر لها.

كما أنني اتصلت في أحد الأصدقاء الذي سافر سابقا (لكندا) وسألته عن أفضل الأماكن الهادئة والآمنة للسكن، البعيدة عن الضوضاء وعن الإزعاج، زودني صديقي بمعلومات وافية، كذلك قام بإعطائي رقم هاتف أحد زملائه هناك والذي يسكن في مجمع سكني في مدينة «فانكوفر» الكندية، اتصل صديقي بزميله لكي يحجز لي شقة في ذلك المجمع السكني، وأرسلنا له عن طريق التحويل السريع مبلغا ماليا وصورة من جوازي ومن أوراق الابتعاث لكي يقوم بحجز سكن لي قبل قدومي، وأخبرناه بتاريخ يوم قدومي قام مشكورا بحجز سكن لي وأرسل لي على «الإيميل» نسخة من بيانات الحجز، كنت مرتاحا أنني رتبت أمور السكن قبل سفري من المملكة.

قمت بالحجز على شركة «طيران الإمارات» فشركة خطوط الطيران الخاصة ببلدي، أو التي تسمى مجازا «الناقل الوطني»

كالعادة لم أجد عليها مقعدا شاغرا، حان موعد السفر، ذهبت للمطار قبل مغادرة الرحلة بما يقارب «أربع» ساعات خوفا أن تقلع الرحلة قبل إنهاء إجراءات سفري، ورب ضارة نافعة أنني لم أجد مقعدا على طيران بلدي، فخطوط الإمارات كان تعاملهم معي راقيا، وطائراتهم حديثة ومتطورة، كان الفرق شاسعا وواسعا بين جودة خدماتهم وبين خدمات «ناقلنا الوطني» الذي كان احتكاره لأجواء الوطن، وعدم وجود منافس له سببا في عدم تطويره خدماته.

وصلت للمطار مبكرا قبل إقلاع الرحلة بأربع ساعات، واتجهت مباشرة لمكاتب خطوط الإمارات التي سأسافر عليها، كان لدي انطباع مسبقا متجذر في ذهني أنني سأجد زحامًا وطوابير انتظار تنتظر إنهاء إجراءات السفر وأخذ «بطاقة» صعود الطائرة.

عندما دخلت صالة مكاتب خطوط الإمارات تفاجأت بالتنظيم والسلاسة المتناهية في إنهاء إجراءات السفر بكل احترام وهدوء، وسرعة في الإنجاز، عرفت أن الثقافة والاحترام للعميل تأصلت وأصبحت سلوكًا ممارسًا في هذه الشركة وتوصلت إلى حقيقة أن «السلوك ممارسة» فمسألة التنظيم والسلاسة والاحترام ليست اختراعًا إنما ثقافة وموروث ممارس.

كان يجب على «ناقلنا الوطني» إن أراد تطوير ثقافته وسلوكه في التعامل مع عملائه أن يحذو حذو الآخرين في كيفية التعامل والاستفادة من ثقافتهم وسلوكهم فليس عيبا أن تنقل تجارب الآخرين الإيجابية

كما قيل في تراثنا الإسلامي «الحكمة ضالة المؤمن فأين وجدتها خذ بها».

أنهيت جميع إجراءات السفر، ثم دخلت إلى صالة المغادرة الداخلية، كنت أغرد فرحا فقد كان السفر من الهوايات المحببة لقلبي، كما أن ذهابي لبلد آخر سيجدد من نمط حياتي، ويغير من نفسيتي، ويجعلني أكتشف ثقافة ومعلومات وآثارًا ومعالم جديدة، وسيبدد عني شيئا من الروتين والوحدة المملة التي أعيشها في بلدي، وسيكون وجودي في بلد آخر في دورة مجددا لأفكاري وسيعيد صفائي الذهني.

اعتبرت الدورة تجديدًا لروتين حياتي، كما اعتبرتها فترة استجمام ونقاهة، وعلي عدم التفريط في ساعة واحدة منها، بل يجب أن أستثمر كل يوم وكل ساعة في ذلك البلد الذي سأذهب إليه، وأن لا أكون إنسانا تقليديا نمطيا بل يجب علي أن أستفيد من ثقافة وتاريخ ومعالم ومكتبات ذلك البلد والاستمتاع بكل مناطقه وزيارتها، ومعرفة ثقافة شعبه، والاستفادة من كل موروثاتهم وثقافتهم إيجابيا، جلست في «كوفي شوب» بصالة الانتظار بالمطار، أقرأ كتابا كان بيدي حتى يتم النداء على المسافرين على تلك الرحلة بالتوجه لبوابة صعود الطائرة.

صعدنا للطائرة كانت من نوع إيرباص «A380» وهي نوع فخم من الطائرات، بعد إقلاع الطائرة أخرجت كتابا من حقيبتي الصغيرة التي ترافقني بالرف الموجود بأعلى المقاعد، بقيت مستمتعا بقراءته في هدوء تام، كان حظي جميلا فالمقعد الذي بجانبي كان فارغا، مما

منحني شيئا من الهدوء والاستقلالية، كان زمن الرحلة طويلا فسوف نهبط في مدينة «دبي» البلد الذي تنتمي له الخطوط الجوية الإماراتية التي أستقلها وأنظمة الطيران لا تسمح أن تذهب تلك الرحلة مباشرة من الرياض لكندا، بل يجب عليها الهبوط في مدينة «دبي» ثم الإقلاع منها لدولة «كندا»، وصلنا مطار «دبي» ونزلنا من الطائرة حيث سنمكث في المطار ثلاث ساعات حتى موعد إقلاع رحلتنا من مطار «دبي» إلى مطار «فانكوفر» بكندا، كان مطار دبي مطارا مدهشا بحق ويشتمل على إمكانيات خدمية وتقنية مهولة، استمتعت بجولة في السوق الحرة بمطار دبي، واشتريت بعض الكتب التي سمعت عنها وكنت أبحث عنها ولم أجدها بالمكتبات السعودية.

انقضت «الثلاث» ساعات التي قضيتها بالمطار سريعة، ومن ثم تم النداء الداخلي على موعد إقلاع رحلتنا، ركبنا الطائرة كانت الساعة الواحدة فجرا، ورغم أنني متعب، لكن لا يمكن أن يداهمني النوم في السيارة أو الطائرة حتى لو كنت متعبا، فأنا لا يمكن أن أنام وعندي ضوء أو حركة وصخب، لذا لم يكن أمامي من حل إلا أخذ «كوب من الشاي» وقراءة كتاب سيرة عن حياة الزعيم الجنوب أفريقي «نيلسون مانديلا» ونضاله الطويل ضد العنصرية التي تمارس في بلده «جنوب أفريقيا» ضد أصحاب البشرة السوداء، ومكوثه في السجن «سبعة وعشرين سنة»، ومن ثم بعد خروجه من السجن أصبح رمزا من رموز النضال، وتم انتخابه رئيسا لجنوب أفريقيا.

بعد وصولنا لمطار «فانكوفر» وبعد إنهاء إجراءات القدوم وختم

جوازي، استلمت حقائبي واستقليت تاكسي من مواقف المطار، أعطيته عنوان المجمع السكني الذي أقصده، كان الجو باردا وممطرا والثلوج تهطل بكثافة، تحولت معها الشوارع والطرقات إلى كتل بيضاء متكلسة عليها الثلوج بكثافة، لم أكن أرتدي ملابس شتوية، أحسست ببرودة قارسة داهمت جميع أجزاء جسدي، وصلت إلى المجمع السكني، وجدت أن الرجل الذي اتصل فيه صديقي قام بحجز شقة لي في مجمع في حي وسط مدينة «فانكوفر» يسمى «الداون تاون» وهي منطقة فخمة وسط البلد آمنة تكثر فيها العوائل والطلبة السعوديون.

كان المجمع السكني يتسم بالفخامة والهدوء التام، صعدت للشقة المخصصة لي وجدتها مرتبة ونظيفة وأثاثها فخم وجديد، كنت متعبا جدا، وأحس برغبة جامحة للنوم، فلم أنم الليلة السابقة نوما كافيا، وأول شيء فعلته عندما دخلت الشقة أن قمت بتغير ملابسي، ثم رميت نفسي على السرير مستسلما للنوم عميقا.

بعد ما يقارب ست ساعات من النوم العميق استيقظت من النوم، كنت جائعا جدا، قمت بأخذ «دش» استحمام، ثم لبست ملابس شتوية ثقيلة، اتقاء شر البرد الذي لا أحبه وبيني وبينه خصام شديد، ففصل الشتاء أعتبره أسوأ فصول السنة بالنسبة لي، فهو إضافة لبرودته القارسة يحرمني من الاستمتاع برياضة المشي ومن السباحة التي أعشقها.

خرجت من شقتي باحثا عن مطعم لتناول وجبة طعام تبدد عني

ما أحس به من جوع شديد، أرشدني موظف الاستقبال بالمجمع السكني إلى عنوان مطعم قريب من المجمع يقع في شارع «روبسون» وذكر لي أن هذا المطعم جميل وراقي ويحضر جميع المأكولات، ذهبت للمطعم كان الجو بالغ البرودة بشكل يصل حد التجمد، وصلت للمطعم كان فعلا راقيا، وجميلا وفيه مدافئ لتسخين الأجواء، طلبت وجبة عشاء، لاحظت أنه يوجد في المطعم زبائن من وطني عرفتهم من لهجتهم ومن سحناتهم وتقاسيم سماتهم، كانت نظراتهم متجهة ناحيتي منذ دخولي المطعم حتى جلوسي على طاولة الطعام، يبدو أنهم عرفوا أنني سعودي وأنني جديد في «فانكوفر» فهي المرة الأولى التي أحضر فيها لذلك المطعم، كانت أشكالهم وهيئاتهم لا توحي أنهم أصحاب نفوس شريرة، بل كانت تبدو على سماتهم بأنهم شباب في مقتبل العمر تشع من وجوههم البراءة والطيبة.

بعد لحظات تشجع أحدهم، ونهض متجها لطاولتي مرحبا بي، ومصرا أن أشاركهم جلستهم فهم يعتبرونني ضيفا عليهم خاصة أنهم عرفوا أنني من السعودية التي ينتمون لها ونحمل جميعا جنسية وطن واحد، كانت لفتة كريمة ونبيلة منهم، فقد كنت أحتاج لهم خاصة أنني أول مرة أسافر فيها لدولة «كندا» الذي لا أعرف أحدًا فيها وبالتحديد في مدينة «فانكوفر» سواء ذلك الرجل الذي يعرفه صديقي واتصل فيه ليحجز لي شقة في المجمع السكني، وقد اتصلت فيه وأفادني أنه مسافر لمدينة «تورنتو» لزيارة شقيقه الذي يدرس هناك.

تفرجت أساريري بوجود هؤلاء الشباب الذين كان عددهم

أربعة شباب فيهم من النبل والسمو الشيء الكثير، تناولنا جميعا طعام العشاء على طاولة واحدة، وتجاذبنا أطراف الحديث، كنا جميعا ننتمي لوطن واحد نفخر بالانتماء له هو «المملكة العربية السعودية»، سألوني من أية منطقة، أخبرتهم أنني من العاصمة «الرياض» وأنني قدمت «لفانكوفر» للحصول على دورة في مجال الجودة الشاملة، كان اثنان منهما من سكان الرياض، أما الاثنان الآخران فأحدهم من شمال المملكة من «الجوف» والآخر من المنطقة الغربية جدة، أخبروني أنهم يسكنون بمجمع يبعد عن المجمع الذي أسكن فيه ما يقارب «اثنا عشر كيلا» وأن اثنين منهما يعملان أعضاء في النادي السعودي للطلبة أو مايسمى «جمعية الطلبة السعودية» في مدينة فانكوفر.

طلبوا مني إن كنت لم أجد سكنا أن أسكن مع أحدهم حتى أجد سكنا، شكرتهم، وأخبرتهم أنني حجزت شقة قبل وصولي من السفر عن طريق أحد الأصدقاء، سهرنا تلك الليلة سهرة ممتعة طاغية عليها الطيبة والنبل الإنساني، تحاورنا في أمور عدة في الشأن الاجتماعي، والتعليمي، والاقتصادي، كنت أكبرهم سنا، وعندما علموا أنني موظف وتخصصي الجامعي في «علم الإدارة» وسبق أن خضت تجارب وظيفية سابقة، فتحوا معي نقاشا حول ثقافة الإدارة وما يواجهه الموظفون الجدد من مشاكل ومن معوقات، أسهبت في الحديث بالتفصيل للإجابة على تساؤلاتهم وشرحت لهم كيف يكون الشخص ناجحا إداريا وقياديا على جميع الأصعدة، وكيف يطور من نفسه ويتلافى العقبات والسلبيات التي سيواجهها في بداية حياته الوظيفية، كانوا مقتنعين ومؤمنين بما ذكرتهم لهم في شئون الإدارة. انتصف

الليل، كان لا بد أن ينفض السامر بيننا.

ورغم أنني أول مرة أقابل فيها أولئك الشباب إلا أنني ارتحت لهم، وكأنني أعرفهم منذ زمن، كانت النفوس والأرواح متوافقة، لم يعكر صفاء نفسيتي أثناء الجلوس معهم إلا سؤال من أحدهم..عندما سألني: بعفوية تامة منه قائلا لي: لأي قبيلة أو عائلة تنتمي.. تلعثمت في الإجابة، لكني قلت له أنا من عائلة «....» واخترعت وألّفت اسم عائلة «مزيف» لا أدري هل هذا الاسم العائلي الذي ألّفته موجودا على وجه الأرض أم لا؟

أزعجني سؤاله نفسيا، رغم أن سؤاله كان عفويا لم يقصد منه الإساءة لشخصي فهو لا يعلم عن خلفيتي الاجتماعية شيئا وبأنني «لقيط» لكن تساؤله لمس جروحا غائرة في نفسي وتنفتح هذه الجروح عندما يتم التطرق لأسبابها بالمفاخرة بالأصل والفصل، تبا لهذه «اللعنة» التي تسمى «الحسب والنسب» تلاحقني حتى وأنا خارج حدود الوطن في أقصى غرب أمريكا الشمالية «بكندا» وبالتحديد في «فانكوفر» التي تطل على المحيط الهادي الكندي!

بعد خروجنا من المطعم اصطحبوني برفقتهم في سيارتهم وقاموا بتوصيلي لسكني بحي «الداون تاون» الذي لم يكن بعيدا من المطعم، سألتهم أين أجد سيارة أشتريها وأستخدمها مدة ابتعاثي، قال أحدهم: من الأفضل لك أن تستخدم وسائل النقل العام «من القطارات والباصات والتاكسي» فالبترول هنا غالي، كذلك التأمين على السيارات

مرتفع التكاليف، والصيانة وقطع الغيار غالية، وقد تتعبك ماديا، قلت له: لا تهمني المادة بقدر ما تهمني الاستقلالية والخصوصية فالسيارة الخاصة ستحقق لي استقالية وتوفر علي الوقت والانتظار.

رد قائلا: دامك مصرا على شراء سيارة فالإجازة الأسبوعية بعد يومين وبإذن الله سنذهب معك لسوق بيع السيارات، وإن شاء الله تجد سيارة مناسبة لك، شكرتهم بحرارة وامتنان على شعورهم الطيب ونبل مشاعرهم، أخذوا عنوان شقتي، ورقم هاتفي للتواصل معي، ثم ذهبوا لسكنهم، كنت سعيدا بالتعرف على أولئك الشباب الذين كانت معرفتهم بمثابة القدر الجميل في الغربة.

بعد عودتي للشقة صليت ركعتي شكر لله، ومن ثم ذهبت لغرفة نومي مستلقيا على سريري، تناولت كتابًا أريد أن أقرأ بعض فصوله قبل النوم، قرأت ما يقارب الساعة، بعد ذلك داهمني النعاس ونمت.

استيقظت لأداء صلاة الفجر، بعد الصلاة عدت مواصلا النوم حتى الساعة «التاسعة» صباحا، ثم استيقظت واستحممت وارتديت ملابسي الرياضية، ثم تناولت الإفطار، بعد ذلك خرجت أمارس رياضة الجري في الهواء الطلق، كان الجو فيه شيء من البرودة، لكن لا بأس به فالبرودة في النهار أقل من الليل، مارست رياضة الركض والمشي ما يقارب «الساعتين» بعدها عدت للسكن.

أثناء دخولي السكن أبلغني موظف الاستقبال أن هناك شخصًا ما اتصل يسأل عني، وزودني برقم هاتف من اتصل بي، استغربت

برهة، فأنا لا أعرف أحدا في هذا البلد، تذكرت الشباب الذين قابلتهم في المطعم مساء البارحة، فقد أعطيتهم رقم هاتف سكني، توقعته منهم، لم يخب حدسي فقد اتصلت على الرقم الذي وجدته عند موظف الاستقبال رد علي أحد الشباب كان اسمه «أحمد» قال لي أن أحد زملائهم بالجامعة انتهت بعثته وسيعود للوطن بعد أسبوع وعنده سيارة صغيرة، قيمتها مناسبة فهل لك رغبة في شرائها؟

قلت له: بالتأكيد فكما ذكرت لكم مساء أمس أنني بحاجة ماسة لسيارة مدة ابتعاثي.

رد قائلا: غدا بإذن الله بعد خروجنا من الجامعة سوف نأتي إليك بالسيارة لكي تراها، وتقوم بفحصها، ومن ثم القرار قرارك أن رغبت فيها، وأعجبتك لن نختلف على السعر فصاحب السيارة «شاب» طيب انتهت بعثته، ويريد بيع سيارته قبل عودته للوطن..

قلت له: أشكر اهتمامك، على بركة الله، أنتظركم غدا بإذن الله، والله يكتب ما فيه الخير.

انتهت المكالمة بيننا، حمدت الله أن منحني معرفة هؤلاء الشباب الرائعين الذين كانوا خير عون لي في هذا البلد الغريب الذي أزوره أول مرة.

قضيت بقية ذلك اليوم في التسوق، واكتشاف المدينة وآثارها، بعد ذلك عدت لسكني متعبا ونمت نوما جميلا وعميقا، استيقظت

وأفطرت ثم ذهبت «لكوفي شوب» قريب من سكني بقيت فيه حتى حان موعد مجيء الشباب الذين اتفقت معهم على شراء السيارة، وصلوا في الموعد المحدد حاولت أن أستضيفهم للغداء لكنهم رفضوا محتجين أنهم متعبون ويريدون أن يذهبوا لسكنهم، رأيت السيارة وفحصتها، وجدتها مناسبة وجيدة، طلب صاحبها سعرًا معينًا، تفاصلت معه في السعر حتى وصلنا إلى سعر توافقي مرضٍ لي وله، اتفقت وصاحب السيارة على موعد لنقل ملكية السيارة واستلامه ثمنها، اشتريت تلك السيارة المباركة والتي لم تتعطل أو تسبب لي متاعب مدة مكوثها معي.

كانت الدورة التي انتسبت لها ستبدأ بعد «أربعة» أيام، قررت أن أستثمر هذه الأيام في التعرف على مدينة «فانكوفر» التي أسكن بها، وعلى معالمها ومكتباتها وأسواقها وشوارعها وتراثها وثقافة أهلها، والقيام بفتح حساب بنكي لي وطلب شيكات، واستخراج تأمين طبي وبطاقة بنكية، واستخراج شريحة جوال كندية، والحصول على بطاقة هوية تعريف للمقاطعة.

ذكر لي الشباب أنهم سيذهبون في رحلة سياحية خلال الإجازة الأسبوعية القادمة لمنطقة جبال الروكي وكذلك مدينة بانف، عرضوا علي مرافقتهم إن كانت لدي الرغبة في مرافقتهم، وافقت مباشرة دون تردد، فقد كانت فرصة أن أكتشف مدنا، ومناطق ومعالم «كندا» وبالذات الواقعة في مقاطعة برتش كولومبيا التي تقع فيها مدينة «فانكوفر»، ومما زاد من سعادتي أنني سوف أكون برفقة شباب رأيت فيهم كل الصفات النبيلة، ووجودهم سوف يكون مريحا لي بصفة

أنهم يعرفون البلد وطرقه جيدا، ويعرفون المناطق الجميلة فيه، كما أن وجودهم سوف يبدد الوحدة المملة التي أحس بها.

اتفقنا جميعا أن نذهب في «قروب» سياحي، وقد كان ذلك، واستمتعنا بإجازة أسبوعية جميلة، استمتعنا فيها بالمناظر الطبيعية الخلابة في سلسلة جبال الروكي ومدينة «بانف»، فقد كانت الأجواء الجميلة، مارسنا فيها سياحة قصيرة مدتها ثلاثة أيام مليئة بالسعادة وبالرياضة والترفيه البريء وبالمزاح والسباحة والتجديف، بعد ذلك عدنا للمدينة التي نسكن بها «فانكوفر» بعد رحلة شيقة استمتعنا فيها بسياحة ترويحية ممتعة، ومشاهدات بصرية مذهلة وجميلة، فمقاطعة بريتش كولومبيا من أجمل مقاطعات أمريكا الشمالية إن لم تكن أجملها على الإطلاق.

بعد عودتنا كانت بعثة «اثنين» من أؤلئك الشباب على وشك الانتهاء، و اثنان منهما سوف يحصلان على إجازة سنوية سيعودان لزيارة أسرهم بالوطن.

سافروا، وانقطعت العلاقة بيني وبين أولئك الشباب «الطيبين» فجأة بعد أن قضيت معهم أيامًا جميلة ورائعة، لكن الأجمل أن نبل مشاعرهم وسمو أخلاقهم ذكرى جميلة في نفسي، مكثت بعدهم مواصلا دورتي العملية التي حضرت من أجلها.

قررت أن أثابر وأستفيد من هذه «الدورة» استفادة تامة، فلم يكن هدفي الحصول على شهادة ووثيقة ورقية مصدقة من المعهد الذي

أدرس فيه، إنما كان هدفي أن أستفيد فكريا وثقافيا ومهنيا من هذه الدورة.

حاولت أن أبتعد قدر الإمكان عن الأماكن المشبوهة «البارات والمراقص، ومحلات بيع الخمور، والنوادي الليلية التي تكثر بها المشروبات الكحولية وبائعات الهوى»، عزمت الأمر وتوكلت على الله أن أكبح جماح شهوتي وفضولي وأتحكم في رغباتي رغم أني «شاب» في مقتبل العمر غير متزوج، لكن عاهدت نفسي أن لا أكون عبدا لشهوتي، فليس شرطا أن تكون عبدا عند أحد، لكن قد تكون مستعبدا عند رغبات وشهوات عابرة لو وقعت فيها ستخسر دينك، وعقلك، وكرامتك، وقيمتك، وتخسر صحتك، وحياتك، لذا حاولت أن أتحرر من عبودية الذات والشهوات وأبتعد عن محفزات الشهوة والذات، حاولت أشغل نفسي، وأهدر طاقتي بما هو مباح، فعملت لنفسي برنامجا يوميا، وأسبوعيا، متنوعا بين الدراسة والترفية البريء المباح، كنت أمارس الرياضة والسباحة والقراءة والرسم بشكل شبه يومي، كذلك أقوم بالسفر للمناطق القريبة أيام الإجازة الأسبوعية، خاصة أنني أملك سيارة خاصة سهلت من تنقلاتي باستقلالية تامة، كنت أعشق الذهاب للمناطق والمدن التي يوجد بها مراكز ثقافية ومعالم وآثار ومكتبات، ومراكز رياضية، وبحار، ومناظر طبيعية جميلة.

كذلك انتسبت لمدرسة لتعليم الطيران الشراعي والقفز المظلي فقد كنت راغبا أن أتعلم هذه الرياضة وأحقق ولو كهواية أمنيتي التي كنت أحلم بها أثناء تخرجي من الثانوية العامة، فقد كنت أحلم أن

أكون طيارا حربيا، لكن تم قتل حلمي بسبب شروط غريبة لا تنطبق على «لقيط»!

بوادر الحب

(جميلة) تلك الفتاة الراقية المثقفة الواعية التي تملك من اسمها نصيب فهي (جميلة) شكلا، ومضمونا، جميلة في شكلها وفي مثابرتها، وطموحها، التقيت بها صدفة في مدينة «فانكوفر» التي كنت مبتعثًا لها.

كانت تلك «الفتاة» مبتعثة لإكمال دراستها العليا، وبرفقتها شقيقها الأصغر منها يرافقها كمحرم لها في الخارج، كان عمرها يقارب الثلاثين عاما، وشقيقها أصغر منها بما يقارب «ست سنوات».

لعبت الصدفة دورًا في التعرف عليهما، حيث كنت عائدا لسكني «بالداون تاون» بعد قضائي (الإجازة الأسبوعية) خارج مدينة «فانكوفر»، كانت ليلة ماطرة باردة ممزوجة برياح شديدة، كان الوقت متأخرا في الثلث الأخير من الليل، قمت بإيقاف سيارتي أمام البناية التي أسكن بها، رأيت فتاة تبكي وتتوسل «لشاب» يبدو أنه مخمور، يريد فتح باب سيارة متوقفة أمام البناية كانت «الفتاة» تحاول سحبه ومنعه من فتح باب السيارة، وهو يحاول مقاومتها، كانت تتوسل له وتريد منه أن يعود معها داخل البناية.

شدني منظرهما، وأحزنني بكاء ونحيب تلك «الفتاة» وتوسلها الملح لذلك «الشاب» الذي يهذي بكلام غير مفهوم، وكان من الواضح

عليه أنه أسرف في شرب الخمر حتى فقد صوابه وفقد سيطرته على نفسه، كان الشارع المار أمام البناية خاليا تماما من المارة والمساكن والمحلات التجارية القريبة يكتنفها هدوء شديد حد السكون، كان المطر ينهمر بغزارة شديدة والرياح تزداد اشتدادا، توقعت من لهجتها وصوتها، ومن العبارات التي تتوسل بها تلك الفتاة لذلك «الشاب» أنها تنتمي لوطني، فالبناية التي نحن أمامها معظم من يسكنها من وطني السعودية وخاصة من الأطباء، والطبيبات السعوديين المبتعثين.

اقتربت منها، وقلت لها: هل (ترغبين أية مساعدة أختي)؟

قالت: نعم جزاك الله خيرا، آمل منك فضلا لا أمرا مساعدتي في إعادة شقيقي هذا لسكني في الداخل حتى لو بالقوة فكما ترى حالته سيئة، فقد عاد للتو من البار وهو مخمور، وعندما عاتبته وأنبته على شربه الخمر تضايق من عتابي، ويريد الهروب مني، وأنا خائفة عليه أن يقود سيارته بتدهور ويسبب لنفسه أو لغيره حادث أو تقبض عليه الشرطة ويسبب لنا مشكلة وكما تعرف القوانين هنا صارمة ولا يسمح بقيادة السيارة لمن كان مخمورا.

حاولت بشتى الطرق أتحاور مع ذلك الشاب وتهدئته وإعادته مع شقيقته للشقة التي يسكنون بها، لكنه كان يرفض ويقاوم ويشتم ويسب، كان جسد الشاب نحيلا ووزنه خفيفا بشكل ملحوظ، وباستطاعتي السيطرة عليه وحمله للداخل بالقوة، كان معي جهاز (لاب توب) أحمله بيدي وشنطة رياضية أحملها على ظهري أضع فيها بعض الكتب

وبعض المستلزمات الشخصية والملابس الرياضية التي كنت آخذها معي عندما أذهب في إجازتي الأسبوعية للبحث عن المكتبات والآثار والتعرف على الطبيعة وعلى معالم وثقافة ذلك البلد ومدنه ووممارسة القفز المظلي والطيران الشراعي.

قلت لتلك «الفتاة» فضلا خذي (اللاب توب والشنطة التي معي، وامشي أمامنا، وافتحي المصعد لنا، لم يكن أمامي من خيار إلا القيام بحمل ذلك الشاب وإعادته لداخل البناية، حملت «الشاب» بالقوة عائدا به للبناية رغما عنه، قاوم في البداية ومن ثم خارت قواه وأصبح هادئًا ومسالمًا، أوصلت «الشاب» إلى شقتهم ووضعته على سريره وهو يقاوم النعاس، ويبدو أنه كان سهران، ولم يأخذ كفايته من النوم منذ فترة طويلة، ومسرفًا في شرب الخمر، طلبت من الفتاة أن تغلق عليه باب غرفته وإغلاق باب الشقة الخارجي بأحكام وإخفاء مفتاح السيارة ومفتاح الشقة عن شقيقها.

ثم خرجت من شقتهما، وأثناء خروجي قلت لها: إن حصل من «شقيقك» عنف تجاهك أو تجاه نفسه فهذا رقم هاتفي أنا أسكن في نفس هذه البناية، اتصلي علي إن احتجت مساعدة، كانت خجلة من منظر شقيقها وشتمه لي وما حصل منه من تصرفات ومن سب، أشفقت عليها، فقد كانت متوترة باكية خوفا على «شقيقها» طلبت منها أن تهدأ، وقلت لها: بإذن الله يهدأ شقيقك لكن خذي حذرك وأخفي عنه مفتاح الشقة ومفتاح السيارة، وأتمنى أن تطمئنيني عن حالة شقيقك وحاولي قدر المستطاع أن تمنعيه وتنصحيه أن يقلع عن

الشرب فالخمر أم الخبائث وسوف يؤثر عليه ويؤثر على نفسيتك ويسبب لك قلقا.

قالت «خلها على ربك يا أخي» (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء)، يعلم الله أنني تعبت معه، ولولا خوفي على مستقبلي العلمي وحرماني من مواصلة الابتعاث لأخبرت أهلي عن تصرفاته المشينة، فوالدي متوفى، وكبير عائلتنا أخي الأكبر رجل قاسٍ متسلط، لم يسمح لي بالابتعاث إلا بعد شفاعة ورجاء وتوسل من أمي ومن أخوالي ومن قرابتنا، وقد بعث معي أخي هذا كمحرم، ولو علم بتصرفاته لطلب منا العودة مباشرة للوطن دون التفكير في مستقبلي بتاتا فنحن من عائلة قبلية وثرية، لا يهمهم المستوى العلمي بقدر ما يهمهم أن لا تلوك الألسن سمعة عائلتنا بشيء من جراء ما يمارسه أخي هنا من ذهاب للبارات والمراقص والشرب بإفراط.

قلت لها: هل ممكن إذا لم يكن عندك تحفظ بعدما يتعافى شقيقك من تداعيات الشراب، ويعود لوضعه الطبيعي إبلاغي بذلك إن كان ذلك لا يزعج شقيقك أو يسبب لك مشاكل معه، وسوف يتقبل مني النصيحة، فلدي «اقتراح» ومحاولة إصلاح سوف أطرحها على شقيقك قد يكتب الله لها النجاح في تغيير مساره ويبعده عن المسكر.

قالت: جزاك الله خيرا، بالعكس شقيقي إنسان طيب، ولديه الرغبة في الإقلاع عن شرب الخمر لكنه يضعف أمام المغريات وأمام الفراغ الذي يعيشه في هذا البلد، وبإذن الله أفاتحه بالموضوع عندما

يهدأ وأرد عليك.

بعد يومين اتصلت بي تلك «الفتاة» وطلبت مني مقابلة شقيقها، حددت لها وقتا أزورهم فيه وطلبت منها أن تخبرني ببعض صفات شقيقها السلوكية وماذا يحب من هوايات حتى أعرف كيف أحاول أن أتقرب له عبر مجالات وهوايات يحبها، فقد كان لدي إلمام عبر قراءتي في علم السلوك أن أسهل طريقة تحتوي بها من تريد نصحه أو إصلاح سلوكه أن تجذبه في البداية لك نفسيا ووجدانيا لكي يرتاح لك كشخص وذلك عبر مشاركته هواياته المهاراتية أو الفكرية أو الثقافية أو الفنية أو الابداعية حتى تدخل إلى قلبه، ويرتاح ويميل لك ثم تحاول أن تأثر فيه إيجابيا فليس من المنطق أن تجابه الشخص بأخطائه وتجاوزاته من أول مرة تقابله قبل أن يرتاح لك، فمسألة الاحتواء عنصر مهم في سبيل الوصول إلى قلب أي شخص تريد نصحه.

في الوقت المحدد ذهبت لهما في شقتهما، فتح لي الباب شقيق «الفتاة» كان شابا في غاية الأدب واللطف مختلفًا تماما عن حالته التي رأيته عليها في تلك الليلة عندما كان مخمورا، كان وجهه محمرا يتوارى خجلا وهو يقدم لي بالغ اعتذاره وأسفه عما حصل منه في تلك الليلة التي كان فيها مخمورا، وما قام به من سب وشتم تجاهي، يبدو أن شقيقته حدثته بالتفصيل عما حصل منه، وبأنني ساعدتها على إدخاله لمسكنهم.

حاولت أن أبدد عنه شيئا من الخجل والتوتر الذي ينتابه فوجهت

كلامي له قائلا: كلنا إخوان ونحن كبشر معرضون للخطأ فالخطأ من طبع البشر وخير دليل على ذلك أن أبانا ونبينا آدم ارتكب خطيئة في حق الله وغضب الله عليه ومن ثم تاب الله عليه، فليس العبرة في الخطأ إنما العبرة في عدم تكرار الخطأ والإقلاع عنه.

رد ذلك «الشاب» قائلا: معك حق في كلامك ربنا غفور رحيم، والله يغفر لنا ما اقترفت نفوسنا.

بعدها حاولت أن أوجه الحديث إلى مسار آخر بعيدا كل البعد عما حصل منه، كنت أقصد من ذلك أن أبدد عنه الخجل والتوتر، وأذيب حاجز الجليد بيننا، وفعلا ناقشته في هواياته المحببة التي يعشقها ويتقنها (الرسم التشكيلي) كما ذكرت لي شقيقته عندما سألتها سابقا عن هواياته وسلوكه، تحدثت معه عن مدارس الرسم التشكيلي سواء كانت المدرسة الواقعية، أو المدرسة الرمزية، أو المدرسة التعبيرية (التأثيرية) والمدرسة التجريدية، والمدرسة الانطباعية، والمدرسة السريالية، وتحدثت معه عن أهم الفنانين التشكيلين العالميين في مجال الفن التشكيلي مثل (بيكاسو -هنري هيتس - فان جوخ - وجيمس وسلر) وغيرهم من عمالقة الفن التشكيلي، كانت لخلفيتي الثقافية بصفتي أرسم وأعشق الفن التشكيلي منذ وجودي في (دار الرعاية) ومن ثم نما معي حب الرسم التشكيلي والتعمق فيه ثقافة وفنا، ومزجت حبي له بالبحث في معرفة مدارسة ومعرفة رواده.

بعد ما يقارب ساعتين من الحوار والجلوس معه استأذنت منه،

دون أن أتطرق بتاتا لنقاشه أو نصحه فيما حدث منه تلك الليلة، فلم يكن من المستساغ أن أدخل معه في نصح وتوجيه من أول مقابلة ودون أن يرتاح لي كشخص، لكنه كما يبدو كان مرتاحا وطلب مني أن أكرر له الزيارة قريبا.

بعد «يومين» قابلت ذلك «الشاب» بالمواقف أمام البناية عائدا بشقيقته، عرضت عليه أن يذهب معي للنادي الرياضي الذي أمارس فيه النشاط الرياضي فهناك (كوفي شوب) ممكن أن نجلس فيه ونكمل حوارنا، وقد استحسن عرضي وذهب معي، وأعجب إعجابا شديدا بأقسام النادي وبالمسبح وبصالة ومعدات التدريب وبملعب كرة القدم المزروع فهو يعشق الرياضة ويحب كرة القدم والسباحة، طرحت عليه فكرة أن يقوم بالاشتراك في النادي، منها يقضي على الفراغ ويهدر طاقته بشيء مفيد ويرفع من معدله اللياقي، وافق على الفور وقام بالاشتراك مباشرة واشترى من محل ملابس رياضية قريب من النادي لبسا رياضيا كاملا، ثم انخرط معي في التمارين.

بعد انتهائنا من الحصة الرياضية ومن السباحة، ذهبنا (للكوفي شوب) الملحق بالنادي الرياضي، حاولت أن أمرر له بعض النصائح العابرة حتى أجس نبضه، هل سيتقبلها مني أم لا؟

رأيت أنه منصت ومستمع لها بشكل جيد عندها قلت له: أخي العزيز: تعلم أن أي دواء عندما نأخذه نجد طعمه مراً ومزعجا لنا في البداية لكنه يزيل عنا أعراض المرض والتعب، كذلك النصح والتوجيه

قد لا تتقبله نفوسنا في البداية لكنه مثل الدواء له انعكاسات إيجابية على مسار حياتنا، ومن هذا المنطلق أتمنى قبولك مني هذه النصيحة ليس كوصي عليك أو تطفلا أو تدخلا مني في حياتك وتصرفاتك (حاش لله) إنما كمحب لك، فأنت تعلم أن وجودك هنا في هذا البلد من أجل هدف معين وهو مرافقة وحماية شقيقتك، وأن تكون محرما لها وعونا كي تحقق هدفها التعليمي الذي ابتعثت من أجله، ومهما اقترفت من أخطاء ماضية فكلنا خطاؤون وخير الخطائين التوابون، وأتمنى منك أن تنسى الماضي بكل شطحاته وتبعاته وتبدأ من الآن صفحة جديدة مليئة بالأمل والإرادة والتغيير، فحياة الشخص منا كاللوحة البيضاء ونحن من نرسم ونلون تلك اللوحة فمنا من يلون ويرسم صفحة حياته بألوان وردية زاهية جميلة تسر الناظرين، ومنا من يلون ويرسم صفحة حياته بألوان كئيبة حالكة السواد تشّوه نقاءه الإنساني، وذلك بارتكابه سلوكيات شاذة تقزم الشخص أمام نفسه وأمام الآخرين، وقد يكون الشخص قادرا على التحرر من عبودية تلك السلوكيات إن كان يملك الإرادة على التغيير الإيجابي والإقلاع عن تلك السلوكيات.

ومن هذا المنطلق يجب عليك فورا قطع علاقتك مع أصدقاء السوء الذين يحرضونك على الذهاب «للبارات والمراقص والأماكن المشبوهة»، ويستغلونك ليس حبا أو تقديرا لك بل من أجل أن يبتزوك ماديا، وثق تماما لو أنك لا تملك المادة لتخلوا عنك، فهؤلاء ليسوا بأصدقاء حقيقيين، بل مجموعة من الصعاليك الفاسدين الذين كل همهم استغلالك بصفتك مقتدرا ماديا لكي تصرف على سهراتهم ومجونهم.

كان ذلك «الشاب» مصغيا تماما، مستمعا ولم يقاطعني أو يتذمر من كلامي مما أعطاني انطباعا أن لديه تقبلاً ورغبة في الإقلاع عن الشرب والسهر.

كان تقبله كلامي محفزا لي أن أستمر في محاولة أن يكون كلامي مريحا ومقنعا له، خرجنا من «الكوفي» وقد أيقنت أن ذلك الشاب سيتغير، جراء ما أحسسته من تفاعله وتقبله كلامي بكل صدر رحب منه.

عدنا للسكن، وعند نزوله من السيارة سقطت دموع من عينيه وهو يقول لي أرجوك أن لا تتخلى عني فأنا في حاجة ماسة لشخص مثلك يكون صادقا وصريحا معي وينتشلني من الفراغ والوحدة، ويبعدني عن ولعي بالسهر والشرب والبعد عن البارات والمراقص وأصدقاء السوء.

وعدته أن أقف معه فيما أستطيع، وقلت له: بكل حزم لا بد أن تجلس مع نفسك جلسه محاسبة للذات، وأن تكبح جماح شهواتك ولا تخنع أو تخضع لنزواتك مهما كانت جامحة، فقمة الانتصار هو الانتصار على الذات والنفس والشيطان، فإن لم تنتصر على ذاتك ورغباتك فلن يحالفك الانتصار في أي مجال آخر، عليك التوكل على الله وتذكر دائما «شقيقتك» التي أتيت لهذا البلد من أجل مرافقتها وحمايتها والحرص عليها، تذكر نحيبها وبكاءها وهي تحاول أن لا تسبب لنفسك أو لها إحراجا أو أذى.

اتفقت معه أن نحاول التضامن مع بعض في سبيل إيجاد حلول

إيجابية، واقترحت عليه أن نجد له معهد لغة ينخرط فيه لتحسين لغته الإنجليزية، ولكي يقضي على الفراغ الذي يحس فيه، كذلك مواصلته التمارين في النادي الرياضي لتفريغ طاقته ورفع لياقته والبعد تماما والانقطاع عن أصدقاء السوء الذين كان يذهب برفقتهم للبارات ويسهر معهم بالمراقص.

قررت أن أبعده تماما عن أي مؤثرات سلبية وعزلة تماما عن محيطه السابق الذي قد يؤثر فيه سلبا، وقد يعيده للشرب والسهر والمجون، حاولت أن أحفزه، وأبث في نفسه الإرادة والطموح وتغيير روتين حياته وإهدار طاقته بممارسة الرياضة.

عرضت عليه أن يكون لدينا برنامج نقضي فيه الإجازات الأسبوعية وغيرها من الإجازات القصيرة بالذهاب لمدن أخرى للتنزه البريء واكتشاف الطبيعة وزيارة مواقع الآثار والمكتبات ومعالم وأسواق البلد.

راقت له الفكرة هو و«شقيقته» فقضاء الإجازات الأسبوعية خارج المدينة التي نسكن بها يتيح لنا التجديد والتغيير ومعرفة ثقافات وجغرافيا ذلك البلد، كذلك يكون فيه بعدٌ عن المؤثرات السلبية وأصدقاء السوء الذين يكثر سهرهم ومجونهم خاصة في الإجازات الأسبوعية، ولكي يبقى تحت نظري وتحت نظر شقيقته بعيدا عما كان يعانيه من فراغ ومن انفلات أخلاقي وسلوكي سابق، كنا نسافر دائما إما عن طريق الطائرة أو القطار، أو عن طريق سيارته أو سيارتي، وإذا

وصلنا للمدينة التي نريد الذهاب لها نحجز في فندق يكون هو وشقيقته في غرفة خاصة بهما، أما أنا فكنت أسكن بغرفة منفردة.

كان هناك قاسم مشترك بيني وبين شقيقته، وهو هواية القراءة والاطلاع على الآثار، حاولت أنا وشقيقته أن ننمي في نفسه حب القراءة وحب رياضة المشي في الطبيعة تجاوب معنا سريعا، وحب تلك الهوايات بدأت صحته ونضارة وجهه تعود رويدا رويدا، وبدأت لديه الرغبة الأكيدة في التغيير..

كان يتأثر كثيرا عندما يرى «بعض» الأشخاص الثملى أو السكارى أمام البارات يترنحون بطريقة بهيمية، عندها كان يشعر بالندم، ويعاتب ويلوم نفسه على ماضيه ويعتذر من «شقيقته» وما سببه لها من قلق ومن منغصات.

كنت أقول له انس الماضي بكل ندباته (فمن منا دون خطيئة أو ماضٍ؟) عليك بالتوبة فإن الله غفور رحيم، عليك عدم الرجوع للماضي وشق طريقك في الحياة من جديد بطموح وروح وثابة فأنت ما زلت شابا في مقتبل العمر والمجال والمستقبل أمامك (ولا تكن عبدا مستعبدا لشهوات نفسك، أو نزعات الشيطان، أو لغواية أصدقاء سوء أشرار).

ولا أخفيكم سرا أنني كنت في البداية أنظر لذلك «الشاب» بريبة ولم أمنحه ثقتي، كان هذا خطأ مني، لكني من ذلك المجتمع الإقصائي الذي لا يغفر، فقد جرت العادة أن يسود انطباع سيء ومشوه في فكر

المجتمع وهو الحكم بشمولية لأي شخص يرتكب خطيئة أنه شخص سيء وشخص لا يستحق الصداقة أو الثقة، وأعترف لكم أنني كنت أحمل هذا الانطباع كشخص من المجتمع، فكنت أنظر لذلك الشاب بشيء من التوجس والخوف وعدم منحه ثقتي، رغم أنني كنت أحاول أن أغير من سلوكه لكن لم أمنحه ثقتي الكاملة، وكان لدي تردد في منحه صداقتي المطلقة، وبقي ماضيه حاضرا في ذهني.

مع الزمن اكتشفت أن انطباعي السيء عن ذلك الشاب كان في غير محله، فقد كان شابا طيبا يحمل في داخله إنسانًا رائعًا وجميلاً، وبراءة روحية ناصعة، فقد كان ضحية للفراغ، وضحية لعدم الاحتواء والتوجيه الصحيح، وضحية لشلة فاسدة من الشباب المنحرف الذي كان يستغل ذلك الشاب في الخارج بصفته شابًا ثريًا يملك مالاً يصرف منه على هؤلاء الشباب في البارات وفي النوادي الليلية، كانوا يبنون صداقتهم وعلاقتهم معه ليس حبا فيه إنما من أجل ابتزازه واستغلاله ليحقق لهم منافع مادية، ويصرف على سهراتهم وعلى مجونهم.

وللأسف الشديد أن أغلب هؤلاء الشباب كانوا من جنسيتنا ومن بلدنا ومن وطننا، يقومون باستغلال شاب من وطنهم وينتسب لدينهم، لم يراعوا روابط الدين أو روابط الوطن أو الخوف من الله، ومن تسببهم في إفساد ذلك «الشاب» واستغلاله بشكل بشع وغير إنساني أو أخلاقي.

مع تعاقب وتراكم الأيام نمت وتجسدت بيني وبين ذلك الشاب

وبين شقيقته علاقة ود واحترام وثقة، وبدينا نثق في بعض ونبوح لبعض، ونحفز ونشجع بعضنا في الغربة، ونحرص ونحافظ على بعض.

بدأت الصداقة والثقة بيننا تنمو وتكبر وتكون أكثر عمقا ومتانة، وتحولت تلك الصداقة إلى علاقة حب شريف، حب لصفات وسمات جميلة يحملها ذلك الشاب وشقيقته، وليس حبًا شهوانيًّا أو حبًّا جسديًّا (حاش لله) كنا نسافر كأشقاء لم يكن بيننا حواجز أو عدم ثقة، بحت لهما بخلفيتي الاجتماعية وأنني (لقيط) كنت متخوفا أنهما عندما يعرفان أنني (لقيط) سيحدث لديهما ردة فعل سلبية ضدي، لكنني رأيت أنهما كانا متقبلَين للأمر، ولم تشكل لهما صراحتي وخلفيتي الاجتماعية هاجسا أو ترددا، بل إنهما أَجَلاّ شفافيتي ووضوحي وصدقي معهما.

نشأت بيننا علاقة حب طاهرة وعلاقة تقدير وتضامن، صار ذلك الشاب وشقيقته، يصارحونني ويستشيرونني في جميع أمورهما ويثقون برأيي، تأثرت بهم وتأثروا بي، جمعتنا علاقة إنسانية جميلة مدة وجودنا مع بعض في «فانكوفر» بكندا.

تغير ذلك الشاب تغيرًا جذريا مما انعكس إيجابيا على نفسه وعلى شقيقته، أصبحت شقيقته منصبًّا تفكيرها على دراستها بعدما كانت تعيش قلقا وتوترا وتشتتا من جراء ما كان يمارسه شقيقها من سلوكيات شاذة سابقا.

حفزت ذلك الشاب أن ينخرط في معهد لغة ستكون مفيدة له،

انتسب لمعهد لتعلم اللغة، وحصل على شهادة في اللغة الانجليزية بعد أن اجتاز امتحان اللغة، كذلك حصل على دورة أخرى في نفس المعهد الذي أدرس فيه في مجال (الجودة الشاملة).

أصبح ذلك الشاب متفائلًا وتغيّر تفكيره ونظرته للحياة تغيّرا جذريا، وأقلع تماما عن شرب الخمر وعزف عن الذهاب للبارات أو للأماكن والنوادي المشبوهة، وأصبح يملك جسدا رياضيا رائعا، ويحب القراءة ويحب السفر برفقتي هو وشقيقته لنطوف جميع مدن وأرياف «كندا» وجميع مكتباتها وجميع آثارها ومدنها ومعالمها السياحية والطبيعية، ولم يقف ذلك الشاب عند هذا الحد بل إنه أقلع أيضا عن التدخين وعن السهر، كانت إرادته إرادة حديدية، فقد كانت لديه رغبة جامحة في التغيير وقد حصل له ذلك.

أصبحت بيني وبينه وبين شقيقته صداقة طاهرة ومتينة وحب عذري طاهر، استمتعنا بحياتنا هناك استمتاعا بريئا وجميلا، كنا نسافر، ونقرأ، ونمارس الرياضة بشتى أنواعها، نتنزه، ونرفّه عن أنفسنا ترفيها بريئا ومشروعا بعيدا عن الشهوات أو المتع المشوهة أو المحرمة.

عشت مع ذلك الشاب وشقيقته أيامًا جميلة لا تنسى، تأثرت بهما وتأثروا بي عشنا مع بعض كأشقاء كل منا حريص على الآخر.

وفي خضمّ تلك الأيام الجميلة حان وقت الفراق، فقد انتهت فترة دراسة «شقيقة» ذلك الشاب، وبقي من دورتي شهران بعدهما.

ودعتهما أثناء مغادرتهما بالمطار بدموع تنساب على وجنتي على فراق أناس عشت معهم أيامًا جميلة، مليئة بالحب والتقدير والاحترام، والمثابرة والطموح والإرادة، ومليئة بلحظات وذكريات رائعة لا تنسى.

ضريبة خطبة فتاة قبلية

بعد عودتي للوطن من البعثة الخارجية كانت قد سبقتني في العودة للوطن تلك الفتاة (جميلة) وشقيقها الذي يرافقها كمحرم بشهرين تقريبا.

كنت قد تفاهمت مع شقيقها ومعها أنه بعد عودتي للوطن بإذن الله سأتقدم لأهلها وأطلب يدها كزوجة على سنة الله ورسوله، علما أنني قد كشفت لهما عن خلفيتي الاجتماعية وبأنني (مجهول الأبوين) كانوا مقتنعين تماما بالقبول بي كشخص بعيد عن نمطية الحسب والنسب، رغم أنني استشفيت منهما أنهما غير متأكدين من موافقة بقية عائلتهم، خاصة شقيقهما الأكبر الذي هو وليهما وعميد عائلتهم، والذي كما عرفت منهما أنه متسلط ومتمسك بالأحساب والأنساب بشكل يصل حد الغلو.

صارحني شقيق تلك «الفتاة» الذي يرافقها في جلسة مكاشفة بيني وبينه قبل سفرهما أنني في حالة استطعت إقناع شقيقه الأكبر بأية طريقة فإن موضوع الزواج سيتم طالما الشقيق الأكبر موافق بصرف النظر عن موافقة أو رفض بقية عائلتهما فشقيقه الأكبر هو المتصرف وصاحب القرار الأول والأخير في العائلة، ورأي البقية وموافقتهم لا تعني شيئا إن كان الشقيق الأكبر لم يوافق.

بل إن ذلك الشاب ذهب لأكثر من ذلك، قائلا لي: إنه من الأفضل لي أن أبحث عن طريقة أحاول عبرها إخفاء نسبي ولا أذكر لشقيقه الأكبر أنني (مجهول الأبوين) واقترح علي أن أدعي أنني أنتسب لإحدى القبائل البعيدة عن منطقتهم وإحضار أحد معارفي وأصدقائي الأكبر مني سنا على أنه شقيقي، وأن والدي وأمي متوفيان من أجل موافقة شقيقة وإخفاء الأمر حتى يتم الزواج ومن ثم يكون شقيقه أمام الأمر الواقع.

رفضت هذا الاقتراح شكلا ومضمونا، وقلت له: لن أكذب أو أخفي حقيقتي على أحد خاصة في موضوع الزواج، وسأكون صريحا وواضحا ولن أصطنع أنسابا وأحسابا مزيفة من أجل تمرير كذبة مؤقتة مصيرها أن تنكشف مع الأيام، وسيكون لها عواقب وخيمة علي وعلى البنت التي سترتبط بي، فأنا أبحث عن الاستقرار والاندماج الاجتماعي مع من أصاهرهم من المجتمع ويقتنعون بي ويوافقون علي كإنسان وكشخص بعيدا عن حسبي ونسبي، فأنا تعبت وعانيت من الوحدة والشتات ولا أريد أن تكرر هذه الوحدة والعزلة مع زوجتي وأولادي بل أريد لهم أن يندمجوا مع المجتمع ونشكل بيئة اجتماعية تخفف عنا العزلة الشعورية والاجتماعية ما تبقى من أعمارنا.

كان هذا ردي على اقتراح شقيق «الفتاة» لكنه قال جرب، وحاول مع أنني غير متأكد من موافقة أخي الأكبر لو صارحته بنسبك فهو شخص متمسك بالأحساب والأنساب بشكل فيه غلو، لكن عليك المحاولة ربما يسخره الله لك ويوافق ويكتب الله لكما النصيب.

بعد عودتي للوطن اتصلت مباشرة في شقيق تلك الفتاة الأصغر الذي كان برفقتها كمحرم، وطلبت منه أن نتقابل خاصة ونحن جميعا نسكن بمدينة الرياض.

حددنا موعدا نتقابل فيه، ذكر لي أنه سوف يحضر برفقته شقيقه الأوسط الذي يعمل (طبيبًا مشهورًا) بأحد مستشفيات العاصمة وهو رجل متعلم ومثقف ومتحرر من التسلط الذكوري ومن الطبقية والعنصرية عكس شقيقه الأكبر الذي سمعت أنه يختلف عنهم بشكل جذري في التفكير وفي المرونة، وليس بينهم وبينه حوار أو مكاشفة، لذا كان الشقيق الأوسط قريبًا من شقيقه ومن شقيقته الأصغر منه ولا يخفون عنه شيئا ويستشيرونه في كل أمورهما ويبوحون له بكل أسرارهما عكس شقيقهم الأكبر الذي يخافونه وليس بينه وبينهم نقاش أو حوار فهو متسلط أحادي الرأي لا يؤمن بالرأي والرأي الآخر يطبق مع أشقائه وأسرته قاعدة (لا ترون إلا ما أرى).

في الوقت المحدد تقابلت مع ذلك الشاب وشقيقه (الطبيب) في ردهة أحد الفنادق بالرياض، تفاجأت بأن لدى ذلك (الطبيب) خلفية كاملة عني، وعن تضامني مع شقيقه وشقيقته عندما التقيتهم بهم في الخارج، كان يشكرني ويغمرني بإطراء وثناء أخجلني وأعترف أن شخصي المتواضع لا يستحق كل هذا الثناء والإطراء الذي أغدقه علي.

كنت محرجا وقتها وترددت أن أطرح موضوع طلب يد شقيقتهما خاصة الأخ الأوسط (الطبيب) بصفتي أول مرة أقابله، ولا أعلم كيف

تكون ردة فعله على طلبي، لكن شقيقه الأصغر بادر وأزال عني شيئا من الإحراج، حيث قام بفتح الموضوع وذكر لي أن «شقيقه الأوسط» لديه خلفية بالموضوع مما جعلني أتشجع وأعرض عليه رغبتي في مصاهرتهم وطلب يد شقيقتهم.

رد علي قائلا من حيث المبدأ ليس لدينا تحفظ أو شروط أنا وشقيقي الأصغر وشقيقتنا، لكن لا نخفيك سرا أننا لا نملك أمر الموافقة النهائية وليست الموافقة من صلاحياتنا، فولي شقيقتنا وعميد عائلتنا هو «شقيقنا الأكبر» ولا بد أن يكون هو مقتنعا وموافقا على ارتباطك بشقيقتنا، ويجب عليك طلب يدها منه شخصيا، فكما تعرف لدى مجتمعنا «أعراف وعادات» اجتماعية لا يمكن تخطيها فالأب أو الشقيق الأكبر في حالة وفاة الأب هو من تطلب منه يد (شقيقته) للزواج.

رددت عليه قائلا: أفهم ذلك لكن يبدو أن شقيقك الأصغر وشقيقتك وضحوا لك خلفيتي الاجتماعية، ولا أعرف هل شقيقك الأكبر، سوف يتقبل الأمر أم سأقع في إحراج معه، ومع نفسي، وقد أضع شقيقتك أيضا في إحراج، وأريد منكما الشفاعة والتأثير على شقيقكما وأن تكونوا بمثابة سفراء خير وشفعاء رحمة لي ولشقيقتكما وذلك بمحاولة إقناع شقيقكما الأكبر بالموافقة.

رد الشقيق الأوسط قائلا: لا نخفيك سرا إن شقيقنا الأكبر إنسان كبير في السن وتعليمه بسيط، لا يؤمن بالحوار أو النقاش، ومتمسك

بجبروت التسلط، وهو شقيقنا من الأب، ولا نستطيع أن نمون عليه كما نمون على بعضنا، ولو فتحنا معه الموضوع سيكون ذلك محرجا لنا وقد يؤول الأمور بأننا نتدخل في قوامته وصلاحياته ككبير للعائلة، لذا نترك الأمر لشخصك، ابحث عن طريقة تقنعه بها أو أن تقابله شخصيا وتعرض عليه الأمر ربما يسخره الله لك، ولا تعتبر اعتذارنا منك أنه تخلٍّ منا عن مساعدتك أو عدم القبول بك (حاش لله) فلا نخفيك سرا أننا قبل نأتي إليك سألنا عنك في محيطك العملي، وقد أثنى كثير من زملائك عليك كشخص وكإنسان، وليس لدينا تحفظ عليك بتاتا أن ترتبط بشقيقتنا لكننا كنا صادقين معك ووضحنا لك أن شقيقنا الأكبر لن يتقبل منا ذلك وسوف يتخيل أننا نريد التدخل في صلاحياته ككبير للعائلة، وسوف يفهم شفاعتنا بطريقة خاطئة، فلنا مع شقيقنا الأكبر تجارب سابقة سببت لنا معه مشاكل، ولا نريد التصادم معه حفاظا على تماسك العائلة والبعد عن الخلافات الأسرية التي سيكون لها انعكاسات سلبية على علاقتنا كأخوة وكأسرة، فنرجوك أبعدنا عن هذا الموضوع وتدبر أمرك بنفسك مع شقيقنا مباشرة، أما نحن فلا نملك لك سواء الدعاء بأن يسخر الله لك شقيقنا.

قبل أن ينفض الاجتماع بيننا حاولت معهما أن أفهم منهما، هل هناك أحد من أصدقاء أو أقارب شقيقهما الأكبر يستطيع أن يؤثر عليه؟ نصحوني بعدم التفكير في البحث عن وسيط فشقيقهما لديه حساسية مفرطة ضد تدخل أحد من خارج العائلة في أمر كهذا، ولن يقبل به بتاتا، وأضافوا قائلين: عليك تدبير أمرك بعيدا عن الشفاعات والوساطة فالمسألة بالنسبة لشقيقهما لن تكون شفاعة بقدر ما يفهمها

تدخل في أمور خاصة تمس شقيقتهما وتمس عائلتهما.

أحسست بعد كلامهما ورفضهم التدخل أو الشفاعة لي عند شقيقهم الأكبر، بأن الأمر صعب جدا ومن الصعوبة أن يوافق شقيقهم على الموضوع، أصابتني وقتها لحظات إحباط وحيرة وحالة سرحان سيطرت على كل تفكيري أيقنت وقتها أن الحب الشريف بيني وبين تلك الفتاة التي أعجبت بها وأحببتها حبا طاهرا لسلوكها وأخلاقها وثقافتها ونبوغها الفكري المتوهج، وفجأة أصبح الارتباط بيننا في حكم المستحيل، ورأيت أمامي طيف تلك «الفتاة» وصفاتها الجميلة وأن حبنا الشريف محكوم عليه بالموت المفاجئ بسبب «لعنة» تلاحقني أينما كنت اسمها «تكافؤ النسب»، وكهنوت اسمه (الأصل والفصل).

انفض الاجتماع بيننا دون أن نصل إلى حل أو طريقة أصارح فيها شقيقهم، وبقي الموضوع عائما وجاثما على صدري يشكل لي هاجسا وقلقا نفسيا وروحيا مؤلما.

انتظرت أصارع تلك الهواجس لمدة أسبوعين لم أجد فيها حلولاً أو طرقًا أقنع بها الشقيق الأكبر لتلك الفتاة.

بعد تردد وجذب وشد وصراع نفسي، والبحث عن خيارات وحلول توصلت إلى قناعة تامة أنه ليس أمامي من خيارات سوى المجازفة والذهاب لذلك الرجل، وطلب يد شقيقته منه مباشرة وما يقدر الله سيكون فالزواج مسألة قدرية إن أراد الله لي ولتلك الفتاة أن نرتبط ببعضنا فسيحصل النصيب حتى لو وقف ضد نصيبنا جميع البشر،

وإن أراد الله أن لا يكون بيننا نصيب فلن يحصل حتى لو وقف معنا جميع البشر.

اتصلت بشقيق الفتاة الأصغر طالبا منه عنوان منزل شقيقه الأكبر، ورقم هاتفه، أعطاني العنوان، ورقم الهاتف، اتصلت مباشرة بشقيقه الأكبر، وطلبت منه أن أقابله شخصيا لأمر خاص لا يمكن شرحه بالهاتف.

حُدد وقت (عصر يوم الخميس) أن أقابله في مزرعته الخاصة التي تبعد عن مدينة الرياض ما يقارب (40 كيلا)، ذهبت له في الوقت المحدد، وعندما رأيته على الطبيعة لم أرتح له، وانتابتني لحظات يأس فقد رأيت رجلا متعجرفا، ملامحه صارمة تدل على القسوة والجفاف، ولا أخفيكم سرا أنني ترددت أن أفاتحه بالموضوع، فقد رأيت استقبال ذلك الرجل الباهت وتغطرسه وانشغاله وصراخه على (رعاة نوق) تابعين له يهتمون بجمال موجودة في حظيرة بمزرعته.

انتظرت واقفا ما يقارب نصف ساعة دون أن يعيرني أي اهتمام أو يسألني عن سبب قدومي إليه، وأثناء لحظات الانتظار كانت تدور في نفسي لحظات يأس، ولم أرتَح، ولم أهضم ذلك الرجل لا شكلا ولا مضمونا، كان غريب الأطوار تصرفاته تتسم بالعدوانية مع الخادمين والعاملين بمزرعته يوجههم بعنف وينعتهم بألفاظ نابية، لا يحترم آدميتهم أو إنسانيتهم، كنت أقول في داخل نفسي هذا رجل لا يطاق ولا يمكن أن يوافق علي طلبي، عرفت أن كلام أشقائه وشقيقته عنه

«بأن شقيقهم رجل قاس متخلف وصعب التعامل معه» فقد كان كلامهم سليما جدا.

اكتشفت حينها لماذا أشقاؤه لم يعدوني بالتدخل والشفاعة عنده، كان هناك تناقض صارخ بينه وبين أشقائه وشقيقته، كان الفرق شاسعا وواضحا بينهم فهو رجل فظ متعجرف جاهل غير متعلم هيئته لا ترتاح لها النفس البشرية، بينما أشقاؤه وشقيقته أناس متعلمون مثقفون تنبض من نفوسهم كل سمات الطيبة واللطف والتسامح..

بقيت واقفا تعتصرني أفكار شد وجذب، هل أفاتحه بالموضوع أم أنصرف؟ وأتركه لمناكفاته لعمالته، وانشغاله بمزرعته وجماله؟

بعد طول انتظار قال لي بكل برود وفوقية: ماذا تريد؟

تشجعت واستجمعت قواي ورديت عليه قائلا: أنه يشرفني طلب يد شقيقتكم كزوجة على سنة الله ورسوله، قال كيف عرفت أن عندي شقيقة في سن الزواج؟ ومن تكون؟ ولأي قبيلة تنتمي؟ وما هي وظيفتك، وأين تعمل؟

كانت تساؤلاته حازمة لم أتوقعها أو أرتب لها إجابات مسبقة، كان يجب علي أن أجاوب على تساؤلاته لحظتها دون تردد: قلت: تعرفت على شقيقك الأصغر بالخارج، وأعجبت بأخلاقه وأحببت أن أصاهركم.

قال: وأنت من أي قبيلة؟ ومن جراء سؤاله المفاجئ نشف ريقي وذبلت الكلمات في فمي، وبعد مقاومة لذبول الكلمات قلت له: حقيقة لن أكذب عليك أنا من دار الرعاية ممن يطلق عليهم (مجهول الأبوين) تغير وجهة المتجهم أصلا، وزاد تجهما، وتورمت وجناته من الغضب، وقبضني من أكتافي ودفعني حتى كدت أقع على وجهي، قائلا لي: بطريقة فظة ومذلة، فيها تهديد ووعيد، اركب سيارتك (وانقلع) عن وجهي قبل أن أرتكب اليوم بحقك جريمة، وأضاف (ما عاد علينا إلا نناسب ونصاهر (أولاد...)

ركبت سيارتي ووجهي يتصبب عرقا، ومحمرا من ذل مهانة الموقف، كان العمالة الموجودون بالمزرعة ينظرون لي بشفقة من جراء طرده له بطريقة مذلة ومخجلة لن أنساها ما حييت.

خرجت من مزرعته مجروح الكرامة أجر أطناناً من الإهانة والذل والانكسار من جراء موقف سيبقى خالدا في ذاكرتي خلود الجبال، لم يكن بمقدوري فعل أي شيء لاسترداد كرامتي المهدرة، إلا بلوم نفسي لوما شديدا على ارتكابي حماقة شنيعة في حق نفسي وحق كرامتي، وعدم معرفتي حجمي الاجتماعي جيدا، وجرأتي بالمجازفة في طلب يد فتاة قبلية لا يمكن أن أكون يوما من الأيام من فرسانها، كان يجب علي أن أعرف أن الفرق بيني وبين حسب ونسب أهل تلك «الفتاة» شاسع وكبير، ومن المفترض أن أوفر على نفسي مهانة تجرعت ذلها ومرارتها.

ذهبت وكلمات ذلك الرجل المهينة يصدح صداها في أذني بشكل مؤلم مزعج، بشكل لا أستطيع وصف بشاعته ومرارته، كنت أثناء عودتي للمدينة أحس أنني أحمل جبالاً من الذل والمهانة، ولن أبالغ لو قلت إنني لا أعلم كيف وصلت إلى منزلي بالمدينة فقد انتابني حالة بكاء ونوبات هستيرية شديدة ممزوجة بنحيب مؤلم يخرج من أعماقي، كنت مسرعا سرعة جنونية فقد تساوى عندي الموت والحياة، فلم يعد للحياة معنى في نظري ما دام أنها تمثل حياة مهينة أعيش فيها دون احترام أو كرامة.

وطوال الطريق أثناء عودتي كانت أحلام أمل الحب والارتباط بفتاة أحببتها بكل مشاعري، وتمنيت أن تكون لي الزوجة وعن طريقها أحاول الاندماج في المجتمع، أصبح هذا الحلم والخيال مجرد حلم يتوارى عن ناظري كسراب لا يمكن أن يكون يوما حقيقة، تسرب هذا الأمل عن عيوني وعن روحي فقد كان حلمًا أمني به نفسي، ويشع كنبراس وسط ظلام من اليأس.

لكن فجأة أضحى هذا الحلم كاللمحة الخاطفة انتزعه مني تسلط ووقاحة وإقصائية رجل جاهل متعجرف، انتزع مني جذوة أمل كان هو الخيط الذي أتمسك به وسط ظلام من اليأس، والسبب في ذلك (لعنة) الأصل والفصل (وعدم تكافؤ النسب) فهل هناك ظلم أبشع وأقسى من أن يصادر حلمك وحبك ويقتل بدم بارد!؟

الاحباط يتجدد

أصبت بصدمة نفسية، وعاطفية شديدة، واعترى نفسي إحباط واكتئاب مزمن، كان رفض شقيق تلك الفتاة طلبي يد شقيقته وإهانته لي بمثابة طعنة مميتة اخترقت كرامتي، وتركت في نفسي جروحا عميقة لن تمحوها السنون، وبسبب هذه الصدمة انطويت على نفسي أعيش عزلة شعورية، واجتماعية، لم أعد أخرج من منزلي إلا للعمل فقط ولشراء لوازم منزلية ضرورية، بقيت حبيس منزلي منعزلاً عن المجتمع، وتجدد عندي الإحباط من جديد.

أصبحت تراودني العدائية «والشوفونية» التي كنت أحس بها ضد المجتمع عندما كنت مراهقا أيام الثانوية وبداية الجامعة، داهمتني كل اللحظات المؤلمة التي لاحقتني بسبب (لعنة) الحسب والنسب.

تذكرت ذهنيا خلال عزلتي كل لحظات الحرمان، والألم والشتات التي مررت بها كشريط أو فلم رعب سينمائي يمر أمام ناظري، وما حصل لي في ماضي حياتي، تذكرت ما كان يقترف في حقنا بدار الرعاية من عزلة ووحدة، وسوء معاملة، ومن حرمان عاطفي مؤلم.

تذكرت ذلك الإحساس المؤلم عندما كانت تكرمني المدرسة

بصفتي أحد الطلاب المتفوقين، وكان زملائي الطلاب يأتي أولياء أمورهم برفقتهم يحتفون بهم ويشجعونهم ويحتضنوهم، إلا أنا، آخذ جائزة تكريمي وأنطوي في إحدى الزوايا أبكي بحرقة، وألم دون أن يواسيني أحد، أو يحتفي معي بتكريمي أو يشجعني، اللهم إلا موظف منتدب من الدار جاء من أجل تنفيذ مهمة عمل رسمية لا من أجل مهمة إنسانية.

تذكرت الإحساس الممزوج بالحرمان العاطفي والأسري، وما كنا نعانيه ونحس به كأطفال الدار أثناء الإجازة الأسبوعية، والإجازات المدرسية، وعطل الأعياد عندما كنا نرى زملاءنا الطلاب يفرحون بها ويبوحون لنا أنهم سيسافرون للمتعة والترفيه عن أنفسهم برفقة أسرهم ونحن كأسرى أو كمعتقلين بالدار، وإن تكرم المشرفون بالدار وعملوا لنا جدول زيارات للأسواق والحدائق والمنتزهات فأنهم «يحسسوننا» بأنهم يتفضلون علينا، وأننا عبء على من يخرج برفقتنا من المشرفين والمراقبين فيتعاملون معنا بفظاظة وقسوة لأنهم يرون أننا السبب في انشغالهم عن أسرهم.

تذكرت بحرقة تسلط وقمع المشرفين والمراقبين لنا والتعامل معنا بجفاء لأنهم ينفذون مهمات عمل مجردة من المشاعر والعواطف الإنسانية الصادقة، ويحسسوننا بأنهم أوصياء علينا، وكأنهم يحركوننا «بالريموت كنترول» حسب أمزجتهم كأننا معتقلون أكثر من كوننا بشرًا نحتاج الحرية والاستقلالية الروحية.

تذكرت تلك (الصفعة) المؤلمة والمهينة التي وجهها لي ذلك «المشرف» الحقير في حفلة عامة في مزرعة أحد الوجهاء لأني دافعت عن نفسي، وقمت بردة فعل ضد تصرف أحد أبناء الوجهاء الذي شتمني (باللقيط المغرور الغبي).

تذكرت عندما قُتل حلمي بعدم قبولي في (الكلية الجوية) بسبب أنني (مجهول الأبوين) ولا أنتمي لعائلة أو قبيلة معروفة.

تذكرت عندما كنت أبحث عن عمل كريم وقت الإجازة الصيفية، يبدد ما أحس به من فراغ قاتل، وذهابي لتلك «العائلة المخملية» وتعرضي للإهانة والتندر والسخرية والاحتقار من تلك العائلة.

تذكرت ما فعله «أبناء وأشقاء» ذلك «الشيخ» الذي كنت أعمل عنده، وضربهم لي بعد وفاته، واتهامهم لي ظلما وبهتانا بالسطو على قصر أبيهم، وما عملوه لي من دسائس ومؤامرات واتهامهم لي بالساحر وبأنني مسيطر على أبيهم بالسحر.

تذكرت ذلك «الأخ» الغليظ والقاسي الذي رفض حلم الارتباط بشقيقته، وقتل حبنا بدم بارد، بل إنه لم يكفه الرفض إنما طردني بشكل مهين ومذل، وشتمني، ودفعني أمام عمالته بطريقة مذلة.

كل تلك الذكريات المؤلمة جددت كل الجروح والأوجاع السابقة

التي مررت بها في ماضي حياتي، بقيت صامتا منطويا في منزلي في عزلة اختيارية أجبرت عليها نفسي، لم أعد أستقبل أحدا أو أرد على أية مكالمات ترد لهاتفي.

وجدت اتصالات عدة من أشقاء تلك الفتاة (الأصغر منها والأوسط) لكني لم أرد على اتصالاتهم ليس تهميشا لهما (حاش لله) إنما ليس لدي ما أقوله لهما أو أضيفه لهما، فهما من الأساس ليس بيدهما حل ولا ربط (ففاقد الشيء لا يعطيه)، وقد قدرت موقفهما، ولا أريد أن أحرجهما مع أخيهم الأكبر أو أكون سببا في نشوء خلاف أو انشقاق بينهم كأخوة وكأسرة، كذلك ليس من المستساغ أن أفرض نفسي على أسرة أخوهم الأكبر أهانني وأهدر كرامتي وذلني.

حاولت أن أنسى موضوع الحب والزواج بتاتا وأقنعت نفسي بعد رفضي من قبل أهل تلك الفتاة التي أحببتها حبا طاهرا، وأرغب فيها كزوجة على سنة الله ورسوله لتكون شريكة روح، وشريكة حياة، وأبني معها أسرة صغيرة يكون لها جذور في مجتمع بعيدا عن الوحدة والعزلة المجتمعية التي انكويت بمرارتها، ولا أريد أن تعيشها زوجتي وأبنائي، ومن أجل هذا طلبت يدها ليس لأنها بنت حسب ونسب بل حبا في صفاتها وشخصيتها، ولكي أندمج في محيط اجتماعي يحررني ويحرر زوجتي وأبنائي في قادم الأيام من العزلة الشعورية والاجتماعية، لكن يبدو أن (لعنة) الأصل والفصل تلاحقني وتحرمني من كل أمنياتي ورغباتي.

المنطق المفقود

بعد فترة وجيزة من رفض ذلك الرجل الفظ الشرير طلبي يد «شقيقته» وقيامه بطردي من مزرعته عندما طلبت الارتباط بها، جاء إلى منزلي شقيقاه (الأوسط والأصغر) متألمين يقدمان اعتذارهما لما حدث لي من شقيقهم الأكبر، ولكي يوضحوا لي أنهما متضامنان معي معنويا، وأن الأمر ليس بأيديهما، ولو كان الأمر بأيديهما لوافقوا على زواجي من شقيقتهم، وذكر لي الشقيق «الأوسط» الذي يعمل «كطبيب» كلاما صريحا، ومباشرا.

موجهاً كلامه لي قائلا: «شف وأنا خوك لو كان الأمر يخضع للمنطق، فسوف تكون الزوج المناسب لشقيقتنا، فأنت «شاب» متعلم، وسلوكك قويم، وأخلاقك جميلة، ولا يعيبك شيء، ومن المنطق أن نختار لشقيقتنا شخصًا بمثل مواصفاتك، لكني سأكون معك صريحا وصادقا حتى إن كانت صراحة مؤلمة لك فلا بد أن تتقبلها.

وأكمل قائلا:عليك أن تعي أن مجتمعنا لا يؤمن بالمنطق، بل يؤمن بمفاهيم وعادات وموروثات المجتمع، ومهما حاولنا إقناع المجتمع بالمنطق فلن يقتنعوا «فالناس أعداء ما جهلوا» ولو حدث زواجك من شقيقتنا رغم إيماننا بأن المنطق يقول أنك الزوج المناسب لها، لكن محيطنا الأسري وواقعنا الاجتماعي الذي نعيش فيه لن يرضى بذلك، وسوف تكون موافقتنا بزواج شقيقتنا منك لها تداعيات سلبية كثيرة

على حياة شقيقاتنا المتزوجات فلن يرضى أزواجهن بأن يكون من يرتبط بشقيقة زوجاتهن من طبقة «اللقطاء» ومن الممكن أن يقوموا بطلاق شقيقاتنا.

كذلك سيكون هناك ردات فعل سلبية حتى عند أهل زوجتي وزوجات أشقائي، فلن يرضى أهلهن بذلك، وأنت تعرف أن هناك أكثر من قضية «عدم تكافؤ نسب» تم رفعها في عدة مدن من الوطن، أصبحت قضية رأي عام وتداولتها وسائل الإعلام وحقوق الإنسان، وعلى سبيل المثال أن «امرأة» تزوجت بموافقة أهلها من رجل رضوا به، وبعد سنوات من زواجهما، وبعد أن أنجبوا «طفلا وطفلة» أقام أحد أقارب الزوجة قضية «عدم تكافؤ نسب» ضد الزوج، وتم الفصل بين الزوج والزوجة عن طريق المحكمة بحجة (عدم تكافؤ النسب) رغم أن الزوجة والزوج يحبون بعضهما وبينهما أطفال، لكن القاضي أصدر صكا بالطلاق رغما عنهما، وقد رفض الزوج والزوجة الطلاق وتمسكوا ببعضهما، وما زالت قضيتهم عائمة منذ سنوات الزوجة والزوج مصرين على عدم الانفصال ويرغبون بمواصلة حياتهما مع بعضهما، وقريب الزوجة مصر على تنفيذ حكم المحكمة.

وهناك قضية «عدم تكافؤ نسب» مقامة ضد زوجين في منقطة أخرى لفصلهما رغما عنهما.

فأمر الزواج في العوائل القبلية، قد لا تحدده أسرة الزوجة أو الزوج بقدر ما يقرره المحيط الأسري والاجتماعي لما من له انعكاسات

سلبية على الأسر عموما من هذا المنطلق سيكون زواج شقيقتنا منك، له أبعاد ومؤثرات أخرى، وقد لا تجد «أنت وشقيقتنا» سعادتكما مع بعض عندما تحسان أن زواجكما كان سببا في نشوء مشاكل وانفصالات في المحيط الأسري والاجتماعي لأسرة زوجتك، ومن ثم تدخلون في مشاكل أنتم في غنى عنها، وستحرمكما هذه المشاكل من متعة الزواج، ومن الاستقرار والأمان النفسي والأسري.

وأكمل قائلا: إننا على ثقة «أنك وشقيقتنا» لن يرضيكما أنكما تبنيان سعادتكما على تشتت أطفال وأسر وخلق مشاكل لا حصر لها بين شقيقاتنا المتزوجات وأزواجهن، وبيننا وبين أهل زوجاتنا، فزواجكما ستفتح أبوابا قد لا تغلق أبدا.

كنت صامتا متعجبا مستغربا من هذا «المنطق المفقود» عند مجتمع فقد المبادئ الإنسانية والصفات الحميدة، وكل همهم الإيمان بالأحساب والأنساب، أكثر من إيمانهم بالسلوك والصفات الإنسانية، منطق كل المعايير فيه تكرس الحسب والنسب على حساب إنسانية وكرامة الإنسان، مجتمع يقصيك ويهمشك ليس لأنك سيء أو سلبي إنما لأن هويتك الاجتماعية لا تنتمي لحسبهم ونسبهم؟!

كانت نفسيتي وقتها محبطة ومتعبة جدا، انفجرت متحدثا بطريقة ندمت عليها لاحقا قائلا لهما: فعلا «منطق مفقود» عندما تنظرون لأنفسكم «بنرجسية» وتقصون من لا تؤمنون بحسبه ونسبه ليس لأنه سيء، بل لأنه لا ينتمي لمجتمعكم القبلي، رغم أن اعتزازكم

بأصلكم وفصلكم كما تدعون لا يردعكم من ممارسات ساقطة ورخيصة تمارسونها، فلماذا لا يردعكم حسبكم ونسبكم لتكونوا مثاليين سلوكيا وأخلاقيا فقد رأيت الكثير منكم يا «أبناء الذوات والقبائل والعوائل»، عندما أسافر خارج الوطن، مرتمين في أحضان «الباغيات» يترنحون أمام بارات الخمر «والنوادي الليلية» والمارة يدوسون عليهم بأقدامهم بسبب شربهم الخمر حتى فقدوا صوابهم فأين ذهب افتخاركم بحسبكم ونسبكم وقتها يا من تدعون (الحسب والنسب)؟!

أليس «منطقًا مفقودًا» أن تنصبوا أنفسكم «شعب الله المختار» في الأرض وأنتم تمارسون مثاليات مزيفة وتتفاخرون بأصولكم وفصولكم وهذه الأصول لم تحمِ سلوكياتكم وأخلاقياتكم من الرذيلة.؟! ورغم ذلك تعيبون على من لَا ينتمي لحسبكم ونسبكم؟!

أطرق الأخ «الأصغر» برأسه ينظر لأسفل قدميه يتوارى خجلا من كلامي منكسرا ينظر للأرض، فقد ذكره كلامي بماضيه السابق، عندما قابلته لأول مرة بالخارج في «فانكوفر» بكندا في مواقف السيارات يترنح مخمورا، وشقيقته تحاول منعه من الذهاب وهو في حالة سكر تام، توقع أنني أقصده شخصيا بحديثي، رغم أنني أتحدث بشكل عام فقد رأيت غيره الكثير من أبناء «الذوات والعوائل والقبائل» يفعلون ما يُندى له الجبين من السلوكيات المشينة المخجلة والشاذة أكثر مما فعل هو.

لكني حقيقة أعترف أن كلامي بحضور ذلك «الشاب وشقيقه» لم يكن في محله، ولم أكن مصيبا فيه بتاتا، فمن المفترض أن أحترم مشاعر وأحاسيس ذلك «الشاب» ولا أذكره بماض غابر، خاصة بعد توبته التي كان لشخصي المتواضع بعد الله سبب من أسباب توبته واعتزاله «البارات والنودي الليلية والسهر»، لكني كنت وقتها أمر بصدمة نفسية وعاطفية سيئة انعكست على حالتي النفسية وقتها، وسببت لي عدم اتزان، وعدم تحكم بكبح جماح آرائي مهما كانت قاسية.

ندمت لا حقا ندما شديدا على الكلام الذي قلته لذلك «الشاب وشقيقه» وعرفت أن أسوأ كلام يتفوه به الإنسان عندما يكون محبطا أو غضبان فقد يقول كلامًا يندم عليه عندما لا ينفع الندم.

خرج من عندي ذلك «الشاب وشقيقه» بعد أن وضحا لي أنه «منطق مفقود» فعلا.

وبعد خروجهما جلست مع نفسي جلسة مصارحة للذات وجدت أن كلامهما قد يكون مؤلما لي، لكنه في نفس الوقت حقيقة واقعية يجب أن أعيها جيدا وأؤمن بها، فالمجتمع سيظل على عاداته وتقاليده، ونظرته لمن هم بمثل وضعي، ولن يتغير مهما كان فمن «شب على شيء شاب عليه»، وكما قيل «الطبع يغلب على التطبع» والمجتمع تطبع على أعراف، وتقاليد وموروثات أصبحت بالنسبة لهم اعتقادات وثوابت، ولا يمكن أن يعترف بي المجتمع مهما حاولت فرض وجودي عليهم..

التفكير في الهجرة

حينما أحسست أن المجتمع لا يعترف بوجودي كإنسان، ويريد أن يرميني في غياهب النسيان، وأن أكون نقطة نكرة على هامشه، لم يكن أمامي من مفر سوى التفكير بالهجرة التي تفتح أبوابها مشرعة لكل المهمشين، والمنسيين، واليائسين، والحالمين بغد أفضل، فالهجرة ملاذ آمن لمن لا يجدون في مجتمعهم البيئة المناسبة التي تحتويهم وتؤمن بهم، وتحترم إنسانيتهم، ومشاعرهم، وكراماتهم..

بدأت تراودني بقوة فكرة الهجرة إلى بلد آخر، ومجتمع جديد مجتمع لا يؤمن بالأحساب والأنساب، بل يؤمن بالإنسان وبفكره، وسلوكه، وإنتاجيته، وقيمته الذاتية لا قيمته الاجتماعية..

لم يعد هناك شيء أخسره بعد أن تجرعت مرارة المهانة، و ذل الانكسار، وعلقم الحرمان في ظل مجتمع يمتهن كرامتي ولا يؤمن بإنسانيتي..

كان خياري الوحيد التفكير في «الهجرة» لعلني أعيد رسم خريطة حياتي من جديد في ظل مجتمع يؤمن بقدراتي، وبفكري، ويقدر إنسانيتي، ويحترم كرامتي، بعيدا عن نمطية و«لعنة» تلاحقني كظلي اسمها الحسب والنسب..

لم يعد بيني وبين مجتمعي حبل مودة أو رابط ثقة، فقد تأزمت العلاقة بيني وبين مجتمعي، ووصلت العلاقة بيننا إلى أضعف مستوياتها، بل أصبحت شبه مقطوعة..

بدأت أحس بوحشة مكانية، ووحدة شعورية، وعزلة اجتماعية، وبدأت تعود لي أعراض الحقد والنفور التي كانت تنتابني أثناء سن المراهقة تجاه المجتمع.

تذكرت أن المجتمع كان سببا في أحداث ومنغصات مؤلمة عشتها وما زلت أعيشها وأتجرع مرارتها، فقد عشت تجارب قاسية كان المتسبب فيها طبقية، وعنصرية، وإقصائية المجتمع، فقد مررت بتجارب مريرة من جراء نظرتهم الطبقية، والقبلية التي رسمت ندبات غائرة في نفسي ستبقى مطبوعة على روحي، وستظل مؤلمة لي مدى الحياة.

آلمني كثيرا أن المجتمع لم يكن عادلا معي، ولم تكن معاييره منطقية أو عادلة تجاهي بتاتا، ولم تنطلق معاييرهم في قبولي مما وهبني الله من صفات إنسانية، أو علمية، أو سلوكية، أو ما منحني الله من صفات شكلية وجسدية أشكر الله عليها، كل تلك المعايير والصفات والمثاليات والشهادات التي أحملها أصبحت تذوب وتنصهر أمام معيار واحد يؤمن به المجتمع حد التقديس وهو معيار (الحسب والنسب) هذا المعيار الذي كان سببا في انفصال روحي ووجداني بيني وبين مجتمع متناقض لا يرحم، فقد قتل حلمي بعدم قبولي في (الكلية الجوية) رغم

أنني كنت الأول على دفعتي في التوجيهي، واجتزت جميع شروط القبول الطبية والإجرائية والجسدية، وقد تم حرماني بقانون (العنصرية والقبلية والمحسوبية) من الاستمرار مع عائلة «شيخ» فاضل تبناني، ومنحني ثقته وعطفه وحنانه واسمه، وبعد وفاته تم اتهامي، وضربي من قبل أبنائه بطريقة فيها ذل وإهانة لا يتصورها البشر.

حرمت من (الزواج) من فتاة كانت زميلة لي أحببتها حبا طاهرا شريفا حبا للصفات وحبا إنسانيا بريئا بعيدا عن تقاسيم الجسد، كان كل منا يريد الارتباط بالآخر، لكن قانون (عدم تكافؤ النسب) كان معول هدم قتل حبنا الشريف بدم بارد دون رحمة أو شفقة.

أصبحت أعيش غريبا في وطني بسبب العزلة الشعورية والجدار العنصري الطبقي العازل الذي بناه مجتمع يؤمن (بكهنوت) مقدس اسمه الحسب والنسب أكثر من إيمانه بإنسانيتي ووطنيتي.

كل تلك الترسبات سببت لي ردة فعل نفسية ومعنوية فعشت إحباطات مركبة قضت على ما تبقى في نفسي من ود أو احترام لمجتمع مارس معي القتل النفسي والمعنوي، والجسدي، بشكل عدائي وإقصائي..

كنت وقتها أعيش وحدة تتجسد فيها حياة اجتماعية رتيبة مملة لا طعم لها ولا رائحة لها، انصدمت بأفكار جمعية موغلة في العنصرية والقبلية حد التقديس والولاء لمحيط اجتماعي مغلق ليس فيه أي مساحات أو هوامش تسمح بأدنى احترام أو تواصل لمن لا ينتمي

لفصيلة الأحساب والأنساب، رغم أنني حاولت بشتى الطرق الاندماج والتكيف والقبول بالأمر الواقع، لكن حقيقة لم أصل أنا والمجتمع إلى نقطة التقاء، ولا أعلم هل أنا من تمرد على المجتمع؟ أم المجتمع هو من تمرد علي؟ ولا أعلم لماذا حدث بيني وبين المجتمع عقوق؟ ومن منا العاق، هل أنا العاق الذي لم أفهم المجتمع؟ أم العاق هو المجتمع الذي لم يحترم إنسانيتي وكرامتي؟

الاقتناع بالواقع والتراجع عن الهجرة

بعد فترة من العزلة والانطواء، حاولت لململة جروحي وجمع أشلاء كرامتي المهدرة، وقررت أن تسمو نفسي على جميع العثرات و«الخيبات» التي مررت بها.

أقنعت نفسي بأنني حتى لو هاجرت خارج وطني، فإني لا أضمن أن أجد مجتمعا يحتويني، وقد أعيش نفس الوحدة، والشتات بشكل آخر، فليس من المؤكد أن أعيش مندمجا مع المجتمع الجديد.

حاولت أن أقنع نفسي أنه مهما قسا علي مجتمعي فالوطن يستحق مني التضحية والبقاء فللوطن أفضال علي لا تعد ولا تحصى، فقد وفر لي الوطن ورموزه، المأوى، والمسكن، والدراسة، والوظيفة، وليس من العدل أن أترك الوطن الذي أحببته حد العشق حتى لو جار عليّ مجتمعي فيظل الوطن أغلى من نفسي.. وقد قيل «بلادي وإن جارت علي عزيزة... وأهلي وإن ضنّوا علي كرامُ».

من هذا المنطلق آمنت أنه مهما رفضت أو تمردت على واقعي، ومهما حاولت السير عكس التيار فإن خريطة الواقع ستشكل بتضاريسها مسار حياتي سواء داخل وطني أو خارجه، ويجب علي التصالح مع ذاتي، ومع واقعي، ومع مجتمعي مهما كان مريرا ومؤلما.

ورغم اقتناعي بعدم جدوى الهجرة لكني بقيت منطويا على نفسي منعزلا عن المجتمع فلم يكن أمامي من خيار إلا أن أختار لنفسي الاختباء، والعزلة الاختيارية، فبقيت في ظل السكوت أعيش حالة من الوحدة، والصمت لأن هناك لحظات يكون الصمت فيها أعلى صوتا من الكلام، فالصمت أسمى احتجاجا يكون بمقدور الإنسان ممارسته إذا ذبل الكلام «فالسكوت أوسع إذا ضاق الحكي».

بقيت منعزلا في منزلي، محبطا إحباطا لا يوصف، ابتعدت عن ممارسة الرياضة التي كنت أزاولها بشغف، وتوقفت عن بعض الهوايات التي أعشقها كالقراءة والكتابة والرسم، والطيران الشراعي، والقفز المظلي الذي كنت أسافر نهاية كل شهر لدولة شقيقة أمارس فيها تلك الهوايات لتوفرها في تلك الدولة.

توقفت عن كل ما أحبه وأهملت الاهتمام بنفسي وبصحتي، فبقيت متأثرا جدا مصابًا بحزن وإحباط وعزلة، ولم أستطع الخروج من تلك العزلة الشعورية والاجتماعية.

كتاب جدد حياتي

في أحد الأيام كلفني عملي بالذهاب والمشاركة في ورشة عمل ستقام لمدة أسبوع في المنطقة الشرقية وبالتحديد في مدينة (الخبر) سافرت بالطائرة، وأثناء صعودي للطائرة كنت مكتئبا وآثار الإحباط بادية على وجهي وعلى روحي، كان قدرا جميلا أن يجلس في المقعد الذي بجانبي رجل في منتصف العمر، يحمل بيده كتابا شدني عنوانه «هكذا هزموا اليأس» للمؤلفة السعودية «سلوى العضيدان» استفزني عنوان الكتاب استفزازا إيجابيا، ودخل عنوانه قلبي إضافة لتحريكه شغفي بالقراءة التي توقفت عنها بسبب حالة الإحباط التي مررت بها.

سألت ذلك الرجل صاحب الكتاب من أية مكتبة اشترى ذلك الكتاب، ذكر لي اسم المكتبة.

بعد هبوطنا بالمطار استأجرت سيارة من المطار، وبدلا من أن أذهب للفندق ذهبت مباشرة للمكتبة التي تبيع ذلك الكتاب، واشتريت منه نسختين.

ذهبت للفندق الذي قام عملي بالحجز هاتفيا لي فيه غرفة أسكن بها مدة وجودي بورشة العمل، بعد إنهاء إجراءات القدوم للفندق دخلت غرفتي، ورغم أن الوقت كان ظهرا، وكنت متعبا إلا أنني بدلت ملابسي ولبست ملابس «سبورت» وبدلا من أن أذهب لتناول

الغداء بمطعم الفندق، أو أن أنام فتحت باب شرفة غرفتي المطلة على البحر مباشرة، وجلست على مقعد في الشرفة، وطلبت مشروبًا ساخنًا، وبدأت أقرأ بشغف ونهم في كتاب «هكذا هزموا اليأس» وعند قراءتي أول عشر صفحات منه، جرت في نفسي وروحي وشراييني قشعريرة حياة أخرى، وانساب إلى نفسي تفاؤل وأمل جميل كانسياب الماء العذب لجوف العطشان، وكأن ذلك «الكتاب» بلسم روحي ضمد جراحي الروحية والنفسية بطريقة ساحرة سرى طعمها ولذتها إلى أعماقي بطريقة لا أستطيع وصفها.

تركت الشرفة ودخلت غرفتي وأثناء دخولي الغرفة صرخت بشكل مفاجئ قافزا بطريقة هستيرية فوق سرير النوم قائلا ومرددا: لنفسي فعلا «هكذا نهزم اليأس» وبعد لحظات من القفز الهستيري خجلت من نفسي على هذه القفزات الصبيانية التي لا تتناسب مع عمري ولا مع تفكيري، فقد عشت حياة جادة بكل معاني الجدية، وكنت أكره «الرجة» والفوضى، لكني قمت بتلك القفزات بطريقة عفوية غريبة مبتهجا بذلك التفاؤل والسرور الذي دخل قلبي وروحي من جراء صدمة نفسية إيجابية سببها ذلك الكتاب الرائع.

أغلقت الكتاب مباشرة، وذهبت لمطعم الفندق لتناول الغداء، وقد تحولت نفسيتي إيجابا «180 درجة» من التشاؤم والإحباط، إلى التفاؤل والفرح العارم والإقبال على الحياة، بعد تناولي الغداء عدت لغرفتي وارتديت ملابسي الرياضية ونزلت لنادي الفندق الصحي، مارست التمارين الرياضية واطلعت على أخبار العالم التي أعشق

معرفتها عبر شاشة معلقة على الحائط أمام جهاز الجري بالنادي.

بعد قرابة ساعة من الجري ومن التمارين الرياضية ذهبت للمسبح مستمتعا بالسباحة بنفسية مرتاحة، وبهمة ونشاط وتفاؤل متقد، بعد التمارين صليت صلاة العصر ثم خرجت للتسوق والمرور على المكتبات لشراء بعض الكتب التي تروي عطش شغفي بالقراءة، والتي توقفت عنها فترة بسبب ما مررت به من حالة اكتئاب وإحباط، وذهبت «لكوفي شوب»، جلست أقرأ فيه بعض الكتب وأحتسي قهوتي المفضلة.

عدت بعد ذلك للفندق متناولا طعام العشاء بمطعم الفندق ثم صعدت لغرفتي، وأكملت قراءة كتاب «هكذا هزموا اليأس» حتى منتصف الليل، بعدها نمت نوما هادئا مريحا افتقدته منذ فترة.

استيقظت نشيطا وسعيدا، توضأت ثم ذهبت لأداء صلاة الفجر في المسجد القريب من الفندق بعد الصلاة قمت بالدعاء لتلك المؤلفة التي لا أعرفها إلا عن طريق كتابها الذي ساهم مساهمة مباشرة في تفاؤلي وخروجي من إحباط كاد أن يحطم حياتي.

بعد ذلك تناولت إفطاري بمطعم الفندق، وقرأت بعض الصحف اليومية، ثم خرجت من الفندق بنفسية متفائلة وبروح وثّابة لورشة العمل التي منتدب للمشاركة فيها من قبل عملي.

كنت مسرورا سعيدا بفضل الله ثم بفضل صدفة محضة

لحصولي على كتاب إيجابي جميل أعادني لحالتي الطبيعية، ومن ذلك اليوم تحولت نظرتي للحياة من النظرة السوداوية السلبية، إلى النظرة الوردية الإيجابية، وذلك من جراء ما بثه ذلك الكتاب في نفسي من تفاؤل وطموح عدت أمارس حياتي الطبيعية وأمارس كل هواياتي المحببة لنفسي بكل جدية ونشاط وهمة وتفاؤل.

جلست مع نفسي جلسة مصالحة ومحاسبة، قائلا: لنفسي لماذا لا أجعل من وطني الكبير والكريم مجتمعي البار، أسافر فيه وأكتشف كل جغرافيته، وتضاريسه، وجباله، وسهوله، ومياهه، وصحاريه، وأحول منزلي الصغير إلى محيط أسري أنعم بكل زواياه، وغرفه، وساحاته، وأجعل من الحب الإنساني نبراساً يضيء طريقي؟.

قررت أن أغير نمط حياتي، وأحرر نفسي من الروتين الممل، وأول ما قمت به هو انخراطي في نادٍ رياضي صحي أمارس فيه الرياضة التمارين والسباحة بشكل يومي مكثف لعلي أبدد شيئا من الإحباط، وأهدر شيئا من طاقتي المكبوتة بالرياضة، صممت داخليا أن أخلق لي بيئة خاصة في منزلي وأعود للهوايات والأشياء الجميلة التي كنت أمارسها بشغف ومتعة أيام الجامعة، وقل اهتمامي بها بعد أن تعددت مشاغلي الوظيفية وسفرياتي، ودوراتي العملية المتعددة، وأول ما فعلته ذهبت لمكتبة مشهورة واشتريت عشرات الكتب التي صدرت حديثا، واشتريت أدوات رسم متنوعة.

قررت أن يكون منزلي هو محيطي وهو مجتمعي وعليّ أن أجعل

منه مكانا هادئا جميلا يبدد عني ما أمر فيه من وحدة ومن شتات، وأن يكون مملكتي الخاصة التي أهفو إليها تحتويني وتحتوي هواياتي وهمومي وشجوني.

كان في منزلي بهو وركن فارغ مساحته جيدة ومناسبة، تعاقدت مع مؤسسة «ديكور ونجارة» تجهز لي الركن الفارغ في منزلي، وتقسم الركن بطريقة هندسية ليكون مقسمًا على أربع زوايا، الزاوية الأولى: تكون مكتبة خاصة لكتبي وتتضمن هذه الزاوية مقعدًا وطاولة خاصة مجهزة للقراءة والكتابة.. والزاوية الثانية: تكون كمرسم تشكيلي خاص بي أمارس فيه الرسم التشكيلي الذي أعشقه.. والزاوية الثالثة: تكون مجهزة على شكل «خيمة شعر» صغيرة عملت ديكوراتها بمنسوجات تراثية من «سدوا» ومن منسوجات قطنية جميلة، وصممت في هذه الزاوية مكانا مخصصا لإشعال النار خاصة أنني أعشق شرب قهوة العربية والتمر، وأعشق شاي الجمر والنار.. أما الزاوية الرابعة: فتكون على شكل مسرح منزلي صغير مجهز بشاشة «بلازما» تلفزيونية كبيرة أشاهد فيها البرامج التلفزيون (خاصة) الأخبار والمباريات التي أعشقها والبرامج الثقافية والحوارية والأفلام الوثائقية وفيه أيضا مشغل أقراص (دي في) أسجل فيه البرامج التي تفوتني لكي أتابعها لاحقا.

كذلك قمت باستقدام «طباخ» من جنسية عربية برفقة زوجته كخادمة منزلية للاهتمام بمنزلي، قررت أن أعامل «الطباخ وزوجته» كجزء من حياتي فعملت لهما جناحا خاصا مستقلا في فناء منزلي

الخارجي يسكنون فيه بخصوصية تامة، كنت أريد أن أخلق لي بيئة منزلية خاصة تغنيني عن المجتمع الخارجي.

أصبح منزلي بكل مكوناته، وبكل زاوياه يمثل لي مجتمعا مصغرا، فأصبح كل كتاب، وكل لوحة رسم، وكل جهاز، وكل قطعة أثاث في منزلي يشكل لي أسرة وجزءًا من حياتي يعيش معي، أحبه، وأتمسك به.

أقنعت نفسي أن هذا قدري، ووضعي، ولا بد أن أتكيف معه، وأؤمن به، فمهما حاولت التمرد على واقعي، أو فرض نفسي على المجتمع فلن يقبل بي المجتمع، لأنه كما يقال «من شب على شيء شاب عليه»، و«الطبع يغلب التطبع» والمجتمع عاش وتطبع على شيء اسمه ميزان الأحساب والأنساب وقانون طبقي اسمه (الأصل والفصل)، فأصبح هذا المفهوم سلوكًا متعمقًا ومؤثرًا في أفكار وفي تصرفات المجتمع مع من لا ينتمي لحسبهم ونسبهم، ومهما حاولت نزع هذا المفهوم فلن أستطيع لأنه أصبح اعتقادًا مقدسًا وأصبح المجتمع يتشرب هذا الاعتقاد حد الارتواء والتطرف ولا يمكن أن يقبل بي، ومهما حاولت خوض حرب أو عصيان أو تمرد لكي أنتصر على إقصائية المجتمع فلن أنتصر أو أكسب معركتي مع المجتمع.

قررت الاستسلام للواقع الجمعي، وليس عيبا الاستسلام للواقع والانسحاب من مجابهة حرب غير متكافئة مع المجتمع، وقد قيل في الحكمة الصينية «إن كنت محاربا ذكيا وماهرا عليك أن تحارب على

ثلاث جبهات، وتترك الجبهة الرابعة للانسحاب عندما تحس أن حربك خاسرة فالانسحاب نوع من الشجاعة والتكتيك عندما تضطر لذلك».

حاولت أن أتسامح، وأسمو بنفسي عن كل ضغينة، وعن كل انتقام، وعن كل حقد، وأن أعيش متسامحا مع نفسي قبل أن أكون متسامحا مع الآخرين، آمنت أنني إن لم أصنع لنفسي سعادة ذاتية، فلن يصنع الآخرون سعادتي، آمنت أن الإنسان الذكي هو من يحوّل سهام الانتقام والحقد، إلى سهام عطاء وحب وبناء.

من هذا المنطلق انخرطت في نشر ثقافة التسامح، وبناء جسور من الحب مع كل إنسان يؤمن بالحب الإنساني النبيل البعيد عن المصالح «البرغماتية» النفعية، فبدأت أقوم بزيارة دور الأيتام، وبزيارة المرضى، وزيارة المعاقين، وزيارة السجون، كانت زيارتي لتلك الفئات والأماكن تعلمني أنني أملك صحة ونعمة أفضل من غيري بكثير وقد أنعم الله علي بنعم لا تعد ولا تحصى فهناك أناس محرومون مما وهبني الله من صحة ونعمة، فقد وجدت أناساً مرضى في دور النقاهة مشلولين شللا رباعيا، لا يتحرك من أجسادهم سوى أعينهم ورغم ذلك أرى الابتسامة والتفاؤل، والأمل تشع بادية على وجوههم.

كذلك وجدت أناسا لديهم أمراض خطيرة ومميتة، ورغم ذلك مؤمنون بقدرهم متفائلون بشفائهم، ووجدت أيضا أناسا بالسجون محكومًا عليهم بالقصاص أو بعدد من عشرات السنين في السجن

ورغم ذلك وجدتهم متفائلين بأن الغد أفضل، خجلت من نفسي ومن تأففي، ومن إحباطاتي، وعرفت أن كل شيء بالحياة له وجهان من الحقيقة، وجه مضيء ووجه مظلم، فلماذا أرتدي الوجه المظلم، بينما بمقدوري ارتداء الوجه المضيء؟!

العزوف عن الزواج

بعد حرماني من الارتباط بتلك «الفتاة» التي تعرفت عليها خارج الوطن، وتم قتل حبي وحلمي بالارتباط بها، بسبب تعنت وظلم «شقيقها الأكبر» لي ولها، بعدها صليت صلاة الغائب على مشاعر الحب والتفكير في الزواج بعد تجربة حبي المقتول، فحنطت مشاعر حبي ودفنتها في أعماقي في انتظار قدوم امرأة استثنائية تجتاح أعماق قلبي بأمواج حب جارفة تقتلع ذكريات الماضي وتبعثرها وترسلها إلى غياهب النسيان، وتزرع مكانها حبا جديدا ينمو في بيئة حب جديدة شكلا ومضمونا، حبًّا ينبض بالوفاء والمشاعر الصادقة، حبًّا تتدفق عذوبته ورقته وتنساب إلى روحي العطشى فترويها وتقطع عنها عطش الحرمان، حبًّا ينسيني حب الماضي البعيد، ويجعلني أعيش حب الحاضر الجديد في أمان نفسي وروحي مع من تستحق أن تكون لي حبا خالدا خلود الجبال الرواسي، حبا يستكين داخل قلبي وروحي.

قد يكون خيالي واسعا وقد لا أجد من تناسب خيالاتي، وأعترف أن تلك «الفتاة» التي أحببتها، ولو لم تكن من نصيبي فقد رفعت من سقف الخيالات والأمنيات والأحلام عندي عاليا، ووسعت حدود ومعايير «الزوجة» المثالية التي أحبها عقلي قبل قلبي، فقد كانت علاقتي بها وحبي لها علاقة الروح بالجسد، وأقامت حاجزا نفسيا وروحيا في داخلي لم تستطع أي «امرأة» غيرها كسر هذا الحاجز حتى اللحظة.

كانت تلك الفتاة «امرأة» استثنائية مختلفة في التفكير، وفي الشكل فقد كانت تتحلى بجمال رباني باهر يمزج بين جمال الروح وجمال الجسد، كان بيني وبينها توافق فكري، وتوافق ثقافي، وكانت هناك عوامل مشتركة بيننا، من هذه العوامل: حبنا للقراءة، وعشقنا للسفر، وبحثنا عن المعرفة، كانت حقا فتاة استثنائية بكل المقاييس، فلم تكن فتاة تقليدية نمطية بل كانت تتحلى بفكر عصري متوقد جميل، وتنظر للأمور برؤى مستقبلية، مؤمنة بقدراتها، ومعتزة بعقلها لا بجسدها، تؤمن بالإنسان والفكر بعيدا عن حسبه أو نسبه، اجتاح حبها قلبي اجتياحا عارما وصل حد الامتلاء، ولم تُبقِ تلك الفتاة في قلبي مساحة لغيرها، ولم يأتِ بعدها من يملأ ما تركته من فراغ داخل روحي ونفسي «كزوجة»، وليس هذا تقليلا من غيرها من «النساء»، لكن لم أعرف بعدها من يكون بمواصفاتها وبفكرها وثقافتها وثقتها بنفسها حتى اللحظة.

من هذا المنطلق عزمت الأمر أن أتزوج زواجا تقليديا من «امرأة» تقليدية كل رغبتها في الزواج إشباع رغباتها الجسدية والجنسية، هدفها من الزواج من أجل أن تتحول إلى «مكينة» لإنجاب الأطفال، فأكثر الرجال والنساء في المجتمع كل همهم وكل هدفهم من الزواج الإشباع الجنسي، والإنجاب، وعمل الأكل والشرب، هذا كل طموحهم، ومن ثم يتحول الحب والاهتمام والعلاقة الروحية والجسدية والجنسية بينهما إلى تأدية واجب نمطي تقليدي ليس إلا، وكل ما زادت العشرة والسنين بينهما ذبلت مشاعرهم وتباعدت أرواحهم، وهذا نمط تقليدي سائد في المجتمع، وأنا لا أريد أن أعيش هذا النمط التقليدي

الذي يتكرر مع كثير ممن أعرفهم، فأنا عشت في شتات ووحدة، ولم يبق في حياتي مجال أو مكان للتجارب الفاشلة، فكل همي الاستقرار النفسي والجسدي والمكاني أريد أن أعيش ما تبقى من عمري في بيئة زوجية عبارة عن «جزيرة حب» هادئة وحالمة تغرد فيها عصافير الحب وتبحر فيها مراكب الاحتواء، وتتفجر منها ينابيع من المشاعر الأحاسيس الصادقة.

وما زلت حتى اللحظة أبحث عن «زوجة» بمواصفات ومعايير خاصة «امرأة غير تقليدية» مثقفة وواعية لديها ثقة في نفسها وفي رؤيتها تكون لي بمثابة العقل الذي يفهمني، والروح الذي تتمازج مع روحي «امرأة» تحتويني وتروي العطش والحرمان الذي عشته، توفر لي حنان الأم الذي لم أعِشه، وتكون بمثابة الأخت التي أسمع عن عطفها ولم أعِشه، تكون لي بمثابة الزوجة التي تشاركني همومي وشجوني، وسعادتي وحزني، تشكل لي الأسرة، والمجتمع، تكون رفيقة سفر أطوف برفقتها جميع بقاع الأرض، «امرأة» تحب القراءة والثقافة وتعشقها مثل عشقي لها، لا تعتبر القراءة ضرة لها تشاركها زوجها، إنما تعتبر القراءة غذاءً روحيًّا وفكريًّا لي ولها، أريد «امرأة» استثنائية تنظر لي كإنسان وكروح قبل أن تنظر لي كزوج، تعتز بعقلها قبل اعتزازها بأنوثتها، تشبع فكرها قبل أن تشبع جسدها، امرأة تتحلى بجمال روحي، وجمال جسدي، متفائلة لا يعرف الانكسار أو التشاؤم لروحها طريق، لا أريد معها حياة شتات روحي أو مكاني كما كنت سابقا، أريد أن أعيش معها حياة مستقرة تعيد لي روحي وتعيد رسم حياتي المبعثرة بعيدا عن المشاكل والمنغصات، نخلق بيئة حب بيننا تكون بمثابة جسر

وقارب نجاة يرسو بنا في ميناء حياة هادئ لا يوجد فيها عواصف أو أتربه.

كل تلك الصفات والمعايير التي لم أصادف من تمتع بها حتى الآن كانت سببا في عزوفي عن الزواج، لأن أغلى ما أملك أحاسيسي ومشاعري وحياتي، ولن تشاركني في مشاعري وأحاسيسي إلا من تستحقها وتؤمن بها، لا أريد حياة زوجية عبثية رتيبة أو أن تكون حياتي الزوجية حقل تجارب، فعندما يكون الاختيار «تقليديًّا» فسيكون بيت الزوجية هش التأسيس آيلاً للسقوط في أية لحظة «فالزواج» ليس ثوبا أو قميصا نشتريه فإذا لم يعجبنا أو يناسب مقاسنا نرميه ونشتري غيره إنما «الحياة الزوجية» حياة استقرار وحياة خلود لا حياة عبور، من هذا المنطلق وضعت معاييرَ وشروطا دقيقة في من أريد الارتباط بها على جميع الأصعدة، الشكلية، والفكرية، والثقافية، والسلوكية.

قد يقول قائل «لماذا لا أرتبط بفتاة من فتيات الدار «كزوجة» فقد تناسب ظروفي ظروفها؟»، ورغم أنني أعي أن فتيات الدار فيهن الخير والبركة ولا ينقصهن شيء، وأكن لهن كل الاحترام والتقدير فهن ضحايا المجتمع مثلي، وهن فتيات متعلمات وناضجات، وقد صنعت منهن الوحدة والشتات فتيات يعتمدن على أنفسهن ويتحملن المسئولية، ولا يعيبهن شيء فهناك منهن الكثير من يتمناهن أي رجل، لكن لا أريد أن أعيش حياة وحدة وشتات مركب، فبدلا من أن أعيش إقصائية بمفردي سأعيش مع من ارتبطت بها من الدار إقصائية أخرى خارج الدار «وكأنك يا أبوزيد ما غزيت» كما يقول المثل العامي، ولو قدر الله

وحصل لي مكروه أو وفاة، فستعيش زوجتي «بنت الدار» وأطفالها في شتات ووحدة، وإقصائية من المجتمع، وأنا لا أريد أن يعيش «أبنائي» نفس التجربة المريرة التي عشتها من وحدة قاتلة وشتات وإقصائية وتمييز طبقي.

كنت آمل أن أرتبط «بزوجة» لها جذور اجتماعية معروفة تنتمي لها، نندمج ونتصهر أنا وهي «وأبنائنا» في المجتمع، لا أن نكون مهمشين في مجتمع يؤمن بالأحساب والأنساب، ومن لا ينتمي لهم بقرابة فهو في نظرهم ضائع أصل، وسيظل يعيش من لم ينتمِ للمجتمع عزلة اجتماعية وشعورية، كانت الوحدة تؤرقني ولا أريد زوَجتي وأبنائي أن يعيشوا نفس العزلة الاجتماعية والشعورية.

كانت أحلامي أن أرتبط «بزوجة» مثالية، متعلمة، جميلة روح، وجميلة شكل، تحترمني كإنسان، بعيدا عن نمطية الحسب والنسب، تؤمن بظروفي، وتكون مقتنعة هي وأسرتها اقتناعا تاما بالقبول بي، ولا تسقط علي أي إسقاطات أو تحسسني بأنها أفضل مني أصلا وفصلا أو أعلى مني نسبا، أو تستخدم حسبها ونسبها كورقة ضغط عندما يحدث بيني وبينها اختلاف في وجهات النظر.

تساؤلات تقودني لدراسة السلوك الجمعي

كنت أتساءل بيني وبين نفسي، لماذا المجتمع القبلي لا يقبلني؟ وما هو السبب في ذلك؟ ولماذا لديهم غلوّ في افتخارهم بأحسابهم وأنسابهم؟ ولماذا لديهم نرجسية لذات القبيلة؟

لم أجد إجابة شافية وقاطعة لتلك التساؤلات مما حدا بي إلى دراسة السلوك الجمعي والإنساني أوما يسمى (بالأنثروبولوجيا أو السوسيولوجيا) الدراسات الإنسانية والدراسات الاجتماعية، وقررت أن أتعمق في دراسة الثقافات التقليدية للمجتمع، خصوصًا الموروثات القبلية التي تقدس وتورث وتكرس الإيمان بالأحساب والأنساب، وجدت أن كثيرا من أبناء القبائل يتوارثون العادات كمسلمات وثوابت لا يمكن التمرد عليها أو تجاوزها أو انتقادها، أو التحرر منها، كل هذه الموروثات القبلية التي تتوارثها القبيلة جيلًا بعد جيل، جعلتني أدرك معنى الحديث القائل (كل مولود يولد على الفطرة فأبوانه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه..).

وقد توصلت لحقيقة واضحة أن لكل ثقافة منطقها وموروثها، ولا يجوز في نظر المجتمع القبلي تخطي تلك الثقافات فهي «تابو» اجتماعي وخطوط حمراء في نظرهم وتخطيها أو تعريتها أو تشخيصها هو بحكم الاعتداء على سيادة المجتمع القبلي ومصادرة موروثاته التي يفتخر بها ويكرس حبها والتمسك بها في الأجيال المنتمية لهم.

من هذا المنطلق قررت أن أشخص بعمق أسباب تمسك المجتمع بالفئوية والعنصرية والقبلية وقمت بدراستها دراسة منطقية وتحليلها (سلوكها وأنماطها) تحليلا معتدلا بعيدًا عن انطباعاتي السابقة أو ما تعرضت له أو مررت به أو عشته من تجارب مؤلمة، كانت دراستي لسلوك القبيلة من أجل الوصول لحقيقة علمية عن المجتمع القبلي وليس من أجل الانتقام لنفسي.

قررت أن أبحث عن المناهج والمؤلفات التي تشخص وتحلل (الثقافات الجمعية) وقمت بدراستها بتمعن وبعمق وأن أستفيد منها ليس كمادة علمية أحصل على شهادتها فلم يكن تخصصي في «علم الاجتماع» إنما كان دراستي لها من أجل أن أتوصل إلى نتائج موضوعية وواقعية.

بدأت بمحاولة الدخول لعمق المجتمع القبلي والفئوي لكشف خباياه وتشريح سواتره، وكشف الأقنعة التي يخفي بها المجتمع القبلي تناقضاته، وخفاياه، حاولت أن أكتشف حقيقتهم كما هي عارية دون مساحيق تجميل أو سواتر تخفي عيوبهم، وتبرز جمال سلوكهم المصطنع الزائف.

ومن منطلق البحث الاجتماعي الواقعي بدأت أعمل مقارنات لأتمكن من فهم سلوك وتصرفات وتناقض المجتمع بين الواقع والمأمول والمفروض، بدأت أبحث في سلوكيات المجتمع وتشخيصها، فبدأت أحاول أن أندمج مع المجتمع القبلي ومصادقة شبابهم، مخفيا عنهم

خلفيتي الاجتماعية وبأنني (لقيط) صرت أحب أن أسافر في الإجازات الأسبوعية وفي إجازات الأعياد وفي إجازات الربيع للقرى والهجر ومدن الأطراف وللبادية التي ما زالت القبلية والطبقية والفئوية متفشية فيها بشكل أكثر وضوحا من المدن الكبرى، بدأت أخالطهم في مجالسهم وفي أسواقهم ومناسباتهم، أصبحت -إن جاز التعبير- «كجاسوس اجتماعي» الهدف من جاسوسيتي التعمق في ثقافة القبائل وحراكهم، ومعرفة أطباعهم وطقوسهم، وتشخيص واقعهم وسلوكياتهم وأسباب طبقيتهم؟ وأسباب عنصريتهم؟ وماذا يكنون لمن هم ليس منهم؟

كان أول سؤال يسألونه لي من أي قبيلة أنت؟ أوهمتهم مرغما أنني أنتمي لقبيلة تسكن قرب العاصمة الرياض لأن لهجتي بصفتي تربيت في الرياض قريبة من لهجة تلك القبيلة كانت (كذبة بيضاء) كما يقول مناصرو الكذب الأبيض رغم إيماني أن الكذب هو كذب سواء كان أبيضَ أو أسودَ، لكني مضطر إلى استخدام القاعدة الميكيافلية (الوسيلة تبرر الغاية) فلو قلت لهم إنني (ضائع أصل) كما في عرفهم لشملتني إقصائيتهم ولما حققت الهدف الذي من أجله أتيت إليهم واندمجت معهم وعرفت أطباعهم.

ومن باب العدل وجدت كثيرا منهم يملك صفات جميلة، كإكرام الضيف، والحياء، والنخوة، والشهامة، لكن تلك الصفات تذوب وتنصهر عندما يتعلق الأمر بالقبيلة أو بأبناء العم ففي قاموسهم أن قبيلتهم وأبناء عمومهم (كهنوت مقدس) فقد نشأ في ذهنيتهم الجمعية تأصل واعتقاد راسخ أنه يجب عليهم المؤازرة والفزعة

والواسطة لكل من ينتمي لقبيلتهم مهما كان الأمر حتى لو وصل الأمر لظلم الآخرين ومصادرة حقوقهم، فالأهم عندهم هو مناصرتهم وتضامنهم مع من ينتمي لقبيلتهم وعشيرتهم، وأي شخص من القبيلة يملك منصبا تنفيذيا أو يملك قرارا يجب عليه تفضيل أبناء قبيلته سواء في المحسوبية في التوظيف أو في تقديم تنازلات لمن يعمل تحت إدارته من أبناء قبيلته متخذين من قاعدة مأثورة لديهم تقول ((أنا وابن عمي على الغريب)) ، وهذا مثل يكرس القبلية بأبشع صورها.

مجتمع السواتر والأقنعة

لا شك أن من لا يختلط بالمجتمع القبلي، سيحكم عليه ظاهريا أنه مجتمع مثالي يتميز بالأخوة الإنسانية والطيبة والشهامة العفوية مع الجميع دون تمييز، لكن من يتعمق في سلوكياته ويعيش تجارب واقعية يرى أن كل تلك القيم والمثاليات التي يمارسها المجتمع ظاهريا مجرد أقنعة يلبسونها لبوسات مغلفة بالمجاملات والنفاق الاجتماعي وسواتر تسترها سطحيا عن المحيط الخارجي.

لكن عند أول اختبار حقيقي لهذه المثاليات تسقط الأقنعة لترى الوجه الحقيقي لمجتمع يؤمن بالنرجسية، والإقصائية والطبقية والانحياز والعنصرية لأبناء القبلة وأبناء الذوات، عندها تكتشف حقيقة أنه مجتمع يتعامل بازدواجية في المعايير حتى في إنسانيته فعندما يعرفون أنك (لقيط أو مجهول الأبوين) يجاملونك بكلام نمطي عابر فيه شيء من الإنسانية المصطنعة والعاطفة المعلبة التي يغلفونها بثوب الإنسانية، وأنت تعرف في قرار نفسك أن هناك وجهين لحقيقة هذه الإنسانية وهذه العاطفة، وجه يبرزونه لك بأنك إنسان مثلهم ولا تختلف عنهم في شيء، بينما هناك وجه آخر يخفونه في قرار أنفسهم وبأنك غير (كفء) أن تكون منهم ولست من ثوبهم، ولو تجرأت وطلبت يد (بنت أو أخت أو قريبة) أحدهم للزواج على سنة الله ورسوله لهبوا عليك واستخدموا ضدك فرَمان وقانون (عدم تكافؤ النسب)؟!

كانت الإقصائية والعنصرية حاضرة في نفوسهم ومجالسهم وفي جميع مجالات حياتهم، بل أنهم يجاهرون بها بينهم، لا أقول ذلك اتهاما أو تنظيرا، إنما سمعت ذلك منهم مباشرة أثناء اختلاطي بزملاء الدراسة الجامعية من أبناء القبائل والذوات، كذلك أثناء ممارساتنا للأنشطة الرياضية وفي المناسبات وأثناء السفر، فأسمع من بعض الزملاء والأصدقاء من أبناء القبائل الذين لا يعرفون أنني (لقيط) بعض المصطلحات الذين يطلقونها بطريقة فيها نوع من الإسقاط والتهكم والفوقية كقولهم (فلان خط 110) وقولهم (فلان خضيري) وقولهم (فلان صانع وفلان ضائع أصل).

كانت هذه المصطلحات تؤثر فيني وتشكل لي هاجسا، وحينما أطرح على هؤلاء الزملاء والأصدقاء بعض التساؤلات من باب اكتشاف ردة أفعالهم ومن تلك التساؤلات لماذا تطلقون هذه المصطلحات الإسقاطية والدونية على أناس مثلكم مواطنين ومتعلمين وسلوكهم جميل وبشرتهم كبشرتكم يتمتعون بجميع مميزات المواطنة والإنسانية والكرامة مثلكم؟

كانت تساؤلاتي تشكل لهم ردة فعل، وكأنني أرمي حجرا في مياه راكدة، فتثور ثائرتهم ويلومونني على جرأتي في طرحي عليهم تساؤلات كهذه، ويقولون لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نصاهر أناسًا هم أقل منا في الأصل والفصل وليس ببيننا وبينهم (تكافؤ في النسب).

كنت أحاجهم بحديث رسولنا الكريم القائل (من جاءكم من

ترضون دينه وخلقه فزوجوه)، وكنت أشرح لهم أن المعيار في الحديث الدين والخلق وليس النسب، لكنهم كانوا يردون علي بأنه يجب اختيار تكافؤ النسب ويستدلون بحديث (تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس) رغم أنني سمعت أن هذا الحديث ضعيف ومرسل ولا يعتد به.

كنت أحاول محاجتهم وأقول لهم إذا كنتم تقولون (تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس) فلماذا كبار السن منكم والمعقدون والمكفوفون والمعاقون تأخذون لهم تصاريح من الدولة وتسافرون بهم للخارج وتزوجونهم من هناك من نساء تستغلون حاجتهن المادية ولا تعرفون أصلهم وفصلهم أليس قمة التناقض أن تحللوا لأنفسكم ما تحرمونه على غيركم؟!

كانوا يردون علي بإجابات هلامية لم تقنعني ولم تشفِ تساؤلاتي، بل إني تجرأت أكثر وسألتهم (هل تقبلون أن تتزوجون من بنات الرعاية «اللقيطات») وتزوجون بناتكم من شباب الرعاية (اللقطاء) كانت تثور ثائرتهم ويقولون لا يمكن أن ندنس أصلنا وفصلنا بالزواج من (أبناء أو بنات حرام).

قلت: لهم إذا كنتم تعتزون بأصولكم وتتفاخرون بنسبكم وبتقاليدكم القبلية ولا تريدون تدنيس أصلكم كما تدعون، فلماذا عندما أسافر خارج البلد أرى أناسا منكم زبائن دائمين «للمواخير ودورالبغاء والبارات وإلنوادي الليلية» فاقدين عقولهم يترنحون أمام البارات والكباريهات؟!

لماذا لم تمنعكم قبيلتكم، وأصلكم وفصلكم، ومبادئكم وقيمكم القبلية التي تؤمنون بها وتعتزون بها من ممارسات السلوكيات والأفعال الشاذة، أم أن هذه المبادئ «كالمشالح» واللبوس تلبسونها متى ما أردتم وتخلعونها متى ما أردتم، إنكم تمارسون النفاق والازدواجية بأبشع صورها؟!

تناقضات المجتمع القبلي

من يتمعن ويتعمق في سلوكيات المجتمع وتصرفاتهم وعاداتهم وموروثاتهم وما يؤمنون به وما يمارسونه من طقوس ومن أنماط، يرى تناقضات صارخة بين ما يمارسه المجتمع من تناقض صارخ وتمييز عنصري وقبلي يمارسونه وبين ما يحثنا عليه ديننا وعقيدتنا.

ويستغرب الإنسان من التناقضات الواضحة في تصرفات المجتمع حتى أن تناقضاتهم تصل حتى التعارض مع الثوابت الدينية التي تحث المسلم على العدل والمساواة، فعندما تتم المقارنة بين ما يحثنا ديننا القويم عليه من ترابط ورحمة وتسامح وبأن أكرمنا عند الله أتقانا، وبين ما يؤمن به المجتمع من ولاء وانتماء للقبيلة وإيمانهم بالأحساب والأنساب وإقصائهم كل من يرون أنه (ضايع نسب) وفق تعبيرهم، فنرى أنهم يدعون في المساجد وفي الخطب الدينية لنبذة العنصرية والقبلية والتسامح والعطف، وفي مجالسهم ومجالس شيوخهم وأعيانهم يورد شعراؤهم قصائد في مدح أصلهم وفصلهم وأفضليتهم في الحسب والنسب وبأنهم شعب الله المختار في الأرض.

وبناء على مشاهداتي واختلاطي بهذه القبائل ومن ينتمي لهم وجدت هناك تناقضات صارخة يمارسونها بشكل مستمر وكأنها مسلمات أو فرض عليهم، فوجدتهم أيضا يمارسون أفعالاً تتعارض مع مبادئهم واعتقاداتهم ومنها على سبيل الأمثلة وليس على سبيل الحصر:

- ممارستهم العنصرية القبلية بأبشع صورها، فتجدهم يقفون ويمجدون أبناء قبيلتهم وتنزيههم من الخطأ ومدح شعرائهم للقبيلة بطريقة مبالغ فيها، ووقوف أفراد القبيلة مع المجرمين منهم ومحاولة دفع أموال طائلة تصل الملايين من أجل إنقاذ وشراء رقاب من ارتكب من قبيلتهم قتلاً أو عنفًا معينًا، ويا ليتهم يشترون رقبة شخص قتل آخر من أجل عرضه أو من أجل حماية نفسه أو أسرته، لكن قمة التناقض أنهم يتضامنون ويقفون مع أي شخص ينتمي لقبيلتهم دون تمحيص لسلوكه أو مدى صلاحه فهم يقفون حتى مع مجرمين وسفاحين ومدمني مخدرات وقطاع طرق يمارسون الحرابة والفساد جرائمهم لا تشرف أن يقفوا معهم، ويفدونهم بالأموال، لكن في عرفهم أن من ينتمي للقبيلة يجب أن يدافعوا عنه مهما كان سلوكه سيئا..

- الإقصائية: بشتى أنواعها الإقصائية لكل من لا ينتمي للقبيلة وخاصة من يطلق عليهم «الخضيري – الصناع – مجهولو النسب – ومجهولو الأصل والفصل»، كذلك التمييز والإقصائية ضد النساء واحتقار المرأة حتى أن بعضهم ممن لم يتعلم أو ما زال يؤمن بالقبلية عندما يذكر المرأة يقول (المرأة أعزكم الله) حتى لو كانت هذه المرأة أمه التي ولدته، أو شقيقته أو زوجته، أو ابنته رغم أن رسولنا الكريم قال وهو على فراش الموت «أوصيكم بالنساء خيرا»، فالمجتمع القبلي يكرس التسلط الذكوري وينظر للمرأة على أنها «أنثى» مهمتها الخنوع وخدمة الرجل ولا ينظرون لها على أنها إنسان له مشاعر وأحاسيس وأنها شريكة الرجل وتمثل نصف المجتمع ومن تنجب النصف الآخر؟!

- حبهم للمجاملة والنفاق الاجتماعي بشكل مبالغ فيه، ومناصرة وحب الأعيان وشيوخ القبائل، منهم والشعراء وتهميش الفقراء والضعفاء والمساكين على حساب الأقوياء والأثرياء، فالمسكين والضعيف والفقير والمعدم مهمش في القبيلة.

- تحليلهم لأنفسهم ما يحرمونه على غيرهم فترى أن كبار السن منهم والمعاقين والمكفوفين أو المعتوهين يسافرون لدول خارجية فقيرة للزواج من نساء تلك البلدان تحت ذل الحاجة، لا يهمهم أصل وفصل تلك المرأة أو (تكافؤ النسب) رغم أنهم لا يسمحون لبناتهم بالزواج من الخضيريين أو من لا أصل لهم حتى لو كانوا مواطنين صالحين وموظفين وسلوكهم قويم، إنها ازدواجية المعايير والتناقضات الصارخة التي يمارسونها ويحلونها لأنفسهم ويحرمونها على غيرهم!؟

الفشل في إقناع المجتمع

كنت دائما أثناء اختلاطي ولقاءاتي بأصدقاء وزملاء أعرفهم ينتمون للقبائل والذوات، أسمع منهم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، حبهم الشديد للمحسوبية والفزعات وحب «الواسطة» والشفاعات حتى في الأمور النظامية التي لا يحتاج الشخص فيها لواسطة، فقد نما في نفوسهم هوس «للمحسوبية والواسطة»، فعندما يكون هناك منافسة على توظيف أو على مصلحة سواء كانت عامة أو خاصة، أو وجود معاملة لأحدهم أو لأحد أقربائهم أو عشيرتهم في أي دائرة حكومية أو غير حكومية تجدهم يهبون يبحثون عن «واسطة» أو فرد من قبيلتهم في هذه الدائرة أو من يعرف أحد في هذه الدائرة، ليساهم في «الواسطة» لهم.

كنت أحاول مجادلتهم قائلا: لهم إن «الواسطة والمحسوبية» خطر وظلم يهدد حقوق المجتمع وحقوق الإنسان، فالمحسوبية الظالمة تكرس الظلم والعنصرية القبلية، وتشكل مجتمعًا موغلاً في الإقصائية، وليس من العدل أن تكون «الواسطة والمحسوبية» هي المعيار في الحصول على الحقوق، فلسنا في «غابة» القوي يأكل فيها الضعيف، نحن في دولة لا ترضى بالمحسوبية أو الواسطة أو الظلم، كما أن الله لا يرضى بذلك، فليس من المنطق أن من لا معرفة له أو من ليس له حسب تهضم حقوقه، ويعيش تهميشًا وإقصائية، ليس لأنه سيء، بل لأنه ليس

له حسب ونسب، وهذا الشيء يسبب تفرقه، ويولد أحقادا اجتماعية تنهش في جسد المجتمع وتجعل مكونات المجتمع متفككة غير متناغمة، وتتسبب في ظلم مجتمعي لهؤلاء المهمشين ومن لا ينتمون لقبيلة.

لكن الكثير من شباب ومثقفي ورجال القبائل والذوات، يردون علي بأن هذا قدر هؤلاء «المهمشين ومجهولي النسب»، ولا بد أن يقتنعوا بقدرهم.

كنت أرد عليهم قائلا: إن تصرفاتكم لا ترضي الله الذي حرم الظلم على نفسه وجعله بين الناس محرما، والدولة لا ترضى بتلك المحسوبيات ولا يرضى أي إنسان يملك ذرة ضمير تغتصب الحقوق بحجة «الواسطة» والشفاعة؟!

حاولت بشتى الطرق إقناعهم أو تغيير أنماطهم، لكن أعترف أنني فشلت في إقناعهم بهذه الحقائق التشريحية لواقعهم، بل وصل بهم الأمر إلى أن أكون في نظرهم أهدد مكانتهم و أحاول إلغاء موروث مقدس يسمونه «التضامن» بين أفراد القبيلة وهذا ليس تضامناً إنما محسوبية، وإقصائية، وأخذ حقوق دون وجه حق، وفسروا كلامي بأنه تحريض بأنني أحاول الدعوة لتغريب وتحرير المجتمع من مورثاته ومبادئه.

أعترف أنني فشلت فشلا ذريعا في التأثير إيجابيا على المجتمع، وكأنني مثل من يريد أن يزرع في صخرة صماء لا يمكن أن تكون صالحة للزراعة.

بعد فترة من الدراسة الجمعية صرت ملمًّا إلماما تاما بالثقافة الجمعية وتناقضها، وجدت نفسي لا إراديًا وبطريقة غير مباشرة أتعمق في عدم فهم الثقافة الاجتماعية التي تمارس ازدواجية معايير وتناقضات لم أهضمها أو أؤمن بها.

سطوة القبيلة

بحكم معرفتي خبايا وخفايا المجتمع القبلي، كانت هناك تساؤلات ما زالت غامضة تدور في نفسي، لم أجد لها إجابة، ومن هذه التساؤلات على سبيل المثال، لماذا أغلب أبناء القبائل أو الذوات المتعلمين والمثقفين، لا يتحررون من العادات والتقاليد القبلية البالية التي تكرس الجاهلية والطبقية والانقياد وراء موروثات غابرة عفّى عليها الزمن ولم يعد لها مجال أو فاعلية في عصر العولمة، وعصر التحرر من التعصبات والنعرات القبلية، وهل إيمان هؤلاء المتعلمين والمثقفين من أبناء القبائل الذين يمارسون تلك الأنماط والسلوكيات والموروثات القبلية يعد اقتناعا منهم أم ماذا؟!

توصلت إلى حقيقة مهمة أن ممارستهم طقوس وعادات القبيلة ليس اقتناعا منهم بها بقدر ما هو خوف من سطوة القبيلة، ومن ردة فعل المحيط الجمعي، ومن باب سد الذرائع، ومن باب اتقاء أن يقال عنهم إنهم خرجوا عن نسق القبيلة أو تمردوا عليها، لهذا أصبحوا يمارسون في الخفاء خارج قبيلتهم ممارسات تناقض ما تؤمن به وتعتقده قبائلهم، فعندما يكونون وسط محيطهم القبلي فإنهم يمارسون ما عودتهم عليه القبيلة ويلبسونها لبوسات ملتبسة على غير حقيقتها، فليس لديهم مبدأ في هذا الأمر فلديهم شعار وقناع من وجهين، وجه يلبسونه أثناء تواصلهم مع المثقفين وأصحاب الفكر العصري المنفتح

الذين ينبذون الإقصائية والرجعية ويهمهم الفكر والإنسان أكثر مما يهمهم نسبه وحسبه، ووجه آخر يلبسونه أثناء تواجدهم أو تواصلهم مع قبيلتهم ومحيطهم الجمعي يتمسكون فيه بالفكر الذي يكرس الطبقية والإقصائية وتمجيد القبيلة والتمسك بموروثاتها وبسلوكياتها من باب النفاق الاجتماعي ومسايرة محيطهم الجمعي اتقاء أن يقال عنهم أنهم انسلخوا من جلد القبيلة وأنهم أصبحوا متحررين، كذلك خوفا على علاقة أقاربهم وآبائهم وبقاء ولائهم للقبيلة حاضرا، فقد يؤثر تمردهم على سمعة أقاربهم بل قد يتعدى الأمر ذلك فيتسبب انسلاخهم في التأثيرعلى علاقة كل من يرتبط معهم بنسب أو مصاهرة أو صلة قربى!

ما زلت أتذكر جيدا حينما كنت مسافرا مع أحد الأصدقاء يعمل (ضابطا) في أحد القطاعات الخدمية المهمة في الدولة، وهو صديق قريب من نفسي كثيرا فهو رجل متعلم ومثقف خلوق طيب المعشر، ينتمي لإحدى القبائل المشهورة بعنصريتها وولائها القبلي،، ورغم أننا كنا مسافرين في إجازة خاصة نستمتع بإجازاتنا السنوية بعيدا عن العمل، لكنني لاحظت على صديقي أنه يستقبل عبر هاتفه المحمول بشكل يومي اتصالات متعددة من أقاربه ومن أفراد قبيلته يطلبون منه (الواسطة) والشفاعة لهم في أمور شتى سواء في قطاع دائرته التي يعمل بها أو خارجها، والغريب أنه يحاول تلبية جميع رغبات كل من يتصل عليه دون تردد، ويقضي الكثير من الوقت في إجراء الكثير من الاتصالات بزملائه ومعارفه (للواسطة) أو للشفاعة لأفراد قبيلته وجماعته!

ألح علي فضولي أن أصارحه وأسأله، لماذا تمنح كل هؤلاء الأفراد أهمية قصوى، وتستقطع الكثير من وقتك بإجراء اتصالات كثيرة «للواسطة» لهم وأنت تستمتع بإجازتك بعيدا عن العمل، فهل ما تقوم به من (فزعة، وواسطة، وشفاعة) لهم نابع من قناعتك الشخصية أنهم يستحقون العون والشفاعة، ومن باب التفاعل الإنساني؟ أم من باب المحسوبية والمجاملة لهم بصفتهم من قبيلتك؟

قال لي: سأجاوبك على تساؤلاتك بكل شفافية وصراحة بصفتك صديقًا أعرف مدى أهمية صراحتي معك، مساعدتي أو شفاعتي لهم بكل صدق لا أقصد منها الشفاعة الإنسانية أو التضامن، فبعض هؤلاء لا يستحقون الشفاعة فواقعهم الأخلاقي والسلوكي لا يروق لي، لكن من باب «مكره أخاك لا بطل» فثق تماما أنني لو رفضت أو اعتذرت عن القيام (بالواسطة – والشفاعة) لهؤلاء الناس الذي لا يجمعني بهم إلا رابط الانتماء القبلي فقط، وفي حالة الاعتذار أو عدم الاهتمام بطلباتهم سوف يقومون بنشر كلام رخيص عني قد يحرجني ويحرج أسرتي، وسينشر عني بأنني شخص سلبي ليس فيّ خير لأبناء قبيلتي، بل قد يتعدى ذلك الأذى النفسي والكلام الموجع إلى محيطي الأسري وسيؤثر ذلك على نفسية «والدي ووالدتي» الطاعنين في السن، وكذلك على أشقائي وشقيقاتي، وأي كلام يمسني سيؤثر في نفوسهم سلبا، بصفتي ابنهم ويعتزون أنني (ضابط) ولي مكانة وظيفية، ومن المفترض في نظرهم أن أستفيد من هذه المكانة في «الشفاعة والواسطة» لمن يلجأ لي من جماعتي وقبيلتي حتى لو كانت شفاعتي غير نظامية، ولي تجارب مريرة سابقة، ومن هذه التجارب تجربة أتذكرها دائما

بمرارة وألم، فقد تفاجأت يومًا من الأيام بصهري «شقيق زوجتي» الأكبر وهو رجل كبير في السن قادم إلى مقر عملي من القرية التي يسكن بها، وهي قرية تبعد عن المدينة التي أعمل بها مسافة ليست بالقليلة، كان مصطحبا معه أحد أفراد القبيلة يريد مني الشفاعة و(الواسطة) لذلك الشخص في سبيل إعادته لعمله الذي فصل منه بسبب سوء سلوكه مع رؤسائه وكثرة غيابه عن العمل، وقد تم تطبيق بحقه الإجراء النظامي وتم فصله بسبب غيابه عن العمل.

حاولت بشتى الطرق أن أتشفع لذلك الرجل الذي جاء به «شقيق زوجتي» عند المسئولين عنه وإعادته لعمله، لكن لم نستطِع لأن مدير ذلك الشخص في العمل رفض رفضا باتا، وتمسك بتطبيق النظام وهو محق في ذلك فقد طبقت في حق ذلك الشخص جميع الحلول وجميع التنازلات والمساعدات، لكنه كان متمردا غير منضبط ووصل به الغياب حد فصله من العمل بموجب النظام وعمله وقادته لا يرغبون في عودته للعمل بحجة كثرة مشاكله وغيابه وعدم إنتاجيته ولذا رفض مديره في العمل شفاعتي رفضا باتا.

وبعد رفض مديره شفاعتي في إعادة ذلك الشخص للعمل، طلب مني «شقيق زوجتي» أن أذهب معهما لوكيل الوزارة الذي كان يعمل بها الشخص المفصول ونطلب منه شفاعة في إعادته للعمل.

رفضت لسبب أنني أعلم جيدا أن وكيل الوزارة لن يكسر النظام، ولن يعيد ذلك الشخص للعمل، ولن يقبل شفاعتي، ومن الأفضل لي أن

لا أحرج نفسي معه، اعتذرت من «شقيق زوجتي» ومن ذلك الشخص بلباقة، قائلا: لهما لا أستطيع الذهاب معكما لوكيل الوزارة.

ورغم أنني عاملت «شقيق زوجتي وصاحبه» بود واستضفتهم في بيتي وقمت بواجب الضيافة تجاههم بكل ود واحترام وتقدير ولم أقصر معهم بتاتا، لكن ما أزعجني وأثر في نفسي أنهما لم يقدّروا كل ذلك، ولم يقدروا موقفي بعدم الذهاب معهما لوكيل الوزارة، والغريب أنهما لما ذهبوا من عندي كانوا مستائين مني، والأغرب من ذلك أن «شقيق زوجتي» لامها وأنبها واتهمني بأنني لم أقدرهم وأذهب معهم لوكيل الوزارة ويجب عليها عدم احترامي، وتحريضها ضدي، لأنني لم أقدر طلبهم، ولم أذهب معهم لوكيل الوزارة.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل أن ذلك الشخص المفصول أرسل لي قصيدة (هجاء) يهجوني فيها وقد تم تداولها بين أفراد القبيلة، وبأنني لم أقدره ولم أتشفع له عند وكيل الوزارة، مما جعل هذه القصيدة تنتشر انتشار النار في الهشيم، وتشوه سمعتي، وتسبب لي إحراجا ولوالدي، وأشقائي وشقيقاتي، ومحيطي الأسري والاجتماعي.

قلت له: متسائلا: أستغرب رغم ما ذكرت لي أنك ما زلت تخضع لسطوة القبيلة، والقبيلة الآن دورها هامشي، وأصبح دورها شبه معدوم، ولم يعد لها دور إيجابي في حياتك «كضابط» وكشخص قائم بذاتك وبأسرتك.وبشئونك، والدولة تقوم بحماية الجميع في ظل أمن وأمان ورغد من العيش، وبإمكانك التحرر والانسلاخ من القبيلة

في زمن من المفترض أنه لم يعد يهمك من تكون قبيلتك أو هويتك الاجتماعية، إنما الأهم أنك مواطن صالح تحمل هوية وطنية وتعيش في دولة كريمة قائمة بواجباتها تجاه كل مواطن بعيدا عن نمطية الأحساب والأنساب والانتماء القبلي الغابر؟!

رد قائلا لي: بحرقة وألم نابع من قلبه، لا تفتكر أنني سعيد بخضوعي لسطوة القبيلة والخنوع لطقوسها وعنصريتها، لكن «أنا» شخص أنتمي لعائلة تنتمي لهذه القبيلة، ولنا مع هذه القبيلة مصاهرة ونسب وروابط اجتماعية شتى، وسوف تتأثر أسرتي «والدي وأمي» الطاعنين في السن والذين ما زالوا يؤمنون بالانتماء القبلي، وأشقائي المتزوجين بزوجات من هذه القبيلة، وشقيقاتي المتزوجات بأزواج من هذه القبيلة وزوجتي وأخوال أولادي من هذه القبيلة، وفي حالة إنسلاخي أو تحرري من الانتماء القبلي سوف يكون لهذا الانسلاخ انعكاسات سلبية مزعجة ومؤلمة سواء على الصعيد النفسي أو على الصعيد الأسري والاجتماعي.

لذا نحن «أبناء القبائل» مجبرون رغما عنا أن نمارس النفاق الاجتماعي والمجاملات والمحسوبيات الطبقية والعنصرية ليس قناعة منا بقدر ما هو من أجل سد باب الذرائع، واتّقاء شر وسخرية المجتمع القبلي الذي لن يرحمنا وسيجلدنا بسياط النقد والتهكم والسخرية والحرب النفسية والإقصائية الاجتماعية، وسنكون منبوذين أسريا واجتماعيا في محيط القبيلة التي لا ترحم من يتخلى أو يتمرد على أعرافها وطقوسها أو ينتقد عاداتها موروثاتها.

وبناء على اعترافات ذلك الصديق القبلي الذي أثق فيه ثقة مطلقة، والذي كان كلامه نابعا من أعماقه يبوح به بحرقة وألم، عرفت أن سطوة القبيلة وجبروتها وما تقوم به من «رهاب» اجتماعي، لم يرحم حتى أبنائها، وأذاقت أبناءها شيء من مرارة ما تذيقنا من إقصائية وعدم اعتراف بنا.

حمدت ربي أنني حر طليق من قيود وأغلال سجن قبلي بدون أسوار اسمه (سطوة القبيلة) يفرض قانون سلطوي قمعي يتأذى منه حتى أبناء القبيلة الذي لا يملكون حيل ولا قوة أمام سلطة القبيلة وقمعها وسيطرتها، وتحكمها وإجبارهم مرغمين من باب «مكره أخاك لا بطل» على ممارسة عادات وموروثات غابرة ومحسوبيات ومجاملات تسمى «الفزعة» والواسطة.

العقوق بيني وبين المجتمع

رغم محاولاتي الاندماج بالمجتمع إلا أنني لم أستطع الاندماج، فقد وصلت والمجتمع إلى طريق مسدود، ولم أصل والمجتمع إلى نقطة التقاء أو إلى خريطة طريق واضحة المعالم نتفق عليها، في ظل مجتمع متسلط يريد أن لا يمنح شيئا من خريطته «النرجسية» لمن لا يملك هوية اجتماعية اسمها «الحسب والنسب».

كنت والمجتمع نسير في خطين مستقيمين لا يمكن أن نلتقي أبدا، فلم يقبل بي المجتمع ولم أقبل به، كانت العلاقة بيني وبين المجتمع تتسم بالتنافر والعقوق، لم يتقبل المجتمع وجودي أو يؤمن بآرائي، ولم أقبل بهم أو أؤمن بآرائهم.

ومما لا شك فيه أن هناك عوامل عدة كانت سببا في عدم تقبل كل منا آراء الآخر ومن هذه العوامل:

أن آرائي كانت في أوج المد القبلي، في ظل مجتمع يؤمن بالعادات والتقاليد والموروثات القبلية حد الغلو، قد يكون هذا العامل ساهم كثيرًا في عدم قبولي، أو القبول بآرائي التي في نظر المجتمع هي تعدٍّ سافر مني لنسف موروثات و«تابوهات» يجب أن لا تقرب ويبقى مسكوت عنها.

كما أن تركيبتي أو (الكاريزما) الذاتية التي رسمتها لقيادة نفسي منذ الصغر كانت تفتقر إلى المرونة والدبلوماسية فقد كانت «تركيبتي» ممزوجة بشيء مما اقتبسته من عناد المجتمع في التأكيد على الصراحة التي فهمها البعض على أنها وقاحة مني واستخفاف بالمقامات والموروثات الاجتماعية التي يؤمنون بها إيمانا لا يقبل النقاش والجدل.

بعد فترة مارست فيها الكثير من العناد والنرجسية مع نفسي وجلد الذات الجمعية، وجدت نفسي مستسلما ملقيا رأيه العناد والتحدي لأن (الطبع يغلب التطبع) فلن أستطيع كشخص متواضع «مجهول النسب» أن أغير من موروث جمعي متوغل في أفكار المجتمع حد التطرف، في ظل مجتمع ينقاد كالقطيع خلف شعارات يكرسها موروث جمعي غابر، ويحث عليها «شيخ» قبيلة جاهل، ويسوق لها شاعر قبيلة فاسد.

ومن المفارقات المتناقضة أن هناك من أبناء القبائل من يتبوأ مراكز علمية وأكاديمية مرموقة يوافقونني الرأي ويؤيدون وجهة نظري في الخفاء بيني وبينهم لكنهم لا يملكون الشجاعة في البوح بها علنا في محيطهم الجمعي أو القبلي.

وسأكون صريحا وصادقا عندما أعترف أنني فشلت في التمرد على الموروث الاجتماعي لأنه يستحيل مسح موروث نحت على الصخر الجمعي، فقد فشلت في الاندماج وأصبحت مشتتا وغريبا، وتحولت

الغربة الاجتماعية التي أعيشها إلى اغتراب وجداني، ففشلت أن أعايش الواقع الجمعي لأنني أصبحت مشتتًا بين التطلع لمستقبل أعرف أنه في حكم المستحيل، وبين واقع وموروث اجتماعي راسخ في الأذهان حد الاعتقاد.

فشلت في لبس عباءة المجتمع لأنهم يريدونني أن أكون ظلا لهم، ونقطة نكرة على هامشهم، وأن أكون رقما على اليسار لا فائدة منه، رغم أنني كنت أتمنى أن أكون رقما حقيقا من ضمن أرقام المجتمع، وكائن محسوس موجود لا كظل يتحرك كيفما يريد المجتمع.

أعترف أنني لم أستطِع إقناع حتى المتحررين والمثقفين من أبناء القبائل والذوات لأن الكثيرين منهم منقادون بالوراثة وبالتبعية لثقافة أُحادية الأبعاد والاتجاه، مع أن «بعض» المنظرين منهم يحاولون إقناعي أن أتعايش مع مجتمع متناقض دون أن أفهمه أو يفهمونني وبقيت نكره في نظرهم، رغم أنني حاولت وناضلت لإثبات وجودي وحزت على شهادات عليا ومراكز وظيفية، وكنت أتوقع أن هذه الشهادات والمراكز الوظيفية سوف تحررني من النظرة الدونية القاصرة فهم ينظرون لي «كلقيط» ضائع النسب، من هذا المنطلق أعترف لكم ولنفسي أنني فشلت فشلا ذريعا في التعايش مع المجتمع وعجزت أن أجد مسارا يوازي بين وجودي وبين وجودية المجتمع.

لكن الأهم عندي أنني آمنت بالتعايش مع نفسي والتسامح مع ذاتي، وهذا ما جعلني أعيش حياة مستقلة مؤمن بذاتي وقدراتي

مفتخرا بأني قدت نفسي بنفسي، وحافظت على سلوكي وعلى أخلاقي وعلى ذاتي ممن يرون أن (اللقطاء ومجهولين النسب) صيد سهل، وتربة صالحة ليزرعوا فيها سلوكيات شاذة أو أنماطًا إجرامية، ووقودًا لتحقيق أهدافهم المشبوهه.

كنت بفضل الله وتوفيقه عصاميا محاسبا لنفسي غير متساهل معها بل كنت أتعبها في سبيل حمايتها وتميزها والوصول بها إلى بر الأمان في ظل مجتمع وزمن تتلاطم أمواجه عاتية تعيث فسادًا في كل شخص لا عزوة له ولا سند إلا الله، لكن الله حماني وأضاء بصيرتي وطريقي وحررني من قيود المجتمع ومن شياطين الإنس ومن شهوات النفس.

ورغم ما مررت به من تجارب مريرة ومن إقصائية واضطهاد شكلت لي إحباطات مؤلمة إلا أنني أرى أن تلك الإحباطات التي مُنيت بها ثمن زهيد لقاء الاستقلالية الذاتية والفكرية التي احتفظت بها لنفسي. والأهم من ذلك أنني لا ألوم نفسي ولا ألوم غيري ولا أشعر بأي مرارة جراء فشلي لأنني فهمت تمامًا مبادئ البيئة الجمعية التي نشأتُ فيها والظروف التي عايشتها والتي أراها الآن بعد النضج أمرًا طبيعيًا لشخص يحمل سرا ووزرًا وذنبا وبصمة عار لم يقترفها، لكن قدره أنه يعيش في كنف مجتمع ُلم يقتنع بوجوده ويضع العراقيل في طريقه.

لكن كما يقال (الشدائد تصنع الأقوياء) وحلاوة الحياة أنها

مزيج بين الملح والسكر فلا يمكن أن نتلذذ بطعم سكرها إلا بعد تجرعنا لمرارة ملحها.

ولا أخفيكم سرا أنه يغمرني شعور بالغبطة والامتنان والسعادة البالغة حينما أتذكر أنني أعيش مستقلا ذاتيا غير راضخ لسطوة قبيلة أو عبد مستعبد لأعراف جمعية غابرة، فيكفيني سعادة أنني أعمل ما يمليه علي ديني وعقلي وضميري بعيدا عن تصفية الحسابات والأحقاد والضغائن متسامحا مع ذاتي ومع غيري مهما كانت قسوة هذا الغير معي، فقد كانت ندبات قسوته جاثمة على الروح، ورسوم اضطهاده ما تزال محفورة على النفس مهما طال الزمن.

ورغم ذلك لا أملك إلا أن أشكر الله الذي منحني نعما كثيرة تستحق الشكر، منها: التفكير الإيجابي والجسد الصحي والشكل الجميل، وقيادة الذات، والرؤية التفاؤلية الطموحة التي أرى عبرها الجوانب الإيجابية المضيئة وتخطى الجوانب السلبية المظلمة.

حوارات ومناقشات عشتها

من أهم، وأجمل الصفات التي وهبها الله للبشر لغة الحوار والنقاش فهما وسيلتان لتوصيل واستقبال الأفكار الإنسانية، وعن طريق الحوار والنقاش نكتشف الأفكار الفردية، والجمعية، سواء كانت هذه الأفكار سلبية، أو إيجابية، معتدلة أو متطرفة، ونفهم عبر الحوارات والنقاشات ثقافة ومفهوم الآخر للقضايا الخاصة والعامة، ونكتشف عمق أفكار وعقول الآخرين أو ضحالة وسطحية أفكارهم، فقد قيل «تحدث لنعرفك».

ومما لا شك فيه أن في حياة كل فرد من البشر مواقف خاض فيها نقاشات متعددة، وجالس الكثير، ولو قام كل شخص بتدوين تلك المواقف والنقاشات التي خاضها لخرج بحصيلة وافرة من الثراء المعرفي، والثقافي، وتعويد النفس على ثقافة الحوار والنقاش، وقبول اختلاف وجهات النظر، والبعد عن أحادية الرأي، ففطرة الإنسان، وتركيبته (النفسية - والفسيولوجية) وأفكاره تختلف من شخص للآخر، فكل شخص ينظر للأمور بنظرته الشخصية، وبعقله هو لا بعقل من يحاوره.

كذلك (كاريزما) وتركيبة الإنسان، تختلف عن أي إنسان آخر فلا يمكن لشخصين مهما كانت قرابتهما أن يكون بينهما توافق كامل في الأفكار والرؤى، فأن أكون أنا.. وتكون أنت.. فهذا يعني أننا

مختلفان، ويستحيل أن نتطابق، قد نتفق وهذا جميل، وقد نختلف وهذا الأجمل..

من هذا المنطلق كنت أحاول بشتى الطرق أن تكون لي شخصية مستقلة في الرؤى والأفكار والتوجه والنقاشات، لست تابعا لأحد، بل أعبر عن ذاتي ورأيي الخاص باستقلالية تامة بعيدا عن الانتماء الفكري أو المذهبي أو المناطقي أو القبلي، كنت أؤمن بأنني مسلم معتدل وسطي، أنتمي لديني ووطني، وتحدد أفكاري ثوابت الدين وقناعتي الفكرية بعيدا عن المؤثرات المذهبية أو التأثيرات الفكرية أو التبعية.

صحيح أن هناك أناس كثر من المجتمع لا يؤمنون باختلاف في الرأي أو في الفكر وينصبونك العداء والكراهية عندما تختلف معهم أو لا توافقهم على صحة أفكارهم، رغم أنني كنت أسمع منذ نعومة أظافري تلك العبارة التي سمعتها كثيرا وحفظتها جيدا «اختلاف وجهات النظر، لا يفسد للود قضية» لكن كلما دخلت في نقاشات أو حوارات مع أحد، اكتشفت أن هذه العبارة ليست مجدية مع كثير من الأشخاص، فهناك من يغضب مني، ويكرهني، لمجرد أنني اختلفت معه في رأي أو ناقشته حول مسألة ما، قد لا تتعلق مباشرة بأحد ما، بل شأن عام من حق الجميع مناقشته والاختلاف فيه؟!

من هذا المنطلق وصلت إلى قناعة تامة أن كثيرا من شرائح المجتمع حتى من يطلقون على أنفسهم متعلمين، ومثقفين، وكتابًا حفظوا تلك العبارة بشكل معكوس فهم يرون أن «اختلاف وجهات

النظر لا يفسد للود قضية واحدة، بل تفسد في نظرهم كل الود، لم يفهموا للأسف المعنى الحقيقي للنقاش، والحوار، والاختلاف، مشكلة هؤلاء الأزلية أنهم يمارسون تناقضا صارخا بين ما يدّعونه، وبين ما يمارسونه، فهم يطالبون الآخرين أن يتقبلوا اختلافهم ووجهات نظرهم برحابة صدر وبديمقراطية، وهم في نفس الوقت لا يتقبلون من لا يؤمن بوجهات نظرهم وهذا التناقض ليس له سوى معنى واحد أنهم يعتبرون «الاختلاف معهم اختلاف تضاد لا اختلاف تنوع».

ورغم تلك الثقافة الإقصائية في الآراء التي يمارسونها إلا أنها لم تحبطنِي ردة فعل المجتمع مع من يختلف معهم، فقد كنت مغرما بالنقاشات والحوارات مع من أتفق معهم، ومع من أختلف معهم، كنت أحاول أن لا أكون صدى لصوت الآخرين أو منقادًا لأفكارهم دون مناقشتهم فيها وتمحيصها، والاقتناع العقلي والمنطقي والفطري بتلك الأفكار والرؤى، كنت أحاول أن تكون وجهة نظري حاضرة، فوجدت نفسي مدفوعا بتدوين أي نقاشات وحوارات أشارك فيها بعد انتهائها مباشرة، وعبر التدوين وصلت إلى حقيقة وانطباع واضح المعالم أن تلك النقاشات والحوارات مهما كانت متباينة ومتطرفة تحركها الانتماءات الفكرية والأيدلوجية والقبلية فتؤثر في الأفكار وتصادر الرؤى ومن هذه المؤثرات والأيدلوجيات على سبيل المثال «التّزمت» والغلو الديني أو الفكري أو القبلي أو المذهبي، أو التحرر الفكري والديني غير المنضبط، وتلعب عاطفة الانتماء دورا في محاولة الانتصار للمذهب أو للفكر أو للرأي أو للقبيلة أو للمنطقة بعيدا عن العقل أو المنطق!؟.

ولهذا قمت بتدوين هذه النقاشات والحوارات التي خرجت بحصيلة جيدة من الحوارات والنقاشات قمت خلالها بمناقشة عدة أشخاص، ولا أدعي أنني من كسب الحوار معهم أو أن وجهة نظري مثالية لا تقبل الخطأ إنما كنت أؤمن أن رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب، فلم أكن متطرفا أو متعصبا في طرح آرائي إنما كنت أورد الدليل والحجة وأضعها أمام من أحاورهم دون الانتصار لذاتي أو لآرائي.

وأسوق للقارئ الكريم «بعض» الحوارات والنقاشات المتنوعة التي خضتها على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر:

حوار وترانيم في الحب

كنت مسافرا خلال إجازتي السنوية إلى دولة سوريا، وبالذات لإحدى مناطق الشام السياحية، وهو منتجع ومصيف يسمى «مشتى الحلو» يتبع لمحافظة طرطوس، ويرتفع عن سطح البحر أكثر من (500متر) ويقع على هضبة خضراء ساحرة تتدرج بالارتفاع وتحيط بها المرتفعات والجبال الخضراء من كل جانب، وتبعد عن العاصمة دمشق حوالي 200 كم ويعد ذلك المنتجع من أبرز وأجمل المواقع السياحية في الشام فهو قبلة سياحية يزوره مئات السياح والزوار سنويا، حيث الطبيعة الساحرة والأجواء الخلابة.

كان الوقت ظهرا، كنت مستمتعا بالأجواء الجميلة متخذا من «مقهى ومطعم» ملحق بالمنتجع مكانًا أجلس فيه ويتفرد هذا «المقهى» بموقعه المميز وبأجوائه الهادئة، وبجلساته المريحة وإطلالته الرائعة فهو يقع على سفح جبل مرتفع، كانت الطاولات والمقاعد مرصوصة أمام «المقهى والمطعم» في الهواء الطلق في ساحة مزروعة بالعشب الأخضر، وسط عدد من الشجيرات الجميلة، ويتميز بإطلالته على المدينة من مكان علو مما زاده جمالا، كانت الأجواء غائمة ورائعة ممزوجة بغيوم وسحب، لا يملها الناظر، تتخللها نسمات هواء عليلة، كان المنتجع يعج بالسياح من جميع الجنسيات، وكانت جميع الطاولات والمقاعد مشغولة بالسياح والزبائن، لا يوجد مكان شاغر، كنت جالسا

على طاولة مكونة من مقعدين في إحدى زوايا المقهى البعيدة والمطلة على المدينة مباشرة مستمتعا بالأجواء والمناظر الرائعة، منهمكا في قراءة كتاب علمي يشخص السلوك الإنساني «الفطري والمكتسب»، كان عنوان الكتاب على شكل تساؤل هل الحب سلوك فطري، أم سلوك مكتسب؟

رفعت نظري لمنح عيوني شيئًا من الراحة من جراء تعب القراءة، لفت انتباهي سيدة يبدو أنها على مشارف «الأربعين» من العمر لكنها تتحلى بجمال باذخ، كانت تسير بشموخ واعتزاز متجولة بين ممرات المنتجع حاملة بيدها طبقا فيه «كوب» مشروب ساخن وقطعة من الكعك، تشيح بنظرها يمينا ويسارا كفرس جامحة تنظر في جميع الاتجاهات باحثة لها عن مقعد وطاولة خالية.

كانت جميع المقاعد محجوزة ومشغولة بالسياح، لا يوجد مقعد واحد خالٍ إلا مقعد واحد على الطاولة التي أجلس عليها فقد كانت الطاولة محاطة بمقعدين مقعد أجلس عليه، ومقعد شاغر.

وقفت بالقرب من الطاولة التي كنت أجلس عليها، ونظراتها منصبة على المقعد الشاغر الذي على طاولتي، كانت مترددة أن تجلس أو تستأذن بالجلوس، فهمت من نظراتها أنها مترددة في أن تطلب مني الجلوس، ولتبديد ترددها بادرت قائلا لها، تفضلي سيدتي..

ردت علي بلهجة «خليجية» قائلة لي: هل هذا المقعد محجوز، قلت لها «لا» ليس محجوزا.

قالت: أتمنى منك «أخي» إن لم يكن يزعجك ذلك، أن أشاركك الجلوس على طاولتك فالمكان مزدحم ولا توجد طاولات شاغرة.

أجبتها قائلا: العفو ليس هناك إزعاج تفضلي سيدتي نحن في مكان عام، والطاولة لا أملك احتكارها وحدي، فهي حق مشاع لجميع زوار المنتجع.

جلست بعد أن قدمت شكرها لي، بقيت مواصلا القراءة، دون أن أتكلم معها حتى لا أحرجها، أو يتولد لديها انطباع أنني فضولي أفرض نفسي عليها، أو أن سماحي لها بالجلوس على طاولتي أقصد من ورائه شيئًا في النفس.

بقي كل منا صامتا ومشغولا، هي صامتة، ومشغولة بشرب مشروبها الساخن، وأكل الكعكة، وأنا صامت، ومشغول بالقراءة وشرب كوب من «الشاي» الأخضر.

قالت: لي بعد أن انتهت من تناول الكعكة ممكن سؤال عزيزي؟ وأتمنى أن لا تعتبره فضولا مني بقدر ما هو تساؤل يخالجني.

رددت عليها قائلا: تفضلي سيدتي اسألي كلي لك آذان صاغية للإجابة على تساؤلك إن كنت أملك الإجابة.

قالت: أشكر نبل مشاعرك، سؤالي: استرعى انتباهي «عنوان الكتاب الذي تقوم الآن بقراءته، فهل وصلت إلى حقيقة هل «الحب

سلوك فطري، أم سلوك مكتسب»؟

قلت لها: سيدتي الحب من ناحية سلوكية علمية كما ورد في هذا «الكتاب العلمي» يوضح أن الحب الإنساني ينقسم إلى «حب فطري وحب مكتسب»، فالطفل عندما يولد ويحب أمه، ويحب الحليب والغذاء، ويحب النوم، والراحة، والهدوء، ويحب جميع الصفات الفطرية كل ذلك يسمى «حبا فطريا».

وهناك «حب مكتسب» كحب الدين، وحب الوطن، وحب الأسرة، وحب القراءة، وحب الدراسة، وحب النظافة، وحب فعل الخير، وحب من ترتاح له المشاعر و«الحب المكتسب» بجميع أنواعه المتعددة وبجميع صفاته المكتسبة يسمى «حبا مكتسبا» يكتسبه الإنسان من محيطه الأسري ومن محيطة الاجتماعي.

ردت قائلة: تفصيل مقنع، ومفيد من الناحية العلمية، لكن بعيدا عن الكلام العلمي النمطي، ماذا يعني لك الحب كرجل وكإنسان؟

رددت قائلا لها: لا أعلم ماذا تقصدين بسؤالك بالتحديد، عن أي حب تقصدين، فالحب أنواع كثيرة، هناك حب الإله، وحب الذات، وحب المعتقد، وحب الوطن، وحب الصفات، وحب الحياة، وحب المشاعر والأحاسيس، لا أعلم ما هو «الحب» الذي تقصدين بسؤالك؟

بدت على وجها ابتسامة ساحرة يشوبها شيء من الخجل والحياء الأنثوي الجميل، وأضافت قائلة: خلينا في حب المشاعر والأحاسيس،

فهذا ما يروي غرور الأنثى.

ردت قائلا لها: سيدتي حب المشاعر والأحاسيس يعني لي كرجل وكإنسان، أنه حب عفوي ينساب إلى الروح البشرية انسياب الماء لروح العطشان ولا فرق بين الرجل والمرأة في تصنيفات الحب، فالحب لا يعرف تقاسيم الجسد بين «الذكر والأنثى» ولا يعرف الفروق الفردية، صحيح أن الأنثى بحكم «الكاريزما» والتركيبة «الفسيولوجية والنفسية» الخاصة بها، يعني لها الحب الشيء الكثير، فهو بمثابة المفتاح السحري لمشاعرها وأحاسيسها، لكن من وجهة نظري أن الحب غذاء روحي تحتاجه جميع النفوس البشرية السوية وتتوق للبحث عنه، وليس حكرا على «الأنثى دون الذكر».

ابتسمت، وأضافت قائلة: كلامك عن «الحب» يحفزني أن أمارس معك فضول «الأنثى» بأبشع صورة، فآمل أن تتحمل جرأتي وتطفلي، وعذري أنك من دعاني للضيافة، وآمل أن أكون نعم الضيفة، وأن تكون نعم المضيف.

قلت لها: سيدتي، الحوار والنقاش من أجمل وأنبل الأساليب الإنسانية الراقية، التي منحها الله للبشر، وأنا من ضمن البشر لا أدعي النرجسية أو الفهم الواسع الذي يغري فضولك كما تدعين سيدتي، لكني مؤمن أني أملك رؤية خاصة قد تكون تلك الرؤية خاطئة، وقد تكون صائبة.

قالت: هذا تواضع منك، لكن حقيقة أسلوبك في تشخيص

الحب راق لي، وآمل منك المزيد، وأن تجاوبني بصراحة «ماذا يعني لك الحب؟» حسب فلسفتك الشخصية، وليس حسب التفسير العلمي للحب.

قلت لها: لدي فلسفة خاصة في الحب قد تكون صائبة، وقد تكون خاطئة وقد تكون مستحيلة لكنها وجهة نظر وفلسفة أؤمن بها ومتمسك بها..

قالت: وما هي تلك الفلسفة التي شوقتني لمعرفتها..

قلت لها: الحب في فلسفتي: هو أنني أرى الحب «أكسير الحياة» خاصة إذا توج هذا الحب بشراكة روحية بين «ذكر وأنثى» تنمو وتزدهر بينهما هذه الشراكة فتصبح كجزيرة حب مليئة بدفء المشاعر، باذخة بالرومانسية تتمازج فيها الأرواح فينتج عن ذلك تلاحم روحي ووجداني وجسدي موغل في التمازج حد الانصهار والذوبان، ولا أخفيك سرا سيدتي، أنني معتدل في كل شيء، معتدل دينيا، وفكريا لا أحب الغلو والتطرف في الدين وفي الأفكار والحوار، لكن الشيء الوحيد الذي أعترف أنني أمارس فيه غلوا وتطرفا هو «الحب» فأنا أؤمن بالغلو والتطرف في الحب كما أنني أؤمن أن هناك «سكرات حب» من حرم منها، حرم من أكسجين الحياة..

ردت قائلة: يبدو فعلا أن فلسفتك في الحب فيها شيء من «التصّوف» والتطرف، لكن الأهم كيف نجد الحب؟ وكيف نعرف من نحب؟

قلت: يجب أن نعي سيدتي أن الحب ليس بضاعة نشتريها من الأسواق أو نجدها مغلفة بورق السلوفان في محلات الهدايا، إنما الحب أحاسيس ومشاعر تنجذب وتنساق لمن ترتاح له بعفوية تامة ممزوجة بمشاعر الارتياح والإعجاب، وتسمى هذه المشاعر «التوافق الروحي» فالحب سر من إسرار الروح البشرية.

قالت: إذا كان الحب «سر من أسرار الروح» فكيف نكتشفه، أو كيف نحب؟

قلت لها: سيدتي الحب لا يحتاج لأسباب موضوعية، أو منطقية فالحب لا يمكن أن يقرع باباً للاستئذان بالدخول إنما يأتينا دون استئذان فهو قدر من الأقدار الإنسانية الجميلة التي تأتي دون أن نخطط لها، صحيح أنه لا يمكن أن يكون هناك حب دون محفزات، لكن المحفزات لن تأتي دون توافق روحي وارتياح مشاعري بين الطرفين مع الزمن.

قالت: فلماذا يقال أن الحب ينشأ كما يذكر من «أول نظرة»؟

قلت لها: من وجهة نظري أرى أن من يقول أن الحب من أول «نظرة» كلامه ليس دقيقا وتفسيره للحب مخالف لحقيقة الحب، فالحب ليس كلامًا يحكى أو أساطير تروى، إنما أحاسيس ومشاعر تنمو وتكبر مع الأيام وتصبح واقعًا معيشًا - بعد فترة من الزمن، ولا يمكن أن ينمو هذا الحب إلا في بيئة صحية سليمة، بين عاشقين يكبر حبهما وعشقهما حتى يصبح غراما، وولهًا، ويتحول إلى جنون عشق،

كجنون قيس بن الملوح على ليلاه.

قالت: ذكرت قبل قليل «أن هناك محفزات للحب» فما هي تلك المحفزات؟

قلت لها: أول تلك المحفزات الارتياح والتوافق الروحي، والفكري، ومن المحفزات المشاعر الصادقة البعيدة عن «البرجماتية» النفعية أو المصالح، فإذا ارتبط الحب بمصالح «برجماتية» نفعية معينة فإن هذا ليس حبا إنما إبتزاز للمشاعر والأحاسيس، فهناك من يتخذ من الحب جسرا أو سلما يريد الوصول عبره إلى مصلحة معينة ومن ثم ينتهي هذا الحب بانتهاء هذه المصلحة، فالحب مشاعر مقدسة لا يمكن أن تباع في سوق المصالح العابرة.

قالت: يا هل ترى وجدت هذا «الحب المقدس» الذي تحكي عنه؟

قلت لها: كانت لي تجربة «حب» سابقة مع إنسانة وجدت فيها كل صفات النبل والمشاعر الصادقة عشت معها لحظات حب مقدس بعيدا عن أي مصالح أو منافع، لكن للأسف تم قتل حبنا بسلاح «الحسب والنسب» في معركة غير متكافئة.

قالت: ومن هو السبب في قتل حبكما؟

قلت لها: اعفيني سيدتي عن الإجابة فلا أريد أن أدخل في تفاصيل الموضوع أو تذكره الآن، فقد آن لجروح ذلك الحب أن تندمل،

ولا أريد أن تفتح هذه الجروح مرة أخرى.

قالت: لك ما تريد ومن حقك الامتناع عن الإجابة مع أن فضولي ما زال جائعا لسماع الكثير عن حبك السابق، وعن الحب بشكل عام.

قلت لها: مهما أسهبنا بالحديث عن «الحب» يبقى الحب أشمل وأعمق من كلام تنظيري عابر بيني وبينك في جلسة خاطفة.

قالت: لا أخفيك سرا أنني أول ما جلست أمامك ورأيتك صامتا لم تفتح معي حوارا أو نقاشا، ولم يحرك وجودي «كأنثى» أمامك أي فضول أو ردة فعل منك، كما يفعل «بعض»ا لرجال الذين لا يصدقون خبرا أن ترافقهم أو تشاركهم في جلستهم «أنثى» فيقومون باستعراضات كلامية أو إشارات إيحائية للفت نظرها وجذب انتباهها، ولا أخفيك أنني كنت أول ما جلست أحمل هاجس «كيف أتحاشى فضولك كرجل شرقي يرى الأنثى صيده وغنيمة يحاول إغراءها أو ابتزازها »، لكن أصدقك القول أن ظني خاب بعد استمرار صمتك، وعدم التحدث معي.

وأضافت قائلة: أعترف لك صراحة أنني همست لنفسي بأنني أمام رجل متغطرس مغرور بذاته، متخشب المشاعر، لا يرى من أمامه شيئا، ولم أعلم أن خلف جدار صمتك كيان إنسان يتنفس عشقا وحبا، وبكل شفافية أشكر كونية كلماتك فقد أثملتني بعد أن سئمت من كأس الحب والهوى، وبعد أن أسكنت مشاعر وأحاسيس حبي صومعة النسيان وأغلقت عليها للأبد وفقدت قاصدة مفتاح تلك الصومعة، لكن يبدو أن كلامك عن الحب سيجعلني أنكث قراري، وأبحث عن مفتاح صومعة

الحب المغلقة لأعيد فتحها من جديد.

قلت لها: هذا من لطفك سيدتي، وإطراؤك لشخصي المتواضع مجاملة لطيفة منك قد لا أستحقها، لكن عندما جلستِ أمامي لم أرغب أن أكون فضوليا، أو يتولد لديك انطباع أنني عندما سمحت لك بالجلوس على طاولتي أقصد من وراء ذلك شيئًا في النفس لذا بقيت صامتا حتى بادرتِ «أنتِ» بالحديث معي.

قالت: لا.. ليس كلامي تجاهك إطراء أو مجاملة مني بقدر ما هي حقيقة أردت توضيحها لك، وقد كنت نعم المضيف فقد تشرفت بالحوار معك، وكان حوارك فيه منطقية ووضوح وصراحة أشكرك عليها.

قلت لها: هذا إن دل على شيء سيدتي فإنما يدل على نبل مشاعرك، لكن بعيدا عن الكلام في الحب ممكن من فضلك أعرف من أي بلد أنتِ؟

ردت قائلة: أنا من إحدى دول الخليج، من دولة الإمارات ومن دبي بالتحديد أعمل «سيدة أعمال» لدي سكني الخاص، مستقلة بحياتي استقلالا تاما، أملك عدة متاجر لبيع المستلزمات النسائية في بلدي، كانت لي ثلاث تجارب زواج سابقة كلها كانت فاشلة بكل مقاييس الفشل، وبعد كل تلك التجارب بقيت أعيش وحيدة، صحيح عندي أهل بالاسم فقط، لكن كأنني خلقت وحيدة من غير أهل لا أجدهم أبدا حولي، وأخشى أن يمضي العمر، وأظل أعيش وحيدة بقية عمري دون

أهل، أو رفيق أو صديق.

قلت لها: يبدو أنني سأقتص منك سيدتي وأمارس معك «الفضول» كما مارستِه معي في بداية الحديث، فقصتك وتجاربك تغريني أكون فضوليا، وليس هذا تطفلاً مني أو تدخلاً في خصوصياتك أبدا، إنما من باب المعرفة والحوار، فيبدو أن كلاً منا «أنا وأنتِ» في حاجة «الفضفضة والبوح» لبعضنا إن لم يكن لديك مانع أو تحفظ؟

قالت: خذ راحتك فكلي لك كتاب مفتوح، وليس في حياتي ما أخجل من إفشائه لك؟

قلت لها: ذكرتِ سيدتي أن لك ثلاث تجارب زواج كانت فاشلة فما هي أسباب الفشل؟ لا أقصد من سؤالي الإسقاط بتاتا «حاش لله»، إنما لا بد أن هناك أسبابًا جوهرية أدت إلى ذلك الفشل؟

ردت قائلة: أصدقك القول أن هناك أسبابًا جوهرية منها ما هو اجتماعي، ومنها ما هو سلوكي، وبصفتك من أبناء بلدان الخليج تعلم أن معظم دول الخليج يكون الزواج فيها زواجا تقليديا «مدبرا» فالمرأة لا تختار شريك حياتها، بل من يختار الزوج لها أهلها ويزوجونها من يريدون، لا من تريد «هي» وقد كان زواجي الأول من «ابن عمي» وتم تزويجي له بعد تخرجي من الجامعة مباشرة دون إرادة مني، فقد كانت تلك رغبة والدي وكان لا بد من تنفيذ رغبته دون مناقشة.

وقد اكتشفت بعد زواجي من «ابن عمي» بأنني أمام رجل كل

همه إشباع رغبته الجنسية فقط لا يقيم للمرأة وزنا، ولا يراها إلا من «سقط المتاع» كان رجلا جاهلا متعجرفا، جافا، عشت معه ثلاث سنوات مليئة بالقمع والتسلط والمشاكل أنجبت منه «طفلاً وطفلة» بعدها سئمت منه ومن العيش معه، وطلبت الطلاق وبقيت معلقة ثلاث سنوات يساومني على الطلاق مقابل أن أمنحه حضانة «الأطفال» وبعد معاناة، حدثت المقايضة بيني وبينه «مكرهة على تلك المقايضة» فليس أمامي من خيار إلا التنازل له عن حضانة الأطفال مقابل أن يمنحني صك حريتي «الطلاق» وانتهت العلاقة بيننا بعد تجربة مريرة ومزعجة كنت فيها ضحية زواج تقليدي «مدبر» فرضته علي العادات والتقاليد في ظل مجتمع يؤمن بأن «الأنثى» تقدم كقربان لمن يريده أهلها، لا من تريده هي.

قلت لها: وماذا عن التجربة الثانية؟

ردت قائلة: بعد طلاقي بسنة تقريبا، تقدم لي «شاب» عن طريق خالتي التي كانت تزكي ذلك «الشاب» وتغدق عليه بالمديح والثناء، وبأنه شاب طيب ومتعلم، وطموح، رضخت لضغوط وإطراءات خالتي ووافقت على الارتباط بذلك «الشاب» لكنني اكتشفت منذ سفري معه لقضاء شهر العسل أنه ليس الزوج الذي أتمناه فقد لا حظت عليه أنه رجل سكير مدمن على شرب الخمور والمخدرات «وشاذ جنسيا»، وقد أخذت حذري، وتناولت حبوب منع حمل دون أن يعلم حتى لا أتورط في إنجاب أطفال منه، ومن يعيشون كما عاش «أطفالي» من طليقي الأول في شتات بعيدا عني، لم أمكث مع الزوج الثاني سواء أربعة أشهر بعدها

تم القبض عليه في قضية مخدرات، كانت فرصتي أن أطلب منه الخلع مباشرة، وأعدت له المهر، وحررت نفسي من العيش مع زوج مدمن وبائع مخدرات «وشاذ» فيه كل صفات الصفاقة والسلوكيات الشاذة والقبيحة.

قلت لها: بقيت التجربة الثالثة؟

قالت: التجربة الثالثة كانت اندفاعًا وسذاجة مني، فقد بقيت بعد طلاقي الثاني، خمس سنوات لم أتزوج، وفي أحد الأيام كنت أزور معرضا تجاريا يقام في مدينتي «دبي» بصفتي سيدة أعمال، تعرفت على صاحب متجر منتجات تجميل من أحد البلدان العربية، كان عمره قريبا من عمري، بدأت بيني وبينه بوادر ود وإعجاب ما لبث أن تحولت هذه البوادر سريعا إلى حب وعشق.

بعد انتهاء المعرض التجاري، طلب مني أن يتقدم لي، ووافقت ظنا مني أنني سأجد ضالتي المفقودة في ذلك «الرجل» بصفته متحررًا من التسلط الذكوري متخيلة أنه يملك حسا مرهفا، وأن الحب الذي نشأ بيننا سيكون محفزا لنعيش بسلام وبتفاهم، تزوجته وشرطت عليه أن يعيش معي في بلدي فأنا لا أستطيع أن أهاجر من بلدي ولا أستطيع أن أفارق منزلي الذي أمتلكه، أو التفريط في متاجري، استخرجت له تأشيرة عمل ببلدي والسكن معي.

بعد ما يقارب ثلاثة أشهر من زواجنا اكتشفت أن ذلك الرجل له علاقات نسائية متعددة غير شرعية، وأن حبه لي لم يكن حبا صادقا،

بل كان حبا مزيفا من أجل ابتزازي ماديا بصفتي ثرية وأملك مالا وتجارة ومنزلاً، اكتشفت أيضا أنني لم أكن أول ضحية في حياته، فقد كان هناك عدد من الضحايا «الثريات والموظفات» كان يغريهم بكلامه المعسول الذي يدغدغ مشاعر «الأنثى» ثم لما يتملك قلبها يبدأ يمارس معها «الانتهازية» ويلعب على وتر الحب بالكلام الذي يرضي غرور الأنثى، ومن ثم يرتبط بها، بعد ذلك يبدأ في ابتزازها ماديا، ويساومها على الطلاق، ومن حسن حظي أنه تم القبض عليه لاشتراكه مع عصابة في غسيل أموال وتزوير أوراق ومستندات رسمية، وأثناء سجنه وقبل ترحيله لبلده تقدمت للمحكمة طالبة منه الطلاق، وقد خلعني القاضي رغما عنه.

بعد تلك التجارب الفاشلة قررت أن لا أتزوج بتاتا فلم يعد لدي ثقة في أي رجل بعد هذه التجارب المريرة التي جعلتني في نظر المجتمع مطلقة، وينظرون لي أنني امرأة متمردة لا أنفع أن أكون زوجة، ولم يعلموا أنني ضحية رجال غير مؤهلين أن يكونوا أزواجًا مثاليين..

كانت تلك «المرأة» تتحدث والإحباط باديا عليها من جراء تجاربها الفاشلة، كانت تشكي من ظلم المجتمع لها ونظرته تجاهها وتخلي أهلها عنها وتركهم إياها تعيش وحيدة في منزلها وفي حياتها.

قلت لها: متعاطفا معها تجاربك مريرة فعلا سيدتي، لكن أتمنى أن لا تكون تلك التجارب محبطة لك أو كابحة لطموحك، عليك التفاؤل، وثقي أن بعد كل ألم أملاً، فلا تصبغي حياتك باللون الأسود، ولديك

غير اللون الأسود ألوان كثيرة، فبإمكانك تلوين حياتك باللون الأبيض أو الوردي وأنتِ قادرة على ذلك عليك تغيير نمط حياتك وتطوير ذاتك والبحث عن ذاتك والنظر للحياة نظرة إيجابية وتحدي كل الصعاب، ولا تفكري أن تجربتك وظروفك هي نهاية المطاف عندها سوف تخسرين نفسك وذاتك وقيمتك، يجب أن تؤمني أن الحياة لا تتوقف عند حد معين أو تجارب فاشلة، يجب أن تثقي أن الحياة أجمل عندما ننظر لها بتفاؤل وأمل ولا نختزل الحياة في معاناة أو زاوية ضيقة فهي رحبة وممتعة عندما نريد ذلك.

ردت قائلة: مهما حاولت أن أنسى أو أتناسى تبقى نظرة المجتمع لي «كامرأة» مطلقة نظرة فيها نوع من «الإسقاط» والريبة وأنني السبب في فشلي وطلاقي، وهذا الشيء يزعجني جدا فأصبحت لا أطيق كلمة «مطلقة».

قلت لها: عليك سيدتي أن لا تنظري لنفسك أنك «مطلقة» بل انظري لنفسك أنك «منطلقة» من قيد أزواج لا يستحقون أن تمنحينهم جسدك، أو مشاعرك، أو ثقتك، عليك من الآن وصاعدا أن تنظري للجوانب الإيجابية والمضيئة في حياتك، ولا تنظري للجوانب السلبية، ومهما كانت تجاربك مؤلمة سوف تبقى تاريخًا ماضيًا والأيام سوف تنسيك آلامها وقسوتها، واعتبري ما حدث لك كبوة جواد عابرة، وواصلي المسيرة ((واعلمي أن الخيل المميزة هي من تواصل الركض حتى نهاية المضمار؛ وأنتِ بإذن الله فرس مميزة، وكما قيل(الشدائد تصنع الأقوياء))...

قالت: كلامك مريح وجميل فيه تفاؤل وأمل، يبدو أنك تعيش حياة مستقرة ومتفائل أكثر من اللازم.

قلت لها: لا تشكي لي فأبكي لك، كلنا نشترك في المعاناة، وقد تكون معاناتي أكبر من معاناتك فمنذ ولادتي ولدت من رحم المعاناة والأحزان، لكن «الشكوى لغير الله مذلة» ولن ينفعنا «البكاء على اللبن المسكوب»، فمهما تمردنا على واقعنا يبقى الواقع يحاصرنا وليس أمامنا من حل إلا أن نتكيف معه، ونعيشه بجميع ظروفه.

قالت: وما هي ظروفك «ومعاناتك»؟

قلت لها: يبدو الوقت غير مناسب أن أفصح لك عن «قصتي» وظروفي، فالوقت أزف وسوف أعود لدمشق للفندق الذي أسكن فيه، وقصتي طويلة ومتشعبة مهما حاولت أشرحها تبقى أكبر من إيجازها في عجالة.

قالت: من حقك «التحفظ» على «قصتك» لكن إن كان لي من رجاء عندك، نفسي أسمع منك «قصتك» وظروفك فقد أستفيد منها.

قلت لها: سألبي رغبتك سيدتي، وذكرت لها «قصتي» وبأنني «لقيط» مجهول الأبوين أعيش وحيدا منذ نعومة أظافري، وسردت لها سيرتي كاملة وما مررت به من معاناة ومن إقصاء ومن ظروف ووحدة وشتات، تأثرت كثيرا بعد شرحي وضعي لها.

قالت: هل تقبل أن أكون أختا لك لم تلدها أمك، ولكن ولدتها صدفة جميلة.

قلت لها: أتشرف بذلك، أصرت أن تدعوني لتناول «وجبه غداء» اليوم التالي في مزرعتها فهي «امرأة» بالغة الثراء تملك «بيتا ومزرعة» قامت بشرائها قبل سنوات في ضواحي الشام - كما ذكرت لي.

قبلت دعوتها بعد إصرار وإلحاح منها، وطلبت منها عنوان المزرعة لكي أستقل سيارة «تكسي» اليوم التالي وأذهب لإجابة دعوتها.

قالت لي: لا داعي أن تأخذ سيارة «تكسي» سأرسل لك غدا صباحا سائقا من المزرعة يصطحبك من الفندق الذي تسكن فيه يقوم بتوصيلك للمزرعة.

في اليوم التالي استقيظت من النوم باكرا الساعة «الثامنة» صباحا تناولت إفطاري، ومن ثم قمت بتبديل ملابسي، ونزلت لبهو الفندق منتظرا قدوم «السائق» في تمام الساعة «التاسعة والنصف» صباحا وصل السائق، واصطحبني برفقته لمزرعة تلك «السيدة» في تمام الساعة «الحادية عشرة» صباحا وصلنا للمزرعة، كانت مزرعة منسقة تنسيقا رائعا بها مزروعات وفواكه وحمضيات، ويوجد بها «منزل» جميل له شرفة كبيرة تطل على المزرعة مباشرة.

وأثناء دخولي منزل المزرعة استقبلي أحد «العاملين» قائلا لي إن «سيدة» المزرعة تتواجد عند إسطبل الخيل، فقد كان في مزرعتها

إسطبل يوجد فيه مجموعة من الخيول، طلبت من «العامل» الذي يرافقني أن يتصل «بسيدة» المزرعة، هل لديها مانع أن أذهب لها إلى الإسطبل فأنا من عشاق الخيول.

اتصل بها «العامل» طلبت منه أن يوصلني للإسطبل الذي كان موقعه في أحد أركان المزرعة، وصلنا للإسطبل شاهدت تلك «السيدة» تمتطي فرسا شقراء جميلة اللون تتجول بها قريبًا من الإسطبل.

بعد إلقائي تحيه السلام عليها، قلت لها مازحا: مفارقة جميلة فارسة تمتطي فرسا، كلاكما جميلتان وشامختان.

ردت قائلة: والأجمل أننا لا نقبل التسلط أو القمع فالفرس «والأنثى» لا يحسان بالأمان إلا مع من يقدم لهما الحب والاحترام، ويتعامل معهما بلطف، لكن المجتمع الذكوري المتسلط لا يؤمن بكرامتنا وشموخنا، ورغم ذلك يعتبر الرجل عدم قبولنا بالتسلط تمردا عليه..

قلت لها: معك حق فعلا أنتن ضحية تسلط الرجل، والرجل ضحية موروثات جمعية متوارثة تكرس في الرجل العربي و«الشرقي» أن يكون متسلطا جافا، وهذا قدركن أنكن من تتجرعن وزر هذه الثقافة الجمعية الذكورية.

قالت: وهل هذا الميراث ثوابت منزله حتى لا يتخلى ويتحرر عنها «السيد» الرجل ويؤمن أننا حتى لو كنا «إناثا» فنحن مثلكم معشر الرجال لنا أحاسيس ومشاعر وكرامة لا يجب أن تمتهن؟.

قلت لها: السلوك ممارسة سيدتي و«الناس أعداء ما جهلوا» فالأغلبية العظمى من المجتمع العربي يعتبر الرجل الذي يعامل «الأنثى» بلطف وحنان أنه رجل ذو شخصية هلامية، وهذا الاعتقاد زرع في ذهنية الرجل التسلط الذكوري بأبشع صوره.

قالت: مهما شكينا وتمردنا تبقى سيطرة الرجل حاضرة في شتى المجالات، ولن يتغير المجتمع.

قلت لها: التسلط الاجتماعي موروث نعاني منه حتى نحن «مجهولي النسب» كما تعانين منه أنتن، لكن ماذا نفعل «إننا لن نهدي من نحب لكن الله يهدي من يشاء».

نزلت من ظهر الفرس وسلمتها السائس، قائلة: لا نريد نفتح مواضيع اجتماعية تقلب المواجع خلينا نذهب لشرفة المنزل، لكي نقوم بضيافتك.

وصلنا لمنزلها الكائن عند بوابة المزرعة، وقد تم تجهيز جلسة لنا في شرفة مسقوفة بأغصان الشجر، في جو جميل مليء بالطبيعة الخلابة، قُدِّمت لنا سلاّت من الفواكه والخضار الطازجة، ومشروبات ساخنة، ثم قمنا بالتجول في المزرعة لمدة ساعة من الزمن، بعد ذلك عدنا للمنزل وقد حان وقت الغداء، وقد كان كرم تلك «المرأة» حاتمياً فقد تم تحضير وجبة غداء فاخرة عامرة بالأكل الشامي اللذيذ.

بعد تناول الغداء ودعتها وودعتني بعد أن قضينا عدة ساعات «كأخوة» تحاورنا فيها في أمور شتى وكل منا «فضفض» للآخر عن

همومه وشجونه.

شكرت تلك «المرأة» على لطفها وحسن كرمها، واستأذنت طالبا من السواق أن يعيدني للفندق الذي أسكن فيه، مفارقا تلك «المرأة» التي قضيت في ضيافتها ساعات مليئة بالود والاحترام والتقدير.

اكتشفت أن تلك «المرأة» تملك صفات إنسانية نبيلة، وتمتع بصفات سلوكية وأخلاقية جميلة، تألمت من قلبي لما تعرضت له من تجارب مريرة فقد كانت إنسانة رائعة لم أرَ فيها أي عيب يعيبها بتاتا، بل كانت تملك فكرا راقيا، وثقافة ممتازة، وجمالا باهرا، وأنوثة ناعمة، وعقلية متفتحة، لكن يبدو أن حظها العاثر كان سيئا وكان سببا في فشل تجاربها، فهي لم تختَر الاختيار الأمثل.

كان هناك عامل مشترك بيني وبين تلك «المرأة» التي تعرفت عليها صدفة، فكل منا كان ضحية تسلط و«نرجسية» المجتمع حتى لو اختلفت المعطيات بيننا، لكننا وجهان لعملة واحدة فكلانا «ضحايا»، هي ضحية تسلط وذكورية المجتمع، وأنا ضحية عنصرية وإقصائية المجتمع.

حوار طريف مع رجل قبلي

ذات يوم من أيام الشتاء الباردة، وخلال إجازة يوم» الخميس» الأسبوعية استيقظت باكرا، استقليت سيارتي مسافرا إلى محافظة صغيرة تسمى (الإرطاوية) تبعد عن العاصمة «الرياض» ما يقارب «300 كيلا» شمال شرق العاصمة، حيث يقام في هذه المحافظة الصغيرة مهرجان سنوي «لمزايين الأبل» كل عام في منطقة صحراوية تسمى (أم رقيبة) ويصاحب المهرجان سوق شعبي تراثي مؤقت خلال إقامة مهرجان مزايين الإبل، ويباع في هذا السوق مقتنيات تراثية قديمة لها بعد تاريخي، ورمزية تجسد الماضي الجميل، وبما أنني من عشاق المقتنيات الأثرية والشعبية، كنت أرغب شراء بعض المقتنيات التراثية والشعبية.

وصلت إلى سوق «أم رقيبة» في تمام الساعة «العاشرة» صباحا، قمت بجولة في أركان السوق، وقمت بشراء ما نال إعجابي من المقتنيات التراثية والشعبية، بعد ذلك أذن المؤذن مناديا لأداء صلاة الظهر، بعد أدائي صلاة الظهر، استقليت سيارتي عائدا لمدينة الرياض وأثناء مروري بمحافظة «المجمعة» كنت جائعا، ومن عادتي أنني أكره الأكل في المطاعم التي لا أعرفها ولم يسبق لي أن أكلت فيها خاصة التي في هجر أو في طرق السفر، فهذه المطاعم ليست نظيفة ولا تخضع للمراقبة الصحية الدائمة وأغلب العمالة فيها عمالة سائبة أو مجهولة.

تذكرت أن أحد الأصدقاء والزملاء الذين تعرفت عليهم أثناء فترة عملي بمنطقة الجبيل الصناعية استقال وذهب للتدريس بالمجمعة لكي يكون بقرب والده الذي يسكن بالمجمعة منذ فترة طويلة، كان بيني وبين هذا الصديق تواصل دائم عن طريق الهاتف، وكان دائما يطلب مني أن أزوره في مدينته المجمعة، اتصلت فيه وقد سر باتصالي وبوجودي في مدينته وطلب مني أن أنتظره بمواقف سوبرماركت «بنده» بالمجمعة حتى يصلني ويأخذني لمزرعة «والده» التي يقضون فيها إجازتهم الأسبوعية.

وصلني صديقي بعد ربع ساعة تقريبا وذهب بي لمزرعتهم التي كانت قريبة جدا من المدينة، وأدخلني استراحة صغيرة ملحقة بالمزرعة، والذي كان يخدمهم فيها رجل مميز ونبيل من «اليمن» يعمل طباخًا عندهم، ويقوم بعمل الوجبات الشعبية بنكهة الماضي، ويقدم الأكل بأوانٍ تراثية جميلة، كانت ديكورات الاستراحة تتصف بالطابع التراثي التقليدي القديم، فقد تم استعمال «اللبن الطيني» وأغصان «سعف» أشجار النخيل وأشجار «الأثل» في تنسيق الديكور، وأرائك الجلوس مصنوعة من الحبال ومن الخشب، فأعطت مقاعد الجلوس أشكالا تراثية فيها حس فني بديع، معمولة باحتراف يدوي متقن وجميل.

بعد تناولنا وجبة الغداء، ذهب بنا صديقي لمجلس عبارة عن خيمة منسوجة من شعر الأغنام، وأثاثه تراثي، وأرائك الجلوس فيه مصنوعة من خشب الأشجار كالسدر، والأثل، ومغلفة بخيوط من

الصوف «السدو» بشكل تراثي رائع ممزوج بألوان زاهية، ومصنوع بالحرفة اليدوية.

كانت «خيمة الشعر» تحتوي على موقد توقد فيه نار الحطب، فقد كان الفصل شتاء والجو باردا جدا، وكنت محتاجا للتدفئة، قام الطباخ «اليمني» بتقديم القهوة العربية والتمر والشاي والحليب بالزنجبيل الذي يتم تحضيرها على نار الجمر.

بقيت مستمتعا بالدفء، قريبًا من موقد النار، أتلذذ بشرب القهوة العربية مع التمر الذي أعشقه، واحتساء أقداح من «الشاي والزنجبيل» الساخن، في حوار جميل مع «صديقي ووالده» واثنين من أخواله، ذهب الوقت سريعا في هذا الجو الدافئ المفعم بعبق الماضي الجميل وبحوارات «وسوالف» شيقة مع رجال تنبض من قلوبهم الطيبة والكرم الحاتمي الذي ليس بمستغرب عليهم فهم من قبيلة «شمر» المشهورة بالكرم، بعد صلاة العصر استأذنت من «صديقي ووالده» اللذين حاولا أن أمكث في ضيافتهم تلك الليلة، لكنني اعتذرت منهما، مستقلا سيارتي عائدا للعاصمة الرياض.

بعد مغادرتي مدينة المجمعة قاطعا من الطريق ما يقارب «ثمانين كيلا» باتجاه العاصمة الرياض حان وقت أداء صلاة المغرب، توقفت عند «محطة خدمات بترولية» بالطريق يوجد بها مسجد ومحطة بنزين، و«سوبرماركت»، قمت بأداء صلاة المغرب والعشاء جمعا وقصرا بصفتي مسافرا، بعد الصلاة ذهبت لسيارتي لكن عند

تشغليها لم يشتغل محرك السيارة.

حاولت إصلاحها لكني لم أستطع فقد كان نظامها الإلكتروني معقدا ومعطلا، لم أجد ورشة إصلاح قريبة من «محطة الخدمات» ولم تكن عندي الرغبة في العودة بها لمدينة «المجمعة» التي سافرت منها، رغم أنها لا تبعد عني كثيرا، تبادر إلى ذهني شحن السيارة للعاصمة الرياض، وإصلاحها بالوكالة التابعة لها أفضل وأضمن، فما زالت السيارة تحت ضمان الوكالة وتتوفر بالوكالة قطع غيار أصلية وعمالة فنية مهنية محترفة ومتمكنة.

كان الجو باردا جدا، وتهب رياح شديدة ممزوجة بزخات من المطر، بحثت عن سيارة «شاحنة» متخصصة في نقل السيارات المعطلة أشحن فيها سيارتي المعطلة، والذهاب بها للعاصمة لكن لم أجد شاحنة، بقيت منتظرا أكثر من «نصف ساعة» أبحث بقرب محطة الخدمات البترولية، ولم أجد سيارة شحن، احترت ماذا أعمل؟

سألت رجلا يعمل بمحل لإصلاح إطارات سيارات «بنشر»، هل توجد هنا سيارات شحن مخصصة لنقل السيارات المعطلة؟

رد عليّ ذلك الرجل قائلا: نعم اذهب خلف المحطة ستجد هناك غرفا جاهزة من الخشب، وستجد أصحاب سيارات شحن السيارات المعطلة هناك.

ذهبت خلف المحطة، وبالفعل وجدت بأحد الغرف رجلا عمره

في حدود «الخامسة والأربعين» مستلقيا على ظهره.

سلمت عليه، رد علي السلام ثم قال: بلهجة عامية «تريد شيء أخوي؟ قلت: نعم سيارتي معطلة عند المحطة وأرغب شحنها للرياض.

قال: أبشر، وطلب مقابل ذلك مبلغا اعتبرته مبالغا فيه بشكل كبير.

قلت له: المبلغ كبير، والمسافة من هنا حتى العاصمة لا تتجاوز «مائة وعشرين كيلا»؟!

قال: هذا السعر الذي يناسبني يا «أخوي» فكما ترى الليلة ممطرة وبرد، ولن تجد هنا سيارة شحن غيري.

فكرت برهة، لم يكن أمامي من خيار آخر سواء «شاحنة» ذلك الرجل، خاصة بعد انتظار أكثر من «نصف ساعة» في ظل برد شديد جعل أطراف جسدي ترتعد وترتجف من البرودة، تذكرت المثل القائل «عصفور باليد خير من عشرة على الشجرة».

حاولت أفاصل وأتفاوض مع صاحب الشاحنة لتخفيض السعر، بعد مساجلات اتفقنا على سعر مناسب لي وله، كان ذلك الرجل يرتدي «الزي الوطني» وكان ملثما بسبب البرد، يغطي فمه، وأنفه «بشماغ» كان يرتديه، لم تتضح لي وقتها معالم وملامح وجهه كاملة، كان البرد شديدا، وجسدي يرتجف من البرودة، ولا أميز الأشياء بصورة دقيقة،

كان جل تفكيري أن أجد سيارة تشحن سيارتي للعاصمة.

تم شحن سيارتي فوق الشاحنة بواسطة حبل سحب «هدروليك «مصمم بالشاحنة لشحن السيارات المعطلة.

ركبت مع ذلك «الرجل» في سيارته، وأغلقت زجاج السيارة حتى أحمي نفسي من الهواء البارد، بعد تحركنا باتجاه العاصمة، بدأ الحديث بيني وبينه، عرفت من لهجته أنه ينتمي لقبيلة معروفة بعنصريتها القبلية، وتمسكها بالعادات القبلية التي تكرس المحسوبية والإقصائية، فقد نمت عندي خلفية عن القبائل تعلمتها أثناء انخراطي، واندماجي مع أبناء القبائل سواء أيام الدراسة أو أثناء العمل والسفر، أصبحت أملك معرفة عن كثير من القبائل، رغم أن كثيرًا من القبائل تشترك في العادات والتقاليد واللهجات ولا تختلف لهجاتهم عن بعضهم كثيرا، إلا أن هناك قبائل معينة لهم لهجة تلازمهم وتعرف الأشخاص الذين ينتمون لقبائلهم عن طريق لهجتهم حتى لو لم يخبروك لأي قبيلة ينتمون، كنت أعرف عن طريق الحوار والحديث الشخص الذي يتحدث معي لأي قبيلة ينتمي من لهجته ومن حديثه.

بعد دقائق من خروجنا من محطة المحروقات، ونحن على الطريق متجهين للعاصمة، سألني ذلك الرجل «بلهجة عامية» قائلا: من وين أنت يا خوي؟.

رددت عليه قائلا: مواطن أنتمي لهذا الوطن، قال: أعرف أنك مواطن من هذا الوطن، لكن أقصد من أي قبيلة أو من أي منطقة أنت؟».

رددت عليه قائلا: أنا لا أؤمن بالانتماءات القبلية أو التصنيفات المناطقية، يكفيني أني مسلم الديانة، مواطن الهوية، إنسان مستقل الرأي، والتوجه وهذا ما يهمني.

رد علي قائلا: «ويش فيك أنت؟ فيه أحد ما يعرف قبيلته؟

قلت له: أنا إنسان كافر كفرا بوّاحا بالانتماء القبلي لا أؤمن بالقبيلة ولا أريد أن أنتمي لها، يكفيني أن أنتمي لنفسي، ووطني، وديني، وهذا الأهم عندي.

رد: بغضب وبلهجة عامية مضحكة قائلا: «أبك...أبك...هب... يالكافر...أحد يكفر بقبيلته يالكافر.. أبك لا أحد يسمعك.. والله لا تدري عنك الحكومة ولا يدرون عنك شيوخ الدين أن يقيموا عليك حد الردة والكفر يالكافر».

ضحكت من أعماقي من لهجته ومن قوله: «أبك.. لا أحد يسمعك.. والله لا تدري عنك الحكومة ولا شيوخ الدين يقيموا عليك حد الردة والكفر هب يالكافر».

نظر لي مندهشا من ضحكتي، وقال: «أبك...أنت...ويش علامك تضحك...تضحك على كفرك يالكافر..؟».

رددت عليه قائلا له: تصدق أن الكفر بالقبيلة كفر مباح.. وكفر مشروع.

قال، وهو حانق علي: بعد لك وجه تسوي فيها شيخ، وتفتي وتبيح الكفر يالزنديق.

رددت عليه قائلا: أنا أتكلم معك بجد وإذا لم تكن واثق من صحة كلامي أذهب للمفتي، وأسأله هل الكفر بالقبلية والعنصرية، والمناطقية كفر مباح أم لا..؟

قال: شايفني مثلك يالكافر ما أعرف معنى الكفر يا خائن قبيلته وجماعته، فيه أحد ما يعتز بقبيلته وجماعته، ويكفر بهم ياخاين؟!

وبينما نحن «أنا وهو» نتجادل في موضوع الكفر بالقبيلة هل هو مباح أم لا... وجدنا في طريقنا نقطة تفتيش أمنية تقوم «بالتفتيش» على الطريق، طلب منا العسكري، أوراق ملكية الشاحنة ورخصة القيادة للسائق، كذلك أوراق ملكية سيارتي المحمولة فوق الشاحنة، قدمت له أوراق الملكية الخاصة بسيارتي، أحسست أن سائق الشاحنة، متردد في إخراج رخصة القيادة التابعة له كرر عليه «العسكري» طلب رخصة القيادة، رد عليه سائق الشاحنة: «والله يا لطيب رخصة القيادة الخاصة بي ضائعة، لكن أنا «ابن عم» زميلكم «...» وذكر «للعسكري» اسم شخص يعمل بنقطة التفتيش، رد عليه العسكري قائلا: تقديرا لزميلنا بصفتك «ابن عمه» لن أغرمك أو أحجز سيارتك أكمل خط سيرك في حفظ الله.

ذهبنا من «نقطة التفتيش» نظر لي ذلك الرجل، وقال: شفت يالكافر بالقبيلة.. لولا وجود عزوتي «ابن عمي» يعمل بهذا المركز

وذكري للعسكري أن زميلهم «ابن عمي» وينتمي لقبيلتي كان دفعت غرامة، وتم حجز شاحنتي.

قلت له: وهل تعتبر ما قام به «العسكري» من مجاملة ومحسوبية لك و«لابن عمك» ظاهرة صحية أو عملاً نبيلاً أو شفاعة محمودة؟.

قال: نعم، هو قدّرني من تقديره لزميله «ابن عمي» وعفا عني، وهذا من محاسن القبيلة «فالرفيق عند الضيق».

قلت له: أختلف معك تماما فما قام به «العسكري» غير مبرر مهما كان فهذه محسوبية، ومجاملة، وعمل غير احترافي وخيانة للأمانة الوظيفية التي مؤتمن عليها، فمن المفروض أن يطبق النظام عليك كما يطبقه على غيرك من البشر سواء كان «ابن عمك» يعمل معهم أم لا، فالنظام يجب تطبيقه على الجميع دون محاباة لأي كائن من كان، فما هو ذنب شخص آخر ليس له قريب أو «ابن عم» في مركز التفتيش أن يغرم وتحجز سيارته، وغيره تتم محاباته ومجاملته بسبب أن قريبه أو أحد أفراد قبيلته يعمل في مركز التفتيش أو معروف لديهم.. هذا فيه إجحاف وظلم.

رد قائلا: أبك.. الشجرة التي ما يظلل ظلها على غصونها يجب أن تقطع و«ابن عمي» الذي ينتمي لقبيلتي ولا يخدمني أو يفزع لي فهو كشجرة الحنظل التي لا يستفاد منها ويجب قطعها.

قلت له: بأي منطق وعنصرية تتحدث يجب أن تعي أن هناك

نظامًا يجب أن يتصف بالعدل والمساواة، ويجب أن يطبق على الجميع دون محاباة أو مجاملة لأحد و«ابن عمك» إذا بيخدمك أو يتشفع لك كما تدعي فيكون ذلك من جيبه أو من حقه الخاص، وليس بخيانة عمله الحكومي العام الذي مؤتمن عليه، ويكسر النظام من أجل محباتك ومجاملتك.

قال بغضب: أبك.. الدولة ما بيضرها إذا أعفاني «العسكري» من الغرامة فالدولة غنية عن هذه الغرامة.

قلت له: لا تبسط الأمور، المسألة نظام ومبدأ وأمانة مهنية، وأمانة ضمير، ومن جاملك في الغرامة، وكسر النظام من أجل أفراد قبيلته، سوف يخون عمله وأمانته في مواقف أخرى.

قال: يبدو أنك معقد ومنسلخ عن العادات والتقاليد أكثر من اللزوم، ولا تقدر شهامة ونخوة الرجال، ولا تعرف العادات، وتسمي الفزعة خيانة، «هب عليك»..

قلت: صفني وصنفني كما تشاء هذه وجهة نظري قبلتها أم لم تقبلها فهذا شأنك، لكن أسألك سؤالا يمكن أوضح لك الأمر بصورة أكثر وضوحا وشمولية، فأنت لم تفهم معنى اعتراضي على تصرف «العسكري» بالشكل الواضح..

رد قائلا: اسأل، ولو أني عارف أنك بتقول لي كلام تريد تقنعني به.

قلت له: لو كنت تملك متجرا أو صالة أفراح أو صالات ترفيه أو أي مجال تجاري وهذا المجال لا يتم دخوله إلا برسوم وتذاكر تدفع عند بوابات الدخول، ووظفت بمتجرك حراس أمن على هذه البوابات واستأمنتهم على حراسة المتجر وبيع التذاكر وتريد منهم الأمانة والحرص على العمل أو قمت بتوظيف محاسبين للبيع، وقاموا هؤلاء الحراس بحجة القبلية والمجاملة في السماح بدخول أقاربهم ومعارفهم دون دفع رسوم بحجة الفزعة والشهامة والمحسوبية، كذلك قام المحاسبون بإعطاء أقاربهم مواد أو منتجات من متجرك دون أن يأخذوا منهم ثمن بحجة الفزعة لأقاربهم فهل تقبل ذلك؟

قال: أبك..أنت.. ويش تقول..تريدهم يبيعونني لجماعتهم وأقاربهم ويسمحون أو يعطونهم منتجاتي مجانا.. أكيد ما راح أرضى على الحراس والمحاسبين فهم بمثابة الخونة وغير الأمناء هذا ما يبغى له ذكاء.

قلت: على نفس النمط والسياق تأتي الدولة التي استأمنت ذلك «العسكري» الذي عفا عنك من الغرامة مجاملة ومحسوبية «لابن عمك» بحجة أنه زميله، فليس هناك فرق بينه وبين رجال الأمن والمحاسبين الذين وصفتهم بالخونة وغير الأمناء، فكما تحرص وتخاف على مصالحك الخاصة فمن الأولى أن تحرص ويحرص ذلك «العسكري» على النظام العام، والمصالح المرسلة التي تشرعها الدولة لتنظيم حياة المجتمع، ونشر العدل والمساواة بين عموم الناس دون محاباة أو تمييز قبلي أو عنصري أو مناطقي لأي كائن كان.

رد قائلا: «أبك.. أبك.. والله كلامك كله حافظه، والعدل والمساواة والنظام، والمثاليات التي تحدث عنها كلها حافظها، وليس بحاجة أن ترددها علي وياليتك تحكي بلهجتنا العادية التي نفهمها خلينا من الحديث باللغة العربية التي يزعجني أن أسمعها، تحدث بلهجتنا العادية لأني أحس بصداع من الأسلوب الذي تتحدث به، ويرفع ضغطي يا كرهي للغة العربية منذ كنت بالابتدائية، كرهت الدراسة كرها شديدا بسبب النحو والصرف والإعراب، والمبني للمعلوم، والمبني للمجهول».

عندما أحسست أنه يستفزه حديثي بالفصحى، حاولت بخبث مني أن أستفزه أكثر، وأتحدث معه بلغة عربية صرفة: قائلا له: ويحك...ويحك...يا أخ العرب..أتكره، وتنتقد لغة القرآن، ولغة الضاد، بخ.. بخ.. أيها الأعرابي الكافر بلغتنا العربية الجميلة، لو علم عنك «سيبويه» أو «أبو الأسود الدؤلي» لأقاموا عليك حد الكفر والردة باللغة العربية.

نظر لي بحنق، وقال: «أبك.. أبك.. والله لولا أنك خوي سفر، لكنت طلعت لك «العجراء»[1] وعلمتك ويش لون..بخ.. بخ..».

ابتسمت وقلت له: لو ضربتني «بالعجراء» كما تدعي سأشكوك لشيخ قبيلتكم، ولن أسامحك أو أعفو عنك وستجلس معي، وآخذ منك «حق قبلي»، وسأطلب منك مبالغ طائلة مقابل صلح قبلي مثل ما تطلبون ممن يحصل بينه وبين أفراد قبيلتكم مشاكل.

(1) «العجراء» عصا غليظة تستخدم للضرب.

قال: وكيف تعرف «شيخ» قبيلتي، وأنت ما تعرف أنا من أي قبيلة؟

رددت عليه قائلا: أعرف أنك من قبيلة «...» وأعرف مدى تمسككم بالعادات والتقاليد الغابرة التي تقصي الآخر، وتمارسون المحسوبية والمجاملة لبعضكم حتى لو كانت مجاملتكم على حساب أناس آخرين تمتهنون حقوقهم بسبب التعنصر القبلي..

نظر لي باستغراب ورد علي قائلا: كيف عرفت أني من قبيلة «...» وأنا لم اذكر لك اسم قبيلتي سابقا؟

قلت: لهجتك تدل على أنك من قبيلة «...»، الشيء الآخر هل نسيت أننا عندما وقفنا عند نقطة التفتيش أنك قلت «للعسكري» أنا «ابن عم» زميلكم، وذكرت اسمه واسم قبيلتك.

رد علي قائلا: والله ما أنت بسهل، لكن ليش شايل في نفسك على القبائل، هل بينكم وبينهم عداوة؟

قلت له: ليس بيني وبينهم عداوة، ولست ضد القبيلة كأشخاص وبشر وكمواطنين لكني ضد العادات والتقاليد التي تمارسها القبيلة من إقصائية، ومن عنصرية، ومن موروث قبلي يكرس في القبيلة حب الذات والمحسوبية والمجاملة التي يمارسها الكثير من أبناء القبائل لمحاباة أبناء قبائلكم، وكسر الأنظمة وممارسة «الواسطة» في سبيل عمل تنازلات لأفراد القبيلة، وما تمارسونه من نفاق اجتماعي ومن

تناقضات، ولدي أدلة كثيرة فلدي أصدقاء كثر ينتمون لعدة قبائل يبوحون لي بأنهم إذا كانوا في محيطهم القبلي أو عندهم ضيوف من قبيلتهم يحاولون يلبسون أقنعة مزيفة، ويتمسكون بالعادات والتقاليد، وعندما يخرجون من محيطهم الجمعي أو القبلي يمارسون عكسها وهذا دليل على أن سطوة ومجاملة القبيلة لها دور في هذا التزييف وازدواجية المعايير والنفاق الاجتماعي.

رد علي قائلا: هذه عادات وتقاليد تربينا عليها، وإذا كنت تراها محسوبية ومجاملة وإقصائية، فنحن نراها نخوة وشهامة وعلوم رجال.

قلت له: هذه ليست شهامة أو نخوة إنما تصرفات تدل على العنصرية القبلية بأبشع صورها وقناعات ترسخت في أذهانكم فأصبحت سلوكًا تمارسونه وتعتقدون أنها نخوة وشهامة مع أنها عكس ذلك، وأعي جيدا أنكم ضحية ثقافة قبلية ترسبت في نفوسكم ونتج عنها تابوهات وأنماط وسلوكيات تمارسونها كمسلمات وثوابت في حياتكم، وأصبحتم منقادين لها كالقطيع الذي يمشي خلف موروثات قبلية غابرة كرسها فيكم «شيخ» قبيلة جاهل، أو روج لها شاعر قبيلة فاسد، ومهما حاولت أن أقنعك فلن أصل معك إلى قناعة، فقد أصبحت هذه الموروثات طبعًا في نفوسكم وكما قيل «الطبع يغلب التطبع».

رد قائلا: هذه عاداتنا وتقاليدنا منذ كنا أطفالا ونحن نعرفها ونمارسها، ولن نتخلى عنها، فوفر نصائحك لنفسك فلن أقبله منك.

قلت له: أعرف أن كلامي لن يغير فيك شيئا فكما قيل في

الحديث «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يمجسانه، أو يهودانه، أو ينصرانه»، فأنت ضحية ثقافة ولدت عليها وتشربتها من والدك وأجدادك ومهما تقدم العالم تقنيا ومعرفيا ستبقى هناك عقول تقليدية رجعية لا تريد التحرر من عادات غابرة مقيته.

وبينما نحن «أنا وهو» في نقاشات ومساجلات ساخنة، وصلنا للوكالة بالعاصمة، وتم إنزال سيارتي بها، أعطيت ذلك الرجل حسابه، وذهب بعد أن وصلت معه إلى طريق مسدود وحوار قد يكون حوارا عقيما، لكنني وصلت إلى قناعة تامة أن العادات والتقاليد حتى لو كانت غير مفيدة، لكنها ستظل ثقافة تغرسها القبيلة في عقول أبنائها وتكرسها حد الاعتقاد وفي عرفهم أن من يتحرر من هذه العادات والتقاليد القبلية سيكون كمن يرتكب خيانة أو جريمة لا تغتفر.

«روبرتو» الوجه الآخر للإقصاء

كنت أخصص بضع ساعات من يومي «الأحد والخميس» الذهاب «لكوفي شوب» مشهور أزوره منذ سنوات، حتى صار بيني وبين ذلك «الكوفي شوب» رابط مكاني، وعلاقة وجدانية وارتياح نفسي، كنت أتخذ من طاولة محددة في ركن قصي مكانا خاصا بي باستمرار، بعيدا عن الضوضاء والصخب الذي يحدثه بعض الزبائن بطريقة فظة تشمئز منها المشاعر، وفيها الكثير من عدم الذوق أو الاحترام للآخرين..

كنت عندما أذهب إلى ذلك «الكوفي شوب» أقضي فيه ما يقارب «أربع ساعات»، أمضي لحظاتها بين مزيج من القراءة والكتابة، وسماع نشرات الأخبار عن طريق موقع راديو «بي بي سي»، لا يفصل هذه الساعات أي خروج لي منه إلا لأداء الصلاة جماعة بالمسجد القريب منه ثم العودة له مرة أخرى.

أصبح من المفارقات أن أشاهد في ذلك «الكوفي» أنماطا وتصرفات سلوكية من زواره، فأرى نماذج متنوعة، منهم المحترم الطيب، ومنهم الساذج المتمرد الذي لا يحترم مشاعر الموجودين، ومنهم من يرفع صوته بطريقة فظة فيها مبالغة واستفزازات لمشاعر الآخرين، ومنهم من تسمع منهم إسقاطهم على بعضهم بكلمات نابية، وبذيئة الجميع يسمعونها، رغم أنه من المفترض أن لا يفرضوا أحاديثهم

ورفع أصواتهم على الحاضرين بحجة ادعائهم الحرية فالحرية تنتهي حدودها عندما تؤذي مشاعر الغير.

نشأت بيني وبين «جرسون» فلبيني اسمه «روبرتو» يعمل «بالكوفي» علاقة ود وصداقة إنسانية، وأصبحت تلك العلاقة تزداد عمقا ومتانة مع تراكم الأيام والشهور.

بدأ يفهمني ويعرف طلباتي دون أن أكررها عليه كل مرة أزور فيها «الكوفي» كان يحفظ جدولي والأيام والأوقات التي سأتي فيها «للكوفي شوب»، كان يحجز لي طاولتي المفضلة دون أن أبلغه، وكان حريصا جدا أن أكون في زاوية هادئة بعيدا عن «التدخين» والضوضاء والتطفل، كان يعرف جيدا ماذا يزعجني من زوار الكوفي.

في يوم من الأيام طلب «روبرتو» مني أن يبوح لي بمشكلة تؤرقه، وتشكل له هاجسا يوميا، ويريد أن يسمع وجهة نظري فيها.

قلت له: بكل سرور قل ما تريد وسأكون منصتا لك، شكى لي متألما، مما يتعرض له من «بعض» الزبائن الذين يتحرشون به، وسبب تحرشهم جمال شكله ووسامته، واهتمامه بلباسه وبنظافة جسده وتصفيف شعره.

كان يقول لي: بحرقة وألم أنه ليس «شاذا أو جنس ثالث» بل رجل مثل كل الرجال، جاء من بلده وتغرب من أجل تأمين لقمة عيش كريمة له ولأسرته، فلماذا يتحرش به بعض الأشرار، ويحاولون

إحراجه ويفروضون عليه سلوكيات وحركات مسيئة ومشينة؟!

ويكمل قائلا باستغراب: لماذا لديكم في مجتمعكم أناس يعشقون الجنس «الشاذ» رغم أنه يحكمكم دين يحرم هذه التحرشات والأفعال «الشاذة»؟!

لماذا لديكم أناس أشرار يعتبرون أن أي شخص جميل يهتم بشكله ومظهره ونظافة جسده أنه «شاذ / منحرف» وأن أي شخص محتاج للعمل والمال في نظركم سيبيع جسده، ويقبل أن تمتهن كرامته؟! نحن بشر مثلكم لنا كرامة ومشاعر لكن أذلتنا الحاجة والفقر، وجئنا لبلدكم بحثا عن لقمة عيش كريمة، ولم نأتِ من أجل بيع أجسادنا لمن يدفع لنا المال..

تأثرت حقيقة من شرحه معاناته التي كان يرويها بألم وحرقة نابعة من أعماقه.

رديت عليه قائلا له: «روبرتو» أريد أن أكون معك صادقا وصريحا في كلامي، وأسألك سؤالا مهما.. هل جميع من تعاملت معهم في «بلدنا» كانوا جميعا سيئين وأشرارًا؟

قال:لا، قلت: إذن هؤلاء الذين يتحرشون فيك ويضايقونك ما هم إلا قله «شاذة» لا يمثلون إلا أنفسهم المريضة، ولا يمثلون ديننا الإسلامي بشيء، ولا يمثلوننا كمجتمع أو كشعب، وقد قال الله في كتابنا المقدس «القرآن الكريم» كل نفس بما كسبت رهينة، «وقال في آية

أخرى «ولا تزروا وازرة وزر أخرى...».

من هذا المنطلق ليس من العدل أو المنطق أن تعمم وتحكم على عموم مجتمعنا بحكم شمولي وتخاطبنا بلغة العموم، فالكثير من مجتمعنا بشر أسوياء «طيبون» ومن تحرش فيك ما هم إلا قلة منحرفة «شاذة».

رد قائلا: كلامك صحيح لكن هؤلاء «القلة» يشوهون صورة مجتمعكم، فهم يمارسون التحرش معي ومع غيري من أبناء جلدتي «الفلبينيين» بشكل مستفز لنا، تخيل أننا أصبحنا نتخفى عن أعين الناس عندما نكون يوم إجازتنا الأسبوعية، ونرغب بممارسة لعبة كرة السلة التي نعشقها لأن هناك متطفلين من الشباب يأتون إلينا ويضايقوننا بحركات نابية، والإسقاط علينا بكلام بذيء يحط من قدرنا ويمتهن كرامتنا كبشر.

صحيح أن هناك قلة من جاليتنا الفلبينية «شاذين ومثليين» جنسيا، لكن ما يزعجنا أن لديكم انطباع عام، فكثير من شبابكم يعتقد أن كل «فلبيني» شاذ أو مثلي، وهذا الانطباع غير منطقي، وخاطئ ومتجنٍّ على معظم الجالية الفلبينية.

قلت له: مثل ما فيه قلة من جاليتكم «الفلبينية» شاذة ومثليّة، فنحن لدينا قلة من الشباب تخلوا عن دينهم، وعن سلوكهم، وقيمهم الأخلاقية، والقلة الشاذة لا يقاس عليها، «فكل إناء بما فيه ينضح»، وليس هناك مجتمع في الكون يعيش في مدينة فاضلة، فواقع البشر

في كل أصقاع الأرض لا بد أن يكون فيهم، الحسن، والسيئ، والمثالي، والشرير، وفي أدبياتنا وتراثنا الإسلامي أن الله خلق جنة ونارًا، وطريق مستقيم، وطريق ضلال.

من هذا المنطلق هناك أناس سلوكهم وتصرفاتهم جيدة وعقيدتهم سليمة تكون مكافأتهم عند الله الجنة، وهناك أناس أشرار سلوكهم مشين وتصرفاتهم رخيصة مثل الذين يتحرشون فيك، ومكافأتهم عند الله النار، ولو كان الناس مستقيمة سلوكياتهم وأخلاقياتهم لخلق الله الجنة فقط، ولو كان الناس كلهم سيئين وأشرار لخلق الله النار فقط، لكن الله خلق جنة ونارًا، هناك من يدخل الجنة بموجب ما اقترفه من سلوك جيد، وهناك من يدخل النار بموجب ما اقترفه من سلوك سيء.

لكن الأهم، أن تحمي نفسك، وتحافظ على كرامتك باتخاذك إجراءات حازمة ضد هؤلاء الأشرار، أو تبلغ مدير أو صاحب «الكوفي شوب» عمن يتحرشون فيك أو أن ترد عليهم بحزم وتحرجهم أمام أنفسهم وأمام الآخرين.

قال لي يا سيدي: أنا إنسان جئت من «وطني» من أجل العمل، ولكي أحصل على مرتب شهري، يعينني ويعين أسرتي على العيش الكريم، وفي حالة تصادمي مع «الزبائن» أو الرد على تحرشاتهم فسوف يؤثر ذلك على. دخل «الكوفي شوب»، وقد يتم الاستغناء عن خدماتي، وقد لا أجد عملا في «بلدي» أو في بلد آخر فهذا العمل يمثل

لي حياة لي ولأسرتي.

قلت له: إذا كنت متخوفاً من ردة فعل صاحب أو مدير «الكوفي شوب» ولا تريد إخبارهم بما يحدث لك من بعض «الزبائن» الذين يتحرشون فيك فستظل تعاني منهم، ولن يتغير الأمر بل سيزداد تحرشهم ضدك ضراوة فخنوعك لتحرشاتهم يجعلهم يتمادون ويتجرؤون عليك أكثر، وسيعتبرون سكوتك موافقة ورضا منك، فكما قال المناضل «مارتن لوثر كنغ» (لا أحد يستطيع الركوب على ظهرك ما لم تكن منحنيا..) فبقاؤك خانعا وخائفا من ردة فعلهم أو من ردة فعل صاحب «الكوفي» سيزيد من تحرشاتهم وتطاولهم عليك، فلو رأوا منك حزمًا ضد تصرفاتهم، لخافوا لأن هؤلاء الأشرار يخافون ممن يكون حازما معهم أن يبلغ «الهيئة» أو يحرجهم أمام الآخرين، فاكسر حاجز التردد والخوف الذي يعتريك، وكن رجلا حازما مع من يتحرش فيك لفظيا أو جسديا، وتعامل معهم بردة فعل قوية حازمة وسترى أنهم لن يكرروا ذلك «التحرش» ضدك مرة أخرى.

رد علي قائلا: سأحاول أن أكون حازما، وأحاول كسر حاجز الخوف الداخلي الذي يعتريني، انتهى الحديث بيني وبينه على هذا النحو.

وأثناء خروجي من «الكوفي» ودعته قائلا له: إنني خلال الأسبوعين القادمين لن أحضر «للكوفي شوب» فلا تحجز لي الطاولة، لأنني سأكون مسافرا.

بعد عودتي من السفر ذهبت «للكوفي شوب» قابلني «روبرتو» فرحا مبتسما قائلا لي: كم أنا ممنون لك فقد طبقت نصيحتك، وتخليت عن الخوف الذي كان يحاصرني ويعتريني، وأصبحت حازما مع من يحاول التحرش بي، فأصبحوا يخافون من ردة فعلي ويتجنبون التحرش بي.

رددت عليه قائلا له: «روبرتو» الخوف عندما يعتري الإنسان فإنه يتسبب في قتل كرامته، وإنسانيته، ويحوله إلى إنسان ممتهن الكرامة، فالخوف أشد وطأة وألمًا من الفقر والمرض، وقد قال ذلك «المهاتما غاندي» الأب الروحي للشعب الهندي حينما قال في مذكراته: (إنني لا أخاف على الشعب الهندي من الفقر، أو من المرض أو من الحرب، إنما أخاف عليهم من الخوف..) ، فالخوف مرض نفسي إن لم يتحرر منه الإنسان فسيتحول إلى «فوبيا» مرضية يجب العلاج منه، وإقدامك وكسرك حاجز الخوف، وحماية نفسك، وكرامتك من الامتهان من أهم سمات وصفات الرجولة وصفات الإنسانية.

بعد هذه المصارحة، بدأ يرتاح كل منا للآخر كبشر قد تكون هناك هموم وشجون مشتركة تؤرق مضجع كل واحد منا، وكان هناك العامل المشترك بيني وبين «روبرتو الفلبيني»، فنحن «ضحيتان» كل منا يعيش غربة ويعيش هاجسا وألما.

فهو «روبرتو» مغترب عن وطنه يعاني من تحرش وتعدٍّ على كرامته وإنسانيته، وكل ذنبه أن شكله جميل، فأصبح «ضحية» مجتمع

تولد لديهم صورة نمطية ذهنية فهم يعتقدون أن كل رجل جميل يهتم بشكله في نظرهم «شاذ» منحرف؟!

وأنا كذلك «ضحية» أعيش غريبًا في وطني وبين مجتمعي، أعاني من الوحدة والإقصائية، وكل ذنبي أنني «لقيط» وهناك صورة نمطية عند المجتمع أن كل «لقيط» نتيجة علاقة محرمة ويجب على هذا «اللقيط» أن يخضع لسلطة وقانون الحسب والنسب.

مع تعاقب الأيام بدأت العلاقة بيني وبين «روبرتو» تزداد ثقة ومتانة، وفي لحظات مصارحة وبوح بيني وبينه.

قال: لدي رغبة أن أكون مسلما، لكنّ لدي توجسا وترددا، حيث أن من ينضم إلى دينكم، يجب أن يمارس سلوكيات شكلية قد لا تتناسب مع ثقافتي، فمن يعتنق الإسلام يجب أن يعفي شعر ذقنه، ويقصر ملابسه، ويزهد في الحياة، ويخفي جماله، ويكون «مطوع» وأنا لا تناسبني هذه الشكليات، ولا أريد أن أعفي ذقني أو أفقد جمالي، أو أزهد في الحياة.

قلت له: من نقل لك هذه المعلومات المغلوطة عن الإسلام؟

قال «بعض» الذين أسلم على أيديهم بعض «أبناء» جلدتي، كانوا يأمرونهم بهذه الصفات الشكلية.

قلت: من نقل لهم هذه الصفات الشكلية نقلها بجهل ووفق

فكره المنغلق وتزمته المتأصل في نفسه، فالله لا ينظر للأشكال بقدر ما ينظر للأفعال والأعمال، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، لكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم..)

فالإسلام دين تسامح ويسر، ودين جمال ومحبة، وليس دين كبت وغلو وتشويه لجمال الروح والجسد، ولم يُحرّم الإسلام إلا ما قد يفقد الإنسان عقلة «كالخمر» والمخدرات، وما يفقده كرامته وإنسانيته ويؤثر في سلوكه كالزنا والعبودية والاستبداد والتسلط والظلم والسرقة، وأكل لحم الخنزير، والكذب وغيرها من السلوكيات «الشاذة».

أما من يدعون أن من يُسلم يجب أن يعفي شعر ذقنه، ويقصر ملابسه، ويزهد في الدنيا، فهؤلاء متشددون غلاه، صحيح أن إعفاء شعر الذقن سنه، وتقصير الثوب سنه، لكن ليست من شروط الإسلام.

رد علي قائلا: كلامك منطقي، ومقنع، ولم يوضح لي أحد هذه الأشياء قبل هذه اللحظة غيرك.

قلت له: على كل سأجلب لك بإذن الله المرة القادمة بعض الكتب المترجمة عن الإسلام، أطلع عليها جيدا.

بعد ثلاثة أيام أحضرت له بعض الكتب المترجمة عن الإسلام جلبتها من مكتب «لتوعية الجاليات» سلمته الكتب، وقلت له: عليك قراءتها بتمعن تام، ومن ثم لنا بعد اطلاعك عليها، والاقتناع بها

حديث آخر.

بعد ثلاثة أسابيع تقريبا رد علي قائلا: أريد أن أعتنق الإسلام فقد قرأت الكتب واقتنعت بدينكم.

قلت له: «روبرتو» إن كنت تريد الإسلام مجاملة لي أو لأحد غيري، فلن يقبل الله إسلامك فالنفاق في الدين لا يجوز، لا بد أن تكون مقتنعا تماما، فالإسلام أهم ما فيه النية الصادقة والقناعة التامة، وعدم الرياء، أو المجاملة.

رد قائلا: مقتنع تماما، وجاد في اعتناق الإسلام، قلت له: شيء جميل وعلى بركة الله حدد يوما يناسبك أذهب معك لمكتب «توعية الجاليات» لكي يتولوا أمر إسلامك، قال بتخوف وتردد تقصد بقولك مكتب توعية الجاليات «الشرطة الدينية الهيئة».

قلت:لا..لا أقصد «الهيئة»، إنما أقصد مكتبا مخصصا لتوعية، وتعليم الجاليات طريقة الإسلام الصحيح، قال: أفضل، خشيت أن يكونوا «الشرطة الدينية» الهيئة.

قلت: ولماذا تخشى الهيئة؟ قال: حصل لي معهم تجربة مريرة، فقد كنت في الشهر الثاني من قدومي لبلدكم، وكنت برفقة أحد أبناء جلدتي نتسوق بأحد الأسواق، كنا (أنا وصديقي) نرتدي بناطيل تصل حتى منتصف الساق «برمودا» وسترات «كت» مقصوصة من الكتفين، كان شعري غزيرا، لم تكن لدينا خلفية واضحة عن قوانين بلدكم، ثم

الإذن للصلاة، وأغلقت الأسواق.

جلسنا أمام السوق ننتظر انتهاء الصلاة قابلنا أثناء جلوسنا «ممرضتين» من بلدنا الفلبيين تنتظران انتهاء الصلاة، جلسنا معهما نتجاذب أطراف الحديث، كان ضحكنا عاليا بعض الشيء.

جاءت إلينا سيارة الشرطة الدينية «الهيئة» تحدثوا معنا باللغة العربية، لم نفهم عليهم، ذهبوا وبعد خمس دقائق عادوا لنا مرة أخرى، تحدثوا معنا لكننا لم نلقِ لهم بالا ولم نفهم ماذا يريدون منا فهم لا يتحدثون الإنجليزية، ونحن لا نتحدث العربية، نزل فجأة «مطوع» من السيارة ومعه عسكري، قام «المطوع» بالتحدث معي بفظاظة لم أفهم ماذا يريد مني، بقيت جالسا ولم أتحرك أو أقف له.

قام «المطوع» فجأة بمسك شعري بعنف مما آلمني، دافعت عن نفسي بمسك يده ودفعه، ثارت ثائرته وقبض علي هو والعسكري وزجوا بي بعنف في مؤخرة السيارة، وإغلاق أبوابها علي واصطحابي معهم لمقرعملهم، ثم أدخلوني في غرفة صغيرة بمقرهم بالهيئة، وأغلقوا علي الأبواب، وأخذوا مني إقامتي ومحفظتي وهاتفي المحمول.

وأكمل حديثه قائلا: مكثت عندهم بقسم «الهيئة» ما يقارب «اثنتي عشرة ساعة» قام أحدهم بحلاقة شعري بمكينة حلاقة على «الزيرو» بطريقة مذلة لي، تم استدعاء كفيلي.

وجد كفيلي أنه مدونٌ ضدي في محضر الواقعة الإتهامات التالية

«التسوق في مكان عام بملابس غير لائقه والجلوس مع نساء فلبينيات ليس بينه وبينهم صلة قرابة ومقاومة رجل الهيئة» كانوا يريدون تحويلي لسجن الشرطة، ثم ترحيلي لبلدي، لكن كفيلي استعان ببعض معارفه «كواسطة» وتم أخذ التعهد علي بعدم تكرار ذلك. خرجت مع كفيلي، لكن ما زلت أتذكر بعض المفارقات والتناقضات الغريبة أثناء احتجازي «بالهيئة» فقد كان المترجم الذي كان يترجم بيني وبين مدير الشرطة الدينية «الهيئة» مترجما «فلبينيا» كنت أتحدث معه باللهجة الفلبينية «التقالو» كان ذلك الفلبيني مسلما يتحدث اللغة العربية بطلاقة وعمله في مكتب توعية الجاليات كمترجم تستعين به الهيئة للترجمة عندما تقبض على أحد من الجنسية الفلبينية.

كان «المحقق» يسأله باللغة العربية، وهو يسألني بلغة «التقالو» كنت إذا أعطيته إجابات يحس أنها ستدينني يقوم «المترجم» من تلقاء نفسه بتغيير هذه الإجابات لتكون في صالحي، كان الحديث يدور بيني وبينه دون أن يعرفوا ما هو الحوار الذي يدور بيننا، كان يقول لي «المترجم» عليك أن تتوسل لهم، وتطلب منهم الصفح والعفو عنك حتى لو كان الحق معك ضدهم، فتعنتك لن يفيدك بل عليك أن تبادر بالتوسل لهم حتى لا يأخذ سجنك وقضيتك وقتا أكبر وحتى لا تفقد عملك بترحيلك بحجة مقاومة «الهيئة».

وأضاف قائلا: ما استفزني واستفز «المترجم» أن هناك مكالمة جاءت على هاتف مكتب الشخص الذي يحقق معي، كان مضمون المكالمة كما ترجمها لي «المترجم الفلبيني» أن هناك أشخاص يحملون

الجنسية «الأوروبية» تم القبض عليهم من قبل «الهيئة» وهم مخالفون واتصل من قبضوا على الرجال «الأوروبيين» في الميدان على مدير الهيئة لأخذ رأيه.

قال لهم: خذوا عليهم تعهدًا خطيًّا بالميدان بعدم تكرار المخالفة منهم، ولا تقبضوا عليهم فهؤلاء سفاراتهم تسبب لنا قلقا، ويؤنبون علينا الرأي والإعلام المحلي والعالمي، وسفاراتهم تشوه صورتنا عند الغرب.

نقل لي المترجم ما سمع من حديث، تعجبت أنا والمترجم من هذا التمييز والمجاملة للجالية الأوروبية، ونحن الآسيويين نجر كالأغنام وتمتهن كرامتنا وإنسانيتنا بحلق شعر رؤوسنا لأتفه الأسباب، والأوروبيون يأخذون عليهم تعهدا خطيا في أماكنهم وفك سراحهم مباشرة من نفس الموقع؟!

وأضاف «روبرتو» قائلا: كانت تجربة مريرة ومهينة لي، رغم أن كل ما عملته هو بالنسبة لي في بلدي «الفلبين» شيء مسموح به، فلم أقصد بلبسي استفزاز أحد، وبالنسبة لحديثي مع النساء الفلبينيات فكان كلاما عاديا وعابرا وأمام الجميع، ولم أختلِ بهن أو أتحرش بهن، ولم أقاوم رجل الهيئة إلا «كردة فعل» لشده شعري بعنف ودفاع عن نفسي، ولم أقترف أي سلوك مشين أو مخالفة نظامية.

بعد هذا الموقف بدأت أخشى الشرطة الدينية «الهيئة» وإذا رأيتهم أو رأيت سياراتهم أخاف وأحاول أن أختبئ منهم حتى لو

كنت لم أقترف ذنبا أو خطيئة، فقد كان تعاملهم معي عنيفا وجافا وحلاقتهم لشعري بطريقة مذلة ومخجلة، وأصبحت منذ تلك اللحظة أكرههم وأتحاشاهم.

قلت له: «روبرتوا» الهيئة أو الشرطة الدينية كما تسميها جهاز حكومي يقوم بأعمال نبيلة لحماية المجتمع من الأفعال والتصرفات الشاذة، ومن قام بالقبض عليك وأهانك كما تدعي هو شخص واحد، تصرف معك تصرفا غير إنساني وغير أخلاقي وغير نظامي، لكن علينا أن لا نعمم فعله وسلوكه على كل العاملين بالهيئة ففيهم أشخاص جيدون ومثاليون لكن قدرك أنك كنت ضحية شخص جاهل لم يتصرف معك التصرف الأمثل، وشوّه سمعة الهيئة في نظرك مع أنه تصرف فردي والتصرف الفردي لا يقاس عليه، ولكي أوضح لك أكثر هل من المعقول أو المنطق لو أحد أفراد الشرطة الفلبينية قام بتصرف فردي مشين خارج عن المألوف مع مواطن سعودي، هل من المنطق أو العدل أن نحكم على الشرطة الفلبينية عموما أنهم سيّؤون، كما أنني سأكون معك صريحا من المفترض أن تعرف عادات وضوابط وثقافة البلد الذي تعمل فيه، وتتحاشى ما يثير الناس من لباس ومن تصرفات قد تكون عادية ومستساغة في بلدكم وفي ثقافة مجتمعكم لكنها في بلدنا وفي ثقافة مجتمعنا غير مستساغة وتعتبر خروجا عن النسق الجمعي.

رد علي قائلا: كنت أجهل قوانين وأعراف مجتمعكم، ثم أليس من المنطق احترامي كإنسان حتى لو حدث مني تجاوز؟ وأن تكون هناك أنظمة وشروط تتوفر في رجال «الهيئة» تجعلهم لا يتعدون على إنسانية

وكرامة المخالفين خارج النظام؟!

قلت له: هناك أنظمة وقوانين لكن أحيانا يجتهد «بعض» الأشخاص اجتهادا خاطئا من المنتمين للهيئة أو لأي جهاز رقابي أو أمني آخر ويخالفون الأنظمة بصفتهم الفردية وليس برضى أو قبول الجهة التي ينتمون لها، فالمسؤولون لن يرضوا عن تلك التصرفات الفردية ولن يسمحوا بها.

قال لي: قد يكون كلامك صحيحًا لكن هذا ليس مبررا للتجاوزات، قلت له: معك حق في ذلك.

انتهى الحوار بيني وبين «روبرتو» الفلبيني عند هذا الحد دون أن يقنع أحد منا الآخر، رغم أنني حاولت أن أقنعه أن تصرف رجل الهيئة بحقه ليس إلا تصرفا فرديا، لكن حقيقة تأملت كثيرا لما رواه لي «روبرتو» من تجربته المريرة مع «الهيئة» فكرامة الإنسان مهما كان مذهبه وديانته، ومهما أخطأ، حفظها له الإسلام وقد قال الله تعالى «وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى..»، وقال تعالى أيضا: «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ..»

لكن للأسف، هناك أناس متشددون يعملون في «الهيئة» أساءوا للهيئة وللدين وللوطن وللمجتمع بتشددهم وجلافة تصرفاتهم، فهم لا يملكون الصفات أو السمات التي يجب أن يتحلى بها الداعية أو المرشد، أو المحتسب، فالإنسان مهما كانت جنسيته ومهما كانت ديانته، تأبى

نفسه البشرية التسلط والعنف والفظاظة «فالعنف لا يولد إلا عنفا»، ومشكلة الهيئة أن معايير التوظيف أو الانتساب لها أن يكون الشخص الذي ينتمي لها «ملتزمًا شكلا» دون أن يكون هناك معايير لعلمه أو معرفته بأسلوب الدعوة والتأثير، وطرق الدعوة، وكيف يتعامل مع البشر؟!

إنها مأساة حقيقية عندما يشوه الدين الإسلامي أناس من «أبنائه» كل معاييرهم في الدعوة والتأثير «الالتزام الشكلي»، وهم لا يملكون أدوات ومعايير الإقناع والتأثير الدعوي، وإيصال خصائص الدين الجميلة بشكلها الحقيقي، لا بشكلها المشوه، الذي شوهته أفكار رجعية موغلة في التطرف «والتّزمت» الديني.

لقد قال الكاتب والرحالة «عبدالكريم الجهيمان» تعبيرا منطقيا وواقعيا جميلا عندما قال (نصف نحوي يشوه اللغة، ونصف طبيب يشوه الأبدان، ونصف متدين يشوه الأديان).

أخطاء في حياتي

لا يوجد إنسان فوق وجه الأرض دون أخطاء فمن طبيعة البشر الأخطاء والنسيان، وبصفتي أحد هؤلاء البشر فليس معيبا أن أعترف أن في حياتي «بعض» الأخطاء التي أثّرت بعض الشيء على مسار حياتي، ومن هذه الأخطاء التي أعترف بها ما يلي:

- أعترف أنني كنت في بداية حياتي تصادميا، عنيدا، متطرفاً في قيادة ذاتي، وفي آرائي، حيث كنت وقتها أمارس «شوفينية وسادية» وحقدا ضد المجتمع، كان ذلك نتيجة انعكاس للإقصائية التي مارسها المجتمع ضدي، كذلك فقدي للحب والاحتواء، وقد ذكرت «بعض» المواقف في فصل من فصول هذه «السيرة» التي مارست فيها العنف الجسدي ضد بعض من كان ينافسني في رياضة «التايكندوا والكاراتيه»، وتسبب هذا العنف مني في بعض الإصابات لأشخاص ليس لهم ذنب إلا أنهم من المجتمع، وقد ندمت ندما شديدا على تلك «الشوفينية» والعنف الذي مارسته في لحظات مراهقة «انفلتت» فيها أعصابي نتيجة لردود أفعال نفسية كانت محبوسة داخل أعماقي من جراء حياة الشتات والوحدة الاجتماعية والشعورية التي كنت أعيشها، وأحمد الله أنني أقلعت سريعا عن تلك الأفعال العدوانية وابتعدت عنها، وتسامحت مع نفسي ومع المجتمع وآمنت بواقعي.

- أعترف أنني وضعت ثقتي ومنحت صداقتي لعدة أشخاص

لم يكونوا في مستوى الثقة، ولا يستحقون قدسية الصداقة، فلم تكن صداقتهم معي مبنية على الصداقة الصادقة بل كانوا يهدفون من وراء صداقتهم «البرجماتية» النفعية، إلى الحصول على مكاسب مادية، ومن ثم الانسحاب في منتصف الطريق بعد أن حققوا أهدافهم التي كانت تتعلق بحصولهم على قروض مادية مني، وأعترف أنني كنت ساذجا عندما عاملتهم بحسن نية واعتبرتهم أصدقاء يستحقون مني الوقوف وقت حاجتهم ومنحتهم مبالغ مالية دون أن أحصل منهم على مستندات أو حضور شهود ومنحتهم ذلك «المال» كقرض حسن، حيث كانت ثقتي فيهم لا حدود لها، لكنهم للأسف خانوا تلك الثقة وانسحبوا من حياتي بعد مطالبتي لهم برد تلك المبالغ عندما احتجت لها، كان الأحرى بي أن تبقى تلك المبالغ في حسابي فأنا أحق بها منهم، كان الأحرى بي عدم إقراض ومساعدة أصدقاء مزيفين يستغلون صداقتهم من أجل تحقيق أهداف مادية مبيتة، وللأسف أنه لم يكن لدي مستندات قانونية تلزمهم بدفع ما أقرضتهم فقد كنت واثقا فيهم ولم أسجل عليهم مستندات أو كمبيالات وهذا إهمال مني فقد قال الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ...»، لكن سينصفني الله تعالى منهم يوم لا ظل إلا ظله، وما أقدر أن أقول لهم سوى «حسبي الله ونعم الوكيل».

- أعترف أنني لا أملك موهبة جمع المال وأعترف بفشلي الذريع في جمع المال مع أنني حصلت على الكثير من المال سواء من رواتبي أو مما منحني «الشيخ» المرحوم الذي تبناني وعملت في شركاته من هبة بعد وفاته إلا أنني بعثرت تلك الأموال بدخولي سوق الأسهم

عندما انهارت، ففقدت جزءا كبيرا من هذه الأموال، كذلك فقدت الجزء الآخر بمنحي جزءا من هذه الأموال كقروض لمن لا يستحقون أن أقرضهم، وجزء آخر استهلكته جراء كثرة سفراتي، وفيما أنفقت من شراء كتب وشراء ما يعجبني فقد كنت مغرماً بالتسوق وشراء ما هو حلال ومشروع شراؤه من ملابس أو أثاث أو سيارات أو أجهزة اشتريها دون تردد حتى لو لم أكن في حاجتها، فلدي هوس في حب الشراء والتسوق.

- بعد فوات الأوان اكتشفت أنني كنت مخطئا في ذلك التبذير والهدر المالي، فقد كان من المفترض أن يكون لدي سياسة ادخار شيء من المال للطوارئ فالادخار ظاهرة صحية جميلة، ولا أخفيكم سرا أنني لا أملك الآن إلا سيارتي الخاصة وراتبي، وأثاث منزلي هذا كل ما أملك من حطام الحياة.. لكن مع ذلك لا أطلب إلا العافية والستر، ولن أبقى متشائما نادما على مال ذهب وراح فكما قيل «لا ينفع البكاء على اللبن المسكوب»، فالله قادر على تعويضي، والأهم عندي السمعة الطيبة والصحة والسعادة والتفاؤل.

- أعترف أنني اقترفت خطأ كبيرا عندما تأخرت في الزواج والارتباط بزوجة تكون شريكة روح وشريكة حياة، فقد بقيت أسيرا لقناعات وطموحات شخصية قد لا تحقق لي في المنظور القريب فمن هو مثلي من المفترض أن تكون هناك شريكة تقاسمه حياته كزوجة، وأن يكون الآن يستمتع برؤيته أبناءه في مراحل متعددة من الدراسة يشاركونني حياتي ويبددون عني وحدتي، لكن رغم ذلك ما زلت مؤمناً

أن الزواج قسمة ونصيب ومهما حاولنا أن نخطط للزواج يبقى الزواج شيئا قدريا يتحقق إلا بإرادة من الله، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم.

الوجه الإيجابي والجانب المضيء للمعاناة

يخطئ كثيرا من يعتقد أن كل معاناة ليس لها إلا وجه سلبي مظلم، فأحيانا تكون المعاناة مهما كانت مؤلمة محفزا تخلق إنسانا مميزا وقويا، وكما قيل (الشدائد تصنع الأقوياء)، فقد تعلمت من معاناتي رغم مرارتها أشياء جميلة كانت بمثابة المحفزات والوقود المحرك لي ساهمت في تشكيل ذاتي، وتقوية إرادتي، وعلو همتي وطموحي.

ولا أخفيكم سرا أنني لو عشت وسط محيط أسري واجتماعي فقد لا أصل إلى ما وصلت له، فالاتّكال على الآخرين قد يخلق إنسانا مدللا اتكاليا لا يقدر المسئولية، ولا يؤمن بالمثابرة والطموح، وقد يكون عبئًا ثقيلا على نفسه وعلى غيره..

ورغم مرارة ما عشته من وحدة وشتات إلا أن تلك الوحدة كانت سببا مهما في قيادة ذاتي والاعتماد على نفسي اعتمادا كليا، وهذا الاعتماد خلق عندي اعتزازا بالذات وحبًّا للعمل وللمثابرة والتميز على الأقل أمام نفسي، فالإنسان متى ما كان عنده ثقة طموح ورؤية وأهداف واضحة يريد تحقيقها في حياته فإنه قادر على تحقيقها، وسيتخطى جميع الحواجز والمعوقات التي تواجهه مهما كانت تلك المعوقات كثيرة ومعقدة، فكل المعوقات ستذوب أمام قوة الإرادة ووضوح الهدف وهذا ما رسمته لحياتي، فقد عقدت الأمر على أن أقود نفسي، وأعتمد على

ذاتي بعيدا عن استجداء الآخرين أو طلب العطف والشفقة منهم، فآمنت بوجودي.

وكان علي أن أرسم مستقبلي بنفسي وقد ساعدني الله على اكتشاف ذاتي دون عون من أحد إلا الله، عندها اكتشفت أهمية الاعتماد على الذات، ووصلت إلى قناعة تامة أن المجتمع والأسرة والقبيلة والمحسوبية قد تكون عوامل مساعدة في نجاح وبروز أو توظيف أي شخص لكنها لا يمكن أن تصنع قدرات وعزيمة شخص ناجح ما لم يعتمد الشخص على نفسه، فعندما تعتمد على الآخرين فستتحول إلى شخص هلامي إتكالي، وستكتشف أنك لم تصل للمكانة التي تبوأتها بجهودك وقدراتك بل بجهود وقدرات الآخرين الذين لن ينفعونك عندما تنخرط في معترك الحياة ومعترك العمل، عندما تطبق عليك معايير القدرات التي ستعرّي ضعف قدراتك وضحالة شخصيتك، عندها ستكتشف بأنك ظلمت نفسك وأن قدراتك ستكون محرجة لك، وستنكشف أمام نفسك وأمام الآخرين وتعرف أن المجاملة ضرتك أكثر مما نفعتك، وستخسر الرهان مع الزمن ومع نفسك، ولن تستطيع المواصلة وستكون بمثابة الحصان الخاسر غير المميز، فالخيل المميزة هي من تواصل الركض حتى نهاية المضمار بجهودها وقدراتها وتحملها دون مساعدة من أحد، وقد قيل في الأمثال (من لم يشبع نفسه بيديه فلن يشبع بأيدي الآخرين).

إيجابيات اكتشفتها وتعلمتها من معاناتي

لا أدعي النرجسية أو تمجيد الذات، ولا أدعي أنني مبدع، ولا أدعي المثالية أو الكمال، فأنا مثل كل البشر أخطئ وأصيب، ولا أشك أن هناك أناسًا كثرًا أفضل مني على جميع الأصعدة، لكني أؤمن بالمقولة التي تقول (لكل شيء جانب مضيء وجانب مظلم حتى القمر)، من هذا المنطلق أقر بأن هذه المقولة صحيحة إلى حد بعيد، فبعد خوضي غمار تجربة ومعاناة شخصية مريرة «كلقيط» كانت تجربة مزعجة لي، إلا أنني أعترف أن لمعاناتي جوانب مضيئة رغم المرارة والألم والشتات الذي عشته إلا أنني استفدت من معاناتي أشياء جميلة أثرت إيجابيا في حياتي.

فقد كانت هناك طاقات وقدرات وإمكانيات كانت مكبوتة داخلي، وجعلتني الوحدة أكتشفها، ولو كنت أعيش وسط أسرة ومحيط جمعي فقد لا أجد الوقت لاكتشافها أو صقلها أو تعلمها، فأحيانا تتحول المحنة إلى منحة لمن أراد أن يتعلم دروسا مستفادة من المحن، فمن يملك الطموح، الإرادة، والثقة في النفس لن تقف في طريقه أي ظروف أو عوائق بل أحيانا كثيرة تكون الظروف محفزا للشخص لكي يتحرر من الظروف بالتسلح بالإرادة، والطموح والعلم والمعرفة، واكتشاف الذات، وسيكتشف الجوانب الجمالية بالحياة.

ومن أجمل ما اكتشفت في وحدتي لذة القراءة والكتابة التي

فتنت بها، واستمتعت بلذتها حد الثمالة، كانت القراءة والكتابة بمثابة الصديق الوفي الذي كان محفزا ومساعدا لي في تغيير نمط حياتي (180 درجة) فقد رفعت من معنوياتي، وكانت بالنسبة لي بلسمًا شافيًا خفف عني ملل الوحدة القاتلة، وشتات الوجدان، وأزالت شيئا من ندبات الألم، فأعادت القراءة رسم خريطة حياتي من جديد فشكلت لي مسارات مضيئة وفتحت لي آفاقًا واسعة غيرت من أنماط تفكيري رأسًا على عقب فتحولت من إنسان موغل في التشاؤم والقنوط إلى إنسان مفعم بالتفاؤل والأمل وبفضل القراءة وصلت إلى قناعة تامة أن الحياة لا يمكن أن تختزل في زاوية مظلمة بل فيها زوايا مضيئة لمن رغب أن يكون شخصا إيجابيا في الحياة.

عبر القراءة اكتشفت أن «الكتاب» صديق لن يخونني يوما من الأيام، وسيمنحني هذا الصديق الثراء المعرفي، والغذاء الروحي، والثقة بالنفس، وحب التميز، فكان الكتاب خير صديق ومعين لي، وعرفت جيدا المعنى الحقيقي للبيت القائل (وخير جليس في الزمان كتاب) فقد كان الكتاب حقا صديقا وفيا، وجليسًا لا يمل مني ولا أمل منه مهما طالت علاقتنا، فلم يتذمر أحد منا من الآخر يومًا من الأيام، بل إن القراءة كشفت لي حقائق كانت غائبة عني، فقد كشفت لي القراءة حقيقة وقناعة مهمة أن أسباب تدني وعي المجتمع وإقصائيته، وتناقضاته، وتمسكه بأحادية الفكر والرأي والتوجه كل ذلك سببه أنه مجتمع لا يقرأ ولا يثقف نفسه، فالمجتمع الذي لا يقرأ مجتمع معاق فكريا لديه ضمور معرفي، وتشتت نفسي، وجمود فكري.

كما أن معاناتي كانت سببا في تعلمي فن الكتابة وشغفت بتعلمها بشتى أنواعها، ومع الوقت تحولت الكتابة من هواية إلى متنفس روحي لي فأصبحت مداد قلمي بمثابة نبضات البوح الذي أبث عبرها همومي، وشجوني، وأدون بها أفكاري، وعبرها أسجل أجمل ذكرياتي، فأصبحت الكتابة تمثل لي غذاءا روحيا، وإثراء معرفيا، وقيمة روحية لا تضاهى.

وقد أفادتي القراءة كثيرا باطلاعي على سير العظماء ونجاحاتهم ونضالهم، فقد تأثرت بسيرة المغفور لهما بإذن الله «الملك عبدالعزيز بن سعود موحد المملكة كنموذج مكافح وملك شجاع، وكذلك تأثرت بسيرة ابنه الملك فيصل كنموذج سياسي محنك وكقائد إداري مبدع».

وتأثرت بسيرة المناضل الأمريكي ومحرر العبيد «الزنوج» الأمريكان الدكتور «مارتن لوثر كنغ»، وكذلك المناضل الجنوب أفريقي المحامي والزعيم «نيلسون مانديلا» الذي تم سجنه ما يقارب (27سنة) بسبب نضاله في سبيل تحرير الأفارقة السود من الاستعباد ومنحهم حقوقهم، وبعد خروجه من السجن انتخب رئيسا لدولة جنوب أفريقيا، وتأثرت كذلك بسيرة الثوري والأب الروحي للثورة الهندية ضد الاستعمار البريطاني المناضل الهندي «المهاتما غاندي»، والزعيم البوسني الدكتور والرسام والمناضل «علي عزت بيتوفتش» وسيرة الثوري والمناضل الأرجنتيني «تشي غيفارا» وأحد قادة الثورة الكوبية الذي قتل وهو يحارب في بوليفيا.

قرأت سيرة هؤلاء العظماء بعمق وعرفت أن هؤلاء كان نضالهم سببا في تحرير أناس مهمشين منسيين وسببا في وحدة أوطانهم وشعوبهم.

كما أنني تعلمت أشياء إيجابية كثيرة من معاناتي، منها على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر مايلي:-

- تعلمت من معاناتي أن أسوأ عبودية تواجه الشخص هو أن يكون عبدا لمعاناة معينة أو عندما يكون خانعا أو راضخا للظروف مهما كانت تلك الظروف قاسية، وبحمد الله لم أعِش تلك العبودية لأني حاولت أن أكون قاسيا في محاسبة ذاتي، وجمح شهواتها ورغباتها، والبعد عن الانهزاميين، والمتشائمين، والمحبطين، وأعترف أنها انتابتني لحظات عابرة من الإحباطات، لكنها كانت لحظات وقتية تجاوزتها سريعا بفضل الله ثم بثقتي بنفسي وبذاتي وإيماني بقدراتي، وقسمت قسما مع نفسي أن لا أستكين للإحباط أو للكسل وأن أحاسب وأجلد ذاتي، وأحفز نفسي كلما أحسست بأنني سأستكين أو أخنع للظروف رغم الإحباطات المتعددة التي كنت أخرج منها بعزيمة تكون بمثابة المناعة التي تشكل لي حصانة أحصن بها نفسي في قادم الأيام، كنت أقول لنفسي (لا بد للشمس من السطوع مهما كان ظلام الليل معتما وطويلا).

- تعلمت من معاناتي أن الذل والمهانة ليسا نوعا واحدا بل أنواع متعددة، وأن أسوأ أنواع الذل والمهانة أن تعيش على الهامش لا وجود

لك أمام نفسك وأمام المجتمع تتسول مشاعر وعواطف الآخرين أو أن تكون عالة عليهم وأن لا تعز نفسك بعلم أو بقدرات تحميك من شفقة وعطف الآخرين الذي ترى في نظرتهم وشفقتهم ضعفك ومهانتك.

- تعلمت من معاناتي أن أسوأ هزيمة يمر بها الشخص أن يكون منهزما نفسيا أو مهزوما من الداخل، فعندما تنهزم نفسيا فثق أنها بداية النهاية، والحمد لله أنني لم أنهزم نفسيا، بل كنت أرفع شعار «ليس مهما من أكون، لكن الأهم كيف أكون» لهذا حاولت بكل الطرق المشروعة أن أتغلب على وحدتي وعلى الشتات الروحي الذي أعيشه بالطموح، والمثابرة، والأمل، والثقة بالنفس.

- تعلمت أن هناك شيئًا اسمه التفكير الإيجابي عبره يمكن للإنسان أن يستفيد من قدراته إن هو حرر تفكيره من الأفكار السوداوية ومن الأحقاد والبعد عن تصفية الحسابات عبر العنف والعنف المضاد، وأدركت أنني كنت مخطئا عندما كنت حاقدا وناقما على المجتمع، فجلست مع نفسي جلسة محاسبة ومصارحة لها، سألت نفسي سؤال جوهريا ومنطقيا (ما هو الفرق بيني وبينهم عندما أمارس نفس السلوك ونفس الدور والإقصائية الذي يمارسونه ضدي؟).

- تعلمت معنى قوله تعالى ((أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون..))، وقوله تعالى ((أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم..)) من هذا المنطلق صارحت نفسي كيف أطلب من المجتمع مثاليات وسلوكيات جميلة لا أطبقها على

نفسي أولا، قبل أن أطلب من المجتمع تطبيقها معي.

- تعلمت من معاناتي، أن الحياة فيها زوايا مظلمة، لكن فيها أيضا زوايا مضيئة لمن يبحث عن الزوايا المضيئة، ولم يستسلم للركود والجمود بالزوايا المظلمة، فقد اكتشفت حقيقة ما قاله الشاعر «أيليا أبي ماضي» عندما قال: (أيها الشاكي وما بك داء... كن جميلا ترى الوجود جميلا...) وقد رأيت أن هناك جوانب جميلة في حياتنا لمن يرغب العيش في الضوء في ظل نفسية مليئة بالتفاؤل والأمل.

- تعلمت من تجربتي أن الاعتماد على النفس من أهم الصفات والسمات الذاتية الجميلة التي بدونها الإنسان سيتحول إلى مجرد «روبوت» آلي أو دمية يحركها الآخرون كيفما يشاؤون، وهو مستسلم مسلوب الإرادة، فإدارة الذات والاعتماد على النفس تعطي الإنسان قيمة إنسانية يفتخر بها أمام نفسه وأمام الآخرين، ومن نعم الله علي أنه منحني عشق الاعتماد على النفس وحب الاستقلالية الذاتية، وهذا شيء أفتخر به فلم أكن يوما منقادا أو تابعا لفكر معين أو خاضعًا لتوجهات لا أقتنع بها أو خاضعًا لتوجيهات لا أؤمن بها منطقيا، وفكريا، وفطريا.

- تعلمت أن العقول كالحقول، حقول تزرع بأجود أنواع الثمار وأطيبها، وحقول تزرع بأسوأ أنواع الثمار وأردئها.

- تعلمت أن النجاح والطموح والإبداع لا يعترف بالحسب والنسب أو بالمكانة الاجتماعية فكما ذكر أن هناك مشاهير وعمالقة «مجهولي

الأبوين» كزياد بن أبيه، وكالرسام المشهور برنادوا دافنشي الذي قام برسم لوحة «موناليزا» كذلك أيضا الفيلسوف الهولندي أرازموس، والأديب ألكسندر ديماس الابن.

معاهدة الذات على النضال السلمي

- عاهدت نفسي أن أناضل من أجل زوال التسلط القبلي والإقصاء الجمعي، وأن أثور على هذه «التابوهات» كما ثارت الشعوب العربية على التسلط السياسي في الجمهوريات المتسلطة.

- عاهدت نفسي أن أناضل من أجل إسقاط «التابو الاجتماعي» المسكوت عنه، وسيكون نضالي سلمياً وبسلاح سلمي هو الفكر والقلم والحجة المنطقية وسأحارب الإقصائية الاجتماعية ولن أنحني أو أخضع لها مهما كانت أعاصيرها عنيفة وعاتية، ومهما تعرضت له من تندر وسخرية وجحود.

- عاهدت نفي أن أظل معتزا باستقلاليتي وبإرادة فولاذية كالجبل الشامخ التي تتكسر عليه الأعاصير ويصدها ولا ينحني لها.

- عاهدت نفسي أن لا أغمد قلمي حتى أعري كل التابوهات والأمراض الاجتماعية الخافية في تقاسيم جسد المجتمع، وأن أفضحها وأكشفها لتكون عارية واضحة للعيان دون مساحيق تجميل أو أقنعة مزيفة.

- عاهدت نفسي·أن أرفع شعارًا ثوريا مقدسا ضد كل من يمارس الطبقية والعنصرية والقبلية، وسأبقى ما حييت مناضلا وثوريا ضد

كل تسلط أو عنصرية اجتماعية وسأكون محاربا لكل تمييز عنصري، وأنتقد سلوك وأنماط المجتمع التقليدية ليس من باب الانتقام لنفسي وما مورس ضدي إنما من باب تعرية أمراض وندبات وطقوس اجتماعية آن لها أن تختفي وتزول، ويحل محلها الحب والولاء للوطن والإنسانية وليس الولاء للقبيلة والعصبة أو الحسب والنسب، وسأظل متمسكا بثوابت دينية ووطنية وسأظل مسلما مؤمنا معتدلا ملتزما سلوكا وليس ملتزما شكلا، سأظل مستقلا فكرا وسلوكا ومستقل الرأي لن أتبع لأي تصنيف أو لأي تيار أو لأيدلوجية.

- عاهدت نفسي أن أكون ناصرا ومحاميا لكل المهمشين والمنسيين واليائسين، وأن أخوض نضالاً لا هوادة فيه من أجلهم ومن أجل الانتصار لكرامتهم ولإنسانيتهم.

- عاهدت نفسي أن يكون قلمي وفكري إعصارا يزلزل أركان كل متسلط وكل عنصري وكل إقصائي متطرف ومتغطرس.

- عاهدت نفسي أنه لن يعتريني بعد اليوم خوف من قانون المجتمع أو من «فوبيا» الأحساب والأنساب، وسيكون خوفي من الله وحده.

- عاهدت نفسي أنني لن أعتدي على أحد أو أمارس ظلمًا كظلم المجتمع لي، ومن هم على شاكلتي لكني لن أنحني أو أخضع لقانون المجتمع القمعي والنرجسي، وسأحارب قمعهم وظلمهم بكل الوسائل المشروعة.

-عاهدت نفسي أنني لن أكون من الآن وصاعدا نقطة على هامش المجتمع بل سأسطر بقلمي وفكري وثقتي في نفسي سطرا مميزا وسط صفحة المجتمع مهما كانت هذه الصفحة مقدسة وبعيدة المنال على من هو مثلي.

-عاهدت نفسي أن أؤمن بالإرادة والمثابرة والإيمان بقلمي وبتطلعاتي وسأكون يوما ما موجودا وحاضرا في وسط صفحة المجتمع، وليس هذا بغرور أو نرجسية مني بل ثقة لا حدود لها في قدراتي وبأنني قادر على أن أكون فردا يشكل بقلمه وتطلعاته قبيلة كاملة تقف الضد للضد فإن كان المجتمع يعتزون بحسبهم ونسبهم وفصولهم وفروعهم وهويتهم الاجتماعية، فأنا أعتز بهويتي الوطنية وأعتز بسلوكي وأعتز بفكري، وبتحرري من عقد المجتمع، وأعتز بقلمي، وأعتز بقدراتي، وأعتز باستقلاليتي الذاتية والفكرية، وبما وصلت إليه بفضل من الله ثم بمثابرة وطموح وإرادة لن تنضب يوما ما.

أحلام ما زالت عائمة

أغلب البشر يرسمون لهم أحلاما وأهدافا منها ما هو قابل للتحقق، ومنها ما هو غير قابل للتحقق، فالأحلام الواقعية المتاحة قابلة للتحقق إن كانت هناك إرادة وطموح لتحقيقها، والأحلام غير الواقعية سيكون الجري ورائها كالجري خلف سراب يحسبه الظمآن ماء.

وبصفتي أحد البشر فقد رسمت لي أحلاما وأهدافا منها ما تحقق بفضل من الله، ومنها ما ظل قائمًا لم يكتمل وما زلت أحلم بتحقيق بعض الأحلام التي أتوق لتحقيقها، وقد تتحقق هذه الأحلام وقد لا تتحقق فمسألة تحقيق الأحلام شيء قدري قد يكون وقد لا يكون، وما على الإنسان إلا بذل الأسباب فإن تحققت جميع أحلامه فهذا شيء جميل وإيجابي، وإن لم تتحقق فيكفيه أجر المحاولة «ولا يلام المرء بعد اجتهاده» ولا أخفيكم سرا أن هناك بعض الأحلام التي كنت أتمنى تحقيقها لكنها ما زالت مشاريع قائمة، وبإذن الله تتحقق في قادم الأيام.

ومن هذه الأحلام:

- كنت شغوفا أن أنتسب ككاتب إلى إحدى الصحف الورقية أكتب في الشأن الاجتماعي العام وأتطرق لسلبيات ومواريث جمعية كثيرة

تؤثر في العلاقات الإنسانية وتكون سببا في تمزيق لحمة المجتمع، وهذه السلوكيات ليسن من الدين أو الإنسانية في شيء إنما موروثات وعادات اجتماعية غابرة، كنت أريد التطرق لهذه «التابوهات» والممارسات بالتفصيل، وتأثيراتها سواء على المستوى الفردي، أو على المستوى الجمعي، سواء كان هذا السلوك له تأثير سلبي أو إيجابي، وأن أنتقد هذه السلوكيات نقدا شموليا واقعيا بعيدا عن «الشخصنة» وبعيدا عن التصنيفات الفكرية أو المذهبية أو حب الانتصار للذات.

- كنت آمل أن أعري وأكشف وجوه قصور وسلوكيات وأنماط تقليدية إقصائية يمارسها المجتمع وتحتاج للتشخيص العادل، وتعريتها والتطرق لها ووضع عدة حلول لها لتذوب وتنصهر ويحل محلها التراحم والتلاحم الإنساني والوطني بعيدا عن نمطية الأحساب والأنساب والقبلية والمناطقية، كان هذا حلمًا من أحلامي وكنت أطمح أن يخصص لي عمود أسبوعي أنشر فيه ثقافة التسامح ونبذ الإقصائية والطبقية بشتى أنواعها والتطرق لإفرازاتها التي لها أبعاد سلبية مؤثرة على جميع الأصعدة الدينية، والوطنية، والجمعية، والإنسانية، ورغم أنني خاطبت وراسلت عدة رؤساء تحرير على عناوينهم وإيميلاتهم أطلب منهم الانضمام لجرائدهم ككاتب لكن لم يصلني رد منهم لا أعلم هل وصلهم طلبي ولم يعيروا له اهتمامًا، أم أن الطلب لم يصلهم وحجب عن الوصول لهم من البطانة التي تعمل في مكاتبهم.. الله أعلم..؟!

- ما زلت أحلم أن أساهم في تحقيق مشروع اجتماعي وإنساني

خلاق، يتمثل هذا المشروع في تبني «فكرة أو حملة وطنية» لنشر ثقافة مزج وانصهار المجتمع في بوتقة واحدة متمازجة لا يوجد فيها تصنيف قبلي وغير قبلي أو تصنيف أصل وغير أصل أو تصنيفات إقصائية أو طبقية أو مناطقية، مجتمع يجمع كل أطياف المجتمع تحت مظلة الدين والوطن لا مظلة القبيلة والمنطقة، والفئة، مجتمع تذوب فيه الهوية الاجتماعية، ويحل محلها هوية الوطنية لا تفرق بين أفراد المجتمع الواحد، هذا المشروع هو أهم أحلامي الذي سأحاول أن أبذل قصارى جهدي في إخراج هذا المشروع للعلن، والمساهمة في نشر ثقافته، وتوعية المجتمع أن يؤمن بقدرات الإنسان وفكره وما يقدم للوطن والإنسانية والمجتمع ولا يؤمن بحسبه أو نسبه، قد يكون هذا الحلم في حكم المستحيل أو في حكم التخيل المجنون وغير الواقعي في ظل مجتمع يعتز بخلفياته الاجتماعية حد التقديس والغلو، لكن هذا الحلم بالنسبة لي هدف سأناضل من أجله ما حييت مهما واجهت من معوقات ومن منغصات ومن تحديات.

كلمة ختام

لقد كانت الصفحات الماضية جزءا أول من (سيرتي الذاتية) «كلقيط مجهول الأبوين» سطرتها بمرارة، وآهات، وألم، وجسدت فيها واقعي وواقع من هم مثلي، وما يمارسه المجتمع من تمييز طبقي ضدي (كلقيط) ينظر لي على أنني ثمن خطيئة، وعلي أن أتحمل تكلفة فاتورة لم أصرفها ولم أسعَ في صرفها؟!

لقد طفح الكيل بي أن أكون ضحية لمفهوم واعتقادات خاطئة تأصلت في نفوس المجتمع الذي يرى أن «اللقيط» إنسان لا أصل ولا كرامة له، وللدفاع عن كرامتي المغتصبة، لم أجد أمامي من مخرج إلا نقد وتعرية مفهموم المجتمع ووضع تصرفاتهم غير الإنسانية بحقي «كلقيط» تحت مجهر المكاشفة «وتلسكوب» الصراحة.

قد يقول قائل: من أنت؟ لكي تقيّم وتنتقد سلوك المجتمع، على غرار قول «القذافي» الشهير (من أنتم..؟).

فإن كان «القذافي» احتقر شعبه عندما ثار ضده، وخاطبهم بسؤاله الشهير (من أنتم؟) أيها الجرذان، فلن أستغرب لو خرج أحد قساوسة المجتمع قائلا «من أنتم أيها «اللقطاء؟» لكي ترفعوا أصواتكم ضد استبداد وإقصائية المجتمع لكم، لكني «أجيب على من يقول يستنكر نقدي للمجتمع» إن كانت الشعوب العربية ثارت على الظلم

والاستبداد السياسي، فمن حقي «كلقيط» الثورة ضد الاستبداد والظلم الجمعي، لكن الفرق أن سلاحي سيكون سلاحا سلميا متمثلا في القلم، والكلمة الصادقة، والحجة الدامغة، والشواهد المنطقية الواضحة.

كذلك لن أستغرب، لو تم اتهامي بأنني تمردت على سطوة المجتمع، وخرجت عن عباءة الطاعة والخنوع، وتجنيت على المجتمع، ونظرت له من زاوياه المظلمة، وحكمت على تصرفاته شموليا؟

لكن إجابتي ببساطة على التساؤلات السابقة، أنه ليس من عاش التجربة بكل أبعادها وتبعاتها وتفاصيلها المؤلمة، وتجرع مرارتها التي هي على النفس أمرّ من العلقم، كالذي سمع بها دون معايشتها، فليس من سمع، كمن رأى..

ورغم أنني حاولت أن أنسى أو أتناسى أن أكون «لقيطا» ضائع نسب، حتى لو كنت متماسكا ومتساميا على الآلام النفسية، والندبات المعنوية، وقسوة الواقع، وإقصائية المجتمع، ومهما حاولت التحمل والتسامح سيظل يجسد واقعي البيت القائل «لا تحسبن رقصي بينكم طربا... الطير يرقص مذبوحا من الألم».

من هذا المنطلق أطرح عليكم عدة تساؤلات يجب على المجتمع أن يسألوها لأنفسهم قبل أن يسألوني لماذا ثرت ضد وحشيتهم وتمييزهم الطبقي؟

لا أعلم ماذا يريد المجتمع من شخص يعتبرونه «نبتة» شيطانية،

ويجب اجتثاثها؟

لا أعلم ماذا يريد المجتمع من شخص لا يعترفون به، ويطلقون عليه مسميات دونية تحط من قدره أمام نفسه، وأمام غيره، ويعتبرونه من سقط المتاع؟

لا أعلم ماذا يريد المجتمع من شخص كل ما أراد الاندماج مع المجتمع، أو مصاهرته، أخرج المجتمع ضده كرتا أحمر، وفورمان وقانون اسمه (عدم تكافؤ النسب)؟

بعد تلك التساؤلات الواقعية أجزم أنني لم أظلم المجتمع بل شخصت تصرفاتهم معي، ومع كل (لقيط) فأنا لست ضد المجتمع كأشخاص وكبشر لكنني ضد سلوكياتهم الطبقية والإقصائية التي يمارسونها ضد من لا حسب ولا نسب له وفي عرفهم (أنه ضائع أصل)؟!

هذه حقيقة المجتمع الغائبة أو المغيبة أجسدها أمامكم عارية الجسد تماما دون مساحيق تجملها، أو أقنعة مزيفة تسقط مع أول اختبار حقيقي لها، لتكشف خفايا وعيوب مجتمع طبقي متصحر جاف المشاعر، فقير من الأحاسيس العفوية الصادقة.

ورغم ما مورس ضدي من إقصائية، وجفاف، وتسلط، وفوقية، إلا أنني ما زلت متسامحا مع مجتمعي محب لوطني ولرموزه، أحمل في يدي غصن زيتون لمجتمع ظلمني حد التشفي، ولا يمكن أن أمارس ما مورس ضدي من طبقية، واضطهاد، لسبب هام من وجهة نظري،

وهو أنني لا أريد الانتقام لنفسي ولا أريد أن أكون ردة فعل لأفعالهم الإقصائية البشعة ضدي، وسأظل أحمل حبا ووفاء وتقديرا لوطني الحبيب الذي أكن له ولاء وانتماء لا يوصف، وسأظل أحب مدينتي التي تربيت فيها وعشت فيها جل مراحل عمري، ولها ذكريات ستظل عالقة في الذاكرة مدى العمر.

ولن أنسى كل من أسدى لي معروفا من أناس عددهم لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة من هذا المجتمع، لكن لهم جميل في عنقي كجمال أرواحهم الإنسانية الطاهرة، ولن أنسى ما غمروني به من حب واحتواء وتوجيه فلهم أفضال علي لن أنكرها يوما ما، ولن أنساهم من الدعاء ما حييت.

شكر وتقدير

-أقدم بالغ التقدير وعميق الامتنان «لأرملة وابنة وابن» المرحوم، شاكرا لهم ودهم، وروعة قلوبهم الطاهرة، ومثمناً لهم كل لحظات السعادة التي عشتها بينهم، والتي كانت من أجمل أيام عمري، فقد هزمت في تلك الأيام جميع أحزاني، وجمعت كل شتاتي، وكانت أجمل هدية قدمتها لي الأيام هي معرفة «والدهم» المرحوم، والعيش في كنفهم لحظات مليئة بكل صفات الحب، والود،والتقدير، والاحتواء، وأستميحهم عذرا إن قصرت في حقهم، ولم أواصل معهم بقية الأيام، منسحباً من حياتهم بعد وفاة والدهم «المرحوم» لكنهم بالتأكيد يقدرون أننا في مجتمع لا يمكن أن يقبل أن يعيش بينهم رجل غريب عليهم بعد وفاة والدهم «رحمه الله».

-والشكر موصول «لدار مدارك» للنشر لتوليها وتبنيها طباعة ونشر هذا «الكتاب» وأخص بالشكر الأستاذ الكريم / منصور النقيدان لتفاعله واهتمامه وحرصه على نشر «سيرتي» المتواضعة وتقييمه لها قبل نشرها، فله مني آيات الشكر والتقدير والعرفان.

-كما أشكر القراء الكرام، وأحب أوضح لهم أنه ما زال هناك جزء ثان من «سيرتي» وتفاعل القراء وتقبلهم للجزء الأول من سيرتي هو من يحدد هل أنشر الجزء الثاني أم يبقى أسيرا في صندوق أسراري.

لكم مني فائق الاحترام والتقدير.

سمير محمد

كاتب سعودي.

e-mail: mmooff44@hotmail.com

 @mmooff44

 mmooff44

سعودي ولكن لقيط

رغم ما مورس ضدي من إقصائية، وجفاف، وتسلط، وفوقية، إلا أنني ما زلت متسامحا مع مجتمعي محبا لوطني ولرموزه، أحمل في يدي غصن زيتون لمجتمع ظلمني حد التشفي، ولا يمكن أن أفعل ما مورس ضدي من طبقية، واضطهاد، لسبب هام من وجهة نظري، وهو أنني لا أريد الانتقام لنفسي، وسأظل أحمل حبا ووفاء وتقديرا لوطني الحبيب الذي أكن له ولاء وانتماء لا يوصف، وسأظل أحب مدينتي التي تربيت فيها وعشت فيها جل مراحل عمري، ولها ذكريات ستظل عالقة في الذاكرة مدى العمر...

ISBN 978-9948-425-08-3



